2020
7.1.2020

رواية

كلير مسعود

المرأة في الطابق العلوي

ترجمة إيمان أسعد

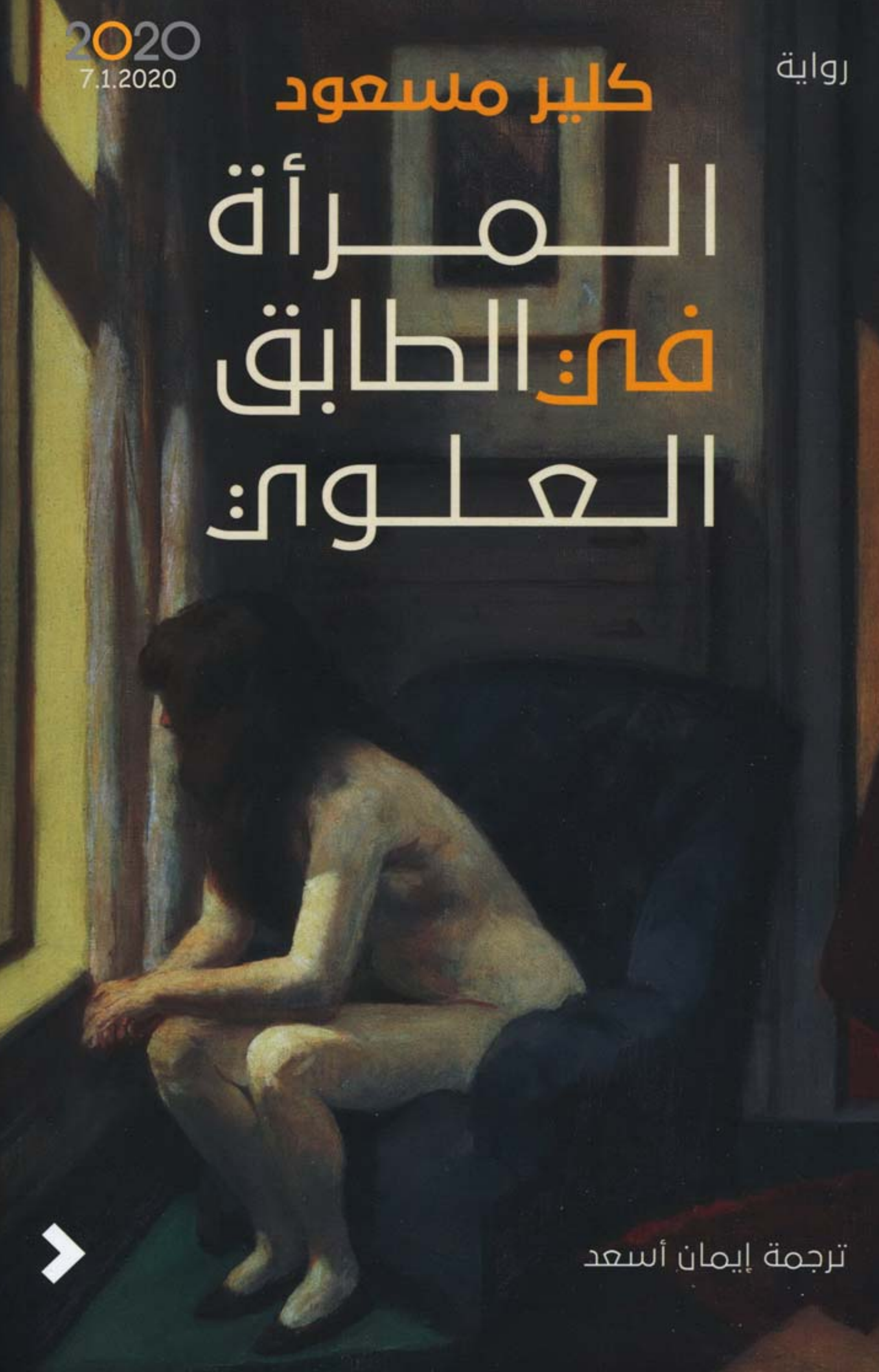

كلير مسعود

المرأة في الطابق العُلويّ

رواية

ترجمة إيمان أسعد

المرأة في الطابق العُلويّ

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

المرأة في الطابق العُلويّ

تأليف: كلير مسعود
ترجمة: إيمان أسعد
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-38-607-0

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني
للإعلام / المرجع: MC-02-01-8552870

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE WOMAN UPSTAIRS
Copyright © 2013, Claire Messud
All rights reserved

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إلى جورج وآن بوشار

ودائمًا وأبدًا إلى جَي. دبليو

"يرى الجميع منك ظاهرك، قلّة وحسب من تراك على حقيقتك"

ميكافيللي، الأمير

"قلةٌ من الناس تفهم الطبيعة الذاتية المحضة للظاهرة التي ندعوها الحب، أو بالأحرى، كيف لها أن تخلق فينا شخصًا جديدًا، ثالثًا، مكملاً، يتمايز عن الشخص الذي يعرفه العالم بذات الاسم، شخصًا معظم مقوِّمات وجوده مستمدّة من ذاته، ذاته العاشقة."

مارسيل بروست، البحث عن الزمن المفقود

"ألا سحقًا للإيديولوجيات النبيلة."

فيليب روث، مسرح السبت

الجزء الأول

1

إلى أي حدٍّ أنا غاضبة؟ أنت لا تريد أن تعرف، لا أحد يريد أن يعرف ذلك.

أنا فتاةٌ صالحة، أنا فتاةٌ لطيفة، أنا متفوقة بامتياز، متزمتة، ابنةٌ بارة، فتاةٌ ناجحة في مهنتها، ولم أخطف يومًا حبيبًا من حبيبته وما تخليت يومًا عن صديقة، وأحتمل ترهات والديّ وترهات أخي، وعلى كلٍّ فأنا ما عدت فتاة، عمري اللعين قد تجاوز الأربعين، وأنا جيدة في عملي ورائعة مع الأطفال وأمسكت بيد أمي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، بعد أربعة أعوام من الإمساك بيدها وهي تذوي على فراش الموت، وأحادث أبي كل يوم على الهاتف - كل يوم لعلمك - وما أحوال الطقس على الضفة المقابلة من النهر حيث أنت، لأن الطقس هنا رماديٌّ جدًا ولثق بعض الشيء، ذاته لديك أيضًا؟ كان من المفترض أن ينقش على شاهد قبري "**فنانة عظيمة**"، لكن إن متُّ اللحظة فسينقش عليه "معلمة/فتاة/صديقة صالحة"؛ وما أريده حقا هو أن أصرخ، كذلك أريد لصراخي أن ينقش على شاهد قبري بالأحرف الكبيرة، **ألا سحقًا لكم جميعًا.**

ألا تشعر كل النسوة بذات الشعور؟ الفرق الوحيد هو مدى إدراك الواحدة منا لشعورها هذا، إلى أي حدٍّ نحن على صلة بالروح

الحانقة فينا. فنحن كلنا أرواحٌ حانقة، عدا تلكُنّ الحمقاوات اللعينات حدّ العمى، وما يقلقني الآن أننا غدونا نغسل أدمغتهنّ وهنّ بعد في المهد، وبذا حتى الذكيات منهن سنصيّرهن حمقاوات لعينات. ما الذي أعنيه؟ أعني طالبات الصف الثاني في ابتدائية آبلتون، وأحيانًا حتى طالبات الصف الأول، ما إن يصلن الصف الثالث عندي، يكنَّ قد تلاشين بالفعل - عقولهن محشوة بالليدي غاغا وكايتي بيري وتدريم الأظافر والملابس الأنيقة ويكترثن أيّما اكتراث إلى تسريحة شعورهن! في الصف الثالث! هنَّ يكترثن لشعورهن وأحذيتهن أكثر مما يكترثن للمجرات واليسروعات والهيروغليفية. كيف لكل ذاك الحديث الثوري في السبعينات أن أفضى بنا إلى هذا: أن تكون إحدانا أنثى يعني أن تدَّعي الغباء وتبدو حسناء؟ حتى أني أرى "كانت فتاة جميلة" نقشًا أسوأ على شاهد قبر من "كانت ابنةً بارة": كلنا اعتدنا أن نعرف ذلك. لكن غدونا اليوم تائهات في عالم المظاهر.

لهذا أنا مستشيطة غضبًا، صدقًا - ليس بسبب أدائي كل تلك المهام وكل ادّعاء اللطف الذي أضطر إليه وكل الواجبات الملقاة على عاتقي كوني امرأة - أو بالأحرى، كوني أنا - لأن ربما هذه هي الأعباء التي نحتملها جميعًا كبشر. أنا مستشيطة غضبًا لأني حاولت جهد أيماني الخروج من قاعة المرايا، هذه الخدعة وهذا الزيف الذي يكتنف العالم، أو عالمي أنا، الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأميركية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. ومن خلف كل مرآة مرآةٌ لعينة أخرى، ونهاية كل رواق رواقٌ آخر، وبيت المرح ما عاد مرِحًا وما كان حتى مرِحًا من الأساس، لكن لا يبدو لي أن هناك بابًا معلقة عليه لافتة مخرج.

أيام طفولتي، اعتدنا كل صيف زيارة بيت المرح، بتكشيرته العريضة على وجهه الجصيّ التي تثير القشعريرة، وجهٌ من طابقين. تعبر المدخل عبر فمه، بين أسنانه الضخمة، على مدى لسانه الزهري الفاقع. وكان يجدر بك أن تعرف ما ينتظرك بمجرد رؤيتك وجهه. كان يفترض به أن يكون عالم لهو وعبث، لكن كان مرعبًا. الأرضيات كانت إما ملتوية أو تميل فجأةً من جانب لآخر، والجدران كانت معقوفة، والغرف كانت مطلية بقصد تشويه منظورك وإرباكك. كانت الأضواء تبرق، الأبواق تزعق، في الأروقة الضيقة المتذبذبة المصفوفة بمرايا تسمن ومرايا تطيل ومرايا تقلب الباطن ظهرًا والرأس عقب. أحيانا كان السقف ينخفض أو الأرضية ترتفع، أو يحدث كلا الأمرين معًا، فأظنّ حينها أنني سوف أُسْحَق كالحشرة. بيت المرح كان أشد رعباً بكثير من البيت المسكون، إذ يكفيني رعبًا أنه كان يفترض بي أن أمرح فيه. كل ما أردته هو العثور على طريقي إلى الخارج. لكن الأبواب المعلمة بلافتة **مخرج** ما كانت إلا مدخل إلى غرف أكثر جنونًا، إلى أروقة متحركة لا نهاية لها. كان هناك سبيلٌ واحد نسلكه عبر بيت المرح، سبيلٌ مرعب حتى آخر خطوة.

الآن وحسب أدركت أن الحياة ذاتها ما هي إلا **بيت المرح**. كل ما تسعى إليه هو بلوغ ذاك الباب الذي يحمل لافتة **مخرج**، الفرار بجلدك إلى حيث **الحياة الواقعية**؛ وليس بيدك أن تعثر عليه أبدًا. لا: دعني أصحح. في الأعوام الماضية كان هناك باب، كانت هناك أبواب، وقد فتحتها وآمنت بها، وآمنت لأمد طويل أني قد تمكنت فعلًا من الخروج إلى **الواقع** – ويا إلهي، كم كان شعورًا عارمًا بالسعادة ومروعًا في آن واحد، كم كان غامرًا: شعورًا مختلفًا تمامًا - إلى أن أدركت

فجأة أني طوال تلك الفترة كنت لا أزال عالقة في بيت المرح. كنت قد خُدِعْت. الباب المعلم بلافتة مخرج، ما كان مخرجًا على الإطلاق.

***

أنا لست بمجنونة. غاضبة، نعم؛ مجنونة، لا. اسمي نورا ماري إلدريدج وأبلغ من العمر اثنين وأربعين عامًا - عمرٍ أشبه ما يكون بمنتصف العمر، أكثر مما هو الحال مع الأربعين أو حتى الحادي والأربعين. لا مسنة ولا شابة، لا سمينة ولا نحيفة، لا طويلة ولا قصيرة، لا شقراء ولا سمراء، لا فاتنة ولا عادية. هناك لحظات أبدو فيها حقا جميلة، هذا هو الإجماع العام على ما أظن، أشبه ببطلات قصص هارليكوين[1] الرومانسية، والتي قرأت الكثير منها في صباي. لست بمتزوجة ولا مطلقة، بل عزباء. أنا ما اعتادوا تسميتها بالعانس، لكن ما عاد الوصف متاحًا الآن، لأنه يوحي وكأنك عجوزٌ ذاوية، ولا واحدة منا تريد أن توصف بذلك.

حتى الصيف الماضي، توليت تعليم الصف الثالث في مدرسة آبلتون الابتدائية في كامبريدج، ماساتشوستس، وربما سأعاود التعليم هناك مرة أخرى، لكني اللحظة لا أدري. ربما، عوضًا عن ذلك، سأشعل النار في العالم. صدقني، قد أفعل.

وليكن بعلمك أن ورغم لساني البذيء، فأنا لا أشتم أمام الأطفال - عدا مرة أو مرتين زلّ لساني وشتيمة انسلت على غير العادة مني، لكن همسًا، وفي ظروف قاهرة. إن كنت تتساءل كيف

---

(1) Harlequin romances سلسلة روايات رومانسية خيالية موجهة للمرأة.

لشخص غاضب مثلي أن يتولى تعليم الصغار، كن متيقنًا أن كلَّ واحد منا قابل لاندلاع نار الغضب فيه، ومنا من هم ميالون أكثر نحو الغضب، لكن حتى تكونِ معلمًا جيدًا، فعليك أن تتحلى بنزر يسير من التحكم بالنفس، وهو ما أملكه. أملك أكثر من النزر اليسير. فهذا ما نشأت عليه.

ثانيًا، أنا لست بامرأة تحت الأرض[2]، أضمر استيائي وأكنز غيظي اتجاه البؤس الذي أوقعه العالم عليّ. أو بالأحرى، ليس الأمر وكأني لست من ناحية ما امرأةً تحت الأرض - إذ ألسنا جميعًا تلك المرأة، من علينا أن نتخلى عن ذواتنا وننحرف عن مسارنا ونقف جانبًا، بلا اعتراف بفضلنا ولا إبداء إعجاب بنا ولا امتنان؟ كثيراتٌ منا هن في العشرين والثلاثين، وفي الأربعين والخمسين نغدو حشودًا ضخمة. لكن يجدر بالعالم أن يفهم، إن كان العالم يكترث لنا أصلًا، أن النساء مثلنا لسن بامرأة تحت الأرض. فلا قبوَ رالف إيليسون[3] يشعّ بمصابيح الإضاءة لنا؛ ولا استعارات دوستويفسكيّة تحت-أرضية متاحة لنا. فنحن دومًا في الطابق العلوي. لا، لسنا بتلك المرأة المجنونة في العلية[4] - التي يتسنى لها اللهو والعبث وجذب الاهتمام، بطريقة أو بأخرى. بل نحن النسوة الهادئات القابعات نهاية رواق

---

(2) إشارة إلى بطل رواية دوستويفسكي (مذكرات قبو) الذي يقرر الانسحاب من المجتمع والتزام قبوه وصب جام غضبه وحقده على من حوله والعيش أسيرًا لمرارته وسخطه.

(3) إشارة إلى رواية "الرجل الخفي" للكاتب الأميركي رالف إيليسون حيث الراوي رجلٌ أسود يسرد من محل إقامته - قبو معلق فيه المئات من مصابيح الإضاءة موصولة بالتيار الكهربائي المسروق من شبكة المدينة - حياته التي قضاها في المجتمع الأمريكي في خفاء اجتماعي.

(4) إشارة إلى شخصية الزوجة الأولى للسيد روشستر في رواية شارلوت برونتي (جين إير) التي كانت مجنونة وحبيسة العلية، وبات من الدارج ثقافيًا الإشارة إليها (بالمرأة في الطابق العلوي).

الطابق الثالث، من متاعهن ونفاياتهن دائمًا مرتبة، من يبتسمن ابتسامات مشرقة في بيت السلم في ترحيب بهيج، ومَنْ، خلف الأبواب المغلقة، لا يصدر عنهن أي صوت. في حياة البؤس الصامت الذي نعيشه، المرأة في الطابق العلوي هي من نحن عليه، سواء كانت لدينا هرة منقطة لعينة أو كلب لابرادور كسل، ومن حولنا لا أحد يعي ولو في لمحة كم نحن حانقات. إلى هذا الحد نحن خفيات، تمامًا. لم أؤمن بذلك من قبل، أو على الأقل لم أؤمن أن هذا هو وضعي أنا، لكني تعلمت أني لا أفرق عنهن في شيء. السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف سأستفيد من الوضع، كيف سيتسنى لي أن أستغل هذا الخفاء، كيف أصيره نارًا مضطرمة.

الحياة هي إقرارك ما المهم في حياتك. هي حلم اليقظة الذي يحدد شكل الواقع. هل سبق وأن سألت نفسك إن كنت تفضل الطيران أو الخفاء؟ على مر الأعوام سألت الناس هذا السؤال، معتقدة أن إجابتهم قد تكشف لي حقيقتهم. أنا محاطة بعالم من الطيارين. الأطفال في الغالب الأعم هم طيارون. المرأة في الطابق العلوي، هي الأخرى تهوى الطيران. بعض الأناس الجشعين يسألون إن كان لهم أن يحظوا بالخيارين؛ وثلة - أراها ثلة المتآمرين الأوغاد، المتعطشين للقوة، المهووسين بالسيطرة - اختارت الخفاء. لكن معظمنا أراد الطيران.

هل تذكر تلك الأحلام؟ ما عادت تراودني، لكنها كانت مبعث بهجة لي في صباي. في مواجهة يأسي - الكلاب النابحة حول عقبيّ، الرجل الغاضب مع قبضته أو هراوته المرفوعة - كل ما كان عليّ فعله أن أصفق ذراعيّ، فأرتفع على مهل، عموديًا للأعلى، مثل هليكوبتر

أو إنسانًا متألّه، من ثم أحلق طليقةً حرّة. سففتُ أسطح المنازل، تجرّعت الريح، ركبت متن التيارات الهوائية وكأنها أمواج، فوق الحقول والسياج، على مدِّ الشاطئ، أعلى كشاكش البحر النيلي. وضياء السماء، متى ما كنت تحلق - هل تذكر ذلك؟ السحب وسائد مضيئة، متراصة ورطبة كلما اخترقتها، ويا إلهي! لحظة التجلي التي تغمرك ما إن تخرج إلى الجانب الآخر. الطيران كان كل شيء، كان كذلك فيما مضى.

لكني وصلت إلى الاستنتاج أن ذاك كان الخيار الخاطئ. لأنك تظن أن العالم ملك يمينك، لكنك في الواقع دائمًا ما تطير هربًا من شيء ما؛ الكلاب حول عقبيك والرجل ذو الهراوة - لن يختفي أحدهم لمجرد أنك ما عدت تراهم. فهؤلاء هم الواقع.

أما بالنسبة إلى الخفاء، فهو يصيّر الأمور أكثر واقعية. تدخل غرفة حيث لا وجود لك، وتسمع ما يقوله الناس، دون التزامهم الحذر؛ تراقب تحركاتهم متى ما لم يكونوا معك. تراهم مجردين من أقنعتهم - أو في أقنعتهم المختلفة، لأنك فجأة قد بات بيدك رؤيتهم في كل مكان. قد يكون من المؤلم معرفة ما يحدث متى ما كنت واقفًا خلف الستار؛ لكن، بحق الرب، لطالما كنت تعرف.

كما ترى، فقد كنت مخطئة كل تلك الأعوام. وكذلك حال معظم الناس من حولي. والآن، بعد إدراكي أني كنت حقًا خفيّة، فعليّ أن أكف حتمًا عن الرغبة في الطيران. عليّ أن أكف عن الاحتياج إلى الطيران. أريد أن أعيد حياتي كلها كرة أخرى من جديد؛ لكني في ذات الوقت لا أريد. أريد أن أخلق من كياني عديم القيمة شيئًا ذا قيمة. إياك أن تظن أن تحقيق ذلك من المستحيل.

2

الحكاية ابتدأت مع الصبي. مع رضا. وحتى حين رأيته آخر مرة - المرة الأخيرة على الإطلاق - هذا الصيف، حين ما عاد ولأعوام عدة الطفل ذاته، بل أقرب إلى شاب يافع، مع التناسب اللامنطقي لكل تقاسيم وجهه، الأنف الطويل، البثرات، الصوت الأجش مستهل البلوغ، حتى حينذاك رأيت فيه المثالية التي لطالما رأيتها فيه. يتوهج في عين خيالي صبيًّا مقدسًا في الثامنة من عمره، طفلاً من حكاية خيالية.

كان قد دخل فصلي متأخرًا، في اليوم الأول من المدرسة، وقورًا وغير واثق، عيناه الرماديتان واسعتان، هدب عينيه الكثيفة ترفرف رغم محاولته الجاهدة السيطرة على نفسه، كي لا يطرف بعينيه، وفوق كل هذا، كي لا يبكي. كل الأطفال الآخرين - من كنت أعرف معظمهم من رؤيتي لهم في ساحة المدرسة العام السابق، بل كنت أعرفهم حتى بالاسم - كانوا قد أتوا باكرًا ومستعدين، مع حقائب كتبهم وعلب غدائهم وأحد الأبوين يلوح لهم من على البوابة، بعضهم مع أثر أحمر شفاه أمهاتهم لا يزال ورديًا على وجناتهم؛ كانوا قد جلسوا على أدراجهم وعرَّفنا عن أنفسنا وأعلن كل واحد منا عن معلومة بارزة تخص قضاء عطلة الصيف (التوأمان تشاستيتي وإيبولينس قضتا شهرين برفقة جدتهما في جامايكا؛ الجدة كانت تربي دجاجًا - معلومة

من نصيب كل طفلة منهما؛ مارك تي. صنع عربة "كارتينغ" وتسابق بها في الحديقة؛ عائلة شيشي تبنت كلب بيجل في الثامنة من عمره يدعى سوبيريور من ملجأ الحيوانات الضالة ["لهُ من العُمر ما لي،" أخبرتنا بكل فخر]؛ وهكذا دواليك)، كنا قد بدأنا وضع قواعد الصف ("لا ضراط"، زعق نواه من جهة الطاولات المتكدسة لدى النافذة، مثيراً ردة الفعل الكونية من صيحات الاستهجان والقهقهة) حين انفتح الباب ودخل رضا.

كنت قد عرفت أصلاً من يكون: فكل من عداه على قائمة الأسماء لدي كان حاضرًا. تردد بادئ الأمر. أخذ يخطو اتجاهي، في صندله المتكلف المغلق عند الأصابع، واطئًا الأرض بقدم أمام الأخرى بكل تؤدة وحذر، وكأنما يخطو على عارضة توازن. لم يبد مثل الأطفال الآخرين - لا أقول هذا بسبب بشرته الزيتية، حاجبيه الضاريين الصغيرين، رسمة شفته، بل لأن ملابسة كانت جدُّ مرتبة، رسمية وأجنبية. كان يرتدي قميصًا بنصفي كم موشى بالمربعات الزرقاء والبيضاء، وبنطال بيرميودا طويلًا من الكتان الكحلي، كوته يدٌ خفية. كان يرتدي جوارب مع صندله. لم يحمل معه حقيبة.

"رضا شاهيد؟"

"كيف عرفتِ؟"

"فلينتبه لي الجميع" - كنت قد أدرته بسرعة من كتفيه كي يواجه الفصل - "هذا آخر طالب جديد سينضم إلى فصلنا. رضا شاهيد. فلنرحب به."

والجميع هتف عاليًا " مرحبًا بك، رضا"؛ وحتى بوقوفي خلفه كان لي أن أتبين محاولته ألا يطرف بعينيه: فروة رأسه مشدودة

للأعلى وطرفا أذنيه تتهزهزان. ومذ تلك اللحظة أحببت قذاله، موج عقصات شعره السوداء المرتبة وغير المستوية ترتطم برفق على مدى رغْن[5] عنقه الناعم الغض.

***

لعلمك، كنت أعرفه. لم أكن أعرف أن اسمه رضا، ولم أتوقع أبدًا أنه سيكون لي، طالبًا في الفصل (E3)، لكن في الأسبوع السابق لدخوله الفصل كنت قد رأيته، حدقت إليه، وحدق هو إليّ، حتى أننا تبادلنا ضحكة، في السوق المركزي. كنت أعاني مع أكياس المشتريات عند بوابة الخروج – فعُروة أحد الأكياس تمزقت، لذلك رحتُ أحمله من أسفله، بينما أقبض على بقية الأكياس باليد الأخرى؛ وكل ما تأتى هو اندلاق تفاحاتي على الأرض. حمراء فاقعة، تساقطت وانتشرت على أرضية الممر وصولاً إلى جهة المقهى لدى النافذة. عدوت خلفها، ظهري محدودب، مخلفة ورائي الكيسين الآخرين وجزداني كلها مبعثرة في منتصف الممر المؤدي للباب. كنت جاثية على ركبتيّ أستعيد آخر تفاحة ضالة من أسفل طاولة، ذراعي اليسرى تقبض بحماقة على أربع تفاحات مضروبات وتضمها قبالة صدري، وإذ بضحكة مشرقة ومجلجلة لفتت انتباهي فرفعت رأسي. وهناك في نهاية مقصورة المقهى رأيت ذاك الطفل الجميل يتسكع، عقص شعره تتراقص شعثاء، بلوزته مصطبغة بقذارة قضائه اليوم في اللعب وببقع الصلصة الدامية للوجبة التي كان يتناولها.

"وما الأمر اللعين الذي تراه مضحكًا؟" لم أستطع كبح نفسي

(5) الرَّغْن: قنة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر.

عن التلفظ بكلمة "اللعين".

"أنتِ،" أجابني، بعد لحظة صمت، ملامح فمه جادة، أما عيناه فمرحتان. كانت لكنته الأجنبية جدُّ واضحة. "أنتِ مضحكة جدًا، في تفاحاتك."

شيءٌ ما في وجهه، وجنتاه المصقولتان كما المعدن مع تورد زهري عليهما، شعره الأسود البريّ وحاجباه وهدب عينيه، حدة الابتهاج في عينيه الرماديتين المرقطتين - دفعني للابتسام رغمًا عني، ألقيت نظرة خلفي نحو طعامي المكدس جانب الباب، ورأيت نفسي كما هو حتماً قد رآني، أتراقص محدودبة على الأرض مثل البابا ياجا[6]. "أظنك محقًا." نهضت واقفة. "أتريد واحدة؟" عرضت عليه التفاحة الأخيرة التي أنقذتها التو من الغبار. غضّن أنفه، ونبح ضحكته المجلجلة القصيرة مرة أخرى.

"غير جيدة الآن."

"لا،" قلت له. "لا أظنها جيدة."

وفي طريقي نحو المخرج، التفتُّ للخلف اتجاه الطاولة حيث يجلس. لم يكن برفقة أمه أو أبيه. كان برفقة حاضنة يافعة، ذات نهدين عارمين، تسدل ذراعها الموشومة - التصميم بدا سلتيًا - خلف ظهر المقعد الطويل. شعرها كان قرمزيًا، وعلى جلد شفتها السفلى لمحتُ وميضًا لما يبدو مثل دبوس أمان. كانت تنتف أوراق الخس متكاسلة، ورقةً ورقة، متأملةً المتجر كأنما تشاهد التلفاز. الصبي كف عن التململ وحدّق إلي، في نظرة حادة وطويلة، لكن بلا تعابير ظاهرة،

---

(6) بابا ياجا – Baba Yaga: كائن في الفولكلور السلافي أشبه بالمرأة العجوز تحلق على هاون عملاق وتخطف الأطفال.

ولدى ابتسامي له، أشاح بنظره بعيدًا. إذن هذا كان رضا.

سرعان ما اتضح أنَّ لغته الإنجليزية كانت ضعيفة حدَّ وقوفها عائقًا أمام تعليمه، لكني لم أقلق بشأنه. ففي تلك الليلة بعد اليوم الأول من المدرسة، تفحصت ملفه وتبين لي أنَّ عنوان بيته يقع في أحد أرقى القطع السكنية الجامعية أسفل الرَّدْب جانب النهر. ما يعني أن أبويه لم يكونا حتى طلبة دراسات عليا بل أعضاء زائرين في هيئة التدريس، أو أصحاب زمالة مهمة من نوع ما. هما، أو على الأقل أحدهما، متمكن من اللغة الإنجليزية، وسيكون قادرًا على مساعدته؛ وسيهتمان بتأمين تلك المساعدة له، كونهما هما أكاديميَيْن، وبذا سيؤمنان الفوز بنصف المعركة. إلى جانب أنه هو الآخر أراد التعلم. منذ اليوم الأول لفتتْني حماسته: ففي تفاعله مع بقية الأطفال، متى ما عجز عن معرفة كلمة أشار إلى الغرض، "ما - ذا؟" من ثم يكرر الإجابة في صوت لكنته الأجنبية الغريبة، في نبرة خشنة بعض الشيء، مرة تلو الأخرى. وإن كانت الكلمة التي يريد معرفتها تعبر عن فكرة تجريدية، حاول تمثيلها، ما دفع بالأطفال الآخرين إلى الضحك، لكن مع ذلك ظل محافظًا على رزانته وما كان لينثني عن إصراره على المعرفة. بفضل نواه، تعلم كلمتي "ضراط"، و"مؤخرة" مع بلوغ وقت الغداء. تدخلت كي أوضح له أن "ردف" و"عجيزة" هما الكلمتان الأكثر تهذيبًا، لكنه عانى مع نطق "عجيزة". بدت منه وكأنما يقول "زيزة،" وفي عيني، كنت قد تأثرت حتى بتلك المحاولة، لأني رأيت كم كان جادًا في بذل جهده.

وها هو السبب الثالث الذي لأجله عرفت أنه سينجح: جاذبيته. لم أكن أنا الوحيدة التي فتنت به: رأيت الفتيات الصغيرات

يفغرن أفواههن ويتهامسن، تنبأت بذوبان قلق الأولاد اتجاهه ما إن يريهم رضا روحه الرياضية، بسالته في الألعاب وتنافسيته المبهجة، كان مثال الولد الذي ستضمه حتمًا إلى فريقك.

وحتى المعلمون: إيستيلا غارسيا، مدرسة العلوم، علقت عليه في الاجتماع الأول للمعلمين. "أتدرين، أحيانًا التمكن من اللغة الإنجليزية في حد ذاته لا يبدو مهمًا. إن كان الطفل شغوفًا كفاية، فسيتسنى له تجاوز ذلك."

اعترضت عليها، وذكرتها بإيليا، الصبي الروسي، ودونغ، من ڤيتنام، ونصف دزّينة من الأطفال الآخرين الذين رأيناهم يغمغمون غارقين في جهلهم بالإنجليزية في المرحلة الابتدائية، ومع أطفال كهؤلاء كل ما يسعك فعله هو إرسالهم إلى المرحلة المتوسطة ويدك على قلبك، خوفًا عليهم أن يعودوا إليك قطاع طرق أو منقطعين عن المدرسة، أو أسوأ. فأحيانًا، هذا هو المصير المحتوم الذي سيلقوْنه.

"لا أظنك ستقلقين هكذا منذ الأسبوع الأول؟ فذاك الصبي يلتقط كل شيء كما الاسفنجة."

"أنا لست قلقة بشأن ذاك الصبي على الإطلاق." قلت لها. "لكنه الاستثناء."

استثنائي. متكيف. حنون. كريم. بالغ الذكاء. سريع البديهة. حلو المعشر. وحس الفكاهة الرائع الذي يتمتع به. يا ترى ما كان المعنى من وراء كيلنا كل هذا المديح له سوى أننا جميعًا قد وقعنا في حبه، أننا إلى درجة ما، قد بهرنا به؟ كان في الثامنة من عمره، مثله مثل أي طفل في الثامنة، بيد أننا جميعنا أردنا الاستحواذ على حق التباهي به. فنحن لم نقل تلك الأمور اللطيفة عن إريك بي، أو دارين،

أو مايلز ذي الوجه الدائري السمين، من تقبع أسفل عينيه دوائر سوداء تبعث في القلب الكآبة كأنما الصبي يعيش في حداد دائم. كل طفل قويّ بطريقته الخاصة، هذا ما نقوله دومًا للأطفال. كلنا نملك مواهب ونعمًا مختلفة. كل واحد منا له أن يأخذ الخيار الصحيح إن بذلنا جهدنا في المحاولة. لكن رضا كشف كذبتنا بعد أن علقت في شباك جاذبيته وجماله.

في الأسبوع الأول، حين أطاح بفرانسواز على ساحة الملعب بغير عمد، في غمرة انفعاله في مباراة كرة قدم مرتجلة، طوّق كتفها المرتجف بذراعه وجلس جانبها على حافة الرصيف إلى أن استعادت رباطة جأشها ورغبتها بمعاودة اللعب. الدموع كانت تترقرق في عينيه: فقد رأيتها. وحين اكتشف أن أرستايد، من قدم أبواه من هايتي، يتحدث الفرنسية، أشرق وجهه وأخذ الولدان يبربران معًا طوال ساعة الغداء، إلى أن اشتكى مارك تي. وإيلاي من شعورهما بالإقصاء؛ لدى علمه بالشكوى، أومأ بإحساس بالواجب، أغلق عينيه للحظة وعاد إلى الإنجليزية المكسرة، الوسط اللغوي المعيب. لم أضطر حتى إلى طلب ذلك منه؛ ومذ ذاك اليوم، هو وأرستايد ما كانا ليتحدثا بالفرنسية إلا بعد انقضاء اليوم الدراسي، في طريقهما خارجَين إلى الباب. ومرةً، بداية العام الدراسي، استعسر الأطفال فترة بعد الظهيرة وغدوا صعبي المراس - كان المطر ينهمر؛ وقد حبسوا في الفصل طوال اليوم، والسماء في الخارج كانت جدُّ قاتمة فانغمرنا لساعات في إضاءة الفلورسنت - كانت حصة المادة الفنية - الحصة المفترض بها أن تكون المفضلة لدي، لأني أنا، أو من يفترض بي أن أكون، فنانة - فخطرت للأولاد فكرة جهنمية، أن يبُخّوا ألوان الطلاء المائية من

قنانيها البلاستيكية، بخوها أولاً على أوراقهم، لكن مع مُضِيّ الوقت لاحظت أنهم راحوا يبخّون على الأثاث، والأرضية، وعلى بعضهم - حينها، رغم قدرتي البالغة والمشهود لها على ضبط أعصابي، رفعت صوتي في نوبة صراخ مفاجئة أعلنت فيها خيبة أملي الكبيرة. في ذاك اليوم، لدى نهاية اليوم الدراسي، بعد ساعة كاملة مما حدث، وقف رضا عند مكتبي ووضع يده الصغيرة على ساعدي، رقيقةً كانت كما ورقة الشجر.

"أنا آسف، آنسة إلدريدج،" قال لي، "انا آسف على الفوضى التي سببناها. آسف أنك غاضبة."

حاضنته كانت تحوم في البهو، الدبوس على شفتها يلمع. لولا وجودها لربما عانقته: فقد بدا، للحظة، وكأنما هو طفلي أنا.

***

الأطفال. أنا والأطفال. الأطفال وأنا. كيف لي، من بين كل الناس، أن غدوت المعلمة المفضلة في الصف الثالث لمدرسة آبلتون الابتدائية؟ آبريل واتس، من تتولى الفصل الآخر، تبدو وكأنها معلمة من رواية ڤكتورية: فشعرها يبدو مثل غزل بنات بني، تلفه بوشاح متأنق شفاف حول رأسها، تضع نظارة ذات عدسات غليظة كما قاع القناني، تحدق عبرها بنظرتها المبهمة، عيناها الزرقاوان تتضخمان وتُحرَّفان كما السمك في الحوض الزجاجي. مع كونها في أوائل الخمسين وحسب من عمرها، فهي ترتدي جوربين ضاغطين لأجل الدوالي، كذلك، فتلك الشبح المسكين، لا تملك أي حس فكاهة على الإطلاق. وتفضيلي عليها لم يأت بداع الشعر أو النظارات أو عروق

الدوالي، بل بداعي هذه الخصلة الأخيرة. فمعروفٌ عني - ولا أقولها بفخر - بأني أضحك بشدة حدَّ وقوعي عن الكرسي، وهو ما يعوِّض على ما يبدو نوبات انفعالي المفاجئ. أي فلنقل أنَّ عواطفي بكامل مداها، من أقصاها إلى أقصاها، يسهل على الأطفال إدراكها، وهو ما يبدو لي منطقيًا من وجهة نظر بيداغوجية[7].

كم كان إطراءً بالغًا وضربة قاصمة حين قال لي أحد الآباء، قبل عدة أعوام، بأني التجسيد المثالي لمفهومه عن المعلم. " أنت طفل غيربر[8] بالنسبة للمعلمين" ذاك كان تحديدًا ما قاله. "أنت المثال."

"وما الذي تعنيه بذلك، روس؟" سألته مع ابتسامة كبيرة، زائفة. كانت نزهة نهاية العام الدراسي، ثلاثة أو أربعة من أولياء الأمور تجمعوا حولي في الساحة تحت الشمس الحارقة، متشبثين بقناني الليمونادة البلاستيكية المنمنمة، يمسحون اللطخ عن ذقونهم أو ذقون أطفالهم بمناديلهم المبقعة بالكاتشاب. شطائر الهوت دوغ وشطائر الهوت دوغ النباتي من التوفو كلها كانت قد نفدت.

"أوه، أفهم ما يعنيه،" قالت لي والدة بريانا، جاكي. "ما يعنيه أننا حين كنا صغارًا، أردنا معلمة مثلك. متحمسة، لكن صارمة. دائماً تأتي بأفكار جديدة. معلمة تدرك طبيعة الأطفال."

"هل هذا ما كنت تعنيه، روس؟"

"ربما، ليس تمامًا ما كنت أعنيه." وقد تفاجأت لإدراكي لحظتها بأنه قصد بكلامه هذا أن يغازلني. الآباء في مدرسة آبلتون نادرًا ما

(7) بيداغوجيا: علم أصول التدريس.

(8) جيربر – Gerber: إشارة إلى صورة الطفل على منتجات شركة جيربر لصناعات المواد الغذائية ومستلزمات الأطفال.

يغازلون. "لكن المعنى قريب. كنت أعني إطراءك بما قلت."

"إذن، شكرًا لك."

دائمًا ما أتقصى المعنى الحقيقي لما يقوله الناس. فحين يقولون لي أني "أدرك" الأطفال، يساورني القلق إن كان ما يعنونه حقيقةً هو أني لا أبدو لهم مكتملة الرشد. زوج صديقة لي، بروفيسور، كان قد شبه الأطفال بالمخابيل. ودائماً ما أتفكر في ذلك. يقول بأن الأطفال يعيشون على حافة الجنون، أنَّ تصرفاتهم، والتي كما يبدو تفتقر للدافع، تماثل في خصائصها منطق الأحلام لدى الناس المجانين. أنا أدرك ما يعنيه، ولأني تعلمت التزام الصبر مع الأطفال، العمل على حثِّ المنطق الكامن لديهم على الظهور، ومن ثم ترسيخه فيهم قاعدةً لا تقبل الجدل متى ما شرحته لهم، فقد استوعبت أنَّ البالغين، عقلاء كانوا أم مجانين، يستحقون منا ذات الاحترام الذي نبديه للأطفال. بهذا المعنى، فلا أحد مجنونٌ حقًا، هو شخصٌ لا أحد يفهمه وحسب. لذا حين تقول لي والدة بريانا أني أدرك الأطفال، جزءٌ مني ينتفخ زهوًا كما الطاووس، لكن الجزء الآخر يظنها تصفني بالمجنونة. أو أنها، على الأقل، تفصلني عن قبيلة الناس مكتملي الرشد. وبذا، فكلامها هذا سيفسر - إن ليس لي فلشخص آخر، رؤيوي مسؤول عن إبداء الشروحات - لم لا أملك أطفالاً من صلبي.

***

إن سألتني، لدى تخرجي من المدرسة الثانوية، أين سأكون في الأربعين من عمري - فلا ريب أن أحدهم قد سألني آنذاك؟ إذ دائمًا هناك صورة ندسها في كتاب التخرج السنوي الذي سيضيع بعد

أعوام، صورة ترسم لنا ملامح خطتنا لحياتنا القادمة - لكنتُ رسمت لك صورةً سعيدة للفنانة في سمْقها تعمل في محترفها الطلق المشرق، أطفالي - عدة أطفال، أعمارهم تتراوح بين الخامسة، السابعة، والتاسعة - يمرحون في الحديقة الخضراء المغمورة بقطرات الشمس، وحتمًا سيكون هناك كلب أو كلبان، ضخام الحجم. ما كنت سأقدر على إعطائك وصفًا لما سيكون عليه مصدر دخلي الذي منه سأحقق رؤيتي هذه، ولا سردًا عن الأب الذي من المفترض أن أنجب منه الأطفال: فالرجال بدوا لي، في ذاك المفترق، وجودًا عرضياً بالنسبة لأمور الحياة. ولا الأطفال كانوا سيتطلبون وجود حاضنة لديهم بأي صورة كانت: فبفعل أعجوبة ما سيلعبون مرحين دون مشاحنات، ولن تراودهم الرغبة حتى في مقاطعة الفنانة في عملها، بل سينتظرون إلى أن تصبح جاهزة لهم؛ ومن بعدها يتوجه الجميع إلى قضاء النزهة الإجبارية المبهجة تحت الشجر. لا مال، لا رجل، لا مساعدة - ومع ذلك فقد تضمنت الصورة كل ما هو ضروري: الضوء، العمل، الحديقة، وبشكل أساسي، الأطفال. إن سألتني حينها أن أغربل حلم يقظتي، قصَّ كل ما أراه زائدًا قابلاً للاستغناء، لكنت قصصت النزهة، الكلاب، الحديقة، وتحت الإكراه، المحترف. فطاولة مطبخ ستفي بالحاجة لعملي الفني، إن اضطررت، أو العلية، أو المرآب. لكن الفن والأطفال - ما كانا قابلين للتفاوض.

أنا لست حرفيًا غير فنانة، ولا حرفيًا بلا أطفال. كل ما هنالك أني تمكنت من استنباط وسيلة أدبر فيها أمور حياتي، وسيلة بائسة أو ناجعة اعتمادًا على وجهة نظرك. فأنا أترك الأطفال نهاية العام الدراسي؛ وأعمل على فني - لا حاجة لي باستخدام طاولة المطبخ،

فلدي غرفة نوم كاملة، مع نافذتين حتى، مخصصة لعملي - حيث أقضي المساءات ونهايات الأسبوع. أدري، الوضع ليس بالمثالي؛ لكن يظل خيرًا من لا شيء. وفي عام سيرينا، حين شاركتها استخدام المحترف الطلق المشرق، حين لم أطق الانتظار حتى أصل هناك، الدم في عروقي يفور من شدة الحماس، آنذاك كان الوضع مثاليًا.

***

لطالما ظننت أني سأتقدم أكثر في الحياة. وكم أود إلقاء اللوم على العالم لما فشلت أنا في تحقيقه، لكن الفشل - الفشل الذي يغمرني أحيانًا أمواجًا من الغضب، غضبًا عارمًا يدفعني للبصق - هو في النهاية، وبالكامل، خطئي أنا. من صيَّر العوائق أمامي عصيّة على التجاوز، من دفع بي للقبول بالحياة العادية، هو أنا، أنا ولا أحد غيري. فعلى مدى زمن طويل، دهر أبديّ، ظننت أني قوية بما فيه الكفاية - أو لعلني أسأت فهم ما تعنيه القوة. كنت أظن أنَّ بيدي بلوغ العظمة، عظمتي أنا، بالكدح المتواصل، بتنظيف كل فوضى تقع في الطريق، تمامًا كما يعلمونك تناول البازلاء الخضراء كلها قبل أن يحق لك تناول الحلوى. لكن تبين أن تلك القاعدة هي للفتيات والمخنثين، لأن أكداس البازلاء تتكوم وتتكوم بحجم جبل إفريست، وطبق الآيس كريم في نهاية المائدة يذوب شيئًا فشيئًا مع كل ثانية تمر عليك. وعاجلاً ستنقض عليها حشود النمل. من ثم سيأتون ويخلون المائدة بكل أطباقها. يا لها من غطرسة، ظني بأن بيدي أن أكون إنسانًا مهذبًا، فردًا قيمًا في العائلة والمجتمع، وسأظل مع ذلك أملك القدرة على الإبداع! من غير المعقول. إلى أي درجة ظننتني قوية؟

لا، فقد بات جليًا لي الآن أن القوة الحقيقية كانت تكمن طوال تلك المدة في القدرة على قول "اغرب عن وجهي" للجميع، تدير ظهرك لمعاناة كل من حولك وتتفكر، دون أي كدر، في تحقيق رغباتك ومنحها الأولوية على كل ما عداها. الرجال حظوا بأجيال من الممارسة. تعلموا إنجاب ذريتهم من الأطفال وترك شؤون تربيتهم في عهدة غيرهم، استرضاء أمهاتهم باتصال بعيد وحسب، إصرارهم، بهدوء واتزان من يصر أن الشمس في كبد السماء، أن أي ترتيب آخر لحياتهم لهو ضربٌ من ضروب الجنون، أن عملهم، من بين كل شؤون حياتهم، هو ما يحظى بالأولوية - الأولوية المطلقة - في التنفيذ. مع قوة كهذه، فرؤيتك اليافعة للمستقبل في مستهل شبابك لن تتضمن كلابًا، ولا حدائق، ولا نزهات، ولا أطفال، ولا حتى سماء: بل رؤية تركز على شيء واحد وحسب، سواء كان ذاك الشيء هو المال، السلطة، أو فرشاة رسم ولوحة. ففي واقع الأمر، الفشل يكمن في الرؤية ذاتها، وأي شخص بنصف عقل كان سيرى ذلك. انحسار البصر، هذا ما يتطلبه الأمر. أن ترى كل شيء آخر - كل من عداك - قابلاً للاستغناء، أقل قيمةً منك.

مثلي مثل الأطفال: دوافعي ومنطقي ليسا دائمًا بالأمرين الواضحين. لكن إن تركتني أفسر وحسب، فكل الأمور ستتضح لديك؛ وربما تفسيري هذا سيثبت لك مدى عظمتي، مهما وجدتَ عظمتي ضئيلة. أن أبوح لك بما أعرف، وكيف شعرت به، بقدر استطاعتي. إن تركتني أفعل ذلك، من يدري، لربما سترى نفسك تتعرى على حقيقتها أمام عينيك.

3

فلنعد إلى البداية إذن، لكن باختصار. ولدت في عائلة عادية في بلدة تقع على بعد ساعة أعلى ساحل بوسطن، بلدة تدعى (مانشستر-على-البحر). حجر عقد الستينات بالكاد حرك المياه الراكدة في تلك الأنحاء، في نهاية خط مواصلات بوسطن. لا بد وأن شاطئنا المثالي - كان يدعى (بالشاطئ الشادي) نسبة إلى رماله الصافية الفاتحة الموسيقية، ولعله اكتسب ذاك الاسم أيضًا بداعي شهرته الواسعة والتغني فيه - هو من هيأني لاعتناق أوهامي عن العظمة. فمن المنطقي أنك إن وقفت كل يوم في قلب هلال ساحلي مثالي، مع الأفق يمتد أمام عينيك إلى اللانهائية، فسترى الاحتمالات أمامك مفتوحة على المدى بصورة تختلف عن شخص ترعرع في واد ظليل أو بين خوانق مدينة كبيرة.

أو ربما، وهو الاحتمال الأرجح، فأمي هي من هيأتني لاعتناق تلك الأوهام، ضاريةً غريبة ومحتومًا عليها بالفشل. كان لي أمٌ وأب، وأخٌ كبير - بيد أنه أكبر مني بثمانية أعوام، لذا بالكاد بدونا من عائلة واحدة: فما إن بلغت التاسعة من عمري، كان قد رحل - وقطٌ ذبلي، زبير، وكلبٌ رث من الملجأ اسمه سبوتنيك، بدا مثل شعر مستعار من الأسمال البالية على أربع عصيّ: فقوائمه كانت عجفاء حدًّ تعجبنا من كونها لم تنقصم. أبي عمل في شركة تأمين في بوسطن - كان يستقل القطار كل صباح، رحلة الساعة 7:52 - وواصل عمله هناك بكل احترام لكن على ما يبدو ليس بنجاح كبير، فلم أر والديّ يومًا

ينفقان المال في بحبوحة.

أمي بقيت في البيت تدخن السجائر وتحبك مشاريعها الوهمية. على مدى فترة عملت في اختبار وصفات كتاب طبخ لدى ناشر. كانت قد نالت أجرًا على ذلك، ولأشهر أطعمتنا ولائم معقدة من ثلاث أو أربع وجبات، وجبات تضمنت صلصات ممزوجة بالبيض، وكثيرًا منها، كما أذكر، ممزوجة بنبيذ مارسالا. لفترة وجيزة ومذلة لي، تصوّرت نفسها مصممة أزياء، وقضت أشهر عدة على ماكينة الخياطة في الغرفة الإضافية منتشية في سحابة من التبغ (عادةً ما كانت تقبض على سيجارتها بين شفتيها بينما تدرز؛ ولطالما قلقت من أن رمادها سيتساقط على النسيج). تصاميمها جاءت غير مألوفة لكن ليس بما فيه الكفاية. كانت قد خاطت أثوابًا قصيرة من نسيج البيزلي للفتيات في مقاسي، والتي للوهلة الأولى، ما كانت لتبدو متباينة عن تلك الموجودة في محال التجزئة ("تعالي هنا، بونبوني"، كذا كانت تنادي عليّ، تحمل ورق البترون الشفاف وتضعه قبالة صدري اليافع، وبمقصها الكبير تشذب الورق بغير إتقان، قيد شعرة من خصري، أو عنقي)؛ لكنك كنت سترى لاحقًا أنها قد قصّت الجزء الأوسط من الجذع وذيلت أطراف الكوة بالكشكش، كاشفة بطن الفتاة الأبيض يلوح للعيان؛ أو أنها قد وصلت الكمين بالثوب لا بالدرز بل بشرائط هوجاء، حلقة من عقد الفراشة المخضبة بالألوان، والتي سرعان ما ستغدو مهلهلة ذاوية بعد الغسلة الأولى. وعلى هذا النمط البهيج غير العملي، خاطت أمي على الأقل دزّينتين من تلك الملابس، في تصاميم مختلفة، صيف كنت في التاسعة، من ثم نصبت لها كشكًا كي تسوق لها في معرض البلدة المجاورة.

كنت قد رفضت الجلوس معها هناك، على مرأىً من الجميع، في ذاك السبت الساطع من شهر يوليو، عوضًا عن ذلك رافقت أبي في جولات مهامه المضجرة - المصبغة، متجر الخمور، متجر الخرداوات - أكبت غيظي في السيارة الخانقة لكن في ذات الآن أشعر بارتياح لا حدَّ له كوني لم أخاطر بوجود رفاقي من المدرسة في المعرض ورؤيتهم لي جالسة جانب أمي تحت لافتتها الشنيعة المصنوعة يدويًا. فأمي كانت مبعث إحراجي المحبوب.

كانت قد باعت عدة قطع، لكن من الواضح أنها شعرت بأن التجربة لم تكن ناجحة بالشكل المرضي، وهكذا أودعت حقيبة الملابس، دون أن تُفرَّغ، في العلية. وقبل أن يمضي وقتٌ طويل، لحقت بها ماكينة الخياطة مهاجرة للأعلى، ودخلت أمي طورًا من أطوارها المظلمة، في انتظار لحظة يوريكا جديدة تتفتق عن ذهنها.

بالتأكيد أمي، على عكس أبي، هي من غرست فيّ الإحساس بأن التحلي بالعفوية أمرٌ جوهري - " ألا تكون مثل جارك: هذا أهمُّ شيء." كذا اعتادت أن تقول - وبسبب ذلك، بسبب الحماس المتقد الذي أظهرته في مشاريعها، فقد استلزمني الأمر أمدًا طويلاً كي أدرك أنها هي الأخرى، كانت حذرة وبورجوازية، مذعورة من المجهول وغير واثقة من نفسها حدَّ عجزها عن ترك أي أثر لها في الحياة. فعدا ذلك، بم أفسر عزمها على البقاء زوجةً للاعتيادية، لأبي، لسنن الحياة الروتينية الثابتة لبلدة (مانشستر-على-البحر)؟

كما أنه يفسر الكثير من الأمور عن نفسي، عن محدودية تجربتي، عن واقع البون الشاسع بين الشخص الذي أنا عليه في عقلي والشخص الذي أنا عليه في العالم. لا أحد كان سيعرفني من وصفي

الذاتي لنفسي؛ ولهذا، فكلما طُلِب مني (نادرًا، أقر لك بهذا) أن أعرِّف عن نفسي، أعمد إلى التعديل، التحريف، التكييف، محاولةً رسم خطوط عريضة عني، تتلازم بطريقة ما مع الخطوط العريضة التي يظن الناس أنهم يعرفونها عني - تلك الخطوط التي أعتقد، لا بل في الواقع، قد بتُّ أتصف بها الآن. أما الشخص الذي أنا عليه في عقلي، فقلة قليلة من الناس يتسنى لها رؤيتها. أي تقريبًا لا أحد. وأعظم هدية لي أن أهبها إياها، أن أفتح الباب لها كي تخرج من مخبئها. لكن كيف، وقد تعلمت أن من الخطأ كشف أي شيء منها.

وهكذا، من رحم عائلتنا العادية في بيتنا العادي، ذي المدخل الرئيس المشيد على الطراز الاستعماري، حيث أصائص شتلات إبرة الراعي على الشرفة الحجرية والوشيع الساحر من أشجار الطقسوس تلثم النوافذ، شققت طريقي خارجةً إلى العالم العادي، إلى المدرسة الابتدائية المحلية، المدرسة المتوسطة المحلية، المدرسة الثانوية المحلية. كنت محبوبة كفاية، محبوبةً من البنات بشكل عام، وحتى محبوبة، متى ما لاحظني أحدهم، من الفتيان، وإن ليس بشكل رومانسي. كنت مضحكة - بداعي حس فكاهتي، لا بداعي غرابة الأطوار. كنت عملة متداولة، مثل السنتات: مبتذلة، كادحة بعض الشيء، لكن تظل عملة. كنت هزلية بصحبة الناس، وغالبًا على حسابي.

التعليم كان مختلفًا آنذاك، وكنت متفوقة فيه، لذا تمكنت من تخطي الصف التاسع، وارتقيت مباشرة من الصف الثامن إلى الصف العاشر، الأمر الذي كان صعبًا عليّ بعض الشيء من الناحية الاجتماعية وحتم عليَّ أن أكون وللأبد طالبة مريعة في الرياضيات - إذ لم أتعلم قط المعادلة التربيعية، وغيرها من المعلومات المهمة في مادة

الرياضيات للصف التاسع؛ كذلك فاتتني مقالات المواعدة المبكرة وحصص التوجيه حول حفلات الرقص المدرسية. ومع ذلك، فآنذاك، لم أشعر بأي إحراج لأيٍّ من هذا: لم أشعر بالإحراج كونهم قذفوني، فإما أسبح أو أغرق، في لجة السنة الثانية من المرحلة الثانوية، بلا حتى خريطة تدلني على المقصف أو كتاب إرشادي حول طبيعة تكتل الطلاب في زمر، ولا حتى قائمة بأسماء زملائي الجدد في الفصل، من كانوا جميعًا على معرفة مسبقة ببعضهم البعض، وبعضهم تعرف عليّ كوني صديقة أختهم الصغيرة. لا، بل كنت فخورة، لأني عرفت أن أبويّ فخوران، لأن ما جرى لي كان ارتقاءً، لحظة تجلٍّ عن واقع تميزي. كنت قد شككت في الأمر لأمد طويل، لكني أدركت حينها يقينًا: أن العظمة مقدَّرةٌ لي.

إن كنتَ فتاة، فلن تكشف أبدًا عن فخرك، أو تفوقك في التاريخ، الأحياء، أو الفرنسية على الفتاة الجالسة جانبك والتي تكبرك بثمانية عشر شهرًا. بل ستنهمر في كيل المديح لها على روعتها في طلاء أظافرها أو أسلوب حديثها مع الفتيان، وتقلب عينيك تضامنًا مع مبالغتها في تقدير صعوبة امتحان التاريخ/الأحياء/الفرنسية قائلًا: "يا إلهي، كم سيكون صعباً! يا لها من مصيبة! كم أنا خائفة!" وستحبط نفسك بنفسك كلما أتيحت لك الفرصة كي لا يشعر الناس من حولك بالتهديد منك، كي يعجبوا بك، لأنك لا تريد لهم أن يعرفوا أنَّ في صميم قلبك، أنت فخور، وربما حتى متغطرس، تمزقك الأفكار التي تراودك والتي إن كشف عنها الحجاب فسيتجلى للجميع أنك في الحقيقة **شخصٌ غير لطيف**. ستتعلم أسلوبًا مهذبًا آخر في الحديث إلى الناس ممن يجب ألا يروك بوضوح، وأنت ستعرف - فالآخرون

سيقولونها لك - كم يرونك لطيفًا جدًا، وستشعر بلذة الانتصار: " نعم، أنا بارعة في التاريخ/الأحياء/الفرنسية، وأنا بارعة في هذا أيضًا." ولن يخطر لك أبدًا، أنك بصنعك المتقن للقناع، سيلتصق بجلدك ويلتحم فيه، وسيغدو عصيًّا على الانتزاع.

حين تتأمل الفتى، جوش، من تخطى الصف التاسع معك، تراه يمسح أنفه بكم قميصه، تلاحظ هيئته الهزيلة، ذقنه المتبرعم بالبثرات، جالسًا جانب فتيان الصف العاشر بصدورهم العريضة وعظام فكوكهم المربعة الحادة، حين ترى أنه لا يزال يتناول وجبة الغداء برفقة زملائه القدامى من الصف التاسع - كلهم فتية في قمصانهم السوداء الموشاة صدورها بالشارات المبهرجة اللامعة لأسماء فرق مثل كِس، أو أي سي/ دي سي، بأذقانهم المبقعة بالبثرات وشفاههم الرطبة وشعورهم الهزيلة الدهنية المسترسلة - فلن يسعك أن ترى أي دلالة انتصار فيه. سيبدو لك خاسرًا، ضائعًا، فاشلًا؛ لأن أي شخص يعلم بأن في التحدي الذي فرض عليك في تخطيك الصف، فنجاحك الاجتماعي - نجاحك الاجتماعي المتواضع، لكن بالتأكيد يظل نجاحًا - هو نصف المعركة. حين توجه لك فريديريكا باتي دعوة للانضمام إليها في حفل عيد ميلادها - رحلة إبحار على قارب أبيها، برفقة ست فتيات أخريات، اثنتين منهما تنتميان إلى أكثر الزمر شعبيةً في المدرسة - فستشعر بالشفقة اتجاه جوش، من لن يذوق في حياته رحيقًا كهذا.

لكن تمهل: لا أحد قط أشار إلى أن جوش، في غمرة غفلته، كان في منتهى السعادة. فقد سبق وعلم نفسه المعادلة التربيعية؛ ما كان لعائق أن يعترض سبيله في تفوقه الأكاديمي. في الواقع، كان سيلتحق

بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا ويضحو عالمًا في البيولوجيا العصبية مع مختبر ممول بالكامل من منظمة الصحة الوطنية وميزانية ضخمة قيد تصرفه. كان سيتزوج بامرأة فائقة الجاذبية، وإن كانت تعاني من الصَّكك[9]، وسيفرخ منها ذرية من الأذكياء غريبي الأطوار مع نظارات أبيهم وصكك أمهم، نماذج مستنسخة منه. أمور حياته سينتهي بها المآل إلى مصير رائع بالنسبة له، وما كان سيعتريه الشك، ولو لثانية واحدة، أنها كانت ستؤول إلى مصير آخر. لن يدرك وجود اختبار اجتماعي آنذاك؛ ولن يعرف أبدًا أنه قد فشل فيه. كلا، فرحلة إبحار على قارب والد فريديريكا باتي كان شرفًا لم يحلم بنيله قط؛ وتوقه الاجتماعي، على هنّاته، قد أشبعه بشكل مرض برفقة جماعته القديمة، حتى وإن باتوا أدنى صفًّا منه. إن طار إلى القمر لكان اكترث بصنع قناع؛ لذا بقي على ما هو عليه وللأبد. صدقًا، الأنثوية قناعٌ تنكري[10].

***

(9) الصَّكك: عاهة في القدمين بحيث تكون الركبتان متقاربتين بشكل غير طبيعي، والكاحلان متباعدين أحدهما عن الآخر.

(10) عبارة مقتبسة عن مقال "Womanliness as Masquerade" للباحثة النفسية "Joan Riviere" نشر عام 1929 في الدورية الدولية للتحليل النفسي "International Journal of Psychoanalysis" تعرض فيه نظريتها عن القناع النسوي التنكري حول تعمد نموذج من نماذج المرأة المثقفة الناجحة في حياتها المهنية والزوجية إلى ارتداء قناع أنثوي تخفي فيه ذكوريتها المتجسدة في قوة شخصيتها وإنجازاتها وفخرها كي تتحاشى القلق العصبي الذي يعتريها من خوفها إثارة القلق الذكوري لدى الرجال وعواقبه عليها، أن قلقها العصبي لن يخمد وثقتها بنفسها لن تستعيدها وثقتها في موهبتها ونجاحها لن تصدقه إلا بنيلها الإطراء والرضا من قبل الرجال.

كنت في المرحلة الثانوية حين قررت - أو، كما كنت سأقول لنفسي آنذاك، أدركت - بأني سأغدو فنانة. إذ التقيت آنذاك بمجموعة من الأصدقاء المتعاطفين معي وكنا سنتخذ من عدم اكتمال نضوجنا، بالذات، دافعًا للاستغراق في المرح، كنا ثلة من الفتيات والفتيان نحب القفز في البرك كلما انهمر المطر، أو التجمع في ساحة اللعب ساعة الغسق، إما لنركب الأراجيح أو ندخن الحشيش خلف القبة، من ثم وجدت أن مجموعتنا قد أخذت تتسكع لفترات أطول في قاعة المادة الفنية بعد انتهاء اليوم الدراسي، مع المباركة الضمنية للمدرس الأول للمادة. كان رجلاً مجحدرًا يرتدي جزمة صيد حتى الركب وجركينة[11] جلدية، خصل شعره الغزيرة منسدلة حتى الكتفين مع عنثونية حمراء مستدقة: بدا لنا كلاجئ من فرقة مسرح شكسبير مجتمعية، واسمه، من أروع ما يكون، كان دومينيك كرايس.

ورغم أن مبنى المدرسة كان في تلك الساعات مغلقًا بشكل رسمي، فقد اعتاد ترك معدات فنية لنا تحت تصرفنا، ترك الخزائن مفتوحة، علب الطلاء والفراشي عند حوض المغسلة، وحتى، أحيانًا، كان يترك لنا على منضدة العمل مفتاح غرفة التحميض. في ظلمتها الحمراء القاتمة عانيت، كطالبة متلهفة في الصف ما قبل الأخير، من قبلتي الأولى الحقيقية، عناق اللسانين الرطب مع طالب في صف التخرج يدعى آلف، من كانت سترته الجلدية الزاخرة بالسحابات السمة الأروع فيه. كنت قد ظننته رائعًا، قبل القبلة، لكنه أثبت لي - وكم فوجئت لدى إدراكي أن ذلك كان أصلًا بالاحتمال الممكن - أنه هو الآخر أخرقٌ مثلي، ونتيجةً لذلك فلم نكرر تلك القبلة ولا حتى ذكرناها. صداقتنا،

(11) الجركينية: سترة رجالية ضيقة مصنوعة عادةً من الجلد وبلا كمين.

على سطحيتها - إذ كانت قائمة على التعارف العائلي البعيد - ظلت على حالها. الأمر غدا بكل بساطة وكأن القبلة لم تحدث قط، ولاحقًا، كنت سأتساءل بيني وبين نفسي إن حدثت فعلاً.

مع اعتبارنا أنفسنا ثلة مخربين، نحاول اللحاق بعقود المغامرة التي - نتيجة ولادتنا المتأخرة- قد فاتتنا وبالكاد بلغنا رمقها الأخير، قضينا ساعات طوال في القاعة حتى هبوط الليل نرسم اللافتات ونكتب الشعارات على ألواح الورق المقوى الكبيرة، من ثم نلصقها على جدران أروقة المدرسة. **ثوروا**، كان مكتوبًا عليها في فورة من الألوان الفاقعة، **دع عنك الرضا الزائف، وهل تعرف أين هي روحك؟ حارب الثروة! قبّل فوضويًا!**

وإن كان دومينيك كرايس في صفنا، فالبوّابون كانوا، وهو ما تلاءم بشكل ساخر مع تظاهرنا الثوري، أعداءنا: فقد جالوا ليلاً في الأروقة مكلَّفين بمهمة تمزيق لافتاتنا غير المرخص بها قبل تجمُّع الصباح التالي. لعبتنا كانت قائمة على لصق أفضل لافتاتنا في الزوايا التي ستفلت من جولة بحث البوابين، أوعلى الأقل، حيث ستحظى بالوقت الكافي كي تنال إعجابًا واسعًا قبل نزعها. كنا جد متحمسين أثناء رسمها، جد متحمسين لتعليقها، جد متحمسين، صباح اليوم التالي، لدى استكشافنا اللافتات الناجية: **أحب جارك كما تحب نفسك**، المصحوبة برسم ظليّ باللون اللازوردي لشخصين يتعانقان، ظلت معلقة ثلاثة أيام على الجانب الداخلي للباب الخلفي لمختبر الأحياء؛ **أمك وأبوك يحطمانك**، العبارة التي كانت اقتباسًا، على لسان أمي، تمكنت من البقاء لأسبوع على الجانب الداخلي لباب الخزانة في صالة الألعاب حيث يحتفظون بكرات السلة. لكن أكثرها

ثوريةً - الأنشطة المدرسية: ما الغرض منها؟ - فقد رفعها متجهمًا ناظر المدرسة، السيد إيفيرز، في تجمع الطلبة مصرحًا بأنه وإن كان الجميع مع حرية التعبير، فشعارات من هذا النوع تضر بنسيج المجتمع وتقوِّض معنوياته. موضحًا كذلك، أن شعارات كهذه تعطي انطباعًا سيئًا عن المدرسة لأي ضيف يحل عليها. وهذه ليست، كما قال، روح مدرسة مانشستر الثانوية. ووجهنا إلى وجود سبل أخرى كثيرة للتعبير، أن أولئك من هم في حاجة إلى التعبير عن حيرتهم أو سخطهم مرحبٌ بتقديم مقالاتهم لنشرها في صحيفة المدرسة. وأن بحديثه هذا، كما كان يأمل، يكون قد وضع نهايةً للأمر برمته.

دومينيك كرايس، من كان على علم كامل بهوياتنا، لم يسلمنا للناظر، ولم يقفل على المعدات؛ ونحن، من هلسنا على خطاب السيد إيفيرز الطنّان، بقينا رغم ذلك عالقين كما الذباب في المصيدة، منجذبين إلى مباهج التسكع في قاعة كرايس الفنية. في العام التالي، عامي الأخير، كل من تبقى من مجموعتنا في المدرسة - آلف كان قد تخرج، برفقة ثلة من المجموعة، تاركين ستةً منا في صف التخرج، وثلاثة في الصف ما قبل الأخير وطالبًا في الصف الثاني - سجل في نشاط الفن التشكيلي.

واجبنا المنزلي الأول كان رسم نحلة داخل كمان داخل إجاصة. الجميع أخذ حرفيًا بكلام كرايس، واجتهدوا كادحين في رسم تصورات مختلفة بقلم الرصاص لتلك البنود، في منحى أصغر وأصغر، مثل العلب الصينية. لا أحد منهم كان بارعًا في الرسم المنظوري، لكن مع ذلك فأداء البعض كان أفضل من البعض الآخر. أما أنا فلم أحاول حتى الرسم من الأساس. توجهت إلى البيت وصنعت إجاصة جوفاء

كبيرة من الورق المعجَّن مستخدمةً إطار علاقة الملابس كنموذج - كنت قد صنعت نصفين منفصلين، كمرحلة أولى، وفي النهاية ألصقتهما ببعضهما - وبطّنت الداخل بالقصدير الذهبي. صنعت شكل الكمان من علبة ثقاب وألصقت عليها صورة لامعة للآلة الموسيقية قصصتها من مجلة، من ثم أمسكت بنحلة خارج بيتنا وجدتها بين زهور أمي الخزامى، مستعينةً بصائد-الحشرات القديم من العلية. ثم وضعتها في جرة حيث ماتت خنقًا.

كنت قد طليتها بالشيلاك، وما إن رضيت عن مظهرها اللامع، سجيت النحلة النائمة على النصف المفتوح من علبة الكمان، والتي ألصقتها بدورها على قعر الإجاصة، من ثم بمساعدة أخي (لا بد أنه كان يعيش آنذاك في توسكان وكان في زيارة للبيت برفقة تويتي، من كانت ستضحو في النهاية زوجته) ركبت مصباحًا بالغ الصغر، مصباح الإضاءة الليلي الصغير، داخل الإجاصة قبل أن ألصق نصفيها وأحكم إغلاقها، ومرّرت البريم بحذر خارج قاعها. وبحرص شديد، شققت وَصْوَصًا عبر قشرة الإجاصة، مخترقةً لبها من الورق المعجن، كي يتسنى للناظر التحديق في داخلها؛ وحتى الآن عليّ أن أقول، حين أوصلت القابس الكهربائي وشعشع الغشاء الباطني من القصدير الذهبي مضيئًا قلب الإجاصة الأجوف، بدت النحلة النائمة اللامعة في علبة الكمان جميلة بصورة مذهلة. من ثم ارتأيت أنها ستكون إجاصة خمرية، فطليت خارجها بدرجات من اللون الأحمر القرمزي، طبقات من الطلاء كي تبدو سميكة ولامعة. كنت قد بذلت جهدًا كبيرًا عليها - كنت قد أحببت عبثية المشروع بأكمله؛ منحني إحساسًا عميقًا من الرضا، في إجابة على سؤالي السابق في اللافتات. قلت في

نفسي، هذا، أيها السيد إيفيرز، هذا هو الغرض من الأنشطة المدرسية - وحين حملتها إلى الفصل ووضعتها جانب الرسومات بقلم الرصاص، شعرت بالانتشاء لدى رؤيتي السيد كرايس يضع كفي يديه أسفل ذقنه كما الهرم (نعم الهرم، هرمًا يشد بقبضة أصابعه على عنثونيته الشيطانية) يضحك في زقزقة مجلجلة.

"هذه" صرح لنا معلنًا، يتلفت نحونا الواحد تلو الآخر في بريق خفق من الجذل الذي أعاد فجأةً للذاكرة ويلي وانكا عوضًا عن بيتروشيو[12]، "هذا ما أعنيه بالعمل الفني." تريث للحظة، انحنى بخصره وحدّق في نحلتي المسجاة في حجرتها، ثم استقام واستدار نحونا. "لمن هذه؟ لمن هذه؟ أهي لكِ؟ كنت أعرف. أحسنتِ، نورا إلدريدج،" قال لي، "صدقًا أحسنتِ."

---

(12) شخصية في مسرحية شكسبير "ترويض النمرة".

4

سيرينا كانت فنانة - هي فنانة. فنانةٌ حقيقية، أيًّا كان ما يعنيه هذا الوصف. بل حتى أنها معروفة الآن، في دوائر معينة مهمة. ورغم أنها مستقرة في باريس، فسيرينا ليست فرنسية؛ هي إيطالية. ليس بالأمر الجلي لأن اسم عائلتها هو شاهيد والاسم الأول لزوجها هو إسكندر، وابنها يحمل ذات الاسم الذي حمله الشاه الأخير لإيران - ليس أنَّ أيًّا منهما له أصول فارسية. هما بكل بساطة أحبا الاسم. إسكندر من لبنان، من بيروت. حسنٌ، أحدٌ من عائلته قبل ذلك قد قدم من فلسطين، لكن ذاك كان منذ زمن بعيد؛ وعلى الأقل جزءٌ منه، من جهة والده على ما أظن، أصلاً كان من بيروت. جزءٌ منه مسيحي والآخر مسلم، وهو ما بالتأكيد سيفسر الكثير من الأمور لشخص ما، لكن ليس بالضرورة لي. كذلك، فأنا لا أتحدث الآن عن إسكندر، من لن يدخل القصة إلا في وقت لاحق، بل أتحدث عن سيرينا، من كان - ولا يزال - متزوجًا منها، سيرينا الإيطالية، سيرينا الفنانة.

معذورٌ إن ظننتَ سيرينا من الشرق الأوسط، لا سيما مع بشرتها، تلك البشرة الزيتونية الرائعة، والتي بدت على ابنها وكأنما أحدهم قد رذَّ بشرته بالبودرة، بودرة خضراء شاحبة، لكن على عظامها الأنيقة فقد بدت عتيقة وفتيّة، فتيّة لأن وجنتيها كانتا

مصقولتين وممتلئتين كما الثمر. لم يكن من تجاعيد على وجهها سوى تلك على زاويتيْ عينيها، تجاعيد قدم-الغراب المذهلة، كأنما قضت حياتها تكشر أو تخزر عينيها في وجه الشمس. من كل طرف من طرفي أنفها امتد تَلَمٌ حتى زاوية من زاويتي فمها، لم يكونا بالتجاعيد، ليس تمامًا، بل سيما من سيماها. أنفها كان طيريًّا، حادًّا، إيطاليًّا على ما أظن، بشرتها الرائعة مشدودة من جانبيه، وبدت لامعة أحيانًا. جسر أنفها كان مبقعًا بالقليل من النمش، مثل رذاذ الرمل. كانت لها عيناه، عينا رضا، وحاجباه الضاريان الأسودان، شعرها مسترسلٌ لامع وأسود تشوبه خيوط فضية. لم تكن شابة - فحتى حين التقيت بها، حين كان رضا في الثامنة من عمره، لا بد وأنها كانت في الخامسة والأربعين؛ لكن ما كنت لتخمن عمرها إلى هذا الحد. السر كان يكمن في عينيها - الحياة في عينيها - وقدمَيْ الغراب. من السخرية بمكان أن تلك التجاعيد هي ما أوحت بصغر عمرها.

كان يفترض أن ألتقي بها في ليلة العودة إلى المدرسة نهاية سبتمبر - الأمسية التي يحضر فيها الآباء والأمهات الفصل وقت العشاء، بعد تنصلهم الغامض من رعاية ذريتهم، يحشرون أنفسهم في أدراج أطفالهم الصغيرة كي يستمعوا إلى المعلم يشرح لهم في حماس معد مباهج تعلم جداول الضرب والأهمية الخفية لتعلم الكتابة بالأحرف المتصلة. هذا العرض يليه إلقاء كلمة الناظرة، شونا ماكفي، في قاعة الاجتماعات، تليه الضيافة الإجبارية للبيتزا الفاترة اللزجة ومشروبات الصودا الدافئة والتي سنضطر نحن، المعلمون المجهدون من بعد محاصرة الآباء والأمهات لنا، إلى البقاء بعد رحيل الجميع لإزالة بقايا مخلفاتها.

إن كنت سألتقي سيرينا آنذاك، لكنت بذلت الجهد محاولةً التقرب منها، أنا مدركة أني كنت سأفعل؛ لكن قُدِّر لي أن أراها قبلاً، لأن رضا كان قد تعرض للضرب المبرح. ليس صحيحًا تمامًا: فلطالما كنت أميل إلى المبالغة. لكنه تعرض للتهجم، وأصيب بأذى.

كان الأسبوع الثالث من الدوام المدرسي، في باحة المدرسة بعد انتهاء الحصص يوم الأربعاء، كان أول يوم منعش حقيقي من أيام الخريف، زمرةٌ من ثلاثة فتيان من الصف الخامس تكالبت على رضا بينما كان يلعب على بنية التسلق وحده - أو "اعتمادًا على نفسه" كما يقولها الأطفال أحيانًا بأسلوبهم الآسر. في البداية قذفوه بالكرات - لم تكن بكرات صغيرة، بل كبيرة، كرات السلة، ولم تكن برمية لهو بل بنية الإيذاء مع تصويب خبيث. "ظننتهم يلعبون دودج بول" قال طفلٌ آخر كان متواجدًا قريبهم؛ لكن للأسف لم يعرض أحد الفتيان الثلاثة اللعبة على رضا، من كان سيجهل من الأساس ما هي - من ثم، وبشكل ما، سرعان ما تدهورت الأمور، وأحدهم، أوين، ولدٌ ضخم وغبي، لا مناص من وصفه هكذا، كوني توليت تعليمه لعام وكم عانيت معه كي يتسنى لي ترفيعه نهاية السنة، أمسك برضا من ياقته، سحبه قبالة عمود معدني ولكمه على أذنه. نعت رضا "بالإرهابي" وأخبره أن الباحة هي للأميركيين وحسب. تطلب الأمر منا وقتًا كي نعرف القصة بحذافيرها، وقد تضمنت خال أوين الذي عانى أعراض ما بعد الصدمة لدى عودته من جولة خدمته العسكرية في العراق؛ ومع ذلك فلا وجود صراحةً لأي مبرر أو تفسير للتصرف المروِّع.

كنت أراجع مقالات الأطفال وقتها - حسنٌ، مقال كلمة كبيرة عليهم، بالأحرى موضوع إنشاء من ثلاث فقرات عن " أكثر شيء

استمتعت به في رحلتنا المدرسية لقطف التفاح"؛ كنت جالسة إلى مكتبي في الفصل - حين جاءتني بيثاني، إحدى ثلاث فتيات تخرجن التو من الجامعة ويتولين الإشراف على اللعب الحر في باحة المدرسة بعد انتهاء الحصص، مصطحبةً معها رضا. على الأقل تمتعت بالحد الأدنى من حسن التصرف كي تضع كيس ثلج على أذنه المتورمة المحمرة، لكن رضا كان شاحبًا، جسده يرتجف، رموش عينيه متكتلة بدموعه. إما بداعي صغر عمرها أو جزعًا منها فلم تقم بيثاني بما الواضح فعله في موقف كهذا، أن تجلسه وتطوقه بذراعها وتتنفس معه، كي تهدئ أنفاسه، من ثم، ودون أن تغيب عن ناظريه، تتناول ملفه والهاتف وتتصل بوالدته وتخبرها بالقدوم لاصطحاب ابنها.

في بادئ الأمر كنت ساخطة من سيرينا، لأنها في نبرتها المتأنية، الأجنبية، الخافتة، اقترحت أن ماريا، حاضنته، هي في طريقها بكل الأحوال لاصطحابه بعد خمس وأربعين دقيقة. أخذتُ نفسًا مسموعًا - عن عمد - قائلةً لها، "في ظل الظروف الحالية، سيدة شاهيد، أظنها ستكون فكرة جيدة إن أتيت بنفسك وبأسرع وقت ممكن."

"سأكون لديك في عشر دقائق، خمس عشرة بالكثير."

"ونحن سنكون بانتظارك هنا في الفصل،" قلت لها. "تعالي بأسرع وقت."

من ثم عدت وجلست إلى جانب رضا ووضعت ذراعي على ظهر الكرسي الجالس عليه كي يشعر بالأمان، وقلت له، "هل ترغب بليموناده؟ لدي قنينة في حقيبتي. وما رأيك بقطعة أوريو؟" وبإلحاحي تحايلت عليه كي يتناول الماء المحلّى والكوكيز، وإخباري بما حدث، كي أحظى على الأقل بمعرفة أساس القصة المتعذر تبريرها قبل وصول

سيرينا. رضا، رغم الدموع العالقة في رموشه كما قطرات المطر العالقة في شباك العنكبوت، لم يبكِ، وإن حوزق قليلاً، أنفاسه، كما حال كتفيه، كانت مرتعدة.

كنت مستشيطة غضبًا - على المتنمرين الثلاثة، على بيثاني، مارغوت وسارة، من لا أدري كيف تدبرن عدم رؤية أي شيء مما وقع في الباحة، كذلك كنت مستشيطة غضبًا إلى حدٍّ ما على والدة رضا، من كنت سألتقيها، على تركها له دون حماية في أرض غريبة، في إيداعه لدى نظام وأناس تجهل عنهم كل شيء. لو كان طفلي، لما فعلت أبدًا شيئًا كهذا: لكنت أودعته قلبي، لكنت أحطته بذراعيّ الحاميتين، وما كنت لأفعل ذلك من باب المبدأ (وإن كان المبدأ سببًا أيضًا) لكن لأنه رضا، هذا الصبي النيّر، طفلي الغالي.

من ثم أتت، اختلسَتُ النظر عبر الزجاج مع طرق متردد على الباب، وما إن فتحته على عجل، وثبتُ من على الكرسي متأهبة لمواجهة صارمة؛ لكن سرعان ما تجردت من سلاحي. فرؤيتي لعينيها المكروبتين - فهما في النهاية عينيه - وجريها عبر الفصل كي تعانقه - أي مجرد وجودها، وجدته كافيًا لي. ما كنت لأعرف عمّا يتحدثان، فقد أخذا يتكلمان بالفرنسية؛ طوقته بذراعيها، وأدار هو وجهه نحو صدرها، كأنما سيجد في تنشقه رائحتها علاجه الشافي. كان تصرفًا طفوليًا بالنسبة إلى صبيٍّ كبير في عمره - فمعظم طلبة الصف الثالث ما كانوا ليقبلوا الكشف عن عواطفهم أمام معلميهم، وكم أعجبت بهما، الابن والأم، لعدم اكتراثهما بوجودي. أخذ منها الأمر دقيقة أو دقيقتين قبل أن ترفع رأسها، تحرر ذراعًا من عناقه وتمدها نحوي قائلة، "آنسة إلدريدج، كنت أتطلع إلى الالتقاء بك."

"يؤسفني أن اللقاء لم يأت في ظروف أفضل."

هزت كتفيها بخفة. "أنا سعيدة بتلقي اتصالك."

"لقد وقعت حادثة، في باحة المدرسة."

"هذا ما فهمته."

"لم أكن حاضرة وقت وقوعها، لكن مما قاله رضا، فالخطأ لم يكن على الإطلاق خطأه."

ارتسمت على وجهها ملامح كأنما تقول لي، وكيف يعقل ذلك؟

"سياسة المدرسة صارمة وغير متسامحة البتة مع التنمر. سيدة شاهيد ـ"

"أنا متيقنة من ذلك."

"وسنعرف ما الذي وقع بالضبط، وسيتم تأديب الأولاد المسؤولين."

"بالطبع."

"أكثر ما يؤسفني أن الأولاد على ما يبدو قد نعتوه - قد تلفظوا بكلمات جارحة وغير لائقة. وأريد أن أؤكد لك أن في مدرسة آبلتون، فنحن لا - لم يسبق وأن لكلام كهذا - ما حدث ليس البتة بالأمر المعتاد هنا. وسنضمن أن كلاماً كهذا لن ـ"

"أنا متفهمة." نهضت، ونهض رضا معها، مثل توأمين ملتصقين من وركيهما. وابتسمَتْ - هل يا ترى لأنها كانت ابتسامته أيضًا؟ ربما، رغم أن ليس هذا ما خطر لي لحظتها. ما خطر لي، بشكل واضح وجليّ وكأن لي أن أنطقه عاليًا، هو: "أوه، هذا أنتِ. بالطبع. كان عليّ أن أعرف." ولاحقًا، حين تفكَّرت بتلك الخاطرة، قلت في نفسي، مرة أخرى بهذه الكلمات، "أنا أعرفكِ." كان أغرب إحساس، مزيجًا غريبًا

من الراحة والذعر في ذات الآن. مثل رؤية شبح، أو لحظة تجلٍّ - ومن ذاك الذي أراه يسير جانبك طوال الطريق؟[13] - إحساسٌ لا تملك خيارًا سوى الوثوق به من صميم قلبك.

"...ممتنة فعلاً." كانت تقول لي. "هذا الانتقال، تغييرٌ كبير بالنسبة إلى رضا، لكان من...صعب. لكنه يحب القدوم إلى فصلك."

"ونحن نحب وجوده هنا." نظرت اتجاه رضا مع ابتسامة كبيرة، وبادلني بنظرة هي ذاتها النظرة الرزينة المبهمة للقائنا الأول في السوق المركزي. "وآمل حقًا أن ما جرى اليوم، وإن كان رهيبًا، لا يثنيك عن مواصلة حبك للمدرسة."

هزَّ رأسه قليلاً: كان من الصعب معرفة إن كان يعني بإيماءته أنَّ ما حدث سيثنيه أم لا.

"أميري الصغير شجاعٌ وقوي،" قالت أمه. "سيكون بخير." عاودت الابتسام ونظرت إليّ، حقًّا نظرت إليّ - شعرت بأنها قد رأتني - مرةً أخرى. وكم وددت أن أقول، "إذن أنتِ أيضًا تعرفينني؟" فقط كي أتيقن أني لست الوحيدة من يساورها هذا الشعور. لكن من عساه سيقول شيئًا كهذا؟

"سعيدة للالتقاء بك، سيدة شاهيد" - وتصافحنا مرةً أخرى، ببادرة منها، ويدها كانت صغيرة، لكن قوية، دافئة وجافة "وسأحرص على إعلامك بالتطورات ما إن نتحقق من الأمر. سأتصل بك. ها هو رقم هاتف بيتي في حال احتجته. وآمل الالتقاء بك وبزوجك في ليلة

(13) Who is he who walks always beside you: في إشارة إلى بيت من قصيدة (الأرض اليباب) للشاعر تي. إس. إليوت. وكما ورد في ملاحظاته، فالبيت مستوحى من رحلة استكشافية في القطب الجنوبي حيث راود المستكشفون الإحساس طوال رحلتهم أن فردًا وهميًا إضافيًا كان برفقتهم طوال الطريق.

العودة إلى المدرسة الأسبوع القادم."

"الأسبوع القادم. بالتأكيد،" قالتها باحتشام وبهجة وتحفظ في ذات الآن. "بالطبع. إلى اللقاء."

بالطبع. بالطبع. بدا لي مقدَّرًا، هذا اللقاء، فرصة مفاجئة، بابٌ يُفتَح على حين غرة. لم أكن قد علمت بعد بأنها فنانة، في مجال الفن ثلاثي الأبعاد، تكابد الهجران من بعد تركها محترفها في باريس. بعد أن غادرا، عدت وجلست إلى مكتبي، عيناي ما كانتا على فقرات قطف-التفاح بل شاخصتين اتجاه الأغصان، أتأمل تبدل ألوانها خارج نافذة الفصل، القيقب النرويجي تشوبه مسحةٌ من اللون القرمزي لفستان حفلة راقصة، مكشكش قبالة سماء الحادي عشر من سبتمبر الصافية. كيف للأوراق أن برزت بهذة الصورة الجليّة؟ لم كانت السماء بتلك الزرقة المثالية؟ كيف لبعد الظهيرة العادية هذه أن غمرتني، لا بالسخط الذي شعرت فيه سابقًا، بل بالجذل نعم الجذل. جالسة إلى مكتبي، قلم الرصاص في يدي، في الضوء المعتم، في الزوايا الطويلة المنكسرة لشمس ما بعد الظهيرة، شعرت بالفراشات تتطاير في بطني، مثلي مثل طفل. لا شيء كان يتحرك في الغرفة سوى رفرفة أجنحتها.

5

شـونا ماكـفي جلسـت مع المتنمرين الثلاث صباح اليوم التالي وناقشـت معهـم قيـم المشـاركة، التسـامح، وأهمية انتقـاء الكلمـات. أنـا متيقنـة أنهـا تحدثـت إليهم عـن اتخـاذ الخيارات الصحيحـة، فيمـا يخـص أمنهـم وسـلامتهم، مـن ثـم اسـتدعـت رضـا وأجبرت الأولاد على الاعتـذار منـه واحـدًا واحـدًا، ومصافحتـه أمامهـا، انتظـرت حتى مغادرته المكتـب كي تخبرهـم بأنهـم ممنوعـون مـن اللعـب في الباحـة وقـت الفرصة وبعـد الـدوام المدرسي، لمدة أسـبوع. تولـت إعـلام آبائهم بالأمر، ثم اتصلـت بسـيرينا كي تطمئنهـا وتؤكـد عليهـا أن المسـألة قـد أضحـت، كمـا قالـت، "محلولـة".

لا تسئ فهـمي، أنـا معجبة بشـونا، من تصغـرني بخمسـة أعـوام، فـهي الأخـرى عزبـاء وبلا أطفـال، لكـن على عكـسي فـهي نجمـة في نظـام التعليـم العـام المدرسي. في ذاك العـام كان قـد مرَّ عليهـا أصلاً ثلاثـة أعـوام في إدارة المدرسـة - تولـت إدارة آبلتـون قبـل بلوغهـا الثلاثـين. لكـني أعتقـد حقـا بأن أنجـع وسـيلة في ممارسـتك الإدارة بنجـاح هي في فهمـك البالغين أفضـل من فهمـك الأطفـال. أنـت تـدّعي فـهمك الأطفـال، لكنـه مجـرد عـرض للبالغـين. لـو كانـت شـونا فعـلاً تـدرك الأطفـال، لكانـت عرفـت بأن المتنمريـن الثلاث ليسـوا على قـدر الـذكاء الـكافي لتقديـر

المنطق الصالح وراء قواعد التسامح وتقبل الآخر، هم كانوا فقط على قدر الذكاء الكافي لاستيعاب أن تلك، على ما يبدو، هي القواعد. والجميع يعرف بأن الغاية من وضع القواعد -لا سيما إن كنت صبيا بليدًا شقيًّا، مع ومضة لامعة من العقل الحيواني الماكر الذي تعده مبعث فخرك الأعظم- هو ليس اتباعها بل تحاشي الإمساك بك في جرم خرقها. ولو كانت شونا تفهم، لكانت أدركت أن الأطفال رأوا في طقس المصافحة في مكتبها إذلالاً لهم. فما فعلته شونا بحلّها المسألة ظاهريًا أنها في الواقع قد أشعلت حرب عصابات، وكنت مدركة لأهمية إبقاء عينيّ مفتوحتين.

سيرينا، من ليست بحمقاء، عرفت هي الأخرى، لذا اتصلت بي ليلتها في البيت. صعقةٌ كهربائية من الحماسة سرت في جسدي لدى إدراكي أنها هي من كانت على الخط.

"آنسة إلدريدج، أنا آسفة."

"نادني نورا، رجاءً."

تأنت على الخط ولم تقل شيئًا. يا لها من شيء رائع وغامض، لحظة التأني تلك على الخط. من يعرف علام تدل؟ "نورا. نعم. أنا آسفة لإزعاجك في بيتك، لكني أردت معرفة رأيك."

"بخصوص الأولاد؟"

"أجل، الأولاد." كان من عادتها تكرار الكلمات الأخيرة التي تسمعها منك قبل مواصلة حديثها، وكأنما الحديث سباق تتابع. لم أعرف قط إن كانت مسألة ثقافية - عادة إيطالية - أم عادة نتجت عن كونها تعيش في وسيط الترجمة، تتأكد من التقاطها الكلمات بشكل صحيح، أو أنها في النهاية مجرد خصلة سيرينيّة. "أردت أن

أعرف إن كنت تظنين أن الأولاد " - قالت الأولادِى، في لكنة إيطالية جميلة هزلية بعض الشيء - "سيحسنون التصرف الآن؟"

"لأنك لا تعرفين؟"

"لأني لا أعرف؟ لا أعرف. أحيانًا، تبدو الأمور على ما يرام، لكن الأطفال، الأطفال غاضبون. لا يحبون الوقوع في المشاكل، مما يغضبهم أكثر."

"الحق معك، سيدة شاهيد."

"رجاءً، سيرينا. وإلا لن أستطيع مناداتك نورا."

"سيرينا." حاولت نطقها كما تنطقها هي، لكن لم أنجح. "كل ما بيدنا فعله في هذه المرحلة هو البقاء متيقظين. إلا إن وقعت حادثة أخرى، والتي حقا آمل ألا تقع ..."

"ربما لو نحتسي القهوة معًا؟" الصعقة سرت في جسدي مرةً أخرى. كم هو عجيبٌ الجسد، يتصرف هكذا دون سبب على الإطلاق. إلا إن كانت قد تعرفت عليّ هي الأخرى. من ثم شعرت بأن اتصالها كان مجرد عذر - ليس مجرد عذر وحسب، لكن يظل عذرًا.

"قهوة؟ بالتأكيد."

"كي أفسر. كي أتمكن من محادثتك عن رضا: فقد أتى من عالم آخر مختلف تمامًا. ومن المهم لي أن يكون هذا العام الذي نقضيه في أميركا عامًا جيدًا له. فهو لم يرغب من الأساس بالقدوم إلى هنا، لذا..."

حسنٌ، لم يكن بعذر. كان سببًا حقيقيًا، فرصة لي كي أكون معلمة أفضل لرضا. "بالطبع. وما الوقت المناسب لك؟"

اتفقنا على الالتقاء بعد يومين من ليلة العودة إلى المدرسة.

كنا قد خططنا للالتقاء في مقهى بورديك في هارڤارد سكوير، وهو ما وجدته غريبًا لأني لا أهوى المكان، ولا أظنها هي من اقترحته. لا بد وأني أنا من اقترحته كمعلم من معالم الحياة المحلية في البلدة؛ لكن لطالما وجدت المقهى خانقًا، نوافذه مغبشة، ومن الصعب العثور على طاولة شاغرة، قطع الكعك لديهم دسمة جدًا وباهظة، وسيبدو تصرّفًا أخرقَ منك إن تحملت عناء المجيء إلى بورديك ولم تطلب قطعة. أنا أفضل ستاربكس، حيث المأكولات وبكل صراحة سيئة ولا إحراج البتة في تفاديك لها. لكني ومع ذلك وجدته مخجلًا اقتراح ستاربكس على شخص قادم من باريس.

لطالما تساءلت إلى أي حد جاء انجذابي إلى عائلة شاهيد نابعًا من حقيقة كونهم أجانب. إذ من طبيعتي الانجذاب إلى كل ما هو أجنبي. في عامي الثالث في المدرسة الثانوية، استقبلنا طالبة تبادل أجنبي من بريطانيا تدعى هاتي، وكنت قد عقدت العزم، حتى قبل وصولها، على مصادقتها. كانت شاحبة كالأثير، وجهها قمري وعيناها زرقاوان كبيرتان، كانت لها غرة مصبوغة فاتنة تنسدل على نصف وجهها، ترتدي معطف مطر أسود مطبوع على ظهره قلب الهدف في لوحة السهام. كانت جثلة، لا بمعنى أنها كانت سمينة بل قوية، ترتدي الجزمة الجلدية ذات الرباط المتشابك الممتد لأعلى الكاحل وتستمع إلى فرق الروك جوي ديڤيجين وكلاش. كانت قد قدمت من لندن، من إنجلترا. لم يكن هناك من طالب في المدرسة يجاريها في تفوقها، وقد خدمتها طوال العام أرشدها وأدون الملاحظات لها. ما جعلني أبدو رائعة أمام زملائي في الفصل. ولم تبح لي إلا بعد مضي نصف عام على وجودها في مدرستنا بأنها أصغر عمرًا مما تبدو، فهي تقريبًا من عمري

أنا، وكم كنت مشدوهة ومذعورة لدى معرفتي. مذعورة لأنه بدا لي، آنذاك، وكأن ادعائي الوحيد بالتميز قد أضحى فجأةً بلا قيمة، سهمًا في جعبة كنانتها الوافرة.

ما الدافع إذن وراء انجذابي إلى الأجنبية: لم يكن هناك من أثر للأجنبية في أبي، مع خزانة ملابسه العادية من ماركة بروكس بروذرز ونشأته في وينهام، ماساتشوستس. ولا أثر كذلك للأجنبية في أمي سوى جدة إيطالية تملك لها فقط صورةً واحدة، إذ توفيت الجدة الأجنبية حين كانت أمي في الثانية من عمرها؛ كذلك هناك أخت أمي الكاثوليكية المتشددة التي اعتزمت مرة فيما مضى الانضمام إلى الرهبنة، وهو ما بدا في ذاته تصرفًا أجنبيًا بالنسبة لنا. في صباه، أخي مات كان أميركيًا حتى النخاع حد مقته الخضراوات وكل أنواع الطعام الإثني - الهندي، الصيني، التايلاندي، إذ ازدراها جميعًا مدعيًا أنها ليست سوى لحوم خيول مغمسة في صلصة كثيفة بنية. لست متأكدة إن كان لا يزال ثابتًا على موقفه. لا، توقي للأجنبية هي خصلةٌ منّي وفيّ أنا وحسب.

"عائلة إلدريدج تواجدت هنا تقريبًا منذ البداية،" تلك كانت مقولة أبي المعروفة، يكررها علينا باعتداد وغرور، كلما فتح قنينة نبيذ أو وزع علينا حصص صغيرة من البطاطا المهروسة. "نحن أصيلون." وفي (مانشستر-على-البحر)، كلما خرجت في جولتي القصيرة على الدراجة الهوائية بمحاذاة بيوت الساحل الثري لأبناء الطبقة العليا، أتساءل بيني وبين نفسي، كم كاشفة للحقيقة كلمة تقريبًا في مقولة أبي، كيف لتلك الـ تقريبًاأن أدت، وبشكل مروّع، إلى باب بيتنا المتواضع.

لطالما ظننت أني سأعيش في باريس، روما، مدريد - على الأقل

لفترة من حياتي. ويخطر لي الآن أني لم أحلم يومًا بزنجبار أو بابيتي أو طشقند؛ حتى أحلام يقظتي كانت حذرة، متزمتة، أحلام فتاة صالحة، اللوز المقشور في عالم الأحلام. اليوم، حتى مجرد التفكير في الأمر كاف كي أطبق قبضتيّ وتلتف أصابع قدميّ.

على مدى الأعوام القليلة المنصرمة، ما فتأت أغنية ماريان فايث "قصيدة لوسي جوردان[14]" تخطُر لي - في عمر السابعة والثلاثين، أدركت أنها لن تقود أبدًا سيارتها الرياضية في شوارع باريس، شعرها يداعبه النسيم ..." - فأشعر وكأنما المسامير تنخسني من خلف عينيّ. ليس لأني ظننت أني لن أحظى بلحظتي الباريسية في السيارة الرياضية - فإلى هذا الحد كنت مجنونة، إلى هذا الحد كان خطأي فادحًا، أني ظللت على يقيني في سن السابعة والثلاثين، الثامنة والثلاثين، وحتى في التاسعة والثلاثين، أن تلك اللحظة كانت مقدرة لي لا محالة وفي متناول يدي - بل لأن ماريان كانت محقة في أن سن السابعة والثلاثين - عامي الأول من أعوامي مع رضا- هو سن إعادة الحسابات، الوقت الذي يجدر بك أن تدرك فيه وللأبد أن حياتك قد أخذت شكلها وحدودها، وأنك في الغالب لن تكون رئيسًا، أو مليونيرًا، وإن كنتِ امرأةً بلا أطفال، ففي الغالب ستبقين هكذا ما تبقى من حياتك. من ثم تقبل على فترة للتكيُّف قبل أن تصبح بشكل رسمي كهلاً، بيد أني لم أستغل تلك الأعوام في تحقيق هذا الغرض. بل استغللت تلك الأعوام بطريقة أخرى، أو ظننتني أفعل ذلك. ظننت أني أستغلها كي أصيّر حياتي حياةً حقيقية - أليس هذا ما اعتادوا قوله في الستينات؟ "إدراك" ذاتي الحقيقية؟ - لكن تبيّن لي أني لا أزال حتى اليوم عالقةً في بيت المرح.

---

(14) The Ballad of Lucy Jordan

6

حين توانت سيرينا عن حضور ليلة العودة إلى المدرسة، تساءلت إن وجب عليّ الاتصال بها لتذكيرها بموعدنا في مقهى بورديك بعد يومين. لكني قررت الانتظار والترقب. كنت مدركة أن قراري ليس بالمهني ولا حتى بتصرف راشد. بقراري هذا كنت أعدُّ اختبار صداقة.

وقد نجحت. فقد حضرت إلى موعدنا، وإن متأخرة خمس عشرة دقيقة، أنفاسها منقطعة إذ كانت تحمل على ما يبدو نصف دزّينة من الرزم، وفي خطىً خرقاء أخذت تصطدم في طريقها بالزبائن الآخرين: رزمةٌ منها اصطدمت بمؤخر رأس سيدة عجوز كانت تحتسي كاكاوًا دافئًا.

ولأني كنت أنتظر لفترة، فقد تدبرت انتزاع طاولة. الطاولات والمقاعد الطويلة عند النضد صغيرة ومتقاربة وليست مريحة، لكننا حشرنا نفسينا فيها وكدسنا رزمها عند أقدامنا. لم نخلع معطفينا رغم الطقس الدافئ، لأن لا مكان نضعهما فيه.

"كنت تتسوقين؟"

"أتسوق، أجل. غدًا عيد ميلاد زوجي." وضحكت ضحكة جميلة جدًا. "دائمًا ما نهدي الكثير من الهدايا. لا شيء باهظ، لكن العديد من الأمور الصغيرة. فتحدٍّ كبير العثور على هدية ترضيه. فهو

رجلٌ - استنائي؟"

"استثنائي."

"أجل. تمامًا."

"وعمله هو السبب وراء قدومكم إلى هنا؟"

"فقط لعام. فقد تحصّل على زمالة من الجامعة، كي يكتب كتابه."

"حقًا! وعم يدور الكتاب؟"

" أخشى أن عليك أن تسأليه أن يفسر لك بنفسه، لأني سأعجز عن الشرح. عن الأخلاق، الكتاب يدور حول الأخلاق والتاريخ. هو مهتم بالبحث في واقع عجزنا عن سرد التاريخ بشكل صحيح - أصلاً لا وجود لتاريخ حقيقي من الأساس - لذا علينا على الأقل أن نحاول سرد التاريخ أخلاقيًا - وما الذي يعنيه بسرد التاريخ أخلاقيًا"

"ولماذا لا يمكن للتاريخ أن يكون حقيقيًا؟"

"لأننا دائمًا سنعرف جانبًا واحدًا من القصة وحسب. يستحيل عليك التقاط صورة بثلاثمائة وستين درجة؛ ولا يسعنا، في أي لحظة من حياتنا، أن نظهر كل ما اختبرناه. فكيف لنا إذن أن نسرد تاريخ فرد، أو تاريخ شعب؟ تاريخ أمة؟ من المحال." ورفعت يديها في إيماءة مرحة دلالة على اليأس.

"وما هو عملك؟ هل أنت مؤرخة، أو دارسة للأخلاق، أو أيًا كان، مثل زوجك؟"

"كلا! ما كنت لأقدر أبدًا على فعل شيء كهذا. فالكلمات لا تناسبني." للحظة تمعنت النظر إليّ، عيناها الرخاميتان الغامقتان تلمعان. "أنا فنانة. أنا أصنع الأشياء. مجسمات ثلاثية الأبعاد.

وأحيانًا أفلام فيديو." قالتها بكل هدوء واتزان وكأنها تقرُّ لي بصنعها الكعك أو جمعها الطوابع، فعرفت أنها حقًا فنانة.

"لا بد أنك تمزحين."

"لا، لماذا؟"

"لأني أيضًا فنانة."

كان قلبي قد مال لدى سماعي إقرارها - هذا! هذا بالتأكيد! ما نتشاركه كلتانا - لكني قلقت، لدى رؤيتي ابتسامتها، من أنَّ ردة فعلها الأولى كانت مجاملتي. كانت تظن أن عملي الفنيّ مجرد هواية ولا بد بالنسبة لي. كانت تراني معلمة مدرسة ابتدائية. لكنها كانت مهذبة جدًا فلم تفصح لي عن حقيقة رأيها. "حقًا،" قالت لي. "لا بد أن تخبريني عن عملك، متشوقة لأعرف."

"لا، لا. أريد أن أعرف عن عملك أنت. المرة القادمة سنتبادل الحديث عني." - كان جسارةً مني افتراض لقاء آخر بيننا - "أنا هنا لأعرف أكثر عن حياة رضا، ما يتطلب مني معرفة حياتك."

"عن حياتنا، لا شيء الكثير. لكن رضا: رضا عزيزٌ جدًا على قلبينا لأننا عاجزان - أنا عاجزة - عن إنجاب أطفال آخرين. هل لك أخوة وأخوات، نورا؟"

"أخٌ أكبر."

"إذن تعرفين قيمة وجود الأخوة، وجودهم أمرٌ بالغ الأهمية. فأنا أتيت من عائلة لها خمسة أطفال؛ وإسكندر من عائلة لها ثلاثة، رغم أنَّ أحد إخوته قد توفي. لكن كلينا أراد المزيد من الأطفال، لأجل رضا أيضًا."

"بصفتي معلمة، عليّ أن أقول إنّ الطفل متى ما كان وحيد

أبويه فغالبًا ما يملك أفضلية أكاديمية -"

"أجل، لأننا، الأبوان، ندلّله ونقضي وقتًا طويلًا معه. لكن وحيد أبويه سيغدو في النهاية رفيقهما، الثالث العالق مع رفقة زوجين، أتفهمين ما أعني؟ لن يتسنى له أن يتصرف بطفولة، وبذا سيتصرف كراشد صغير."

"هل هذا مبعث قلقك على رضا؟"

"هذا مبعث قلقنا على رضا. ففي باريس، كنا قد خلقنا له عالمًا من الأطفال. أبناء عمومة - ليسوا بأبناء عمومته الحقيقيين، فأولئك موجودون في إيطاليا - لكن أصدقاءً مقربين بمثابة أبناء عمومة. في بنايتنا السكنية وحدها له ثلاثة أصدقاء، من بينهم فتاة تكبره بثلاثة أسابيع وعرفها منذ ولادته. اعتادا على رؤية بعضهما تقريبًا كل يوم."

"إذن كان انتقالًا صعبًا عليه، قدومه إلى هنا."

"علينا جميعاً، أجل، بالطبع."

"من المفيد لي معرفة ذلك. شكراً لك." كنت آمل ببوح أعمق وتفاصيل أكثر حميمية من ذلك. لا أدري أصلًا ما الذي أملت معرفته بالضبط.

"لكن كما ترين، فمع التنمر -"

"أجل، لقد كان أمرًا فظيعًا. أدرك ذلك. وسأبقي عينيّ مفتوحتين. لكن تلك كانت زمرة من الأولاد أكبر سنًا منه ولا يعرفونه. ففي فصلنا رضا يحظى بشعبية عارمة. وهو محبوبٌ جدًا من الجميع، البنات والأولاد على حدٍّ سواء. هو صبيٌّ لطيفٌ جدًا."

"أجل، لطيف."

"ويحرز تقدمًا ملحوظًا في اللغة الإنجليزية."

"أجل. فقد بتنا لا نتحادث إلا باللغة الإنجليزية على مائدة العشاء، من باب الممارسة. ثلاثتنا نرتكب الأخطاء. «رجاءً مرِّر» ثم نتبعها، «ذاك الشيء،» إن كنا نجهل الكلمة. أحيانًا نغدو جد مرهقين لمواصلة التمرين. لكن رضا بات من يعلمنا الآن المفردات."

"آمل ألا مفردات وقحة بينها؟"

"تلك أيضًا." وابتسمت.

كنا قد فرغنا من احتساء القهوة. لحظة التعرُّف تلك، تلك الإشارة - لا بد وأن يكون لها من معنى.

"وماذا بخصوص فنك،" قلت لها. "كنت ستخبريني عن عملك الفنيّ."

في تلك المحادثة الأولى، أخبرتني عن أعمالها ثلاثية الأبعاد، والتي كانت - كما كنت سأراها لاحقًا بأم عيني - حدائق غناء وأدغال منحوتة من أدوات منزلية ومهملات: أزهار الربيع من الصابون، زهور زنبق منبسطة وأزهار توليب مصنوعة من أقمشة غسل الصحون المصبوغة والنشا، سوق العريش الفضية من القصدير وحبال الغسيل المطلية، كلها مصنوعة بدقة متناهية في كل تفصيل من تفاصيلها. لدى حديثها عنها لم أكن قادرة فعلاً على تصورها، لكني استوعبت الفكرة: كانت رؤىً عن الفردوس، العالم الغيبي، العالم الجميل، ومن ثم، متى ما وطئت داخلها، وبتَّ تراها فعلاً، ستدرك أن تلك الأزهار مرقّطة بالقذارة وسوق العريش متجعدة ومفتتة والخنافس اللامعة الزاحفة على الأوراق الشمعية ما هي إلا أغطية قناني مقلوبة أو أزرار جلدية عتيقة موصولة بأطراف. أعمالها ثلاثية الأبعاد حملت أسماء مستوحاة من الأساطير والحكايا الخيالية - غابة

آردين؛ آفالـون؛ أوز؛ إلزينـور - لكنها في الواقـع ما كانت إلا مطبخًا أو غرفة غسـيل ملابس، وعاجلاً أم آجلاً سـيدرك الـرائي وجـود حـوض مغسـلة قديم خلف الشـلال أو أن صخـور الجلمـود بين الأشـجار ما هي في الواقـع إلا غسـالات ونشـافات، ملحـومة بالمشـعل حدَّ السـواد ومكسـوة بالكتـان الغامق.

أخبرتني أيضًا أنها مؤخرًا أخذت تعد أفلام فيديو[15] عن مجسماتها، وأن قصة تلك الأفلام تعبر هي الأخرى عن ذات لحظة التجلي، لحظة اكتشاف حقيقة زيف العالم الجميل، أنه ليس سوى عالم مصنوع من النفايات؛ أخبرتني عن التحدي الذي يواجهها بادئ الأمر في تصوير العالم بحيث يظهر في أوج جماله وكم كان من الصعب عليها أحيانًا تنفيذ ذلك. كذلك فالسرد كان صعبًا عليها: فمتى ما أردتَ أن تصنع فيلمًا فلا بد من وجـود قصة، وكل قصة تتجلى أمامك مع الوقت بأسلوبها، وبذا فالقصة لا تتجلى دومًا كما تريد لها أنت.

أخبرتني بكل هذا واستشـفيت من كلامها أنها من جهة كانت جدُّ فخـورة بحديثها عن عملها، شـغوفةً حتى، لكن من جهة أخرى، فقد شـاب حديثها نبرة ضجر، مما أثار فضولي.

"هل لي أن ألقي نظرة على مشروعك الحالي؟"

هـزت رأسـها، ونظـرت إليّ عبر خصلة شـعرها الرقيقـة المنسـدلة على وجهها. "كان يفترض بي أن أبني بلاد العجائب - هذا هـو مشروعي القادم. لكن لا أملك شيئًا منها هنا. سأؤمن لك إن أمكن فيلم فيديو عن عملي السـابق، مع أنها لـن تعكس لك حقيقة ماهيتها."

"لكن لماذا؟"

(15) من الأمثلة على فن الفيديو المعاصر أعمال الفنان (بيل فيولا – Bill Viola) والتي تعالج ثيمة الحياة والموت والوعي الإنساني.

"الأمر يتعلق بالمساحة، أدواتي ومعداتي، كل عالمي الذي تركته ورائي هناك."

"لكن لن يسعك البقاء عامًا كاملاً بلا عملك!"

"لا، إذ سأتحول إلى وحش لا يود رضا ولا إسكندر معرفته. عملي هو ما يبقيني عاقلة، ما يقف بيني وبين الجنون. وإلا، فهاويةٌ مظلمة."

"وأنا مثلك. أحتاج إلى القيام به، وإلا فسأجن."

ابتسمت، ابتسامةً صادقة هذه المرة، وكأنها، الآن، أرادت فعلاً أن تسمعني. أخبرتها عن قيامي سابقًا برسم لوحات كبيرة فوضوية، لكن ما إن مرضت أمي، وعلى مدى كل تلك الأعوام التي أخذت تموت فيها، قدراتها الجسدية تنهار الواحدة تلو الأخرى، عجزت عن الرسم، عجزت تمامًا عن القيام بأي عمل كبير، واتجهت عوضًا عن ذلك إلى المشاريع الصغيرة، غرف بحجم علبة حذاء، بحجم ديوراما جوزيف كورنيل[16]، وكأن تلك الأعمال، على الأقل، سيستحيل على أي أحد اقتلاعها مني - تلك كانت الكِسَر التي تشبثت بها في وجه الخراب. ولم أتطرق لها، حينها، عن توقفي عن محاولة عرض أعمالي، فما بالك ببيعها، كيف أني تخليت عن فكرة العثور على وطن لها في هذا العالم - لأني وبطريقة ما، في خضم الانطفاء الطويل البطيء للحياة أمام عينيّ، شعرت وكأن الطريق الوحيد للإبقاء على أمي حية هي في التقوقع، في التشبث، التشبث بفني الذي أصنع، وبنفسي التي صنعتها أمي. كنت قلقة من أن كلامي لن يبدو منطقيا لها، لذا لم أنطق به

(16) جوزيف كورنيل – Joseph Cornell: فنان ونحات أميركي، ومن ضمن أعماله الفنية التي اشتهر بها صناعة المنمنمات في علب صغيرة بحجم علبة حذاء، عاش في شبه عزلة حيث قضى حياته يعتني بأمه وأخيه المعاق.

آنذاك. لكني تحدثت عن علبي المضاءة، عن صناعة المشاهد والعوالم في منمنمات، كيف أني دائمًا، أخبئ في مكان ما، حيث بالكاد يتسنى لك رؤيتها أو حيث تعجز أصلاً عن رؤيتها، تميمة صغيرة ذهبية أسميتها السعادة.

"يصعب عليّ الإيمان بها،" قلت لها، "لكن تلك التميمة هي أهم ما أملك بيدي الإيمان به. لذا أضعها هناك في كل الأحوال. حتى في مشاهد الموت، أضعها."

"أتفهم حقًا ما تقولين،" قالت لي، وكان لي أن أرى أنها فعلاً قد تفهمت، وإذ بهذا اللقاء بعد الظهيرة يستحق العناء، الإشارة كانت بحق تعني شيئًا، وكان لنا الآن أن ننهض ونترك طاولتنا الصغيرة المربكة في بورديك، ونمضي في طريقين منفصلين تحت السماء الداكنة.

وبينما أخذت تلملم رزمها، مرتبكة مرةً أخرى، فاتنة في عيني حتى في تصرفاتها الخرقاء، قالت لي دون أنّ ترفع حتى عينيها، " أنا أفكر باستئجار مكان، لكن المكان الذي أعجبني كبيرٌ جدًا عليّ. ومن الأفضل لو أتشاركه مع أحد. فهل يهمك الأمر؟"

"أجل،" قلت لها، حتى قبل أن أعي ماهية عرضها. كانت "أجل" متعجلة جدًا.

خارجًا على الرصيف، وضعت يدها على ذراعي، ذات الإيماءة التي وضع بها ابنها يده الصغيرة على ذراعي. والآن بت أعرف من أين جاءت. "سأتصل بك،" قالت لي. "في نهاية الأسبوع، تعالي ورافقيني لرؤية المحترف. ربما بعد ظهيرة السبت؟ إسكندر ورضا سيجدان شيئًا يقضيان وقتهما فيه معًا."

"أجل،" قلت لها، غافلة عن وعدي لوالدي بأني سأزوره في ذاك

اليوم، أن عليّ الآن أن أتصل به وأخيب أمله، رجلٌ مسن ومقتصدٌ شحيح، هزيلٌ وأشيب، يعيش وحده في شقة في بروكلاين، يعد الأيام بالساعات حتى وصولي إليه. وحتى لدى إدراكي خطأي، لم أتردد؛ لم أنتظر اتصالاً من سيرينا تؤكد فيه موعدنا، بل سارعت واتصلت به، أتصوره جالسًا هناك في غرفة الجلوس الصفراء الليمونية الدافئة أكثر من اللزوم، بتنجيدها الغريب من نسيج البلش الزهري العتيق الذي اختارته أمي لدى انتقالهما من بلدة مانشستر، إذ حتى حين انكشف لها قدرها المحتوم كانت لا تزال قادرة على اتخاذ قرارات كهذه - وما أجده غريبًا، بالنسبة لي، أن أمي قد اختارت عامدةً تأثيث الشقة بما يلائم ساكنًا عجوز، فكل الألوان التي اختارتها وكل قطع الأثاث التي قررت إحضارها معها من بيتهما قد أفضت إلى أجواء الجدة المسنة الهشة، وكأنها بخلقها تلك الأجواء ستجبر نفسها بقوة مشيئتها على المضي قدمًا نحو الشيخوخة (لم تكن عجوز حينها؛ لم تكن عجوز حين ماتت)، أنها قد تدفع بجسدها إلى المثابرة إن هيأت وحسب الأجواء المناسبة للمثابرة - ودائمًا، كلما تحدثت معه، أتصوره يجلس مهجورًا في ذاك البحر اللجي من الزهري والأصفر الليموني، غافلاً، كما بدا لي، عن معناه الحقيقي. أخبرته بأن أمرًا ما قد طرأ؛ لمحت له بأن الأمر له علاقة بالمدرسة. حاول أن يبدو متحمسًا لأجلي، معتقدًا أن الأمر يتعلق بارتقائي الوظيفي، بدوري حاولت الادعاء وكأني ساخطة من الالتزام المفاجئ، كأن لا شيء لدي كنت أفضل القيام به سوى زيارته. كلانا كان متواطئًا في هذا الخداع اللطيف والذي دام طويلاً بيننا حتى غدونا غير واعيين له؛ لكن من المؤكد أنه عرف أني لست آسفة لتلك الدرجة، وعن نفسي عرفت أنه قد خاب أمله، وأنا

خجلة للاعتراف لك بأني كنت جدُّ متحمسة حدَّ عدم اكتراثي له.

***

وسيأتيك وقت، وقت لوسي جوردان، تبدو فيه حياتك ضئيلة وثابتة ولا شيء فيها يتغير من حولك، لن يخطر لك ذلك، ستغدو موقنًا أن الأمل لم يخلق لأجلك - وإن كنت أنا، ففي المرحلة الباكرة من وعيك لحقيقة وضعك، لن يعتريك حتى أي شعور بالغضب. محبط، ربما؛ مصدوم؛ إذ سيبدو لك وكأن هذه هي حقيقة الحياة، عالمٌ حيث قمة الإثارة التي ستشهدها في يومك هو وصول العدد الجديد من كتالوج غارنيت هيل والذي ستتصفحه بتمعن في الحمام، عالمٌ يتجسد فيه الانتصار لدى ذهابك في نزهة سير طويلة عبر المقبرة المهيبة المغمورة بالثلج بعد هبوب العاصفة الأولى، وبمعجزة ما لن تتوه بين الأموات، وستعثر على شاهد أمك وتقبله، تقبلها: ها هو ذا انتصارك. الحجر سيترك على شفتيك وأنفك أثرًا من الطعم الجليدي؛ والسماء، الملبدة بحيود غيومها، ستراها موشاة بمسحة من اللون الخبازي. شتان بينها وبين التجمعات الراقية في معارض نيويورك الفنية في حيّ ميت باكنغ[17] التي آمنت يومًا بأنك مقدَّرٌ لها؛ ومع كونه جميلاً - فحتى الحزن له أن يكون جميلاً - فهذا الانتصار الصغير لا يحمل لك في طياته بشارة بداية جديدة. فلنقل أنَّ الأبواب المفتوحة للمقابر ليست بالضرورة الأبواب التي تود الدخول فيها.

(17) Meat Packing District: حي صناعي من أحياء مانهاتن في مدينة نيويورك اشتهر سابقًا بصناعة تعليب اللحوم، لكن بات حديثًا من الأحياء التي تضم صالات فنية ومحال أزياء راقية ونوادي ليلية.

لكن يبدو - بل هو ذا - وكأنما هذه هي حقيقة الحياة، الموت أو كتالوج غارنيت هيل، تلك الصفحات المبهجة المهلهلة التي ستلهيك عن الموت؛ ومثلها حلقةٌ من لاو آند أوردر[18]، لأنك دائمًا في محطة ما، في أي وقت مساءً كان أم نهار، ستجدها المحققة بنسون! المحقق ستابلر! كم طال شوقي لكما! وبرفقتهما لن تعود وحدك.

من ثم، فجأةً، ينبثق أمامك شيءٌ آخر، في اللحظة التي ما عدت تتوقع فيها شيئًا. فجأة فرصةٌ تسنح، بابٌ يفتح، شخصٌ أو أشخاص ما كنت حتى لتتخيل وجودهم في حياتك، وها هي تغمرك - الجذل! - تشعر وكأنما قد وقعت على كنز مفقود، بعد أن أيقنت أن كل الذهب قد اختفى من عالمك وللأبد. ولوقت ما - ووقت طويل حتى- ستنسيك أنك كنت يومًا ما غاضبًا، ستنسيك حتى ماهية الغضب.

---

(18) Law and Order: Special Victims Unit - مسلسل تلفازيّ.

7

لدى التحاقي بالجامعة - ميدلبري، كلية صغيرة لتعليم الفنون الجميلة ومعروفة بتخصصاتها في دراسة اللغات، في ولاية فيرمونت - لم أتخصص في الفن التشكيلي. إذ لم يبد منطقيًا الالتحاق بميدلبري لدراسة الفنون مع وجود كليات أفضل وأقرب. كانت معركة، أو بالأحرى، نقاشًا خضته مع والديَّ قبل اختياري الكلية. كنت قد قدمت أوراقي إلى كلية رود آيلاند للتصميم في بروفيدينس، ومعهد برات في نيويورك، وكذلك إلى كل كليات ومعاهد الفنون المرموقة، فأجلسني والداي وأخبراني بأنهما يريان في دراستي الفنون هدرًا للفرص. لم أفاجأ بمعرفة أن هذا كان رأي أبي؛ لكني وثقت بأمي، لذا أصغيت إليها.

"ستمارسين فنك بكلتا الحالتين،" قالت لي، " فالفن لا يقوم على شهادة جامعية. ولأكون صادقة معك، فعالم الفن لا قيمة فيه للشهادات."

"إذن لم عليّ الالتحاق بالجامعة من الأساس؟ لم لا أبدأ بممارسة فني من الآن؟"

"اسمعيني، فأرتي" - كذا كانت أمي تناديني، فأرتي؛ لا أحد آخر سواها كان يناديني هكذا، ولا حتى أبي، وحين فقدت أمي القدرة على النطق شعرت بها تناديني هكذا في عينيها - "أنت التوّ بلغت السادسة

عشرة. لست راشدة كفاية للتصويت، ولا للشرب، ولا لتوقيع عقد إيجار شقة، أنت بالكاد بالغة كفاية كي تقودي. لك أن ترحلي بعيدًا إلى الجامعة أو البقاء معنا في البيت وممارسة فنك في المرآب والعمل طوال اليوم في سكب البوظة أسفل الشارع. الخيار خيارك، لكني أعرف ما كنت سأختار: الرحيل بعيدًا عن هذه الزريبة الرجعية الوضيعة! كنت سأختار رؤية العالم."

"ولم لا تفعلين ذلك؟"

"لم لا أفعل ماذا؟"

"الرحيل ورؤية العالم."

"أوه فأرتي" - كانت تمسد شعري، والذي كان طويلاً آنذاك، لذا تمسيدها جاء أيضًا تربيتًا على مدِّ ظهري. جلست بين يديها كما القطة، لا الفأرة. وكم أحببت ذلك. كم أحببت كوني طفلتها. أذكر نظراتي إليها وإيماني بأنها كانت أجمل ما في الوجود. "لقد حظيت بفرصتي، حلوتي. ربما ستتاح لي فرصةٌ أخرى. لكن الآن، فالبيت في أمس الحاجة إليّ."

"لماذا؟"

"ألا تدرين، أني أنا من يخلق من البيت وطنًا؟ فهذا واجب الأمهات."

"لكني سأرحل وحينها -"

"أنا أحبُّ أباك. هو أيضًا في حاجة إلى وطن."

من ثم عدنا إلى مسألة الجامعة، بدا وكأن تخصص الفنون الجميلة لم يكن حقًا بخيار، لأن لا مال هناك لأجله - بالكاد هناك ما يكفي، حتى مع القروض، ما يؤمن التحاقي بالجامعة - وقد كان مهمًا

جدًا لأمي أن أكون مؤهلة للتوظيف.

"لا تزالين جدُّ يافعة، لك أن تلتحقي بكلية الفنون لاحقًا ولن تكون حتى بالمخاطرة الكبيرة. تلتحقين بالدراسات العليا وتنالين شهادة ماجستير في الفنون إلى جانب شهادة البكالوريوس العملية، وستغدين مستعدة لكل شيء. أريد لك أن تحصلي على كل شيء. فالوضع مختلف عن وضعي في شبابي، مع شهادة "السيدة"[19]. لن تعتاشي على مصروف ضئيل، لن تعيشي على ظهر أي رجل، مهما كنت تحبينه. لن تعتمدي أبدًا على أي أحد سواك. هل اتفقنا؟" وفي نبرتها التقطت تلك الحدة، ما ظننته حينها سوداوية، لكني أدركها الآن غضبًا مستعرًا، هي ذاتها النبرة التي كانت تشوب حديثها في مراحل اكتئابها المتقطع. وهكذا التحقت بميدلبري.

لطالما أدركت أن المعضلة العظيمة في حياة أمي هي أنها لمحت فرصة الحرية، لكن في وقت متأخر جدًا، ومقابل ثمن باهظ جدًا. أمي كانت تنتمي إلى جيل النساء الذي تغيرت فيه قواعد الحياة في منتصف العمر، إذ ولدن في عالم الملابس المكوية والوجبات الثلاث على مائدة العشاء والتسريحات المرفوعة المرذوذة برشاش الشعر، حيث التعليم الجامعي للنساء ما كان إلا مرحلة تجنيدهن ربّات بيوت - أشبه ببسط مفرش مطرز مشغول بأدق التفاصيل على المائدة التي سيتناول فيها أطفالٌ فوضويون وجبة فطورهم. شهادتها الجامعية من ميتشيغان ما كانت سوى زينة، ودائمًا ما انتابني الإحساس بوجود مغزى من إبقاء الشهادة المؤطرة أسفل الإفريز في العلية، مفسطنة

(19) MRS Degree: لقب كان يطلق على الشهادات الجامعية التي تنالها النساء في الجامعات بهدف تحسين فرصهن بالزواج لا بهدف التعلم ودخول سوق العمل والارتقاء الوظيفي. اللقب كان رائجاً في الخمسينات من القرن العشرين.

بكتل خيوط الغبار، مهجورة بين العشرات من الأعمال الفنية البسيطة المتبرأ منها، خلف صناديق الألعاب المرمية. كانت أول امرأة من عائلتها تلتحق بالجامعة، اكترثت بما فيه الكفاية لتأطير شهادتها، لكن سرعان ما خجلت من تأطيرها، إذ أخذ الخزي يعتريها لشعورها بأنها لم تصنع شيئًا بها، أنها هدرت فرصتها.

على ما أظن، فهذا الانتقال من الفخر إلى الخزي عاشته أمي بعيد ولادتي: فقد ظهرتُ في حياتها عام 1967، وفي عام 1970 صديقتاها المقربتان في مانشستر تطلقتا وشدتا الرحال بعيدًا، حيث ولدتا من جديد إلى حياة المرأة المتحررة التي لا تقل فوضوية ولا أراها بالضرورة أكثر سعادة. أخي كان قد ولد عام 1959، حين كانت بيلا إلدريدج لا تزال فتية في عمر الثالثة والعشرين: هو كان التطبيق العملي لشهادتها العزيزة.

حسب ظني، فالمتطلبات اللجوجة للأمومة الأولى لم تثقل كاهلها وتحرق أعصابها وترهقها حدَّ الانهيار. ففي تلك الأيام، كل الشابات اليافعات من حولها كن يفعلن ذات الشيء، يحتسين القهوة ويناقشن جين أوستين بينما أطفالهن المزعجون في حفاضاتهم القماشيّة يتمرغون من حولهن على الأرض، كذلك كن لا يزلن تقريبًا طالبات، سعيدات لإعفائهن من القلق المالي، وما يزلن مؤمنات بتفاؤل حقيقي أن الحياة أمامهن طويلة، وستجلب لهن ما هو أكثر من السجاد الموكيت وقدر الطهي البطيء، ومناسبات العشاء في لوك أوبر، أو كوبلي بلازا، في بوسطن كهدية عيد زواج. كانت لا تزال بعد شابة يحدوها الأمل.

هناك فائضٌ من الأفلام المنزلية والشرائح الضوئية العتيقة

للرضيع ماثيو، مع رأسه المربع الفرانكشتانيّ وعينيه الزرقاوين البراقتين - الصورة النمطية لرضيع زمنه، حاملاً كل السيماء الأميركية التي على ما يبدو يفتقد إليها الرضع الأميركيّون هذه الأيام - وفي الخلفية، أمي تبتسم ابتسامتها العريضة، وجهها حاد الزوايا، والسيجارة في يدها. تكشر مبتسمةً عند الأرجوحة، تكشر مبتسمةً عند شجرة عيد الميلاد، تكشر مبتسمةً خلف طاولة النزهة، المفروشة بغطاء أزرق من نسيج الجنهام، في احتفال الرابع من يوليو.

في الصور اللاحقة، القليلة المتبقية من طفولتي، حتى ضوء النهار يبدو قاتمًا. ربما لأن كوداك قد غيرت تركيبة موادها؛ أو ربما لأن العالم قد مضى قدمًا. كنت رضيعة أصغر حجمًا ومتجهمة، ولدت قبل الموعد المقرر بثلاثة أسابيع، أزن أقل من ستة باوندات ("فتاتي دائمًا متعجلة"، كذا اعتاد أن يقول أبي)، وبشعر أسود كثيف سرعان ما تساقط وتركني شبه صلعاء لأشهر. كنت أبدو في الصور كما الضفدع المرتبك المزدان بملابس جميلة، بدوت قدمًا سمينة تختلس النظر من أسفل الهدب، وأخي، الولد الجثل ذو الثمانية أعوام، ذو الأسنان الناتئة، يرمقني شزرًا من زوايا الصور المؤطرة. أمي بالكاد تظهر في تلك الصور، لا أراها في أي مكان فيها. لا بد وأنها هي من التقطتها. هناك صورةٌ لثلاثتنا عشية الميلاد، أبي من يقف خلف الكاميرا: وفقًا لكلامها، فقد كان العام الذي أنا وأخي أصبنا فيه بالانفلونزا، وجهانا ممتقعان من الحمى، وجناتنا زهرية فاقعة مثل وجنتيْ دمية، وكذلك الحال مع وجه أمنا، شعرها الطويل في فوضى عارمة، ومئزرها المنقط لا ينفك ينزلق من على كتفها. ربما أعيننا بدت كئيبة بداعي الحمى - حتى عينا مات بدتا سوداوَين - فم أمي نصف

مفتوح في إيماءة ازدراء، وكأنها على وشك أن تنهر أبي بأن يكف عن العبث ويلتقط الصورة اللعينة.

لا أرى سنوات طفولتي في ذاكرتي سنوات تعسة - بل العكس؛ الشيء الوحيد الذي كنت أخافه وقتئذ كان أخي، من كان لئيمًا بقصد معي ولا يتوانى عن إيذائي كلما سنحت له الفرصة - لكن الدلائل تشير، على قلتها، أنَّ أمي كانت تعاني. كانت فقط في الحادية والثلاثين من عمرها حين أنجبتني، لكن كان قد سبق وعاشت الدور بأكمله مدركة تمامًا لما ستضحي به، ومدركة كذلك، مثلها مثل الأميرة النائمة، أنها قد أفاقت من سنوات حلم أمومتها لتجد الأعوام وقد انقضت، أنها باتت في طريقها نحو الأربعين. لا عجب أنها لاحقًا رمت بنفسها في حبك مشاريعها الطائشة - الطهي، الخياطة، تأليف كتب الأطفال التي ما كان لأحد أن ينشرها، التي في واقع الأمر لم تحاول حتى نشرها، إذ كانت ترى في كل مشروع من تلك المشاريع منجنيقًا يقذف بها إلى مستقبل أعظم، إلى عالم وراء حدود مانشستر، إلى حلم يقظة قديم كان لا يزال يلوح أمام عينيها. لكن حتى حين التحقت بحصص مهنية - صناعة الفخار أو المحادثة بالفرنسية - كان من الصعب الاقتناع بأنها أخذت تلك الحصص بجدية. الوظيفة الوحيدة المدرة للمال التي أدتها في حياتها إبان صباي كانت لدى متجر الكتب المحلي في موسم الأعياد، متى ما طلبوا تعيين موظفين إضافيين - أمي وبرفقتها طالبان جامعيان - للتعامل مع زحمة تسوق الأعياد. أدتها لأعوام متتالية حتى غدت خبيرة في تغليف الرزم، الزوايا والشرائط المذهبة اللولبية تخرج على يديها بمنتهى المثالية.

لم تكن أمي، بأي معنىً للكلمة، طموحة. صديقاتها السابقات

من كن طموحات كن قد أخذن خطوات استراتيجية، التحقن بكلية الحقوق في المساء، أو التحقن بدورات الإعداد لامتحان نيل رخصة العمل في بيع العقارات، من ثم خطين بعيدًا عن مواقد بيوتهن، خارجات نحو العالم. كانت معجبة بهن وحاقدة عليهن في ذات الآن، كما تعجب النسوة الممتلئات بقريناتهن اللواتي يلتزمن بنجاح بالنظام الغذائي فيحقدن عليهن، يحاولن مبتسمات إجبارهن على تناول قطعة كبيرة من كعك الشوكولا. لم تحافظ على علاقة وثيقة باللواتي عدن إلى سوق العمل، أو من تطلقن وانتقلن إلى المدينة: هي كانت تحتفي بهن على موائد الغداء التي تعدها لهن من ثم ترسلهن في طريقهن بعيدًا عنها، وكأنهن قد انطلقن في مهمة محفوفة بالمخاطر من حيث - وهو الواقع فعلاً - لا أمل أبدًا بالعودة.

هل تذكر كيف كانت موائد غداء السيدات في تلك الأيام؟ المائدة كانت تعد في الصباح الباكر. أطباق السلمون المسلوقة الباردة وسلطة والدروف، أباريق الشاي المثلج، قناني النبيذ الأبيض المتعرقة، كل شيء مقدم في أجود طقم من الآنية الصيني، ولدى عودتي من المدرسة أجد السيدات كلهن ما يزلن جالسات في الضباب الأزرق لدخان سجائرهن، وكأن لا شيء في العالم يستدعيهن للنهوض. ومعرفتي، حتى حينئذ، بأن متى ما غادرن تلك الحلقة المسحورة، فقد رحلن إلى الأبد.

حين كنت في السابعة من عمري، في الأسبوع السابق للكريسماس - ولا بد أن أشير لك أن الحادثة قد وقعت قبل سنوات العمل في متجر الكتب؛ والآن فقط يخطر لي أن تلك السنوات ما جاءت إلا نتيجة مباشرة لهذه الحادثة - انهارت أمي باكية في السوق

المركزي آي آند بي، وجهها غدا خريطةً من البقع في الضوء الشاحب للسوق. كنت قد طلبت منها غرضًا زائدًا - أظنه كان مرطبانًا من شوكولا كوجل، والتي كانت رائجة لدى الأمهات المتساهلات في تلك الأيام واللواتي سمحن لأطفالهن بتناولها كشطيرة غداء للمدرسة، يدْهنَّ الشوكولا على شريحتي الخبز الأبيض مع الزبدة: ها هي الحلوى أضحت غداءك! والعالم كله اختبل! - وما إن سمعت طلبي تغضنت ملامح وجهها.

"سامحيني، سامحيني" هذرت غارقةً في دموعها بشكل مخز أمام الناس، أحاول دفع العربة قدمًا ودفعها هي الأخرى مطرقةً رأسي، "لكن لا شيء لدي كي أمنحه لك ولأخيك. لا شيء على الإطلاق. لا أملك شيئًا أهديك اياه في الكريسماس. فما عاد لديّ من مال." صاحت في عويل خافت؛ وانكمش جسدي. "كان لا بد من تصليح غسالة الأطباق، وتبديل زجاج النافذة الأمامية للسيارة بعد أن ضربتها الحصى على الطريق السريع - وكلها أمورٌ مكلفة كما ترين، ألا ترين، لا أملك شيئًا. ولا أملك الطلب من أبيك. لا يسعني أن أطلب منه أكثر. لذا لا أملك شيئًا لك البتة. أنا جدُّ آسفة." فأمي، كي أفسر لك الوضع، كانت تعيش على مصروف شهري من أبي - أو معاشًا إن كنت تفضل تلك التسمية: كان له حسابٌ بنكي، وهي كان لها حسابٌ بنكي، وكل شهر يحول مبلغًا مقتطعًا من حسابه إلى حسابها لتدبير أمور المنزل، وتصرف هي المبلغ على تدبير أمور المنزل، وما كان لمبلغ أن يتبقى للهدايا. فحتى مع كوني صغيرة آنذاك، كنت واعية لقواعد هذا الترتيب.

"لا يهمني،" قلت لها، أحاول مواساتها دون التسبب بمزيد من

الإحراج. "فأنا لا أكترث للهدايا." رغم أني كنت أكترث، وكنت خائبة الأمل، لا سيما أن إيماني بوجود سانتا كلوز كان لا يزال حقيقيًا قبل نوبة الانفعال هذه والتي بدت مماثلة للحظة انكشاف حقيقة الساحر أوز من خلف ستارته، انفعالها كان خرقًا غير واع منها للسلوك العام وضروريات النفاق بين الوالدين وطفلهما. "صدقًا،" كررت لها، " لا يهمني."

وإذ فجأةً - بصورة عصي عليّ فهمها في عمري آنذاك، لكن غدت واضحةً جلية لي الآن - تحولت إلى إنسانة خبيثة، غاضبة، منفعلة في نوبة لا تقل إحراجًا عن سابقتها التي انفجرت فيها بكاءً في سوق آي آند بي. "إياك أبدًا أن تسمحي لنفسك بأن تعلقي هكذا،" هسّت قائلةً لي. "أتعدينني؟ أتعدينني الآن؟"

"أعدك."

"عليك أن تحظي بحياتك الخاصة، اكسبي مالك بنفسك، كي لا تستجدي المال كما المتسول، تحاولين عبثًا جمع عشرة دولارات تشترين بها هدايا الكريسماس لأطفالك. تعتاشين طفيليةً على الراتب الوضيع لأبيك - أو زوجك. إياك أبداً. أبداً. هل تعدينني؟"

"قد وعدتك."

"أتفهمين ما أقول إذن، هذه حياتك ومصلحتك"

"أدري."

وبذا انتهى الأمر. جففت دموعها ورسمت ابتسامةً مشرقة على وجهها لدى بلوغنا الصرّاف، الأثر الوحيد على أساها كان لطخةً خفيفة للمسكرة. سادي كانت الصراف، ابنة معلمتي العجوز في الصف الأول، فتاةٌ تتحدث بصوت عال على مهل وكأنما هي، أو كأنما

نحن، نعاني من الصمم. كانت قد جمعت خصل شعرها البني في ذيل حصان على جانب رأسها فبدا الذيل مثل مقبض مضخة مياه قديمة الطراز.

"السيدة إلدريدج،" قالت زاعقةً. "دائمًا تسعدني رؤيتك."

"وأنا أيضًا، عزيزتي سادي."

"هل أنت متحمسة للأعياد؟"

"بالتأكيد! أليست هي أسعد وقت في العام؟"

"هي كذلك. كم أعشقها. ألا تعشقين الأعياد، نورا؟"

لم أجبها إذ كنت مشدوهة بمشاهدة أمي. فبينما أخذت تكدس المشتريات على حزام الناقلة ارتسم على ملامحها تعبيرٌ متقد من الحنين بدت فيه مثل بورتريه لنورمان روكويل. رأيتها مؤمنة صدقًا بما قالته التو لسادي، مؤمنة بأن الأعياد هي أسعد وقت في العام. تلك التي بكت وصاحت بوجهي قبل عدة دقائق كانت امرأةً أخرى، وبيلا إلدريدج ما كانت لتتعرف عليها أبدًا.

***

أمي لم تكن بالمرأة البكاءة ونادرًا ما رأيتها تبكي؛ لكن هناك حادثة ارتجالية أخرى لانهمار دموعها بقيت عالقة في ذاكرتي. الحادثة وقعت قبيل مغادرة أخي إلى الجامعة - في الصيف، لأني أذكر تجمدنا جراء التكييف في مطعم هونان غورميه. أخي كان نكد المزاج، يتمنى لو كان في طريقه الآن للجامعة. أبي، بطبيعته الباردة، كان غافلاً عن التوتر حول المائدة، عن الإشراقة المتصنعة لأمي المتوترة وهوسها، طوال جلوسنا إلى المائدة، في مد يدها نحو كم قميص مات من ثم سحبها

قبل أن تلمسه، وكأنها تكّة شبح عصبية. بدا الأمر وكأني الوحيدة التي أرقب ما يجري، الوحيدة من تسنى لها رؤية أربعتنا جالسين في المقاعد الجلدية ذات الذراعين، متكئين على مفرش الطاولة الصناعي المبقع بالصويا (كان المفرش ينزلق على وقع أوهى حركة، من ثم يعود وينزلق إلى مكانه)، الأب وابنه أخذا يثرثران على نحو متقطع عن الموسم القادم لكرة القدم وكيف أن على أخي أن يشجع فريق نوتردام من كل قلبه طالما سينتقل إلى هناك، قاطعًا كل الطريق إلى إنديانا. أمي، من كانت تزدري الرياضة، ما فتأت تحاول تغيير الموضوع، تلتقط خيوط مواضيع أخرى (الحرم الجامعي؟ الرحلة؟ اختيار بزيي صديق مات الالتحاق بجامعة بودوين؟) بدت مثل عقعق بعينين زجاجيّتين: مخذولة، عنيدة، وسريعة. كانت أمسية لم أقل فيها شيئًا - وهو ما كان عليه الحال دائمًا مع عائلتنا، فلا رابط حقيقي بيني وبين ماثيو يتجاوز إهانته المعتادة لي أو عبثه العدائي الصامت بشعري. لذا كلما اجتمعنا نحن الأربعة، فوالدانا إما والداه أو والداي، إما على الوضع الأول أو الثاني، قادران على التعامل بكفاءة فقط مع أحدينا، ما كنا سوى طفلين صدف أننا نتشارك السلف الملعون ذاته. وأمسيتنا في هونان غورميه كانت بامتياز ليلة ماثيو إلدريدج.

كانت كعكة الحظ هي ما ضربت أمي في مقتل. جلّ ما قالته كعكتي "هاليلويا!"، كعكة أخي وعدته بـ "إجازة قصيرة ستنالها عن قريب." أما كعكة أبي فقد أخبرتنا " أن السعادة لا تكمن في موقعنا في الحياة، بل في أسلوب تعاملنا مع الحياة" - ولو كانت تلك الكعكة من نصيب أمي، لربما سارت الأمور على ما يرام. لكن كعكة حظ أمي قالت: "ما لم تفعله في حياتك هو ما سيعذبك" - وعرفت بمحتواها

فقط لأني التقطتها عن الأرض في طريقنا للخروج. فما إن قرأتها أمي أطلقت صيحةً خافتة، كأنها جرحت، جعدتها وطرحتها أرضًا، من ثم استكانت إلى الصمت ولم تنبس بينت شفة، وفي الدقائق العشرة الأخيرة من وجودنا على المائدة شاهدت دموعها تترقرق في عينيها وتسيل على وجنتيها دون أن يقر بها أحد، شاهدت رعشة شفتها السفلى، وشاهدت أبي وأخي يرميان بنفسيهما في حمو نقاش كرة القدم (حتى أن مات تخلى عن وجهه المكفهر، وبذل جهده كي يبدو متحمسًّا) كل هذا كي يتظاهرا بأن الأمور كلها على ما يرام. لا أحد قال شيئًا لأمي؛ لا أحد سألها حتى عما حملته لها كعكة الحظ. ما حدث وحسب أن أبي في طريقنا للخروج وضع يده على كتف مات وهمس له، في تلك النبرة الرجولية القاطعة والواثقة لرجال ذاك الوقت، قائلًا، "كُن طيّبًا مع أمك هذه الأيام الأخيرة. فمن الصعب عليها رؤيتك ترحل عنها." وأنا، من كان عمري آنذاك ثمان سنوات، تساءلت إن كان الرحيل إلى نوتردام رحلةً محفوفة بالمخاطر، مثل الرحيل إلى فيتنام (فابن خال صديقتي شيلا كان قد قتل هناك قبل عامين، والأخ الأكبر لولد معنا في الفصل عاد من هناك مخبولًا)، لكني لم أسأل.

على مرِّ الأعوام حاولت جهدي استيعاب مشاعر أمي التي خالجتها في تلك اللحظة - أكان ندمًا على علاقة حبٍّ لم تكتمل؟ لحظة انكشاف مصير لوسي جوردان؟ حزنًا اعتياديًا على رحيل أخي، أم تأملات في الحياة ستبقى الآن وللأبد طي الصمت؟ - كل ما أعرفه أني لن أعرف أبداً. فقد قررت، لأمد طويل، أن حزنها ولا بد كان متعلقاً بنهاية دورها الأمومي، مع معرفتها الموجعة بأن كل ما ضحت

به كي تربي ابنها، جاء فقط كي تسلمه جاهزًا إلى العالم. لكن مؤخرًا، بدأت أعتقد أن الأمر له علاقة بقصة حبٍّ غير مكتملة، ربما غزل متبادل مع غريب ما في محطة القطار، أو رسالة إلى حبيب في الجامعة لم تستلم أبدًا الرد عليها، لحظة من تلك اللحظات السرية التي تدفعك للاعتقاد بأن حياتك مقبلة على تغيير كبير، بيد أن لا تغيير يقع. ربما كان أمرًا تافهًا لكن عنى لها الكثير وقضت كل يوم من أيامها معذبة تحت نير ندمها عليه. على مدار أعوامي مع أطفالي، اكتشفت أن التفسير الأبسط غالبًا ما يكون الصحيح؛ أن أي ضرب من ضروب الجوع - أو بمسماه الآخر الرغبة - هو أصل كلِّ أسى.

حتى حين كانت الفرصة لا تزال متاحة أمامي، لم أسألها. ربما ما كانت لتتذكر أصلاً بكاءها في هونان غورميه، مثلما أنا متأكدة أنها ما كانت لتتذكر بكاءها في سوق آى آند بي. حين عرفت بتشخيص مرضها - بقدرها الموعود من العذاب اللامتناهي، بأمور كثيرة لن يتسنى لها فعلها، أبدًا لن تفعلها، أبدًا - لم تذرف حتى دمعة واحدة. كان أسىً مجردًا من التعابير. لأشهر كانت تعاني من رجفة في يدها اليسرى، ظنتها تكة توتر. كانت قد أرتني اياها بينما كنا جالستين إلى طاولة المطبخ حين عدت للبيت في زيارة لتناول العشاء - كان المنزل يخيم عليه الصمت آنذاك، الصمت الرهيب، فلا وجود لماثيو، ولا أنا، ولا زيغي، ولا سبوتنيك، والرواق كان قاتمًا خارج الضياء الغامر في المطبخ، يكسر حدة ظلمته الوميض البعيد لإنارة مصباح أبي للقراءة في عتمة غرفة الجلوس - كيف لجسد طبيعي أن يحتمل قضاء كل ذاك الوقت الطويل في قراءة نيويورك تايمز؟ - كانت قد قالت لي، بضحكتها الحادة، "انظري هنا! تظهر وتختفي. يبدو أن

يدي قد بات لها عقلها الخاص، تظن نفسها أذكى مني. كم هو مقرفٌ التقدم في السن."

"عليك أن تستشيري الطبيب شيلبي بشأنها،" قلت لها، لكن في نبرة لا مبالية، لأني ورغم رؤيتي للرجفة، الرعشة المتموجة لعضلات أصابعها، ولأن تلك الأصابع جزء من جسدها، جسد أمي، وكان بوسعي فعلًا رؤيتها، رأيتها أمرًا طبيعيًا لا يثير القلق. كذلك، فقد كنت منشغلة في صبِّ كأس آخر لي من نبيذ بينو غري قبل العشاء، فآنذاك كنت قد اكتشفت أني إن لم أفعل، فظلمة البيت ستنز في عظامي كما الغاز السام، وستطرحني عليلة لأيام لاحقة. حينئذ كنت قد قاربت الثلاثين، وأمي كانت في الحادية والستين، وأبي قد جاوز التو سن الخامسة والستين، مع عدة أشهر فقط تفصله عن تقاعده، واليوم إذ لا يبدو لي سنيهما بعيدين جدًا عن سني، بتُّ أعجب من كل ما رأيتهما يتخليان عنه. لكن أكثر ما وترني لدى زيارتهما كانت أجواء العزلة، الضجر القاتل المتأتي عنها والذي يعيقك عن فعل أي شيء، تلك الأجواء صدقًا كانت تسقمني. وجدت العون على التحمل في كأس من البينو غري، وكذلك في كأس من البينو نوار. أو حتى في البيرة إن كان هذا جل ما لديهما كي يقدماه لي. الحقيقة هي أني لم أعرها اهتمامًا صادقًا. وأنا متيقنة أنها قد سبق وأن أرت الرعشة لأبي، وأظنه رفع عينيه عن الجريدة وكرر ما قلته أنا في ذات النبرة اللامبالية، ولذا لم تفعل شيئاً بخصوصها، لم تزر الدكتور شيلبي ولم تحدثه عن الرعشة لما يقارب العام، وإبان ذاك العام كان الارتجاف الحزمي، كما هو معروف طبيًا، قد انتشر إلى قدميها أيضًا، لكن لم يكن قد بلغ بعد يدها اليمنى - يد الكتابة - وإلا لكانت هرعت فورًا إلى الطبيب. وما إن

بدأوا في إجراء التحاليل والفحوصات - التشخيص العصبي الكهربي وفحص سائل النخاع الشوكي وخزعة العضلات وكل ما يلزم - كان الذعر قد دب فيها، إذ يكفيها الخوف الذي رأته على ملامح الدكتور شيلبي كي تذعر. ورغم ابتسامتها المنافقة، فقد كانت أمي صريحة جداً، وقالت لي، "كنت أريده أن يطمئنني، وحين أدركت أنه لن يفعل ذلك، قلت في نفسي، ها قد بلغ الخراء الزبى."

وأخيرًا حين أبلغوها بالتشخيص - إذ تطلب الأمر منهم وقتًا، مع حذفهم الكثير من الاحتمالات الأخرى - أظنها كانت تعرف أصلًا ما سيخبرونها به. فالتشخيص – أي إل إس[20]، أي لو غريغ، أي مرض ستيفن هوكنغ - جاء توكيدًا على موتها المحتوم، وأدري أن الموت قدرنا جميعًا، بيد أنها مذ تلك اللحظة كانت ستقضي بقية حياتها تموت ميتةً متسارعة وفعالة، أفظع من ميتة معظم الناس، وإن كانت رحيمة بعدم إيلامها، فجسدها ما عاد معبدًا بل سجنًا، بابٌ تلو الباب سينغلق عليها، إلى أن تغدو حبيسة عقلها - العقل غرفة بلا جدران، صحيح، لكن في النهاية تبقى غرفة بلا باب.

ما رأيته مذهلاً، بل وحتى تنويريًا، إذ كنت لا أزال أتعلم، وما زلت أتعلم حتى الآن كيف لي أن أعيش الحياة، أن غداة معرفة أمي بالتشخيص لم تقفز عن كرسيها صارخةً، "فلنزر بورما! تاج محل! الأهرامات! سهول البمب!" كل تلك الأماكن التي لطالما تاقت إلى زيارتها. ولا انطلقت كذلك في جولة سايونارا وداعية تزور فيها بحيرات ماين، الشاطئ الشتوي في ويل-فليت حيث أحب والداي الاحتفاء بعيد زواجهما السنوي، يسيران في بياض الثلج والضباب، الغرفة في فندق

(20) ALS.

بيير في نيويورك حيث احتفيا نهاية أسبوع بعيد ميلادها الخمسين ومارسا - خطيئة الترف! - لدى طلبهما تناول الفطور على الفراش. حتى أنها لم تولِّ ظهرها لروتين حياتها، لم تترك الأطباق تتراكم قذرةً في حوض المغسلة، لم تدع الثياب تتراكم في سلال الغسيل، لم تترك الفناء مهملاً دون جز. بل واصلت حياتها وكأن شيئًا لم يكن. كلا، هي أصرت على مواصلة حياتها. كانت مدركة أن كل شيء قد تغير: أشرفت على تنظيف وحزم الأغراض في البيت في مانشستر وبيعه، مهمة أثبت فيها والدي أنه عديم الفائدة (لا أظنه كان سينجح يومًا في التجارة، أليس كذلك؟)؛ وأمي ما فتأت تضغط عليه حتى عثرا على الشقة في بروكلاين وتولت بنفسها تأثيثها وتصميمها، كما أسلفت، وكأنها ستحتفل فيها بعيد ميلادها السادسة والتسعين. ظلت تقرأ روايات الغموض، وظلت تشتري ذات المعجنات الدنماركية من المخبز السويسري، إلى أن عجزت تمامًا عن السير، وتلقت كل ضربة قاصمة - العكاز، الكرسي المتحرك، كل جولات العلاج البغيضة، قناع دارث فايدر التنفسي - وكأن تلك الضربات ما هي إلا بعوض تصفعها بكفيها، من ثم تتجاهلها.

ومما رأيته منها في تلك الفترة العصيبة، فلي أن أقول إنها قد أحبت حياتها. أحبتها كما كانت عليه. ومثلها مثل معلم الزن، اختزلت جوهر وجودها: لا عازة بي إلى التجول مشيًا في متحف بوسطن للفنون؛ لا عازة بي لأحدهم ان يدفع بي على كرسيٍّ متحرك في أروقة متحف بوسطن للفنون؛ لا عازة بي حتى لمتحف بوسطن للفنون برمته، لأن كنوزه، كما أحبتها، مطبوعة في ذاكرتي؛ وإن كانت ذكرياتي عنها تشوبها شائبة - زنبقة محل زهرة خزامى، قبعة الصبي الممزقة

مائلة بلا اكتراث في الزاوية الخاطئة - فتلك الشوائب قد صيَّرت تلك اللوحات لي. قد يعيرون المتحف اللوحة الفرعونية العتيقة لامرأة شابة، عيناها اللوزيتان أعجوبة، لأمد محدود، لكن في ذاكرتي ستبقى تلك اللوحة دائمًا معلقة في المعرض خلف المومياءات، محاطة بكسر الآنية الفخارية والمجوهرات العتيقة، محفوظة سرًا إلى الأبد في قلبي.

لكن هل لي أن أقول لك الآن وقد ماتت، ماتت منذ أمد، أني شبه آمنت بها؟ كنت أريدها - بل احتجت إلى رؤيتها تثور. أدري، الثورات تتطلب طاقةً هائلة، مثل ثورة بركان، أدري، صدقني أدري. والمريضة لا بد أن تدخر طاقتها (مع أنها ستسلك كل السبل في تسخير طاقتها لزوجها). لكن لم أستطع منع نفسي من الرغبة في الحياة لأجلها، لم أستطع منع نفسي من الشعور بأنها قد استسلمت، أنها قد قاست (أتراها قاست نصيبها بملاعق قهوة؟) مقدار ما يمكن لها أن تطلبه من الحياة، ولدى اكتشافها افتقار الحياة - افتقارها المأساوي البليغ - لما بيدها منحها اياه، فقد قررت، مع ذلك، تقبل نصيبها المتواضع. أردتها أن تغدو حقيرة، غير مسؤولة، غير منطقية، تافهة، متشبثة، طماعة لعينة تسعى لنيل كل شيء، تبصق وتدفع بمنكبيها وتنشب مخالبها في كل ذرة حياة. وأكثر يوم أحببتها فيه في حياتي كان يوم توجهت لزيارتها، كانت طريحة الفراش، شاحبة، تتكلف ادعاء العافية في صفير أنفاسها، بينما أقف أنا أمامها تنبعث مني نفحة الخريف وأتقد وهجًا - كان لي أن أشعر بتوهجي - جراء الركض لأميال من شقتي إلى شقتهم بعد ظهيرة منعشة أواخر أكتوبر - فحملقت بي مكفهرة قائلةً، "اغربي عن وجهي. لا أستطيع. اغربي عن وجهي. وإياك أن تظني للحظة واحدة أني ما عدت أذكر كيف كانت الحياة.

ولا تظني أني في هذه اللحظة لي أن أمنع نفسي من كرهك لأجل ذلك. هذه اللحظة وحسب."

وبالفعل غربت عن وجهها وغادرت - التدفئة الشديدة في شقتهما علاوةً على الركض جعلتني أتصبب عرقًا على مدِّ ظهري - ركضت في طريق عودتي للبيت ساعة الغسق، وكم كان الطقس باردًا، وكم كنت متعبة، قدماي تؤلمانني كلما خبطتا على الرصيف، عيناي تفيضان دمعًا وأنفي يسيل جراء الريح وجراء لؤمها معي - كيف لها أن تتصرف بهذا اللؤم معي، أنا من بين كل الناس؟ - لكن ما إن وصلت البيت، وحتى في غمرة شفقتي على نفسي، كنت مبتهجة: لأنها ولأول مرة تهدد بالتصرف بقسوة. مرةً واحدة، فعلتها وهدّدت.

وفي ذات المساء اتصلت بي كي تعتذر. لا بد أن أبي هو من أجرى الاتصال؛ فما عاد في وسعها فعل ذلك. كنت أنوي معاقبتها، أدع المجيب الهاتفي يتولى الرد عليها، لكني سمعت صوتها واهنًا جدًا فرفعت السماعة فورًا.

"أبدًا لا تدعي الشمس تغرب على خصام،" قالت لي.

"لأن إحدانا قد تموت الليلة،" أجبتها كما اعتدت أن أجيبها منذ كنت طفلة. لكن تلك المرة، ضحكت أمي، ضحكةً جافة، حزينة. "أوه فأرتي، إحدانا فعلاً قد تموت الليلة."

8

تطلَّب الموت من أمي أعوامًا. فالموت فنٌّ يصعب إتقانه. الأعوام التي كانت تموت فيها، قضيتها أنا أحاول معرفة كيف أعيش. أي كيف لي أن أعيش حياتي الخاصة. كنت أعلم أنه ليس من الصواب متى ما سألني أحدهم عن حالي ألا أجيبه سوى بالحديث عن أمي، أو عن أبي. كان عليّ أن أحاول، وقد حاولت صدقًا التغلب على هذه العادة، أن أحظى بحياة لي، اثنتين، أو حتى ثلاث. حينذاك كنت قد عدت أصلاً إلى بوسطن من نيويورك لأجل حضور الفصل الدراسي في كلية الفنون؛ إذ عشت فترة قبلها حياة الفنان وشبه تخليت عن فكرة إعالة نفسي كفنانة. فهناك شيءٌ ما في بلوغك الثلاثين يجعل من مشاركة السكن في شقة في جاميكا بلاين، مع زميل سكن متعرق يعمل ساعيًا على دراجته النارية، صديق الحبيب السابق لصديقة، مع أدواته تسد الرواق، وعملك المتقطع كحاضنة أطفال، يجعل الأمر برمته شبه لا يطاق. كنت قد بدأت الدراسة في تخصص التعليم قبل أن تعرف أمي بتشخيص مرضها. كنت أصلاً في طريقي - لا سيما لأبويّ اللذين تنفسا الصعداء - كي أكون قابلة للتوظيف.

حتى مع اعتنائي بوالديّ، تدبرت اكتساب مهارات عملية كثيرة في سنوات معدودة، مثلي مثل أكثر السكيرتيرات كفاءةً. عشت

حياةً مزدوجة: في الأولى، تجليت على صورة المرأة الشابة المنجزة بصورة مقبولة بالنسبة إلى أقرانها في مستهل الثلاثين، يعتمد عليها حتى وإن لم تكن مثيرة للاهتمام، سهلة التعامل، ذات همة عالية، فعّالة، في ملابس لا تلفت الأنظار وتسريحة شعر عملية، وصوت ذي نبرة أعلى بعض الشيء، وربما حتى لاهثة قليلاً كما قيل لي، مما قد يتوقعه أي أحد بناءً على هيئتي. أي بكل بساطة امرأة لا تحمل في جعبتها أي مفاجأة.

لكن حياتي الأولى كانت تنكرًا، كانت نسختي من حياة كلارك كنت، رغم أني، على خلافه، لم أكن في حياتي الثانية بطلةً خارقة. أحياناً كنت آمل أن يتخيل لي أحدهم حياةً ثانية درامية وبراقة، حياة عشيقة مطرب روك، أو عميلة إف بي آي. لكني لم أكن الشخص الذي قد يتعنى أحدهم تخيل حياة سرية له؛ وعلى كلٍّ، ففي حياتي الثانية لم أكن عشيقة ولا صيادة ولا شهيدة، كنت ابنةً وحسب، ابنةً بارة.

ثم هناك حياتي الثالثة، صغيرة وسرية: حياتي مع الديوراما، الأثر الضئيل المتبقي من نفسي الفنانة.

لك أن تقول أنَّ أمي وأبي، رغم امتنانهما الجليّ، لم يطلبا مني يومًا التخلي عن حياتي. وأني إن اخترت التخلي عنها، رغم أني لا أرى المنطق في اتخاذ هكذا خيار، فأود أن أؤمن أن خياري جاء متعمدًا وبقصد، لا تجسيدًا لافتقاري مهارة إدارة الوقت. فعددٌ من أطفالي يفتقرون إلى مهارة إدارة الوقت. دائمًا سترى أطفالاً يعانون من ذلك. لكن لن يتسنى لك النجاح في الحياة إن لم تتحلَّ بمهارة إدارة الوقت: فلا فائدة من كتابة أروع جواب في العالم على السؤال الأول في الامتحان، دون أن تترك لنفسك وقتًا كافيًا لكتابة الأجوبة على

بقية الأسئلة. حتماً ستسقط في الامتحان. وفي ساعات كآبتي، أخشى أن هذا تمامًا ما قد فعلته. فقد أسهبت في إجابة سؤال الابنة البارة؛ وكنت مدركة أني متوسطة الأداء على الصعيد المهني وهو ما لم أكترث به، ما اكترثت حقًا له هو السؤالين المهمين جدًا الذين تضمنهما الامتحان وأردت أن أكون واثقة من إجابتي عليهما إجابةً وافية: سؤال الفن، وسؤال الحب.

***

وتلك كانت معجزة عامي الأول مع عائلة شاهيد. فأبداً، في حياتي كلها، لم أظن قط، كما ظننت حينها، ها أنا قد وجدت الإجابة. لا مرةً واحدة وحسب، بل المرة تلو المرة وفي صور مختلفة، لم أجب سؤالًا واحدًا وحسب، بل كل سؤال واجهته في ذاك العام، وهم من ألهمني الإجابة عليه وكأنهم يلهمونني مقطوعات موسيقية. "صوتك ينهمر عليّ، كما ينبغي بالحب أن يكون - مثل نعم عظيمة." قصيدة فيليب لاركن لأجل سيدني بيشيت: قصيدة حب ما هي بقصيدة حب. والحب في حياتي الذي ما كان حبًّا، وإن كان يعادله فناءً ورعبًا وإكمالاً.

في ذاك الخريف، كان قد مرَّ على وفاة أمي عامان. كنت أشعر حينها وكأن زمنًا شاسعًا يفصلني عن لحظة وفاتها، لكن الآن، في هذه اللحظة، في طيات أكورديون الزمن، الحدثان - أمي، عاجزة حتى عن تحريك رأسها، صفيرها الموجع في قناع التنفس الفيليّ، تزيح عينيها اتجاه الضوء، من ثم تغلقهما للمرة الأخيرة؛ رضا في السوق المركزي، متكئًا على النضد يضحك على تفاحاتي المتناثرة (من قلب عربة التفاح؟ أنا، أنا!) - أراهما حدثين متصلين. فكما قالت صديقتي

الحكيمة ديدي، من شاركتني أكثر من مرة تأملاتها في مراحل الحياة، أن كل رحيل يستتبع قدومًا من مكان ما، وكل قدوم ما هو إلا رحيلٌ من مكان بعيد. أمي رحلت عني وعن هذا العالم إلى المجهول هناك؛ ومن ثم رضا وسيرينا وإسكندر قدموا إليّ.

9

المحترف الذي وجدته سيرينا كان يقع في قلب الأحياء الداخلية في سمرفيل، في مستودع سابق، مبنى من القرميد والنوافذ، يتاخم خط سكة حديد مهجور ويفصله عنه طريق أسود مسفلت منثور بالنفايات المرمية إلى جانب سياج من الأسلاك الشائكة حيث ترفرف ممزقةً بقايا أكياس بلاستيكية وكأنها أعلامٌ في مشهد من سِفْر الرؤيا. في محاذاته مصنعٌ ينتج الملايين من خرز البوليسترين، من النظرة الأولى تبدّى لي مشروعًا سامًا مميتًا محتومٌ فيه إصابة العمال بأمراض رهيبة من السرطان. من مدخنته انبعثت غيومٌ من الأبخرة الكيميائية لوثت هواء المناطق المجاورة، وهو ما يفسر الرائحة النافذة للبلاستيك المنصهر العالقة في المحترف.

كان مبنىً عشوائيًا قائمًا من أربع طوابق من المحترفات، بعضها بالغ الصغر مشيدة من الخشب الرقائقي والمسامير، وأخرى شاسعة، في حال جيدة ولا يظهر عليها آثار التلف. وفي بيت السلم لكل طابق هناك بابٌ ضخم مرقَّش، قائمٌ على محادل، مثل باب عملاق من العمالقة، يحكم إغلاقه بمزلاج معدني هائل. تلك الأبواب أثارت فِيّ القشعريرة: هي، ومعها صرير الأرضيات، المقصورات المغلقة بالأقفال، الحظائر المسيجة حيث لا أحد يعلم ما يحتفظون

به داخلها - لربما لوحات فنية أو مناشير أو مكائن خياطة، ولربما أيضًا أحواض أسيد وسفَّاحين، لا شيء مستبعد. فمن يدري أي عنف قد يقع في الزقاق جانب سكة الحديد ليلة الأحد؟ إذ حتى في ضوء النهار، بدا المبنى مهجورًا.

لدى اتباعي خطى سيرينا ووكيل العقارات الأدرد اتجاه الطابق الثالث - في حياتي كلها لم أكن قد رأيت قط وكيل عقارات سحقته الحياة كما كان عليه الحال مع إيدي روي، رجلٌ طويلٌ هزيل، شعره دهني وفي أواخر الستينات من عمره، قاب قوسين أو أدنى من العيش في ملجأ للمشردين - لم ينتبني أي شعور جيد: نفحة البلاستيك المحروق مع مسحة خبيثة لرائحة فأر، أو جرذ؛ التعثر بالتجاويف في الدرجات على إثر عقود من خبطات الأقدام؛ المصابيح العالية المعتمة تنشر الضوء في الأروقة وكأنما تنثر عن نفسها الغبار؛ طشاش وقعقعة المطر على النوافذ في وقابها العتيقة، تلك القعقعة التي بلا ريب صدرت عن أسنان وكيل العقارات قبل أن تقع - كلها بدت لي دلائل توقع في النفس نذيرًا مستطيرًا . وكم تعجبت من سيرينا كونها لم تلاحظ شيئًا من ذلك، بل على العكس، عيناها المتجعدتان كانتا تتألقان حماسةً.

"أرجو أن يعجبك،" أسرت لي، تمس ذراعي مرةً أخرى بيدها الحنون، غير مدركة على ما يبدو لعدم ارتياحي. "فالمكان مثالي."

وما إن وصلنا نهاية الرواق شديد الرطوبة وفتح إيدي روي القفل المعلق على الباب في ارتباك، تجلّى لي لحظتها أنها بالفعل كانت محقة. كان المحترف فعلًا مثاليًا - مناسبًا لشخصين؛ بالذات لشخصين. المساحة أخذت هيئة (L) شاسعة، مع سقف عال بلغ

ارتفاعه أربعة عشر قدمًا. نوافذه كانت ضخمة، مؤطرة، ملطخة، رطبة، النوافذ امتدت على الجانبين، أفاريزها عميقة وأطرها متخلخلة - لكن بطريقة ما، في هذه الغرفة المشعشعة بالضوء الأبيض حتى في نهار ذاك السبت الخريفي القاتم، وعلى خلاف ما كان عليه الحال في بيت السلم المرعب، فأصوات القعقعة كانت تنبض بالحيوية، مثيرة، وكأنما المبنى كائنٌ حي يتنفس. الأرضيات الخشبية، محزوزة ومضروبة، بدت جميلة، كبيرة كفايةً حتى للتزلج عليها. وفي زاوية الحرف (L) كان هناك حوض مغسلة قذر معلقٌ على الحائط، وإلى جانبه منضدة معدنية طويلة ملطخة بالطلاء. عدا الحوض والمنضدة، فالمحترف، الذي بدا مثل حاضنة بيض ضخمة، كان خاويًا.

"موافقة" كان كل ما تمكنت من قوله، وإيدي روي كشَّر مبتسمًا، كاشفاً لثتيه القاتمتين.

تكلفة الإيجار كانت سترهقني ماديًا، لكني لم أتمهّل آنذاك للقلق بشأن ذلك. لم أمهل نفسي لحظةً واحدة أتساءل فيها عن السبب وراء طلب سيرينا مني مشاركتها المحترف - إن كان الدافع وراء دعوتها نبع ببساطة من تكسب مادي محض، حصولها على المحترف بنصف السعر؛ متصورةً أن طريقينا في المحترف بالكاد سيتقاطعان. أنا رأيت الضياء والمساحة الشاسعة وشعرت بدلائل البشارة كلها تجتمع في تلك اللحظة أمامي، تبعثني من جديد إلى الحياة، تعيدني إلى فني. لم أسأل نفسي حتى إن كنت في حاجة إلى المحترف، إن كنت سأستخدمه؛ حجبت عن عقلي الزقاق القذر، أصداء بيت السلم المرعبة، الرائحة العفنة. كل ما تردد في عقلي هو "نعم، نعم، نعم."

وفي الخامسة مساءً من ذات اليوم وقعنا عقد الإيجار، في مكتب

إيدي روي المشيد من الخرسانة جانب متجر الدجاج في جادة هايلاند. السماء عادت واكفهرت، رذاذ المطر ظل يتساقط، لكننا لبرهة وقفنا على الرصيف بلا مظلة، كل واحدة منا قابضة على مفتاحها الجديد في يدها، وإذ بها فجأةً تعانقني، وفي خضم عناقها خصلٌ من شعرها انسلت لفمي، مرتبكةً أخذت أحرر نفسي منها.

"بالنسبة لي، أنا موقنة أن هذا المحترف سيغير كل شيء. ومن يدري؟ لربما سأتمكن حتى من تشييد بلاد العجائب هنا".

"ولم لا؟"

"كان مشروعي المقبل، قبل معرفتي بمجيئنا إلى هنا. كنت أخطط لتنفيذه على مدار أشهر. أليس عبر المرآة، تدركين ما أرمي إليه، أليس كذلك؟"

"عبر المرآة - مثل وجودك في قاعة المرايا في بيت المرح. أجل، أدري."

"وما الذي ستفعلينه أنت؟"

"لا أدري بعد، لكني متيقنة أني سأصنع شيئًا."

***

في تلك الليلة توجهت إلى تناول العشاء لدى ديدي وإستير في شقتهما في جاميكا بلاين. ديدي وأنا كنا زميلتي دراسة في صف الفنون في الكلية، لكن صداقتنا توطدت بعدها بأعوام حين عدت وانتقلت إلى بوسطن. قد كانت - بل هي - تبلغ من الطول ستة أقدام تقريبًا، أمازونية الحجم، لكن ناعمة الملامح. لا نتوء ولا ندبات على بشرتها الصافية وشعرها سحابةٌ كهرمانية. ودائمًا ما تضع أحمر

شفاه قرمزيًا. لدى عودتي إلى بوسطن والتحاقي بفصل دراسي في كلية الفنون، اعتدنا التنزه حول البركة ولعب البلياردو حتى وقت متأخر في ملهى مِيلْكي وَي، والتذمر بشأن حياتينا. كانت آنذاك حديثة الطلاق من حبيبها الجامعي، وتعمل لدى محطة بوسطن الإذاعية، لكنها ما إن بلغت الحادية والثلاثين رمت باستقالتها كي تفتح متجر ملابس كلاسيكية عتيقة يطل على الشارع الرئيس، في موقع لا يبعد كثيرًا عن المستشفى البيطري. وهناك التقت بإستير - امرأة ضئيلة الحجم وعصبية المزاج، مع خصل شعر داكنة وعينين كعينيْ كلب البجّ - لدى قياسها أثوابًا من طراز الخمسينات لحضور زفاف أخيها في كولورادو. في حديثها الأول عن إستير، وصفتها ديدي بأنها بدت مثل بِتي بوب. إستير طبيبة أورام في مستشفى ماساتشوستس العام، متخصصة في سرطان الثدي، ودائمًا ما يفاجئني رؤيتي لهما سعيدتين معًا رغم اختلافهما في الشخصية والطباع. فديدي متصالحة مع طبيعتها، أكثر من أي شخص آخر التقيت به في حياتي، ودائمًا ما أشعر أنَّ صداقتي لها تقربني أكثر وأكثر من الشخص الذي أتصور نفسي عليه: شخص لا يكترث بكل الأمور الخاطئة في الحياة مثل المال أو الأزياء أو الشهرة، بل يستكشف كل ما هو حقيقي ومثير للاهتمام. ورغم أني بت أعجب كثيرًا بإستير مع مرور الوقت، امرأة عنيدة وميالة للمشادات في أسلوب منعش، فأظنها في قلبها تكترث لتلك الأمور المادية، بل وتكترث لها كثيرًا، وأتساءل إن كانت ديدي تعي ذلك.

حين كانت ديدي تعيش وحدها، جدران شقتها كانت مزينة بملصقات أفلام غودارد وإطار الموقد كان مزينًا بأضواء كريسماس حمراء كما حبات الفلفل الحار، وكل قطع الأثاث كانت هي من تولت

بنفسها انتشالها من المهملات وترميمها. طاولة القهوة كانت في الأصل بكرةً خشبية ضخمة لأسلاك الهاتف كانت قد عثرت عليها في مقلب نفايات من ثم طلتها باللون البرتقالي الفاقع. لكن ما إن استقرتا هي وإستير في بيتهما، كل تلك الأمور اختفت. حلت محلها قطع أثاث سارينين وإيمس، الفولاذ الصامد والغرانيت، وقد بدت شقتهما جميلة، لكنها بدت مثل جناح فندق صغير فاخر، كأن لا أحد حقًا يعيش فيها.

على الأقل ما إن حظيا بليلي، فقد أثارت الفوضى في المكان. ليلي هي ابنتهما، متبناة من الصين. طفلة ضئيلة الحجم، مثل إستير، وجهها دائري، وأطرافها سمراء نحيلة؛ دمثة، شقية لكن الشقاوة المحببة. ليلي كانت تقريبًا في الرابعة من عمرها آنذاك، طفلة بما فيه الكفاية لتعتبر أصدقاء أمَّيْها وكأنهم أصدقاؤها، وما إن عبرت الباب أمسكت بي من يدي قائلةً، "تعالي أريكِ عالمي نورا! فقد خلقت عالمًا!"

وهكذا قضيت العشرين دقيقةً الأولى أجلس القرفصاء أسفل الطاولة في شرفتهما الصيفية المسقفة، أعاون ليلي على تقديم الشاي البارد وكعك الزنجبيل، في طقم مثالي من الآنية الصينية بالغة الصغر، لصفٌّ من دمى الحيوانات المحشوة: فيل في زي الرجل الوطواط، أرنب، بطة، وحتى مدرَّع متقزح اللون. كانت ليلي قد علقت بطانية من نسيج البيزلي فوق الطاولة، بمساعدة ديدي، كي تقيم خيمة، الضوء يرشح إلينا عبرها في بقع أرجوانية. كانت قد عرَّت الأرائك والسرائر من الوسائد والمساند كي توسد المكان، وأسندت عدة صور مؤطرة - ديدي وإستير في حفلة، إستير تدفع ليلي على الأرجوحة في الشتاء - على سيقان الطاولة. كانت قد ألبست حيواناتها أوشحة زاهية ملونة

ورتبت وضعياتها وكأنما كانت تتحادث فيما بينها في مشهد تمثيلي.

وإذ يخطر لي، وليس للمرة الأولى، أن عالم ليلي لم يكن مختلفًا حقًا عن عوالمي في الديوراما، أو حتى عن عوالم سيرينا ثلاثية الأبعاد: فما تفعله حقيقةً أنك تأخذ حيزًا صغيرًا جدًا من الأرض وتصيّره لك، لكن ما تريده حقًا هو لشخص آخر - ويفضل أن يكون ذاك الشخص شخصًا بالغًا، لأن رأي البالغ يهم، فهو يملك السلطة، كذلك هو ليس أنت - أن يأتي ويرى، أن يستوعب عالمك، وفي المحصلة، وبطريقة ما، يستوعبك أنت؛ وستفعل كل ذلك حتى تشعر في النهاية بوحدة أقل على هذا الكوكب. والحقيقة أيضًا، هي أني كنت سعيدة لوجودي في عرين ليلي المخفي - لا سعيدة وحسب بل تشرفت بوجودي فيه - لكن مع مضي الدقائق الأولى كل ما أردته هو الخروج من هناك. أردت رفع البطانية والنهوض من جديد نحو الغرفة ومدّ أطرافي مخلفةً الدمى وفتات الكعك وأقداح الشاي البارد (مع الحليب، إن تكرمت) بحجم عقلة الإصبع ورائي، أردت العودة إلى أصدقائي في عالم البالغين والانضمام إلى حديثهم. الحقيقة أن من ضمن العشرين دقيقة التي قضيتها برفقتها، خمس عشرة منها وحسب قضيتها من باب مسايرتها.

ولهذا السبب، قلت في نفسي، لم أرغب يومًا بعرض أعمالي الفنية على أحد، حتى وإن كان عرضها في ذاته جزءًا لا يتجزأ من الدافع الأساسي وراء صنعها: لم أرغب بعرضها لأني لم أرد لأحد أن يسايرني. لم أرد لأحد أن يشعر بأنه ملزمٌ بقول أشياء لطيفة، أو ملزم بقول أي شيء على الإطلاق، لأني سأعرف إن كانت مشاعره زائفة، ولطالما عرفت كيف أستشف الزيف في تعليقاتهم، وكم بغضته. بالطبع لم أرد لأحد أن يقول لي بألا قيمة هناك لما صنعت - تمامًا مثلما ليلي

كانت ستصدم إن قلت لها شيئًا كهذا: فتلك ليست القواعد التي يقوم عليها عالمها - وكذلك سماع أحدهم يقول لي كم عملك رائع لم يكن ما تقت إليه. ما تقت إليه صدقًا هو لأحدهم أن يستوعبني، ولم أتصور أن يومًا ما سيأتي من يفعل ذلك.

لكن فقط الآن - أتلمس مفتاحي الجديد في جيب بنطالي - استعدت رباطة جأشي وسأعرض عملي سواء استوعبني أحدهم أم لا. فهناك أوقات ستتواجد فيها سيرينا في المحترف متى لم أكن موجودة. وسيتسنى لها أن تلقي النظر على عوالمي من الديوراما، أن تلمسها، أن تتطفل عليها وتتفحصها. وهل سيكون خيرًا لي لو أنها اختارت ألا تفعل؟ فقد بدا الأمر وكأني أترك بضعةً من جسدي - أو بالأحرى روحي؟ - مسجاة على منضدة في غرفة مباحة لأعين الجميع كي تتمحص فيها، كأن ما خلفته ورائي ليس سوى غرض مهمل.

"هيا نورا اخرجي من هناك، كفاك لهوًا." قالت إستير رافعةً البطانية المهدَّبة، وكل ما رأيته منها لحظتها، واقفةً قبالة الضوء، هو عينيها عينيْ كلب البجّ. "قد أزف الوقت للانضمام إلى عالم الأحياء. العشاء جاهز."

ليلي اعترضت على مقاطعة إستير عالمها.

"وأنت أيضًا آنستي الصغيرة. قد أزف الوقت للخروج. عندك حتى الثلاثة كي تغسلي يديك."

وعلى الفور زحفت ليلي مغادرةً على عجل. وبما أنها ضئيلة، فقد كان من السهل عليها الخروج. أما أنا فقد مدت إستير يدها لي كي تساعدني على النهوض، وما إن وقفت، ربتت على ظهري وكأني حققت التو إنجازًا عظيمًا.

***

"تبدين مرحة اليوم." قالت ديدي بينما تغرف يخنة السمك في الزبديات. أما ليلي فكان لها وجبتها من المعكرونة بالجبنة وأعواد الجزر، كانت تؤرجح ساقيها المتدليتين عن الكرسي وتمضغ بفم مفتوح دون انتظار تقديم الطعام للكبار أولاً. تطلب الأمر مني جهدًا كي أقمع نزعتي التربوية في إبداء ملاحظة سلوكية لها.

"بالتأكيد أنا مرحة،" أجبتها. "فقد استأجرت محترفًا."

"واو." وضعت ديدي المغرفة جانبًا، وعادت تجلس مستقيمة على كرسيها. "يا له من خبر."

"لكن ما حاجتك إلى محترف؟" وسرعان ما أدركت إستير أني قد أسيء فهم سؤالها، وهو ما حدث. "أعني، ألا تملكين محترفًا في البيت؟"

" ما لدي هي غرفة نوم إضافية،" قلت لها. " أما هذا فمحترف."

"أمرٌ مذهل." عادت ديدي ومالت للأمام تمرر إلينا زبديات اليخنة. "أظنه أمراً مذهلاً،" كررت تعليقها بينما تمعن النظر إليّ. "إذن أخبرينا كيف حصل ذلك. إذ يبدو أنه وقع ... بسرعة؟ ربما لذلك إستير متفاجئة."

لذا أخبرتهما عن سيرينا - أولاً أخبرتهما عن رضا، من ثم أخبرتهما عن سيرينا. لم أذكر شيئًا عن الحماسة التي تعتريني كلما رأيتها، الفراشات المرفرفة، كيف أن التقاءنا بدا حافلاً بالإشارات، نشوة الجذل لدى اكتشافي أنها هي الأخرى كانت فنانة - لم أقل أي شيء من هذا، لكني عشت إحساسًا غريبًا لدى سماعي صوتي في خضم الحديث بينما أسرد القصة عليهما، واعية لعجزي عن الإبقاء على

هدوء نبرتي، صوتي المتهدج، تردداته جدُّ منحرفة عن نمطي الاعتيادي - جدُّ عالية، جدُّ متلهفة، جدُّ مفصحة. ذات الإحساس الذي ينتابك بعد احتسائك عدة كؤوس من النبيذ وإذ بك تسمع نفسك تجمجم كلماتك، تتساءل إن كان هناك من أحد يعيرك ما يكفي من الانتباه كي يلاحظ ثمالتك.

هذه المرة ما كان من داع لي كي أتساءل. فحين اصطحبت إستير ليلي إلى غرفتها كي تنام، استدعتني ديدي خارجًا إلى الشرفة وأشعلت سيجارة حشيش. المطر كان قد كفَّ أخيرًا عن الهطول، لكن كل المرازيب ظلت تقطر. أخيلة الأشجار في الفناء تلألأت في العتمة.

"صارحيني،" قالت لي، تحبس الدخان في رئتيها وتمرر لي الحشيشة. "ما الذي يعنيه لك؟"

"ما قصدك؟"

أطلقت زفيرًا عميقًا. "هذا الأمر برمته، لا أظنه يتعلق بالمحترف. أعني، أنه أمرٌ مذهل، استئجارك المحترف في ذاته خبرٌ سعيد. هو أفضل قرار اتخذته في أعوام. لكنك كنت قد اتخذت قرارك مسبقًا قبل ذهابك لرؤيته، أليس كذلك؟"

فكرت للحظة. "أظنني فعلت."

" فالأمر إذن لا يتعلق فعلاً بالمحترف."

"وبم يتعلَّق إذن؟"

"هذا ما أسألك إياه."

هززت كتفيّ بلا مبالاة، وضحكت. ما كان بوسعي أن أفصح لها. لم تكن هناك من كلمات تصف شعوري؛ وما كان هناك من كلمات قد لا تفضح سري. فحتى مع ديدي، لم أرغب بالإفصاح عن

كل ما يعتريني. "أنا متحمسة. أليس هذا كافيًا؟"

سحبت نفساً آخر، خزرت عينيها. " سننتظر ونرى."

10

أتذكر ذاك الموسم. ذاك العشاء، ذاك اليوم، توقيع عقد الإيجار، كان يوم السبت السابق للانتخابات الرئاسية: جون كيري ضد دوبيا، في جولة دوبيا الثانية. كان خريف عام 2004. العالم الخارجي كان واقعًا في مصيبة لعينة، وكذا عالمنا هنا. حربان أميركيتان مستعرتان - كل واحدة منهما حمام دم، حمام دم فادح وحمام دم محدود، حربان قبيحتان معدتان سلفًا ومخطط لهما بسرية، حربان مدفوعتان بالخيانة، بانعدام الكفاءة، والفساد. إن واصلت سأنجرف في الكلام، لذا سأريحك وأصمت.

في العام الدراسي السابق لذاك العام كنا قد استقبلنا في المدرسة شابةً يافعة، في الواقع كانت مجرد فتاة، في الخامسة والعشرين من عمرها وحسب، كي تتحدث عن منظمتها غير الربحية - كانت قد أسستها بنفسها، أتصدق! ذاك الكائن المزركش في تنورتها القصيرة من الدنيم وظلال عينيها باللون الأزرق الفضي. دشنت حملة للتأثير في أعضاء الكونغرس ونجحت في نيل تمويل بالملايين، الرب وحده يعلم كيف فعلت ذلك، فهي بالكاد كانت قد تخرجت من الجامعة، هدف منظمتها كان إحصاء عدد المدنيين القتلى والمصابين، بدت مهمةً منطقية وصالحة. تحدثت للأطفال بأسلوب جدًا لطيف،

في صوتها الجهوري اللاهث، شارحةً لهم كيف أنها أرادت فعل شيء يساعد المتضررين من الحرب، العراقيين والأميركيين على حدٍّ سواء، وأنك إن لم تحص الخسائر في الأرواح، فالنسيان سيطوي العديد من الضحايا. كنا قد رتبنا لحضور تلامذة الصفين الخامس والسادس وحسب للاستماع إليها، فعملها في الأساس هو إحصاء الجثث، ومهما حاولت تلميع واقع عملها، فلا يسعنا أن نعرض الأطفال للذعر ونتسبب لهم بالكوابيس. رأيته قرارًا شجاعًا من شوننا السماح لها أصلًا بإعطاء محاضرة، لكن الفتاة على ما أظن كانت قريبةً عائلية لأحد أعضاء مجلس إدارة المدرسة، وكانت قد زارت مسبقًا ثلاث مدارس ذاك الخريف قبل رحيلها وانطلاقها في مهمتها.

لم أستوعب حينها كيف لطفلة مثلها أن تصنع أي فرق، من ثم، بعدها بشهرين، شاهدتها على نشرة أخبار المساء، على قناة سي إن إن، ترتدي الحجاب وتحمل في يدها لوحًا مشبكيًّا للأوراق ولا ظلال البتة على جفنيها، كانت على قدر المسؤولية والنضج، واعية ومؤثرة ولم تقل مرةً واحدة "أعني"، وأخذت تروي قصصًا فظيعة عن عدد العراقيين - الأطفال والعائلات والعجائز - من لم يتم تسجيلهم رسميًا ضمن إحصاء الخسائر في الأرواح، لكن ها هي تطرق أبواب البيوت، بيتًا بيتًا، مع حامل الأوراق وبرفقتها دزّينة متطوعين جنَّدتهم في منظمتها، والجميع كان يقوم بعمل مذهل.

بالكاد مرت أربعة أشهر من بعد ذاك اللقاء حتى ظهرت على الأخبار مرة أخرى. هذه المرة على صحيفة نيويورك تايمز، عنوانٌ رئيس، صغير، في الصفحة الأولى، وصورة لها على الصفحة الخامسة، لكن مع عودة لظلال العينين هذه المرة، من الواضح أنها كانت صورة

التقطتها قبيل مغادرتها؛ وسبب ظهورها على الأخبار أنها هي ومترجمها كانا في سيارة تلاحق موكبًا عسكريًا مدرعًا على الطريق الملعون اتجاه المطار، وابن عاهرة وجه قذيفة اتجاه سيارتها. وقد ذكر المقال (ولن أنسى أبدًا ما ذكر فيه) أن آخر ما نطقت به، حين هبَّ الجنود لمساعدتها، مرمية في جسدها المتفحم المضرج بالدماء المنبسط على تراب الطريق خارج بغداد، آخر ما قالته على الإطلاق قبل أن تلفظ نفسها الأخير كان "أنا حية". كانت في السادسة والعشرين.

وقد كانت حية بالفعل، فالحياة التي اختبرتها في ذاك المدى القصير من العمر يعجز الكثيرون عن اختباره في حياة كاملة؛ عاشتها من ثم ماتت. أخذت المقال كي أري شونا، فهي تقرأ وحسب صحيفة بوسطن غلوب، لكن الخبر كان منشورًا في الغلوب أيضًا. لم نبلغ الأطفال بما جرى لها، فطفل أو طفلين منهم قد يستذكرا حديثها ويتخيلانها لا تزال هناك، تحصي المصابين والقتلى، من لا يزال العديد العديد منهم يقعون صرعى، وهي كانت ستظل وتظل تحصيهم لو كتب لها ما يكفي من الحياة.

تلك كانت حال الأيام في ذاك الموسم. ومع ذلك، في نوفمبر، استقبلت كل صباح وكأنه صباحٌ ربيعي، كأن الشهر عوضًا عن ميله يومًا بعد يوم نحو العتمة، عتمة الطقس والعتمة الاجتماعية، أخذ يبشرنا بالانطلاق في مغامرة جديدة ومشرقة، كل يوم طل علينا بصباح مثالي أسطع شروقًا من سابقه. تلك كانت حالي آنذاك.

وكأن بي عدت إلى سن الحادية عشرة، أتحرق شوقًا إلى رفقة صديقتي المفضلة. فإن استيقظت كل صباح، يعتريني الحماس المتقد كلما وقعت عيناي على كل ورقة شجر، على كل فنجان ويد كل طفل،

فأراها معجزة من معجزات الطبيعة متجلية بأدق تفاصيلها، مغمورة في ضياء أثيري، فذلك لأن في قلبي رأيت مع بزوغ شمس كل يوم فرصةً لتبادل حديث، مغامرة جديدة برفقة سيرينا. هذه الفرصة - الاحتمال شبه المؤكد - تشابكت في عقد لا تنفصم عن حماسي اتجاه المحترف، تلك المساحة النقية، الساطعة، البالية، بتياراتها الهوائية الباردة، حيث كنا سنلتقي.

كانت تقضي النهار بأكمله هناك، بينما آتي أنا متأخرة عنها مع دنو الغسق، الساعة الثالثة والنصف تقريبًا، ضياء الشمس ينساب في زاوية طويلة، النسيم مذرور، وخيوط الليل بدأت تتسلل إليها؛ الشتاء متدثرًا بضيائه العظيم الكئيب. كنا سنحتسي القهوة: بمحاذاة الأقمشة الحريرية الهندية المرصعة التي علقتها على الحوائط في جانبها من المحترف، مع بساط رث، ثلاث مقاعد عثمانية وصينية مغربية نحاسية صفراء أشبه بالطاولة الصغيرة، أما المنضدة الطويلة فقد ركبت عليها سيرينا عين غاز وأحضرت راووق قهوة إيطالي، من النوع الثقيل مثمن الأضلاع، ووضعته على عين الغاز، ومجموعة من فناجين الشاي مشظاة الحواف اشترتها من متجر غودويل الخيري. كانت تملك موهبة صنع أشياء جميلة، ومريحة، وكانت تصنعها بأريحية، هي ذاتها الموهبة التي رأيتها لدى أمي في سنوات نشأتي. أحببت في المحترف أنه، مع كونه إسبارطي[21]، فقد اكتسى جراء قطع الأثاث القليلة فيه طابع السوق الشرقي. أحببت فيه تلك اللحظة متى ما دخلته ووجدته شاغرًا، فأرى أنها قد خلفت وراءها الفناجين الوسخة مبعثرة في الأرجاء، أطواق قطران القهوة في

(21) إسبارطي: متسم بالبساطة، والاقتصاد في الإنفاق واجتناب الترف.

قيعانها، وحوافها ملطخة بأثر أحمر شفاهها القرمزي؛ أحيانًا أجدها قد نسيت وشاحًا أو سترة صوفية مرمية على الأرض، وكأنها تقول لي، "لا تقلقي، سأعود إليك في الحال."

كنت قد اعتدت إحضار وجبات خفيفة - كعكات صغيرة من هاي رايز، أو كب كيك من المتجر الذي كان جديدًا آنذاك في دايفزسكوير، محطة توقف سريعة على جادة هايلاند في طريقي نحو المحترف - وما إن أدخل تنقطع عن عملها كي تغلي لنا القهوة، نتسامر معًا على مدى ثلاثة أرباع الساعة، إلى أن تنهض، فجأةً، وتنثر عنها الفتات القليل غير الموجود أصلاً، قائلة: "أوتْغافِيّ[22]" - عبارةٌ فهمتها حتى مع فرنسيتي البسيطة جدًا وبتّ أتوقعها. فأنهض بدوري وأغسل الفناجين بينما تكنس هي الأرضية، في ضربتين أو ثلاث، بكل خفة ونشاط، من ثم توليني ظهرها، وتنسحب عائدة إلى جانبها من الحرف (L). أنا الأخرى كنت سأتوجه إلى زاويتي، مثل كلب قد صرفه سيده التو نحو سلته، أنير مصابيحي الساطعة على منضدتي، طاقتي مشحونة من بعد تخمة الحديث والكعك، فأبدأ أنكب على عملي، بينما الليل يسدل ستاره حوالينا، فلا يتبقى من ضياء في المحترف سوى بركة ضوئي وبركة ضوئها، الموسيقى المنبعثة من مشغل الأقراص المدمجة تتردد موجاتها رقيقةً في العتمة الشاسعة بيننا.

ما إن تحين الساعة الخامسة والنصف أو السادسة إلا ربع، تهم سيرينا بضب معداتها والذهاب إلى بيتها حيث يجلس في انتظارها ماري الحاضنة ورضا، ونظريًا، إسكندر، الذي ظل وجوده لأشهر عديدة لغزًا بالنسبة لي، وجودٌ تجسد وحسب في صوت همهمته المترامية إليّ

(22) الأصل بالفرنسيّة: au travail. وتعني "هيّا إلى العمل"

من الهاتف المحمول في يدها، تحادثه في هدوء بالفرنسية لكن على عجل، تشوب صوتها نبرةٌ تخيلتها دائمًا نبرة واهنة من السخط.

أحببت العمل بوجود شخص قربي. بدا الأمر وكأني عدت مرةً أخرى إلى أجواء قاعة المادة الفنية لدى السيد كرايس. لكن ما كرهته - وإن لم أكن سأنتبه إلى ذلك فورًا - هو الوقت الذي كنت سأقضيه بعد مغادرة سيرينا.

فمع مضي الساعات كنت أنغمس كليًا في العمل على المشهد بين يدي فلا ألاحظ مغادرتها. في ذاك الخريف كنت منكبة على صنع نسخة بالغة الصغر وطبق الأصل عن حجرة نوم إميلي ديكنسون في بيتها في أميريست، بحجم علبة حذاء، كل لوحة من لوحات أرضية غرفتها مثبتة في مكانها، كل قطع أثاثها أعدت صنعها بدقة مطابقة للأصل ووفق نسب القياس. ما كنت أصبو إليه، ما إن أعد الحجرة، وأخلقها هي، على أكمل وجه بقدر المستطاع، في منامتها الكتانية البيضاء المكشكشة، هو إعداد دارة كهربائية في الغرفة بحيث يتسنى لإميلي ديكنسون، مخلوقتي أنا، الجلوس على فراشها، واستقبال زوارها المتجلين في إضاءات ملونة - **الملهمة الملائكية**، محبوبها **الموت**، وبالطبع تميمة حظي الصغيرة المطلية بالذهب، **السعادة** ذاتها.

ما تصورته حينها، أن هذا المشهد، سيكون المشهد الأول من سلسلة مشاهد: أردت أن أصنع مشهدًا لفيرجينيا وولف في رود ميل، تدس الحجارة في جيوبها وتكتب رسالتها الأخيرة: فكرتي كانت أني سأجسد النهر في شرائح ضوئية، هائجًا، مع مؤثرات صوتية؛ وكنت سأضيف نسخة مطابقة من الرسالة المكتوبة بخط اليد، لكن تلك الرسالة لن تنعكس شريحتها الضوئية على الحائط الداخلي

للديوراما، بل ستشع من خارج نافذة حجرة نوم فيرجينيا، على حوائطنا نحن، وهكذا، رغم حجمها الحقيقي بالغ الصغر، كنت سأصيّر الكلمات ضخمة. في عين خيالي، تصورت الكلمات تخفق على الحائط: خفقانها، كان بالنسبة لي، بالغ الأهمية.

كذلك كنت سأصنع مشهدًا للرسامة أليس نيل[23]، في المصح الذي أودعوها فيه جراء انهيارها العصبي الذي تعرضت له لدى بلوغها الثلاثين. كما ترى، أردت خلق محاكاة بين حجرة إميلي ديكنسون البيضاء الزاهدة وحجرة أليس نيل البيضاء، الدير والبيمارستان: كلاهما مُعتزَل، وإن من نوع مختلف. وكلاهما عالمٌ للمرأة. حتى أني فكرت مليًّا في العنوان الذي كنت سأطلقه على السلسلة عديمة الوجود: غرفةٌ تخص المرأة وحدها؟[24] رأيت أن علامة الاستفهام تحمل مفتاح السلسلة.

كنت قد أحببت قصة أليس نيل، من جهة لأن حياتها كانت صعبة ومريرة ومع ذلك آلت الأمور إلى نهاية جيدة، ومن جهة أخرى فقد أحببتها لأن فنها، مثل فني، جاء عكس التيار الدارج معظم حياتها، ولذا كان لزامًا عليها أن تكون واعية كل يوم لدافعها ورغبتها في ممارسة فنها ولماذا يجدر بها أن تظل على عزيمتها وتصميمها على ممارسته حتى النهاية. هي كانت م.ب.م: مقاومة-بيت-المرح. وكان

---

(23) Alice Neel : فنانة أمريكية اشتهرت بلوحاتها البورتريه لنفسها وأفراد عائلتها وأصدقائها ومعارفها.

(24) في إشارة إلى كتاب فيرجينيا وولف (غرفة تخص المرء وحده – A Room of One's Own) وهو عبارة عن مقال مطول يلخص محاضراتها التي ألقتها عام 1928 في كليتي نيونهام وجيرتون للنساء في جامعة كامبريدج، والعنوان مستوحى من اقتناع وولف بضرورة أن تحظى المرأة بمدخولها المالي الخاص وغرفة تخصها وحدها كي يتسنى لها كتابة عمل أدبي.

محتومًا عليّ أن أحبها لهذا السبب.

آخر ديوراما كنت قد خططت لصناعتها تقف على تضاد مع السابقات. كانت ستكون حجرة إيدي سيدجويك[25] في **مصنع وارهول**. فعوضًا عن محاولتها الفرار من الدنيا، فإيدي قد ضحت بنفسها لأجل الانغماس فيها. وجودها تجسد فقط في عين العامة. تصوّر ذلك: سطحًا، بالغ الجمال، كل أثر للعمق فيه قد امَّحى. لكن متى ما رأيت صورها، حدتها العاطفية، حيويتها هي - سيتبدى لك بالتأكيد وكأن روحًا قد علقت خلف تلكما العينين.

وجود إيدي كان جوهريًا لي. فقد قضيت جلَّ مراهقتي مأخوذة بإيدي سيدجويك، كانت معبودتي، كنت عاشقة لأطرافها الهزيلة مثل أطراف الحشرات في ثيابها السوداء الضيقة، عاشقة لعينيها الواسعتين، نظراتها الشاخصة، مع أن أعوامًا عديدة كانت قد مضت على وفاتها وقتئذ. هي كانت مارلين مونرو الشباب اللامبالي - أصغر حجمًا، أسرع، أذكى، نابضة بالحياة، وأكثر احترافية في ميتتها، هي كانت حياةً يافعة نحيلة حد الهزال المرضيّ، مع جسد أنحل من كلب الدشهند. ومع ذلك، في السادسة عشرة من عمري، أتطلّع إلى دخول الجامعة، إن سألتني أن أختار بين أن أكون جورجيا أوكيف أو إيدي سيدجويك، كنت بالتأكيد سأتردد. ولربما أجبتك إيدي سيدجويك. فهي حتمًا قد مثلت شيئًا، كذا اعتدنا أن نقول عنها.

على أي حال، كل هذا سردته عليك كي ترى كم كنت مستنزفة - فسلسلتي الافتراضية، ابتداءً بديوراما إميلي ديكنسون، بتفاصيل

---

(25) Edie Sedgwick : ممثلة أمريكية وعارضة أزياء، اشتهرت بكونها إحدى أهم نجمات آندي وارهول بعد بطولتها عددًا من أفلامه القصيرة في الستينات.

تفاصيلها، أخذت تستهلكني اطراديًا وتستنزف طاقتي. ففرش الطلاء التي أستخدمها الواحدة فيها تتألف من شعرة واحدة، عدستي المكبرة هي ذات عدسة صانع الساعات، ومثله كنت أصلها بجبهتي، ويحدث أن أقضي ثلاثة أيام أعمل على نسخة منمنمة طبق الأصل عن الروسم[26] الخشبي للمنظر الطبيعي الممتد بين نوافذ غرفة نوم إميلي، لأقرر ما إن أنتهي منها، أن الشبه كان ضعيفًا، وأن لزامًا عليّ البدء من جديد.

ساعاتٌ وساعاتٌ وساعات من الكدح على بيت الدمى، وقد عشقتها كلها، انغمست فيها وكأني طفلٌ من أطفالي. لكن ما إن تغادرني سيرينا، عاجلاً أم آجلاً كنت سأرفع رأسي عن منضدتي وأدرك أني أجلس وحيدة في بركة الضوء الصغيرة، تبلعني الظلمة الشاسعة للمحترف، وكأني، أنا نفسي، تمثالٌ في ديوراما شخص آخر، وضعيتي والمسرح الذي أجلس فيه معدٌّ بإتقان على يد عملاق لا أراه. وما إن أدرك عزلتي، فمبعث خشيتي لم تكن عزلتي ذاتها، بل ما قد يقطعها: كنت سأقف صوب النافذة أنعم النظر في الليل، أحاول التيقن ألا أحد هناك يراقبني؛ كنت سأقف عند باب المحترف، أرهف السمع لأي حركة في الأروقة، أو في الغرف المجاورة. وإن تناهى إلى مسامعي صوت خبطات أقدام أو جلبة، كنت سأطمئن لها إن كانت عالية، وكأنما أصحابها المجهولون يعلنون لي عن وجودهم؛ كذلك كنت أسعد بسماع أصوات الحديث، أو أحيانًا، الصوت النائي لمذياع؛ لكن إن كانت تلك الأصوات مكتومة، مكبوتة، متقطعة، ينقبض قلبي، وأخشى ما كنت أخشاه أن المجرم المتخفي في غطاء قبعة سترته مثلما

---

(26) الرَّوْسم: لويح مكتوب بالنقش أو يحفر عليها رسم.

أراه في كوابيسي كان يقف في بيت السلم متربصًا بي في انتظار مغادرتي.

أحيانًا كان بيدي تجاوز ذاك الشعور، فأجبر نفسي على العودة إلى منضدتي؛ إلى عالمي الليليبوتي[27]، وأعاود الانغماس في عملي: لكن في أمسيات أخرى - لا سيما إن كانت الأجواء صامتة، لا أصوات خشخشة، لا مطر، لا أصوات في المدى خارج النوافذ سوى تلك التي تحيط بي في المبنى - فحينها كنت سأستسلم لنوبة فزعي، أجمع أغراضي على عجل وأخبط أرضية المحترف بأقدامي بأعلى صوت، على مدى الرواق، نزولاً على السلم وخارجًا، لأفاجأ دائمًا بأن ما ينتظرني هي إنارة الشارع الهادئة، السكون العليل للطريق خارج المستودع.

---

(27) ليليبوتي - Lilliputian: ذو علاقة بجزيرة ليليبوت الخيالية وأقزامها.

11

اكتشفت أني أتوق إلى العمل، أكثر بكثير مما كنت أظن، لكني لم أشأ العمل وحدي. المفارقة كانت مثالية: لم أشأ العمل وحدي، لكن لن يسعني إنجاز عملي إلا إن كنت وحدي. فما الحل المحتمل إذن لمعضلتي هذه؟ سيرينا. سيرينا كانت الحل.

لذا حاولت في تلك الفترة، أيام الثلاثاء، اليوم الذي سيحضر فيه الأطفال حصة العلوم لدى إستيلا نهاية الدوام، وأيام الخميس، متى ما كانوا سيختمون نهارهم مع حصة الألعاب، أن أفرَّ إلى المحترف أبكر عن موعدي بأربعين دقيقة. مرةً نسيت حضور اجتماع المعلمين، وتلقيت توبيخًا مرتبكًا من شونا: "هل كل شيء على ما يرام؟" سألتني. " فهذا التصرف ليس من شيمك."

"ليس من شيمي؟" أجبتها. "أتساءل إن كان هذا صحيحًا."

"لا تدفعيني للقلق عليك، نورا،" قالت لي، تتصرف وكأنما تكترث بي، لكني استشفيت من نبرتها أنها فعلاً كانت صادقة في قلقها. فلا أحد يود أن يصيبه القلق على المرأة في الطابق العلوي. فهي المرأة التي يعتمد عليها، المنظمة في أمورها، التي لا تتسبب بأي مشاكل للناس من حولها.

"لا داعي للقلق، فأنا اليوم أفضل من أي وقت مضى،" قلت

لها، وكنت أعني ما قلت. ففي نهار تلك الأيام من الثلاثاء والخميس كان لي أن أحظى بساعة إضافية من الرفقة أثناء عملي؛ وحتى سيرينا، هي الأخرى باتت سعيدة لوجودي باكرًا، كان لي أن أستشف سعادتها من الطريقة التي تتلفع فيها بأوشحتها وتنهض مندفعةً نحوي ما إن أدخل المحترف، ما إن أقول أهلاً. كانت ستسألني عن رضا، وحتى عن الأطفال الآخرين، فشخصياتهم باتت معروفة لديها بعد سماعها قصصي عنهم. أو كانت ستخبرني عن عثورها على متجر صانع أحذية محلي، أو أيًّا كان - وكنا سنتسامر وقتها، بينما نعمل أو نهم بالقيام بعملنا، نحتسي قهوتنا على مهل نتأمل أجواء ما بعد الظهيرة خارج النافذة - فالساعة في تلك الأيام ما كانت لتتجاوز الثانية والنصف - والدنيا كلها ما كانت تسع فرحتي. وما همَّتني للحظة شونا ماكفي.

بين الفينة والأخرى، سيرينا كانت ستأتي صوب منطقة عملي وتنحني فوق غرفة إميلي ديكنسون. تتصرف وكأن ما تراه كانت تراه للمرة الأولى، كأنها لم تتفحصه قبلاً في غيابي.

"أرى الغرفة بدأت تكتمل ملامحها،" كانت ستقول لي، تسحب نفسًا عميقًا، وتمرّر إصبعها في وجل على الحافة العلوية لحائط. أو كانت ستشير نحو مجاميع الصور والبطاقات البريدية للغرفة الأصلية المنبسطة على منضدتي فتقول، "واو، لقد أتقنتها،" أو تسألني، "كيف ستصنعين تلك القطعة؟"

لكنت قلقت من نقدها لي، لكن لم أشعر أبدًا بأنها كانت تنتقدني. بل شعرت بأنها كانت فضولية، هكذا بكل بساطة، لأني أنا أثرت فضولها. لأنها أعجبت بي. مرّةً في ظهيرة ما، حين كانت تمرّر لي فنجان القهوة، وضعت يدها لا على ذراعي بل على يدي، قائلةً "يا

إلهي، أتدرين، إنه لمن الرائع وجودك هنا، لولاك لفقدت عقلي."

"في نخب الصداقة إذن." رفعت فنجان قهوتي المشظى.

"نعم، في نخب الصداقة."

"أتدرين، نحن الاثنتان محظوظتان،" قلت لها. "فوجودنا هنا نعمةٌ عظيمة لي. حتى وإن أوقعتني في المشاكل."

"ما الذي تعنينه؟"

فأخبرتها عن تفويتي اجتماع المعلمين، وانزعاج شونا مني. "لكن ما همَّتني،" قلت لها، "طالما أنا هنا معك."

وشعرت لحظتها كم بدوت تواقة، متلهفة، متعلقة. شعرت بوجنتيّ تحمرَّان خجلًا.

"لكن، كما ترين، فالأمر مختلفٌ معك. من اللطيف تخصيصك وقتًا لعملك، لكن وجودك هنا ليس سوى إضافة على حياتك الحقيقية، حياتك اليومية،" قالت لي سيرينا، تنظر لا إليّ بل خارج النافذة، تمسك بفنجانها أسفل ذقنها وكأنها تشعر بالبرد. "لكن بالنسبة لي، فلا حياة حقيقية لي هنا في بوسطن، عملي هذا هو كل ما أملكه. المحترف هو كل شيء، إلى جانب رضا وإسكندر طبعًا. وهذا ما يجعلني جدُّ سعيدة لوجودك هنا."

كان لي أن أقول لها الكثير ردًا على كلامها. أردت أن أقول لها أن ما تسميه حياتي الحقيقية تفتقر حتى إلى القليل الموجود في حياتها المؤقتة الزائفة، أن سري الخفيّ الغامض هو كيف تحولت حياتي في منعطف ما إلى طريق سريع يقطع **السهول العظمى**، أميال وأميال من الأرض المنبسطة بلا زرع ولا حتى شجرة. أما الآن، وقد التقيت بها، فلا أرى شجرةً في طريقي وحسب، بل واحة غناء. وبالطبع، لم أصارحها

بأي شيء من هذا.

بل أومأت لها، أتأمل صورتها الظلية الجانبية قبالة الضوء، وميض عينيها الداكنتين الحزينتين. اجتاحتني الرغبة لحظتها في النهوض والاقتراب منها ولمسها كما لمستني، لكن لم أجد السبيل لفعل ذلك دون أن أبدو خرقاء. أظنني شخصًا مكبوتًا، متزمّتًا، أو مُحتشمًا، لكن مبعث قلقي يعود أيضًا إلى جهلي بحقيقة شعوري نحوها - عاطفة جياشة وقفت عاجزة عن وصفها بالكلمات - كذلك لم أملك أي فكرة عن ماهية شعورها اتجاهي، ولم أرغب بأن تسيء تفسير كلامي أو أعرض نفسي للإحراج. لذا ومع رغبتي الجامحة في لمس ذراعها، فلم أجرؤ وأفعل شيئًا كهذا: أومأت، ابتسمت، تجرعت ثفل قهوتي، وضعت الفنجان في الحوض مثيرةً بقصد شيئاً من الجلبة، قائلة، "حسنٌ، أوتغْاقيّ!" مستعيرةً كلماتها، أعبر بإيماءاتها، للمرة الأولى.

***

أدري ما الذي يدور في خلدك. لا بد وأنك تقول في نفسك أني وقعت في غرام سيرينا - وهي الحقيقة - لكن ليس كما تتخيلها أنت - الغرام الرومانسي. وها أنت تقول في نفسك، وكيف لامرأة مثلي أن تعرف من الأساس ما هو الغرام، أنا من يشير افتقاري لحياة جنسية إلى خواء عاطفي محتشم، إلى رحم ذاو مثل حبة ذرة ونهدين أشبه بحلمتين متهرئتين جافتين. وها أنت الآن تقول في نفسك أنَّ أيًا كان ما تفعله تلك المرأة، المرأة في الطابق العلوي برفقة قططها وقدور شايها والمواسم المعادة من الجنس والمدينة وكتالوجها اللعين

من غارنيت هيل، معلمة الصف الثالث صاحبة الابتسامة البيضاء المتلألئة المثالية - أيًّا كان ما تدبره من شؤون في حياتها، فبالتأكيد لم تعش يومًا حياةً عاطفية جديرة حتى بالحديث عنها.

لكن فقط لأن أمرًا ما خفيٌّ عن عينيك فلا يعني عدم وجوده. فنحن محاطون على مدار الوقت بالأمور المخفية تطفو من حولنا. هناك عرافون ومستبصرون يرون الأشباح؛ لكن ماذا عن العواطف الخفية، الأحداث التي لم تدوّن؟ من ذا الذي بيده أن يبصر الحب، الأسرع تلاشيًا من أي شبح، ومن ذا الذي بيده أن يمسكه؟ من أنت كي تجرؤ وتقول لي أني لا أعرف ماهية الغرام؟

عدم مبالاتي للقبلة اللعابية الأولى لدى عناقي آلف في الغرفة المظلمة في ثانوية مانشستر، عجزي عن رؤية المغزى من الزواج حين كنت في السادسة عشرة من عمري، ربما ما كانتا بالدلالة المبشرة. لكن، أيها القارئ، كان هناك وقتٌ في حياتي كدت أتزوج فيه. أنا نفسي لا يسعني أن أصدق وأنا أستحضر لك ذكرياتي.

في الجامعة، كنت قد حظيت بأحباء، أجل، كما تحظى بهم أي فتاة تملك في المقام الأول شعبية كبيرة لدى الفتيات. وعلى فترات طويلة، كنت أصبو، بإيمان راسخ، ورهبانيٍّ حتى، إلى رفقة شخص غير واقعي وغير ملائم. من ثم، بين رتل من لم أعجبهم وأولئك من لم يعجبوني انسل الطوّافون والشاردون من لم أملك منع نفسي عنهم. أولئك كانوا عشاقي الأوائل، من فئة اليوم-هنا-وغدًا-لا: الطالب الإنجليزي الزائر لفصل دراسي مع حديثه الدائم عن فيتغنشتاين وخصل شعره الأمامية المجزعة المرفوعة؛ صديق شقيق زميلتي في السكن نات والذي قدم من هارفارد لقضاء نهاية أسبوع طويلة،

عيناه لا تنفكان تطرفان من خلف كؤوس الشراب، يتجرع البوربون في البرد من قنينته الصغيرة في جيبه؛ أو آڤي، حبيب جوان غولدستين من إسرائيل، الخارج التو من خدمته العسكرية، ببشرته المسمرة، وجسده المشعر المعضّل، من قضى معظم الموسم يلهو في أنحاء ميدلبري، يدخن الكثير من الحشيش ويضاجع أي امرأة يرغب فيها، بينما جوانا إما في محاضرة أو في النادي أو في أي مكان آخر، في غفلة على ما يبدو عما كان يجري من حولها.

في الصيف التالي لعام التخرج، وقت اقتنعت أني لن أجد الحبَّ يومًا، التقيت بن. كان شهر أغسطس، والطقس حار. كنا قد التقينا في مارثا ڤينيارد، حيث كنت أقيم مع صديقتي سوزي في بيت والديها، في نزهة على شاطئ آكوينا، نلعب الكرة الطائرة، رمال الشاطئ تسفع كعوب أقدامنا، وكان بن من لفت انتباهي من بين الجميع، لا لطول قامته وليونة جسده وحسب بل لأن محياه منذ الوهلة الأولى عكس عذوبةً وحُلمًا لم يخسرهما، محيًا شبه طفولي. كان قد طلب مني مرافقته للعشاء في إدغار تاون واصطحبني هناك على دراجة سكوتر مستعارة، وبعد العشاء سلكنا شوارع متمعجة في درب عودتنا إلى بيت سوزي على **الطريق الجنوبي**. القمر كان يبزغ عاليًا في السماء وأغصان الأشجار المتحابكة تتدلى على الطريق كما في الحكايات الخيالية، وإذ ذاك، وأنا برفقته، يغمرني الشعور بالأمان وحماسة المغامرة. لدى بلوغنا الحقل المفتوح من حيث لك أن ترى البحر للوهلة الأولى، منارًا بضياء القمر القصديري ووهج مئات الحباحب، توقف بنا وركن الدراجة على الجدار الحجري المعجَّر، ووقفنا لبرهة نتأمل المنظر أمامنا في صمت - فقد كان المنظر بحق أخّاذًا يسلب الأنفاس - من

ثم تبادلنا القبل. أذكر تنهدي لذةً، وكذلك إذعانًا، أقول في نفسي، " حسنٌ، على ما يبدو فهذا هو الغرام."

بن كان هو الآخر طالبًا حديث التخرج، نشأ في شمال كاليفورنيا، وكان في طريق انتقاله إلى نيويورك، وهكذا لحقت بركبه وانتقلت معه أيضًا إلى نيويورك، حيث استأجرت شقة مع سوزي وفتاة أخرى من الجامعة تدعى لولا، في مبنى شقي وضيع في حيٍّ في تقاطع أمستردام والشارع 102، والذي لم يكن حينها بالمكان اللطيف للسكنى.

بن سكن في مدينة ألفاييت، يقضي أمسياته عازفًا في فرقة. في سنته الأولى، قضى نهاره يعمل في نقل وحمل الأثاث، مما أكسب جسده بنية قوية، أما أنا فعملت نادلة، ولفترة ما وجدنا حياتنا مرحة، كما هي طبيعة الحياة متى ما اعتبرناها وضعًا مؤقتًا. لكن ما بدا مرحًا في البداية سرعان ما سئمنا منه، رأسي أخذ يوجعني وقدماي غدتا مرهقتين ووجدت الزبائن متطلبين ووقحين، لذا اشتريت بدلةً رسمية بالمال الذي بعثه لي والديّ، وبدأت أتوجه لمقابلات التوظيف في قطاع الأعمال، وقد فوجئت بحصولي على عرض عمل من مكتب استشاري إداري، وأمام عرض مغر كهذا، كيف كان لي أن أقول لا؟

لا بد وأني تغيرت آنذاك. إذ ما عدت أرسم أي لوحات. في تلك الأيام، في بداية التسعينات، بدا الفن عبثيًا لا نفع منه، وكم كان مبهجًا لي أن أحظى بمالي الخاص للمرة الأولى ... لا يسعني أن أشرح لك بالتفصيل - بدا الأمر وكأنه قد وقع لشخص آخر، فالآن وأنا ألتفت للوراء، أتأمل الإنسانة التي كنت عليها آنذاك، أرى شخصًا أجهله وما كنت لأتعرف عليه أبدًا. لكن لأني غدوت ذاك الشخص، ولأن بن كان مسايرًا لي لأقصى حد، ولأنه أحبني، فقد شعر بأنه هو الآخر ملزم بأن

يتغير. أخذت أردد على مسامعه عبارات من هذا القبيل، "نحن لم نعد أطفالاً - حان الوقت لنتعامل مع الحياة بجدية،" ومع الوقت قرر أن يلتحق بكلية الحقوق في جامعة نيويورك، الخطوة التي يتخذها كل من يقرر التعامل بجدية مع الحياة لكن لا دليل لديه عما سيتطلبه الأمر. وغنيٌ عن القول أنْ أشير إلى أنه هو الآخر قد تخلى عن العزف في الفرقة، إذ ما عاد في حاجة إليها طالما لديه أنا كي يستمتع بها في أوقات فراغه. كنا قد تشاركنا السكن آنذاك، في شقة صغيرة كئيبة محترمة ذات سقف خفيض في مبنى معلّب من طراز ما بعد الحرب عند حديقة جراميرسي بارك، جزيرةٌ في المجهول قياسًا إلى أجواء الحياة النشطة في نيويورك، كانت تبعد عدة قطع سكنية عن نادي الفنون وتبعد مليون ميل عن أي فن. في تلك الفترة بالكاد ألقيت حتى نظرة خاطفة على عمل فني: ظننت أن خطتي في الحياة بأن أغدو فنانة ما كانت سوى خيالاً يراود المستضعفين، لكن الآن وقد غدا في يدي مالي الخاص - السلطة! - فما عدت في عازة إلى حلم كهذا.

مكتبي كان يقع في الطابق الثالث والأربعين؛ كنت أتنقل إلى كل مكان في سيارة الأجرة؛ ركبت الطائرات وجلست في المطارات وقضيت ليال في الفنادق أطبع على حاسوبي المحمول حتى وقت متأخر. تخيل، كنت بالكاد أبلغ الخامسة والعشرين، وأملك أربعة أزواج من أحذية كريستيان لوبيتان. امتلكت أريكة بيضاء ضخمة باهظة الثمن ومعها أغلى لفاع صوفي لك أن تشتريه بالمال، كان من السويد (غرضٌ لا أزال أستمتع به). وعندما سألني بن الزواج منه - بينما كنا نتناول العشاء في مطعم فاخر وباهظ درجة أننا كنا أصغر زبونين عمرًا بعشرين عامًا عن بقية الزبائن وربما الوحيديْن اللذين لا يعانيان من داء

المفاصل - حينها أدركت - وإن ليس فوراً، لكن في الأسابيع التي تلت، مع خاتم الألماس الثقيل يتألق في إصبعي (فما عساني كنت سأفعل بالألماس؟) - أن بن، محامي الدفاع الجزائي من طبقة المهن العليا، قد بات يُسئمني، وإن ظل حلو المعشر، وأني لم أكترث صدقًا للأريكة ولا الأحذية ولا حتى اللفاع، أني لم أستسغ حتى تناول الطعام الفاخر، والذي كان إما يسبب لي الإمساك أو الإسهال.

أراك لم تتوقع قصةً كهذه عن المرأة في الطابق العلوي. أني قد عشت قصةً غرامية، أني كنت واقعة في حب الحياة الدنيوية، وأني أنا من غادرتها بملء إرادتي. لو أني تزوجت من بن وانتقلت معه إلى ويستشستر (فأنت مدرك، أليس كذلك، أن مآلنا كان سيكون الانتقال إلى ويستشستر؟)، ووقعت أمي فريسةً للمرض بعدها بأعوام، لما كنت سأهبها نفسي كما فعلت، لأني حينها كنت سأحظى بأطفال (فأنت مدرك، أليس كذلك، أني كنت سأحظى بأطفال؟ كما أنك مدرك أن في النهاية كان سيكون مآلي المحتوم الطلاق؟)، لكني على الأقل كنت سأجيب بشكل واف على سؤال واحد من أسئلة اختبار الحياة. لكن في المقابل لاستحال على الفن أن يكون له حيزٌ في حياتي، لما كان هناك من أكسجين أتنشقه؛ كنت سأعمل في تلك الوظائف، وأحظى بكل ما تؤمنه تلك الوظائف، ولكان هناك بن، من حافظ على براءته حتى آخر لحظة، وكم كنت سأزدريه لطواعيته وسهولة قولبته، لشبهه بي، لكنت - ولكان خطأ مني، هذا ما أدركه الآن - نظرت إليه بكل احتقار.

لا أدري أين هو الآن، بعد مضي عقد من الزمن، بن سوتر (خاطبي سوتر[28]، كذا اعتدت أن أمازحه بداية خطوبتنا)، لكني

---

(28) المزحة قائمة على التشابه اللفظي بين اسم عائلة بن (سوتر - Souter) ومفردة (خاطب - suitor).

صدقًا آمل لأجله زواجًا سعيدًا وأطفالاً وسيمين أصحاء وبيتًا كبيرًا، وآمل أن تبلغ ثروته الملايين ويبقى دومًا الرجل اللطيف حلو المعشر.

ولا كان بن بأي شكل من الأشكال الرجل الأخير في حياتي على مر الأعوام التي تلت. لست مطالبة بإحصاء الرجال لك - رجلٌ متزوج لفترة وجيزة؛ لفترة أطول طالب التخرج الكئيب؛ فتى يصغرني بعشر سنين ومن قال لي - وأظنه الشخص الوحيد في حياتي الذي قالها لي - أني مثيرة. ربما حديثي هذا يبدو لك دفاعيًّا. أتفق معك. فكما ترى، قبل عائلة شاهيد ظننتني أعي حقيقة الغرام وماهيته وكيف شعوري اتجاهه؛ لكنهم دخلوا حياتي وقلبوا الغرام بطنًا لظهر. فمجرد قولي لك الآن ودون أن تطرف عيني أن بيدي أن أقتلهم جميعًا - لا سيما هي - لإشارةٌ كافية. أوه، لا تقلق، لن أفعلها. فأنا مسالمة لا أؤذي أحدًا. فتلك هي طبيعتنا نحن النساء في الطابق العلوي. لكن لا يمنع أني، إن أردت، فبيدي أن أفعلها.

12

واقعتان حدثتا لي في الأسبوعين السابقين للكريسماس. أولاهما أكثر ما كنت أخشاه، عاقبة عزلتي في المحترف في ظلمة الليل. على مدى الأيام حاولت جهدي مقاومة ذعري، تمالك نفسي أمام موجه الجارف، الانكباب على العمل على ديوراما إميلي حتى وقت متأخر في المساء. وقتها كنت أعمل على سرير إميلي، وما كان هناك من صوت في المدى سوى قعقعة أنابيب المشعاع والصوت البعيد المتقطع لهدير فرن تدفئة المبنى يشتعل، يهب، يرتج، من ثم يعود ويخمد. كنت قد أطفأت مشغل الأسطوانات المدمجة ودفعت بالموسيقى إلى هاوية الصمت، فقد أردت أن أكون متيقظة لأي صوت بشري، وخشيت أن صوت الموسيقى سيحجبها.

وفي خضم انشغالي في الصقل بالورق المرمَّل وفي البرْي، إذ بي أسمع بالفعل أصواتًا. صوتًا آتيًا من بعيد لوقع أقدام ثقيلة على درجات السلم، واهنة وشبه مكتومة، من بعدها اندفعت إلى خطىً، توقفت، ثم عادت إلى خطىً نشطة، يعلو صوتها أكثر وأكثر، تتوقف في منتصف الرواق - هل سيتناهى إلى مسمعي صوت خشخشة قفل، صرير مفاصل صدئة؟ - لكن لا، السائر عاد ومشى من جديد، يقترب أكثر وأكثر. وها هي الخطى، كما سمعتها في كوابيسي، تصل عتبة بابي.

نهاية الرواق: ليس من مكان آخر قد يتوجه إليه.

وضعت الورق المرمَّل جانبًا، والعصيّ التي كنت أصقلها. وعلى مهل رفعتُ يدَيّ عن المنضدة، واعية من الصمت الرهيب الذي خيم على المحترف أني قد حبست أنفاسي. لم أرد أن أنهض كي لا تحتُّ أقدام الكرسي على الأرضية. كان لي أن أسمع نبضات قلبي تخفق بشدة. هل يا ترى النور من بركة ضوئي انسل من أسفل أسكفة الباب؟ ربما - لكن مهلًا: هناك طرقٌ على الباب. ليس بطرق عشوائي، بل هادئ وإيقاعي، مثل طرق سريّ، أو رسالة. دم دا دا دم دم. وها هو يتكرر مرةً أخرى.

أيجدر بي أن أفتح الباب؟ هل هو على علم أني هنا؟ هل يعلم من أنا؟ هل كان الطرق الإيقاعي إشارة، أم عبثيًّا؟ أكان شخصًا يطرق الباب الخطأ، أو أمرًا أكثر سوداوية؟

في غمرة اضطرابي، تحركت. وإذ بالكرسي يطلق صريخًا زاعقًا.

الطرق تكرر مرةً أخرى، أعلى هذه المرة. مرةً أخرى على ذات الإيقاع؛ تلتها طرقتان تاليتان. إعلانٌ صريح. من ثم سمعت خشخشة مقبض الباب.

ما العمل الآن؟ ما العمل الآن؟ وإذ بالصوت الباطني السلطوي للمعلم يقول لي من المهم جدًّا في هذه اللحظة ألا أنكمش مرتعدةً مثل طفل؛ لذا التقطت مديتي الحرفيّة وتأكدت من أن نصل شفرتها بارز.

"من أنت؟" أحثُّ كرسيٍّ بأعلى صوت ممكن، في استراتيجية جديدة مضادة، أخبط الأرضية بخطىً ثقيلة، آملة أن تبدو خطىً ذكورية، اتجاه المتطفل. "من أنت؟"

الصوت الذي تناهى إليّ من الجهة الأخرى للباب - صوت رجل

- قال شيئًا عجزت عن فهمه. لذا اقتربت أكثر والتصقت بالباب حدَّ أني تصورت سماعه يتنفس من الجانب الآخر. سمعته يسعل، سعال مدخن، ومن سعاله حاولت أن أستشف الملامح الكاملة لشخصيته.

"من أنت؟ هلّا رفعت صوتك وتكلمت بوضوح؟" وها هي المعلمة فيّ تتولى السيطرة بالكامل على الوضع.

من ثم سمعت اسمها، يلفظه ليس كما ألفظه أنا، لكن كما تلفظه هي، سيررر ينا، باللكنة الإيطالية.

وضعت مديتي في جيبي الخلفي - مع ملاحظة عقلية بأن أخرجها منه قبل جلوسي - ثم تعبثت بالقفل وفتحت الباب بغتةً على مصراعيه، غاضبة، بقصد مفاجأة الزائر.

وبالفعل، للحظة، بدا متفاجئًا، مثل ممثل سينما صامتة يجسد التفاجؤ بحركة إيمائية، الحاجبان مرفوعان عاليًا والفم فاغرٌ في اندهاش؛ لكن سرعان ما أعاد رسم ملامحه إلى ابتسامة لطيفة، شبه متملقة، ومدَّ يده لي مصافحًا. "لا بد أنك نورا إلدريدج؟"

ترددت.

"لست وحسب صديقة زوجتي وزميلتها." كان قد شدد النطق على المقطع اللفظي الثاني - (زمـ - يلتها) كاشفًا لكنته الأجنبية مما أضفى على حديثه طابعًا من الأهمية. "لكنك أيضًا معليمة ابني. كيف حالك؟"

كان هذا والد رضا وزوج سيرينا. "لا بد أنك - "

"إسكندر. إسكندر شاهيد. كيف حالك؟" ظلَّ باسطًا يده القوية، المربعة، المشعرة، حتى مع تراجعي خطوة للوراء ما إن دخل هو المحترف. "سيرينا ليست هنا؟"

"غادرت منذ ما يزيد عن ساعة."

حول وجهه عني وأمعن النظر متشككًا في عتمة ركنها الموضب (ما يعني أنه قد سبق ودخل المحترف)، ومن ثم نظر اتجاه بركة ضوئي البيضويّة. "وأنت لا تزالين هنا في مشغل صانع الأحذية والأقزام،" قال لي مبتسمًا.

"اعذرني؟"

" أنت - ما عنيته أنك مثل أقزام صانع الأحذية، منكبة على العمل في الليل كي تصنعي شيئًا مثاليًا." ابتسم لي، لكن لم يكشف عن أسنانه: رجلٌ محترم. "كذلك، فأنت تصنعين أشياء بالغة الصغر." ما يعني أنه قد اطلع على عملي في الديوراما، وربما اطلع كذلك على رسوماتي الأولية. ما يعني أنهما مالا معًا فوق منضدتي، أو لربما هو على الأقل من تمعن في أغراضي، في عملي، ينفق الوقت في تأمل آثاري بشهوانية في انتظار سيرينا ترتدي معطفها أو تغلي الماء في الراووق. لا أدري كيف لم يخطر لي من قبل احتمال تواجده في المحترف.

"أجل،" أجبته. "هي صغيرة، أسلم لك بهذا."

"صدقًا لك أن تري هذا؟" قالها ضاحكًا، وها هي لمحة من أسنانه تظهر. "سعدت جدًا بلقائك،" قالها ثم تمهل للحظة. فحاله من حال زوجته، كان يتحدث الإنجليزية لكن بلكنة، لكن على خلاف سيرينا، فلكنته كانت مشذبة، ومرتبة. "هلّا أعددت لك كوبًا من الشاي؟" سار نحو حوض المغسلة، لا يزال في معطفه المزرّر حتى الياقة. فردتا حذائه الجلدي، رطبتان ووسختان، خلفتا آثارًا غامقة على الأرضية. وجدت في بادرته إعداد الشاي وكأنه صاحب المكان مشهدًا سرياليًا.

"شاي؟"

"أم تراك تفضلين القهوة؟ سيرينا دائمًا ما تشرب القهوة، أما أنا، فأنا أشرب الشاي."

"لكن سيرينا ليست هنا - قد غادرت إلى منزلها." لا بد وأني بدوت وقحة، فقد توقف والتفت إليّ وكأني فاجأته مرةً أخرى على حين غرة.

ودعني أقل لك، أنّي وإن وجدت صعوبة في قراءة تصرفاته، فإسكندر شاهيد قد أثبت أيضًا، سطحيًا، أنه صورة رجلي المثالي. كان من الرجال الذين إن وقعت عيني عليهم، في مترو الأنفاق أو في المطار، لكنت تساءلت عن فرصي معهم؛ نوع الرجل الذي إن جلست جانبه في حفل عشاء، لانعقد لساني أمامه واعتراني الحياء؛ - رجلٌ ناضج - رجلٌ ما تخيلت يومًا أني سألقاه.

ما كان طويلاً ولا قصيرًا، لا سمينًا ولا هزيلاً، شعره كان غزيرًا داكنًا متموجًا، طويلاً بعض الشيء مع ملامح شيب متسللة، وكأنما علق لبرهة في عاصفة ثلجية. عيناه - لكني ظننت عينا رضا هي عينا أمه؟ - كانتا بيزنطيتين، بيْضَويّتين، رموش عينيه كثيفة وسوداء سواد قعر البئر. عيناه بدتا واسعتين من خلف عدستي نظارته، لكن النظارة في ذاتها ما كنت لتنتبه إليها، لذا كل ما كنت ستراه هما عيناه الهائلتان وحسب. كانت له وجنتان دائريتان تسران الناظر، أنف لا مستدقّ ولا منتفخ، درسٌ في رسم الأنف، شفتاه كانتا داكنتين، مبوزتين قليلاً. اعترتني الرغبة لحظتها في لمس ذقنه والإحساس بخشونتها نهاية المساء. ابتسمت وقلت له، "لا تؤاخذني. الشاي سيكون رائعًا."

ملأ الإبريق من صنبور المغسلة، بأريحية أشعل عين الغاز، مديرًا ظهره اتجاهي. "أتعرفين إن كان هناك من قطع بسكويت؟" سألني، ينقب في علب القهوة والشاي. "أما كنت سترغبين بقطعة

بسكويت؟"

"أخشى أننا قضينا عليها."

"قضيتما عليها؟" استدار إليّ، منشرحًا. "أحب وقع الكلمة. قضينا عليها. لو أني قدمت إلى هنا في ساعة أبكر، لكنا حظينا أنا وأنت بالبسكويت."

"أظن."

"أهذا إذن ما تفعلانه هنا أنت وسيرينا، تلتهمان «الكوكيز» - نطق الكلمة وكأنها أجنبية، بين علامتي تنصيص - "وتهذران مثل مراهقتين؟"

"أظن هذا ما نفعله. هذا المحترف بأسره ما هو إلا عذرٌ لتبادل النميمة."

أدار رأسه إليّ كما الطائر، ينظر إليّ شزرًا، مع ابتسامة متكلفة. "جيد. جيد جدًا." بدا وكأنه قد عثر على بقايا من قطع بسكويت، وأخذ يقضمها. "لكنك جادة."

"جادة؟"

"سيرينا تقول إنك جادة. وهذا ما يهم. ليس مهمًا إن بعت أعمالك بالآلاف أو تعرفت على علية الناس. كونك جدية هو ما يهم."

"بالطبع."

"أنت تبدين جدية." أخذ يتفحصني بعينيه، منشرحًا، بينما يناولني الشاي. "حليب؟"

"لا، شكرًا." فكرت لهنيهة. "وهل هي تبيع أعمالها بالآلاف؟ هل هي على صلة بعلية الناس؟"

"علية الناس؟ وما الذي تعنيه هذه الصفة؟ فمفهوم علية الناس

يختلف من شخص لآخر. لكن أجل، هي تبيع بالآلاف، وهي على معرفة بعلية الناس، أيًا كانوا. كانت قد انطلقت في عالم الفن." ارتسمت على وجهه ابتسامة أخرى، عريضة وغامضة. "في باريس، بالطبع."

وكأن مصعدًا باطنيًّا فِيّ انقطعت حباله وهوى؛ أو - بالمعنى الدارج - وقع قلبي. لا أدري كيف، لكن لم أتفكر للحظة في حياة سيرينا الفنية خارج عالمنا الخاص، لا قبلًا ولا بعدًا.

"هذا أحد الأسباب الذي زاد من صعوبة الانتقال عليها هذا العام - بالنسبة إلى مستقبلها الفني، فالأمور في العام أو العامين الماضيين كانت قد بدأت فعلاً - 'تنطلق'؟ - لصالحها في باريس. معارض، في أرقى صالات العرض، المقالات النقدية، تدرين. بينما هنا فلن تتاح لها نفس الفرص ... لكني قلت لها، اعثري لك على محترف، واعملي، اعتبريه معتزلاً، بعيدًا عن أي تشويش. وستسير الأمور على ما يرام."

"وهل الأمور تسيرعلى ما يرام؟"

انتهى من احتساء الشاي، وأودع الفنجان بتأنق في المغسلة. "الأمور تسير على ما يرام. فقد عثرت لها على مكان، وعثرت عليك."

"عثرت عليّ؟"

"للقضاء على الكوكيز وتبادل الحديث، زميلة، وزميلة جدية."

"حسنٌ."

"مثلها مثل الكثير من الفنانين، متى ما انتاب سيرينا الحزن، فقد تغدو بالفعل حزينة جداً." بدا كئيبًا، لكن بشكل غريب، وكأنما وضع سيرينا لا علاقة له به. "لذا فنحن دائمًا سنكون سعيدين إن كانت هي سعيدة." نظر نحو ساعة يده. "وها هي تأخرت. أنا قدمت

في موعدي، على غير العادة، وهي من تأخرت."

"لم تذكر لي أنها ستعود من جديد."

"سنذهب معًا إلى السينما لحضور فيلم، فقط نحن الاثنان، وقد اتفقنا على - " وهنا قاطع نفسه، رافعًا يده في إيماءة من يصفع جبينه. "لكننا بدلنا، بدلنا خطتنا." خطف نظرة أخرى نحو ساعته؛ دمدم ساخطًا بصوت أجش. "لا بد وأنها موجودة الآن في السينما. هلاّ دللْتِني على الطريق الأسرع إلى كندال سكوير؟"

حاولت أن أزوده بأبسط الإرشادات، لكني رأيت من ملامح وجهه أنه لم يستوعبها. كم بدا صادقًا في قلقه؛ لكني ما كنت واثقة، أسمعه يهرع على مدى الرواق، بعد أن ودعني بكياسة في طريقه خارجًا، أنه سيصل في الوقت المحدد إلى السينما، أو قد يصلها حتى من الأساس.

وبينما أخذت أجمع حاجياتي وأرتب المكان وأغسل الفناجين، ابتدعت قصةً في خيالي يكون إسكندر قد قدم فيها إلى المحترف، عامدًا، بقصد الالتقاء بي. لا لأنه أراد التعرف عليّ لغاية في نفسه، لكن لأنه أراد أن يرى بعينيه الشخص الذي تقضي معه زوجته كل هذا الوقت، جاء كي يقيّمني. فربما - هل تراه احتمالاً مستبعدًا؟ - قد تحدثت له عني بذات نبرة الحماسة المتقدة المكبوتة، بذات انقطاع النفس الواهي، ذات النبرة المتلهفة التي أتحدث بها عنها.

أغرب ما في طبيعة الإنسان: أن تعرف الكثير، أن تتواصل بقدر عظيم، ومع ذلك دائمًا ما تعجز عن رؤية الأمور بوضوح، وإذ بك تجد نفسك، في النهاية، عالقًا في شباك العزلة ومتنافرًا عن محيطك. حتى إن حاول الناس الإفصاح عما يعتري صدورهم، فهم إما يسيؤون

التعبير، أو يواربون، أو يكذبون بصفاقة، لأنهم أحيانًا يتعمدون الكذب عليك، لكن في الغالب هم يتعمدون الكذب على أنفسهم.

ففي الواقع، سيرينا نادرًا ما تحدثت إليّ عن إسكندر. ولأنها لم تتحدث عنه، فلم أتصوره يشغل بالها بأي صورة. اعتبرته أمرًا مسلمًا به في حياتها، بل وأمرًا مسلمًا به تكتنفه مشاعر متضاربة. تحدثت لي بكل انفتاح عن عملها، عن مخاوفها، أحلام يقظتها، مدى مطواعية المواد المختلفة بين يديها، عن مشاعرها المعقدة بشأن الفيديو. فقد كانت قلقة من أن رواج الفيديو في الوسط الفني سيؤثر على اهتمامها به، إما انجذابًا أو نفورًا، وهو ما تفهّمته بدوري. قالت لي أن من بين الأمور التي تعجبها فِيّ هي عدم اكتراثي بما هو رائج، أني أتبع غريزتي بكل هدوء ورباطة جأش. لم أقل لها أني لم أملك خيارًا آخر؛ لكني كنت مزهوة ومغتبطة على وقع مديحها لي.

كما أنها تحدثت عن رضا - وكم أحبت الحديث عن رضا، عن مغامراته، تعليقاته المضحكة، عن حيرته في معنى الألفاظ الشائعة في اللغة الإنجليزية (ماما، ما هو عالم الكلاب المتكالبة؟[29])، روت قصصًا لي عن سنوات طفولته المبكرة. حتى أنها شاركتني أعوام صباها، عائلتها الكبيرة من الأشقاء والشقيقات وأمها المستبدة، تعاني الصمم في إحدى أذنيها منذ الطفولة ولا تنفك تهذر أثناء الليل والنهار، كأنها تعوض عن الأصوات التي لا يتسنى لها سماعها بتصديرها للعالم ضجيجها الخاص؛ ووالدها، لطيف المعشر، وفق وصفها، مثل الكممبر[30] في الصيف. تحدثت عن صلتها الوثيقة بأخيها الأصغر

(29) Doggy dog world: متلازمة لفظية مشتقة من عبارة (dog eat dog world) وتعني العالم الذي تأكل فيه الكلاب بعضها البعض دلالةً على قسوة الحياة وخطورتها.

(30) الكممبر: الجبن الطري.

- من يماثل رضا في مزاجه وطباعه - وعن علاقتها العاصفة بأختها الكبرى، تكبرها بثمانية عشر شهرًا، وكم تاقت إلى تكوين أسرة بيد أنها لم تتزوج، مما حدا بها إلى التعلق شغفًا واستبدادًا بابن أختها كلما سنحت لها الفرصة. كذلك سردت عليّ قصصًا عن شبابها، عن ترحالها في جنوب آسيا لا تحمل معها شيئًا سوى حقيبة ظهرها، عن تلك المرة التي انتشت فيها حدَّ الخبل في شمال تايلاند درجة قضائها أسبوعًا كاملًا في سبات في عشة في قرية قرب تشيانغ ماي، برفقة حبيبها آنذاك يحاول إجبارها، كلما استطاع، على تناول الطعام والشراب كي يبقي عليها سالمة ومتصلة جسدًا وروحًا.

كانت قد تحدثت لي بانفتاح عن كل تلك الأشياء، لكنها أبدًا لم تتحدث عن زوجها. فما كان عساني أن أظن؟

أي حديث عنه، دائمًا ما جاء مرتبطًا برضا، ثلاثتهم يمارسون أمورًا مع بعضهم البعض، مثل تبادل الحديث باللغة الإنجليزية على مائدة العشاء أو تأمل أسماك الراي اللسّاع بشغف في الأكواريوم؛ أو بما يخص تدبير ترتيبات اليوم، وهو ما تبين بوضوح ضعفه فيها. إسكندر وصل متأخرًا ساعتين؛ إسكندر نسي الأمر برمته؛ إسكندر لم يدفع الفاتورة؛ إسكندر أضاع الوصل/ مفتاح السيارة/ رقم الهاتف. كانت هناك نبرة من الضجر، من المسايرة، من اليأس، تشوب صوتها كلما جاء ذكر تلك العيوب على لسانها، نبرةٌ تهكمية تتلفظ بها شفتاها الجميلتان.

"لكن لا بد وأن تلك الخصلة من الأمور التي حببتك فيه،" قلت لها مرةً حين فسرت لي سبب عدم حضور أي فرد من عائلة شاهيد ليلة العودة إلى المدرسة، فتلك كانت مسؤوليته، لكنه نسي، أو ادعى

أنه نسي، وتوجه عوضًا عن ذلك إلى كلية كينيدي للاستماع إلى محاضرة. " ألم تكن غفلته من بين الأسباب التي تزوجته لأجلها؟"

"أحببتها آنذاك،" قالت لي. "بدت لي دلالة على تحرره من القيود، لكن كما ترين، فسرعان ما ستسأمين." هل تراك فهمت الآن ما عنيته حين وصفته بالأمر المسلم به، تكتنفه مشاعر متضاربة.

فور وصولي البيت مساء تلك الجمعة، بحثت عن اسميهما في جوجل. وكم يبدو غريبًا لي وأنا أستحضر الماضي أني لم أفعلها في وقت أبكر، لكني أدرك الآن أني لم أشأ معرفة رأي العالم بهما، لا سيما بها. أردتها أن تكون لي ولي وحدي، كما أردت لإميلي ديكنسون في الديوراما التي شيدتها أن تكون لي ولي وحدي، بلا عالم سابق ولا لاحق ولا خارجيّ. هكذا نريد للحياة أن تكون، جميعنا، بلا هرج ولا تشويش، بلا مرايا محرِّفة. لذا وبلا ريب ببحثي عنهما على الانترنت كنت قد ارتكبت خطأً.

ها هما معًا، يتصوران في حفل كوكتيل إلى جانب شخص مستدق الأنف، طويل الشعر، في سترة مخملية عتيقة الطراز؛ وها هو إسكندر، عضوٌ في مناظرة حول رايموند آرون وفلسفة التاريخ، جالسًا خلف طاولة طويلة، اسمه مطبوعٌ على لافتة موضوعة أمامه، الكاميرا التقطته في خضم حديثه، عيناه مغلقتان ويداه مرفوعتان كما جناحي طائر يتهيأ للتحليق في السماء، كانت صورةً مغبّشة. وكانت هناك صورة معتمة لسيرينا في حفل افتتاح عالمها ثلاثي الأبعاد الزينور، تحمل في يدها كأسًا طويلة ونحيلة من الشمبانيا، تحملق اتجاه المصور، تبدو رزينة ونكدة في بنطال ضيق وحذاء عالي الكعب، خصل شعرها مرفوعة ومثبتة بعودين. وجدت

روابط الكترونية لمقالاته البحثية، باللغة الفرنسية، ما كنت لأفقه منها شيئًا؛ كما وجدت ذكرًا لمنصبه كبروفيسور في مدرسة الأساتذة العليا؛ ومقتطفات من مقالات نقدية صحفية حول معارض سيرينا - لمعرضين منهما على الأخص، إلزينور ومعرض آخر سبقه بعامين، وبطبيعة الحال كل تلك المقتطفات أيضًا كانت باللغة الفرنسية. حين ضغطت على أيقونة 'ترجم هذه الصفحة' حصلت على شوربة مائعة من الأخطاء النحوية والمعاني الحرفية، مع أخطاء جلية في الصور المجازية - رأيته درسًا في الاستحالة المتجذرة للتبادل الثقافي - ومع ذلك كان لي أن أستشف مما قرأت أن المديح الذي ناله عمل سيرينا كان مفرطًا في الثناء، إلى حدٍّ غير مريح. هناك مقالٌ نقدي بالذات قد كال فيه الناقد المديح والإطراء لا على بنائها المبدع لإلزينور بل على سلسلة أفلام الفيديو التي رافقت عالمها. ففي مجال الفيديو، وفق قول النقاد، تكمن عبقرية سيرينا الحقيقية، قدرتها على الإثارة والإمتاع والصدمة ومفاجأتنا بسلسلتها من ستة أفلام قصيرة، كل فيلم منها يصور في ثلاث دقائق كائنًا ما - من بينهم إنسانٌ فضولي، تم تصويره من الخلف دون علمه؛ حلزونٌ حي؛ والمفضل لدى النقاد هامليت المُلدَّن - وعلاقته بالعالم ثلاثي الأبعاد الذي خلقته.

لم يكن قد مضى وقتٌ طويل بعد ذاك اللقاء، حين راودني حلمي عن إسكندر، ذاك النوع من الأحلام الساطعة الحقيقية التي تظل عالقة في ذهنك طوال النهار وينتابك شعورٌ يتآكلك بأن شيئًا ما في دواخلك قد تبدل، وكأنما أمرٌ ما - وما تراه يكون؟ - قد وقع فعلاً. حلمٌ تجذر في أحشائك حدَّ يعصى عليك شطبه من ذاكرتك، وكأنما نقش نفسه على جسدك. كان حلمًا جنسيًّا. كنا عاريَيْن، أنا

وهو، مستلقيين معًا على الفراش في شقة لم تكن لي، كما وعرفت أنها ليست له، ولا أدري كيف، لكني استشفيت من الضوء الأبيض الكامد المنساب من النوافذ العالية أننا كنا في أوروبا - ربما كانت أمستردام، هذا ما ظننته، حيث لم أذهب يومًا. كنت قد نهضت عن السرير كي أضع الغلاية على النار، وقلت له، " أنت تدري أنها ستأتي عن قريب،" فردّ عليّ قائلًا، "هي لا تمانع، فالأمر يروق لها." أي أمر؟ تساءلت بيني وبين نفسي، عدت واضطجعت جانبه على الفراش، وضع أصابعه فِيّ وولجني، ومعه بلغت ذروة الجماع. من حولي صوت الغلاية تغلي ورنين جرس الباب (من الواضح كان جرس المنبه: فقد أزف الوقت كي أستيقظ) فنهضت عن السرير كي أتعامل مع كل تلك الأمور لكني لم أكن خائفة، فقد أخبرني أن الأمر يروق لها، وحين استدرت ونظرت نحوه، الرعشة في جسدي لا تزال تسري، رأيته متكئًا على لوح رأس السرير يستشم، مثل صانع عطور، أصابعه اللزجة، على وجهه ابتسامةٌ خبيثة نائية لا تكشف سوى عن لمحة سن.

13

الواقعة الثانية حدثت بعد ثلاثة أيام من الأولى، مستهل الأسبوع الأخير من المدرسة قبل الإجازة. كنت قد احتطت فترةً طويلة لاحتمال وقوعها حدَّ نسيت معه أن أظل على يقظتي، لذا لك أن تتخيل إلى أي حد صدمت، بل إلى أي حد ارتعبت. فأمرٌ كهذا يريك ماهية الغضب الآسن، طبيعة التوق للانتقام: كيف يأخذ مع الزمن وجودًا مستقلاً عنك، كيف يعلمك الصبر بأخبث صوره.

رضا تعرض للضرب مرةً أخرى. هذه المرة خلسة، وأشدَّ أذىً. فأمام الأعين الخاملة لفتيات المراقبة ساعة ما بعد الدوام، بيثاني، مارغوت، وسارة - اللاهيات في كتابة رسائلهن النصية، المنشغلات في التخطيط لمواعيدهن في هواتفهن المحمولة - اندلع شجارٌ بكرات الثلجِ بين الأطفال ما كان يجب أن يسمح به. كان هناك حوالي عشرون طفلاً في الساحة ساعة بعد الدوام، وجميعهم، عدا أصحاب القلوب الواهنة منهم، شاركوا في القتال: شكلوا الفرق، وبنوا حصنًا. أما أنا فقد حرمت نهارها من الذهاب إلى المحترف بداعي الاجتماع بوالدة تشاستيتي وإيبولينس، برفقة ليزا اختصاصية تعليم القراءة، كي نناقش الاستراتيجية التي يجب أن نتبعها في التعامل مع شماتة إيبولينس بمتلازمة عسر القراءة لدى تشاستيتي، أو بالأحرى زهوها

بعدم معاناتها هي منها - على أية حال، كنت أدير الاجتماع، تترامى إلى مسامعي أصوات الضحك والصياح تنسل عبر النوافذ مثل معزوفة دفوف مبهجة، مثل ما يجب أن تكون عليه صوت الطفولة.

لكن في خضم الفرح، مثل بوغة شريرة، اندس أوين بين الأطفال، الولد الغاضب من الصف الخامس الذي تهجم على رضا المرة الأولى، ذكيًا كفاية وغبيًا كفاية كي يفكر بتكسية الصخور بالثلج؛ وللأسف فقد اختار صخرةً حادة، والمؤسف أكثر أنه قد أصاب الهدف (من الصعب افتراض غير ذلك؛ فقد كان، كما تبرهن لاحقًا، واقفًا على بعد عدة أقدام وحسب من هدفه). والمؤسف أكثر وأكثر أنَّ رضا لم يتوقع تلك الضربة.

رضا، وفقًا لما قالته إحدى الفتيات، خرَّ راكعًا فجأة على ركبتيه، كان لها أن ترى الدم ينساب من بين أصابعه - قبضتاه على عينيه - قبل أن تدرك حقيقة ما وقع له. قالت إنها سمعت الصبي السمين يغمغم "أوه، اللعنة" قبل أن يستدير ويفرَّ هاربًا.

في الداخل، وعينا للضربة لحظة حلَّ الصمت، كأن كل من في جوقة العالم الخارجي سحب نفسًا عميقًا ذات اللحظة، كأنما ستارة انسدلت على نهاية مشهد مسرحي. من ثم نفخت بيثاني في الصافرة، ثلاث نفخات حادة، إشارة وقوف-الأطفال-فورًا-في-صف حال الطوارئ، ووجدت نفسي أقول لوالدة التوأمين "اعذريني" وأنهض متجهةً صوب النافذة. لا أزال أتذكر جليًا كيف بدت السماء متوهجة بذاك اللون الرمادي المعتم لبداية هطول الثلج، وكم كان باردًا زجاج النافذة حين لامسته برؤوس أناملي. ما إن نظرت للأسفل فأول ما تسنى لي رؤيته هو فزع بيثاني، إيماءاتها شبه العسكرية المتخبطة وهي

تسوق الأطفال نحو البوابة المزدوجة الكبيرة. لحظتها فقط لمحت مارغوت تدفع بطفل ما نحو المدخل الجانبي، طفلاً منحني الظهر، قطرات الدم تتساقط منه على الثلج المسحوق مخلفةً وراءها أثرًا سحريًا - وحتى في عتمة الضوء الرمادي، أو ربما بسببه، فالدم تجلى أحمر قانيًا - وكل ما تطلبه الأمر هو لمح المعطف كي أدرك أني أعرف ذاك المعطف. عرفت تلك القبعة الصوفية - سوداء بيضاء تعلوها كرة البوم بوم - عرفتها.

"اعذروني،" صحتُ فزعة، "فقد وقع حادث!" - في نبرة أعلى من اللازم، وهرعت خارج الفصل تاركةً ورائي الأم وزميلتي ليزا في حيرة من تصرفي.

وصلت مكتب شونا لحظة قدوم مارغوت ورضا. فيلما سنيفلي، سكرتيرة شونا (من الحرس القديم في آبلتون بعد سبعة وثلاثين عامًا من الخدمة فيها - حتى أن هناك من يلقبها بمديرة شونا)، نهضت من خلف مكتبها وطلبت كمادة: "لا تقفي هناك،" صاحت محتدة في وجه مارغوت الباكية، ولم تخفف فيلما من نبرة توبيخ مارغوت حتى وهي تضم رضا إلى صدرها المكتنز. "أحضري الشاش من خزانة الإسعافات الأولية. وأحضري الماء المعقم. هناك! هناك!!"

"رضا، هذه أنا، الآنسة إلدريدج،" قلت معلنةً عن وجودي في حال كان عاجزًا عن رؤيتي. "ستغدو بخير." حاولت الوصول إليه، لكن ذراع فيلما وقفت عائقًا أمامي. "هل أصابه في عينه؟ هل الإصابة في عينه؟" حاولت التملص من ذراعها، محاولةً شق طريقي نحوه من حولها، لكنها وقفت كالسد المنيع. سترتها الموشاة بالزهور تفحُّ في وجهي كما الأفعى كلما لمستها.

"ألا ترين من الأفضل أن نتفحص الجرح، فيلما؟"

"سأفعل ذلك، نورا، ما إن تكفي عن مزاحمة الصبي المسكين."

تناولت فيلما من مارغوت حشوة الشاش القطني التي عثرت عليها، ولوحت بها في الهواء. "ماء معقم بارد! ائتوني بماء بارد! علينا أن نطهر جرح الصبي."

انتُزِع الغلاف عن الشاش، تخضَّل بالماء، وأُعيدَ إلى راحة يدها؛ وفي غضون ذلك لم تظهر فيلما أي علامة تأثر أو تعاطف اتجاه الصبي الممسكة به في ذراعها الأخرى. بدا هامدًا في يدها، لولا بكائه المرتجف، مثله مثل الحيوان المصدوم.

ما إن مسحت فيلما الدم عن وجهه - ويا إلهي كم من الدم قد نزف، وإن بدأ يتخثر ويسود من حول الجرح - اتضح أن مقلة عينه قد نجت بمعجزة، لكن الجرح الغائر، بطول بوصة، كان قريبًا جدًا من زاوية عينه وبدا، مثل قشرة حبة فاكهة طرية، قد يتسع بأي لحظة تحت اللمس وينشق الجلد عن محجر عينه.

"لاصق الجروح لن ينفع مع جرح كهذا،" قالت فيلما متجهمة بعد تفحصها الجرح. "الصبي في حاجة إلى غرز."

في هذه اللحظة سمعت رضا يئن، أول صوت يصدره منذ الحادث، ينظر إليّ مرتعبًا.

"لا تخف، عزيزي. سآخذك."

"ماما."

"أدري، سأتصل بها حالاً. سنجتمع بها في المستشفى." كان لي أن أتصورها، مرتاحة البال في محترفنا في غمرة جهلها بما وقع، تنحت بدقة أزهار الأسبرين مع خصل شعرها منسدلة مثل خيوط الشبكة؛

كان لي أن أتصورها تتلمس هاتفها في جيب معطفها، تصدرعن حنجرتها تلك الطقطقة الواهية، أو تراني أنا من تخيلها، كلما ظنت أن المتصل هو إسكندر.

"هل حاجياتك معك؟"، سألته بغباء، "مارغوت، هلّا أحضرت لي حقيبته المدرسية؟ سأقله في سيارتي، حالاً."

فيلما نهضت، مطلقةً سراحه من ذراعها، من ثم تنحنحت. "أولًا سأتفحص نموذج القواعد الطبية، نورا. فلا يحق لك أخذه هكذا إلى أي مكان."

"مستشفى الأطفال، سأقله إلى مستشفى الأطفال: فهذا أفضل خيار، في حال تطلب الجرح لاحقًا إعادة غرزه. فلنضع كمادة عليها ونبقيها حتى أصل به هناك. هل بوسعك عزيزي الإمساك بها؟ إبقاؤها على عينك؟"

فيلما تنهدت، وهزت رأسها. "على الأم أن تحضر هنا أولاً، فهذه هي القاعدة، إلا في حال الطوارئ."

"وألا ترين هذه حالة طارئة؟ لا داعي لقلقك فأمه تكون صديقتي،" قلت لها (وهل تدري، حتى في تلك اللحظة المجنونة اعتراني الإحساس بالفخر لدى إعلاني صداقتنا، كأني رميت بالورقة الرابحة على الطاولة في وجه فيلما، وفخورةً كذلك لظني بأنَّ تلك كانت فعلاً الحقيقة.) "وأعلم أنها ما كانت لترغب بإضاعة أي وقت. سأتصل بها في طريقي هناك وستلتقي بنا في قسم الطوارئ. بحق السماء فيلما، تعلمين أن هذا هو التصرف الصحيح."

فيلما عاودت هزَّ رأسها، وإن بإيماءة أخف من سابقتها. "أعرف أن هذا ما يتوجب فعله، نورا؛ لكن أريدك أن تتصلي بأم هذا الصبي

الآن وفورًا قبل أن تأخذيه. لن أسمح لك باصطحابه دون موافقتها."

لذا اتصلت بسيرينا من مكتب فيلما. ولا يسعني أن أصف لك غرابة ذاك الاتصال. فوعيي لذاتي كان مضاعفًا: أن أكون أنا من ينقل إلى سيرينا خبر الحادث، وكأن رضا قد تعرض للأذى تحت مراقبتي (مارغوت كانت لا تزال في الغرفة، فاغرة الفاه ووجهها متصلبٌ من القلق)؛ أن أضطر إلى محادثتها على مسمع الجميع، عاجزةً عن السيطرة على نبرة صوتي التي أحادثها بها وأتحدث بها عنها؛ خائفة من الظهور إما حميمية زيادة عن اللازم أو رسمية زيادة عن اللازم، إما في نبرة عالية أو نبرة ناعمة؛ وأمام رضا، أيضًا، من بالتأكيد لا فكرة لديه إلى أي مدى مدرسته وحياته الخاصة في البيت قد احتبكت خيوطهما من خلف ظهره. كان يعرف بأني وأمه نصنع أعمالاً فنية في المحترف ذاته، لكن لم يكن على علم تمامًا بما يعنيه هذا، وبالتأكيد لم يكن مدركًا أنه وبينما كان يقضي ساعة-ما-بعد-المدرسة في الساحة، أو مرميًا في رعاية ماريا، فأمه كانت في معظم تلك الأوقات تقضم البسكويت برفقتي، نتسامر معًا، كما وصفنا إسكندر، مثلنا مثل مراهقتين. أو بالأحرى مثل فنانتين لا أطفال لهما، ويقينًا كان سيرى فيها خيانةً عظمى له.

لكني أجريت الاتصال، وحادثتها بنبرة صارمة رزينة زائفة، نبرة صوت المعلمة التي لم تسمعها سيرينا مني مذ سمعتها في لقائنا الأول، ومع ذلك كنت متأكدة أنَّ فيلما قد رمقتني مستغربة. أخبرت سيرينا بما حدث، وأن عينه لم تتعرض للأذى لكن الجرح في حاجة إلى غرز - لحظتها سمعت صوتًا مكتومًا على الخط فقلت لها، في نبرة لا تتلاءم أبدًا مع أجواء مكتب فيلما لكن ما كان بوسعي كبح نفسي، "لا تبكي

سيرينا، لا تبكي؛ كل شيء على ما يرام،" وإذ بها تقول لي، "لست أبكي. أنا أرتدي معطفي،" - وأخبرتها أننا سنذهب إلى قسم الطوارئ في مستشفى الأطفال وسنلتقي بها هناك.

"لكني لا أعرف الطريق."

"استقلي سيارة أجرة - اتصلي بواحدة. أنا من سيعيدك إلى بيتك."

***

وهذا ما فعلته، نهاية الأمر. لكن ليس قبل قضائنا سبع ساعات في قسم الطوارئ. ("هذا ديدنهم في مستشفى الأطفال،" كذا فسرت لي إستير الأمر لاحقًا. "المستشفى تمنح الرعاية الأفضل، ما يعني أن لهم سمعة لا بد أن يحافظوا عليها، لا هامش لديهم لارتكاب الأخطاء.") ما إن وصلنا تفحصته ممرضة؛ ثم طبيبٌ مقيم؛ من ثم الطبيب المعالج، والذي استدعى بدوره طبيب العيون من باب الاطمئنان؛ وأخيرًا تم استدعاء جراحة التجميل، التي لحسن حظنا صودف وجودها في القسم تفحص مريضًا آخر، وخاطت الجرح في غرز دقيقة بالغة الصغر. وبين كل زائر وآخر من الزوار الداخلين علينا في الحجيرة الباردة بستائرها الدبقة - والتي ذكرتني نوعًا ما بحجيرة قارئة الفأل في الملاهي، عدا أن الجدران مكسوة بالملصقات الطبية ويعمها ضوءٌ رمادي شاحب - مرّت علينا ساعاتٌ ضائعة في الانتظار نال منا فيها الإرهاق والجوع. في البداية عرضتُ القراءة لرضا من ثم اقترحت إحضار شيء نتناوله، لكن كان لي أن أستشف من

ملامح سيرينا، من كانت لا تزال قلقة، أنها لم ترغب بذهابي. فإسكندر كان خارج البلدة، ولم ترغب بالبقاء وحدها في حال تبين وجود مصاب أبلغ من المصاب الذي تبدى لنا. لذا أخبرتها أني سأبقى إلى أن يؤكد لنا الطبيب التشخيص والعلاج؛ وما إن فعل الطبيب ذلك كنا قد بلغنا تقريبًا نهاية السبع ساعات، إذ أن الغرز في حد ذاتها، أربع غرز، جد قريبة من زاوية العين، لم تأخذ من جرّاحة التجميل سوى عدة دقائق، في خياطة متقنة بالخيط والإبرة، بدت أشبه بأمي وهي تصلح حاشية تنورتي السفلى بين وقت تناولي الفطور وذهابي للمدرسة، عدا أن الطبيبة، من كان شعرها رمليّ اللون، لم تقطع الخيط بأسنانها مثل أمي، بل قطعت الخيط بأناقة باستخدام مقصها اللامع الصغير ونفشت شعر رضا مداعبةً إياه - كان مرهقًا حدَّ الإجهاد وبدا شبه نائم - قائلة، "لا تقلق. لا شيء تغير. ستفطر القلوب بعينيك هاتين،" هي وأنا وأمه كنا نعرف أن هذه هي الحقيقة؛ من ثم، وأخيرًا، أخبرتنا أن بإمكاننا العودة إلى البيت.

قدت بهما على طريق المجاز بمحاذاة ضفة النهر اتجاه بيتهما. رضا غلبه النعاس ونام في السيارة.

"أتحتاجين إلى مساعدة؟ لي أن أحمله عنك."

عينا سيرينا كانتا غائرتين في العتمة. "نورا،" قالت لي، "كم أنت طيبة."

"لست هنا بداعي الطيبة،" أجبتها. حملته بين ذراعي، أنتظرها ريثما تدخل مفتاح الباب الأمامي في القفل، لحقت بها نحو البيت المعتم أحمل على عاتقي هذا النيْر الدافئ (أنفاسه كانت تدغدغ عنقي)، وصعدت الدرجات خلفها وسجيته في فراشه. خلعنا عنه

فردتي حذائه، معطفه، فككنا أزرار بنطاله وخلعناه عنه، ثم دثرناه باللحاف، وبالكاد صدرت عنه في غضون ذلك أي حركة، إلى هذا الحد كان مرهقًا. وقفت أتأمله بينما ذهبت هي إلى المطبخ كي تضع غلاية الشاي على النار، وتشعل الأنوار. كان مستلقيًا على ظهره مع ذراعيه أعلى اللحاف، رأسه على الوسادة، وجنتاه متوردتان، مع كل زفير يزمُّ شفتيه، قليلاً، في حرف (o) صغير. يا إلهي، كم كان جميلاً، بُشرى مثالية. وقبل مغادرتي الغرفة، مسدت شعره وانحنيت أقبل حاجبه. كانت تنضح منه رائحة المستشفى. رعشةٌ بسيطة سرت في جسده النائم.

إسكندر لم يكن هناك، لكن بطريقة ما كان هناك، إذ راودني شعورٌ مبهم بالذنب عصى عليّ التخلص منه، وكأني بحلمي به قد ارتكبت إثمًا ما، كأني كنت أحاول سلب سيرينا طفلها وزوجها، وإن نظرت إليّ، في أي لحظة، فستعرف حتمًا بما يجول في خلدي.

وهكذا وجدت نفسي قبيل منتصف الليل جالسةً إلى مائدة عشاء سيرينا، أحتسي الشاي بالنعناع وأتناول شريحة خبز محمص بمربى الخوخ والزبدة. مسكنهما بدا عديم الروح بشكل غريب - تم تجديده في الثمانينات، ويؤجر مفروشًا، أثاثٌ قبيح من الكراسي المؤسسية الثقيلة، مع كرة إضاءة زجاجية مبقعة وملطخة تتدلى من السقف. الجدران كانت جصية، ألواح الأرضية من الجدار للجدار مكسوة باللون البيجيّ. خزائن المطبخ - واضحة للعيان من خلف كوة الحائط العتيقة الفاصلة بين المطبخ وحجرة الطعام - ذكرتني بسيارة الكاديلاك لدى الرجال الكهول: عتيقة لكن محفوظة بعناية، مؤثرة في النفس وفي ذات الوقت شنيعة. ما كان يجب أن أفاجأ بسكن عائلة

شاهيد في بيت كهذا - ففي النهاية وجودهم هنا وجودٌ عابر - ومع ذلك فقد فوجئت. فقد كانوا جد مميزين، ومسكنهم كان جد مبتذل.

لبرهة طويلة من الوقت، جلسنا أنا وسيرينا دون أن نتبادل أي حديث. كان لي أن أسمعها، وأسمع نفسي، نمضغ الخبز المحمص. بدت مرهقة.

"سيغدو على مايرام، اطمئني،" قلت لها محاولةً كسر الصمت. "الجراحة لم تقلها مازحة. بالفعل لا شيء قد تغير."

عينا سيرينا كانتا دامعتين. "لا شيء تغير. تقولين لي ذلك بينما أنا وأنت مدركتان لعدم صحة ما قالته. ليس بشأن وجهه - فوجهه سيشفى. لكن ما الذي فعلناه به، بجره إلى هذا؟ ما الذي فعله إسكندر؟ لا أحد منا أراد المجيء هنا سواه - لكن من عساها ستكون الزوجة التي تقول، 'لا. لن نذهب'؟"

لم يكن قد خطر لي قط أنها لم تستسغ الحياة هنا، أنها حتى كرهت فكرة وجودها هنا من الأساس. "ظننت أن رضا قد أحب الحياة هنا - المدرسة وما سواها؟"

"وما الداعي كي لا يحبها؟ كل ليلة قبل النوم أسرد عليه قصصًا عن أصدقاء طفولته في وطننا. هو مدرك أننا سنعود هناك، لذا لم يجد خطبًا في وجوده هنا. لكن الآن مع ما جرى اليوم؟"

"الصبي الذي ارتكب هذه الفعلة سيعاقب عقابًا شديدًا هذه المرة. قد يفصل من المدرسة."

"وأي فرق سيصنع العقاب مع رضا؟ لا فرق على الإطلاق. فقد أدرك الآن أنه يعيش في عالم سيقذفه الناس فيه بالحجارة لمجرد هويته، لمجرد كراهيتهم لاسمه ولون بشرته."

"أثق أنك واعية أن ما وقع اليوم ليس بالأمر المعتاد، أليس كذلك؟ هو ولدٌ مختل واحد، يعاني من مشاكل حقيقية. لا علاقة للأمر برضا شخصيًا؛ أظن رضا سيستوعب ذلك."

"متى ما كنت عربية أو تحملين اسمًا شرق أوسطيًا، فلن يكون الأمر أبدًا شخصيًّا، بل سيلوح دائمًا في الأجواء. كنت جد قلقة من انتقالنا إلى أميركا، لكني قلت لنفسي، في كامبريدج، ماساتشوستس، من بين كل الأماكن ... " صوتها أخذ يخبو، من ثم عاودت الحديث: "أتعرفين ماهية هذا الشعور؟" دمعة فرت من عينها وانسالت على وجنتها. "معظم الوقت لا تفكرين بالأمر، لن تكوني حتى واعية له. لكن عاجلاً أم آجلاً، شخصٌ ما سيدلي بتعليق ولن تجدي مفرًا من تفسيره على حقيقته. أتدرين، إسكندر له أبناء عم في المخيمات. أخوه قتل في تفجير في بيروت - كان في عمر الثالثة والعشرين. تلاشى إلى غبار. إسكندر حالفه الحظ، لكنه مدركٌ تمامًا لحقيقة الوضع. أعرف أنه من المهم أن يعي رضا كل هذا، أن يعرف به - لكن لاحقًا. أريده - أردت - لرضا أن يحظى بطفولة مثل طفولتي، حيث كل ما عليه أن يعرفه هو الاستمتاع بطفولته. لا غضب، لا كراهية، لا صيحات مطالبة بالانتقام. لا تقاذف بالحجارة. فأمامه الكثير من الوقت لكل هذا - للتاريخ - متى ما كبر؛ وظننت أن مع شيء من الحظ والوقت فسنتمكن من خلقه إنسانًا كاملاً، راسخًا، لا يزيغ قلبه على يد إرث كهذا. تخيلي، من بين كل دواعي قلقي من قدومنا إلى هنا - لم يخطر لي وقوع ما حصل اليوم. الآن وقد وقع. أتفهمين ما أعني؟ كل شيء قد تغير الآن لأنه ما عاد حرًا من إرثه. فما وقع اليوم ما هو إلا البداية." لم تكن حقًا تبكي، لكنها أسندت رأسها على راحتي يديها،

وشعرها انسدل على وجهها. حين رفعت رأسها، كانت تبتسم. "لا أظنك حتى تدرين عمَّ أتكلم."

"أظنني أفهم."

"لا تحفلي للأمر. الأمور على ما يرام. كما قلت، فعينه ستشفى - هذا أهم ما في الأمر." نهضت، جمعت الصحون وكدستها. "لقد تأخر الوقت. ليس بالوقت الملائم للاستغراق في الميلودراما. لا أظن رضا سيحضر للمدرسة غدًا، لكن أنت عليك الحضور، لذا عليك الذهاب الآن للبيت ونيل قسط من النوم."

عند الباب، ومثلما حدث مع أمي في السوق المركزي، تبدت على ملامح سيرينا ابتسامة مشرقة وجديدة. "نورا، عزيزتي، لن يسعني أبدًا شكرك بما يكفي جزاء ما فعلته الليلة. ما كنَّا سنفعل من دونك؟ كنت نِعْمَ الصديقة." مدت لي ذراعيها، ورأيت أنها كانت تنوي معانقتي. لست من الناس الذين يهوون العناق - فالعناق يوترني - لكني خطوت نحو عناقها وحضنتها على استحياء. لم تحاول تقبيل وجنتي، بيد أنها حضنتني بشدة، بما يكفي كي أرتخي بدوري وأحضنها من كل قلبي. أحسست بمشابك حمالة صدرها المتكتلة أسفل سترتها. شممت عليها عبق العطر والرائحة اللاذعة لعرق خوفها. لا أدري من أين غمرني هذا الشعور، لكني كدت أبكي. فقد كان بحق يومًا طويلاً.

"لا أدري إن كنت سأذهب إلى المحترف غدًا،" قلت لها، ما إن سحبت نفسي أخيرًا من عناقها.

"لا أظنني سأذهب."

"متى سيعود إسكندر إلى البيت؟"

"ربما أبكر مما قال، ربما الآن. سنرى. هو لا يؤمن حقا في

الأزمات - فقد شهد العديد منها في حياته إلى درجة ما عاد يراها فعلاً حقيقية."

"من السهل قول ذلك متى ما اخترت الوقوف خارج الأزمة."

" معك حق. تصبحين على خير."

"هلا اتصلت بي إن احتجت إليّ؟"

ومن إيماءة ابتسامتها الغامضة أدركت أنها لن تتصل بي. وقد كنت محقة.

***

من ثم علقتُ في دوامة الانتظار. رضا لم يحضر إلى المدرسة نهار اليوم التالي، ولا اليوم الذي يليه، ولا الخميس، ففهمت أننا لن نراه مرة أخرى إلا بعد انقضاء موسم الأعياد. وفي مساء الأربعاء، ومرةً أخرى الخميس، توجهت بعد المدرسة إلى المحترف فوجدته مهجورًا - فنجان القهوة الذي كانت تحتسي منه قبيل اتصالي بها من المدرسة كان لا يزال نصف مملوء على المنضدة. توجهت هناك الجمعة، السبت، الأحد، ثم ما عدت أطيق العودة هناك وحدي.

كانت العائلة ستسافر إلى باريس لقضاء أسبوعين هناك، لكني لم أعرف بالضبط موعد مغادرتهم. بقيت أنتظر اتصالاً من سيرينا - كي تطمئني على حال رضا، كي تعلمني بحالته النفسية والذهنية، أو حتى بحق السماء كي تسألني عن الفروض المدرسية التي عليه أن يؤديها. نهار الخميس خطر لي أن أتصل أنا بهم - الهواجس عمّا جرى ما انفكت تراودني: لربما عين رضا التهبت، أو لربما بدرت عنه ردة فعل

هستيرية أو استسلم للقنوط، أو لربما سيرينا وإسكندر خاضا نقاشًا حادًا حول كل ما جرى - غياب إسكندر، أو وجودهم من الأساس في كامبريدج، أو حتى ما يخص اصطحابي أنا ابنهما للمستشفى - فكل الاحتمالات واردة. ربما قررا تقديم موعد السفر إلى فرنسا. أو ربما قررا العودة نهائيا إلى وطنهما. الاحتمال الوحيد الذي ما كنت لأقبل حتى بالتفكير به أنهم واصلوا حياتهم في بيتهم الرث ذاك في جوٍّ من السلوان المثالي الخالي من الأحداث، دون أن أخطر حتى لحظة واحدة لأيٍّ منهم.

وإياك أن تظن للحظة أني لم أكن واعية طوال ذاك الوقت إلى وهن ادعائي: فلربما دعتني بنغمَ الصديقة، لكن في واقع الأمر ألست سوى معلمة مدرسة عادية، وشبه شريكة في الإيجار؟ فقد كان هناك، في حياتي الشخصية، أناسٌ تعاملت معهم بنفس روح الشهامة: لكن مهما حاولنا ادعاء تجاهلنا الأمر، فالواحد منا دائمًا ما سيعي نهاية اليوم حقيقة موقعه من الإعراب.

وأجل، عالقة في دوامة أفكاري هذه، في قعر الصمت المطبق، بدأ الغضب يستعر في دواخلي، قليلاً. فمن يظنون أنفسهم كي يتجاهلوني هكذا؟ فأي أخلاق هذه، لا على المستوى الإنساني وحسب، بل على المستوى المهني. فحتى إن لم يعد هناك من علاقة حميمية - ولا سيما في هذه الحال - أفلا تدين لمعلمة ابنك، تلك التي هرعت حاملةً إياه إلى المستشفى وبقيت هناك برفقته لساعات طوال، بإجراء اتصال هاتفي تعلمها فيه بحضوره للمدرسة وفي أي يوم، أو بعدم حضوره مطلقًا، أنك في كل الأحوال اتصلت بها كي تطمئنها أن ابنك في حال جيدة، أو حتى بحق الرب، ليس جيدًا إلى هذه الدرجة، ومع ذلك اتصلت بها كي

تقول "شكرًا" مرةً أخرى لأنك مدرك أن في هذه الحياة، متى ما هبَّ الناس إلى نجدتك، فأقل ما يليق بك فعله أن تعبر لهم عن امتنانك.

فوق كل هذا، وفي خضم غضبي، غمرني الأسى. أفليس هذا هو الحال دائمًا مع الغضب، في قلب النار المستعرة تكمن النواة المتجمدة من الأسى التي تحاول النار - عبثًا وبلا أي فائدة - إبادتها. وقد كنت واعية، حتى وأنا في خضم هذه الدوامة العاطفية المتقدة، أنها ما إن تتصل - إن اتصلت - فسأغفر لها كل ما فعلت بي. كل مرة كان يرن فيها هاتفي، قلبي يقفز فرحًا بين جوانحي في أمل عقيم. كانت ردة فعل لا إرداية؛ ما كان بيدي السيطرة عليها.

***

شونا فصلت أوين من المدرسة، باحترافية، ودون مقدمات، قبل حلول ظهيرة يوم الثلاثاء. المدرسة ضجَّت بالأقاويل عمّا جرى، من أصغرهم إلى أكبرهم. وقوع رضا على الأرض، قطرات دمه القرمزية تتساقط على الثلج، غدا مشهدًا أسطوريًا، أشبه بأساطير هومر الإغريقية. سرت الهمسات بأنه قد أصيب بعطب في دماغه، أنه قد أصيب بالعمى، أن عائلة شاهيد تنوي مقاضاة المدرسة - كل ذاك الهراء، أخذت تلوكه الألسن في ساحة اللعب وفي قاعة المعلمين، وبين الفينة والأخرى يوقفني أحدهم في الردهة أو في الحمام كي يتأكد من صحة إشاعة ما. وجدت نفسي وسط هذا الهرج والمرج وكأني في حلم: لا أسمع سوى الريح تهب في رأسي.

صباح يوم الجمعة أقمنا عرض موسم الأعياد، حيث أدى

طلبة فصلي حكاية شجرة التنّوب[31] من حكايا هانز كريستيان آندرسون - ويا إلهي كم شعرت بأنها تعبر عني في ذاك الأسبوع. لحسن الحظ، فأداء رضا دور نقّار الخشب لم يتضمن سوى ثلاثة أسطر، والدور ما إن شغر سرعان ما استولى عليه زميله نواه وأداه بحيوية وحماس. من ثم أدى الجميع رقصة أنشودة "أملك خذروفًا صغيرًا[32]"، تلاها إنشاد فتاة نيجيرية تدعى إيثل، في الصف الخامس، ترنيمة "الليلة الصامتة" في أداء مذهل: صوتها الاستثنائي يصدح من صدرها النحيل في دفق عارم، يغمرنا جميعًا صافيًا وجليًّا، مثل طعام عجائبيٍّ إلهيّ. من ثم صعدت شونا المسرح وألقت علينا خطابًا مقتضبًا في كلمات مبتذلة بروحية رفع المعنويات عن احتفاء موسم الأعياد بالنور والبدايات الجديدة التي نتطلع جميعنا إليها - دون أي ذكر على الإطلاق للحادث الذي وقع مستهل الأسبوع - ومن ثم، فجأةً، أزفت ساعة الغداء، وحلَّت الإجازة.

الأطفال تفرقوا في خطىً سريعة ومتمهلة في ذات الآن، أصوات ثرثرتهم الجميلة المتنافرة عمّت الأجواء كلها من الأرض حدَّ السقف، يوضبون حقائبهم المدرسية ويرتدون ملابسهم الشتوية ويتعانقون ويربتون على بعضهم البعض، يقدمون بطاقاتهم ورزمهم على مكتبي

---

(31) The Fir Tree: حكاية خيالية للأطفال عن شجرة تنوب صغيرة ترفض الاستمتاع بطفولتها وتتلهف على النضوج وقطعها مثلها مثل الأشجار الكبيرة كي يزينها أهل البيت والأطفال وتشهد الاحتفال بعيد الميلاد. بعد عشية الميلاد الذي ظنت شجرة التنوب أنه سيتكرر كل ليلة، يأتي الخدم ويلقون بها في العلية، وهناك تعيش وحيدة وتذبل وتتساقط عنها الأوراق، وما إن يحل الربيع يحملون الشجرة عن العلية ويأخذونها خارجًا حيث تقطع إلى ألواح وتحترق.

(32) I Have a Little Dreidel: أنشودة يهودية تؤدى في عيد الهانوكا ، والخذروف هو عودٌ صغير ذو أربع جوانب، وكل جانب منها موسوم بحرف مختلف، يدوره الولد بخيط فيدور بسرعة ويسمع له صوت.

كأنما يقدمون قربانًا، بعضهم وضعها بهدوء حذر، كي لا أنتبه له، وبعضهم الآخر بفخر واعتزاز. بعض الفتيات تشبثن بي، عانقن وركي، بطني، ذراعي؛ الأولاد أقلُّ اندفاعًا في التعبير عن مشاعرهم، أحيانًا يعبرون عنها لكن على استحياء، وكل طالب من طلبتي، في طريقه خارج باب الفصل، أخذ ينادي عليّ قائلًا: "إلى اللقاء آنسة إي! أعياداً سعيدة، آنسة إي! كريسماس سعيد! نراك العام المقبل - أفهمت المزحة؟ وداعًا! وداعًا! وداعًا!"

من ثم بقيت أنا، وحيدة في فصلي تحت أضواء الفلورسنت المشعة، كومة رزم جوائزي ممتدّة على مكتبي، الضجيج يخبو نهاية الردهة، يخبو على درجات السلم، شمس ظهيرة الشتاء تسطع عبر النوافذ، فجأةً غدت حياتي خاوية، ذهبت أمام عيني أدراج الريح. جمعت الكتب وصففتها، مسحت اللوح، رتبت أقلامي ووضعتها في الأدراج. كان هناك غداءٌ للمعلمين في القاعة، لكني لم أرد الذهاب - فعدا الإطراء المتبادل المعتاد الذي نتبادله كل عام، فهذه المرة، بالتأكيد، كانت الأقاويل عن رضا، عن أوين، عن قرار شونا عدم التطرق إليهما في خطاب الحفل، ستفرض نفسها. لذا ارتديت معطفي، بحثت عن كيس مشتريات أكدس فيها غنائمي. (كم بطاقةً كنت قد جمعت، طوال كل أعوامي كمعلمة؟ لكن في الكومة لا بطاقة لي من رضا، لذا لا بطاقة منها رغبت حقًا بها.)

لكان يومًا مثاليًا للذهاب إلى المحترف، حيث إميلي دي المعتزلة في غرفتها تنتظر تركيزي الكامل في معتزلي عليها. لكن عوضًا عن ذلك، تسللت خارجةً من آبلتون بلا وداع أحد، رميت بأغراضي في البيت من ثم توجهت إلى السينما لحضور العرض النهاري لفيلم كلوز، فيلم من

بطولة جود لو وناتالي بورتمان وجوليا روبرتس وكليف أوين. شعرت وكأني أبلغ مئة عام، وحيدة، لا أحد لي في هذا الكون.

***

وقتذاك ألمت بأبي وعكة صحية، فوجدت في رفقته مصدر إلهاء لي. أبي كان رواقيًا ووسواسيًا في ذات الآن: كان سيمخط أنفه بأعلى صوت في منديله الكتاني مع إصراره على ألّا خطب به - صوته سيكون أجشّ، عيناه ستكونان محتقنتين وغائمتين - من ثم فجأة سيلوّح شوكته في وجهك، الشوكة إما مغروزة كالرمح في قطعة نقانق متهزهزة أو ورقة خس، ويسر إليك أنه قد قرأ في رسالة مايو كلينيك الدورية عن فيروس الالتهاب الشعبي القاتل الذي لم ينل التغطية الإعلامية الملائمة، وعلى ما يبدو فأنه مصابٌ بكل عرض من أعراضه؛ أو عن العلامات التحذيرية لسرطان البروتستات والتي سببت له القلق فيما يخص عدد المرات التي يتوجه فيها إلى الحمام لقضاء حاجته (لم أسمعه قط يقول "أتبول")؛ أو علامات بداية الإصابة بالسكري لدى البالغين والتي قد تفسر عادته مؤخرًا في أخذ قيلولة بعد الظهيرة. هو لا يريد أن يتسبب لك بأي قلق عليه بداعي تلك الأعراض، جل ما يريده هو أن تكون واعيًا لها، كما هو واع لها. أنه في أي لحظة، على مدار الوقت، فهو يدنو، ربما يدنو، خطوة أقرب نحو الموت.

ما إن بدأت الإجازة حتى اصطحبته إلى متحف إيزابيلا ستيوارت غاردنر القديم. كان يفترض بنا حضور العرض الموسيقي المقام في قاعة الموسيقى الكهفية، فرقة وترية رباعية على منصة خشبية أمام حضور

من مئتي شخص من المتقاعدين ومهووسي الموسيقى جالسين في العتمة، حفيف معاطفهم الثقيلة تحتك ببعضها البعض في منتصف النهار؛ لكنه في اللحظة الأخيرة تراجع وقرر أن أعراض إصابته بالبرد - سيلان الأنف المتدفق إلى حنجرته الذي سيضطره إلى السعال، دفق المخاط الذي سيضطره إلى التمخيط في منديله بين اللحظة والأخرى - ستفسد عليه وعلى الجميع فرصة الاستمتاع بالعرض. لذا عوضًا عن حضور العرض، أخذنا نجول في صالات المتحف نتأمل اللوحات المألوفة، نخطو على رؤوس أصابعنا متى ما اقتربنا من الأعمال الفنية العظيمة التي بدت وكأنها لا تزال واقعة تحت هيمنة إيزابيلا، على مد الطريق إلى الغرفة في الأعلى حيث هي نفسها، مخلدة بيد سارجينت، تجلس فخورةً بعينين حاسرتين، حارسةً على مُلكِها. من ثم هرعنا إلى الأسفل اتجاه قاعة الشاي كي نحظى بطاولة قبيل خروج جمهور العرض الموسيقي من القاعة. أبي، من اكتسب في أواخر عمره متعة تناول الحلويات، طلب كوبًا من الكاكاو الحار وقطعة كعك.

"أمك أحبت هذا المكان،" قال متأملاً، كما هي عادته، وكأن هذا مبررٌ كاف لحضوره هو.

"هل تعني قاعة الشاي؟"

"بل المكان بأسره. الفناء. نباتات السرخس. هي أحبتها. أحبت المتحف بكل ما فيه. كلما قدمنا إلى هنا، اعتادت أن تقول لي هذا."

"وماذا عنك؟ هل تحب المكان؟"

"أراه معتمًا بعض الشيء. الأعمال الفنية فيه جميلة، لكن تبدو لي مكدسة وملخبطة. إن سألتني، فما يحتاج إليه المكان حقا هو تعزيلٌ ربيعيّ على الأصول."

"لم نكن مضطرين إلى القدوم هنا أبي، إن أردت لذهبنا إلى مكان آخر."

هزَّ رأسه، وحتى في تلك اللحظة كان يمخط أنفه في المنديل. وإذ ألمح على قمة رأسه الأصلع أثرًا بسيطًا من الجلد المتقشر: وسواسٌ آخر من وساوس سرطان الجلد سنضطر للتعامل معه لاحقًا وتفنيده. "أدري، لكن القدوم هنا ينفعني."

"كيف؟ تعني من باب التثقيف؟"

"التثقيف! أمك من كانت تهوى تلك الأمور، لا أنا. لكن من الضروري أن نفعل أشياء قد لا تروق لنا، من المهم أن نفعل ذلك. ومن الجميل أن أفعلها برفقتك."

"لا أفهمك. لماذا من الضروري أن نفعلها؟ إن لم تكن مستمتعًا بها، فما الداعي لها إذن، خصوصًا في عمرك ..."

"بحقك نورا، في هذه اللحظة من حياتي ما الذي قد يعنيه أي شيء؟ لا تكوني سخيفة. ترتدين ملابسك لأن عليك ارتداء ملابس. لا تسألين نفسك إن كنت مستمتعة بارتدائك الملابس. تتناولين معظم وجباتك لأن جسدك في حاجة إلى الطعام، والأمر ذاته مع المتاحف: من فترة لأخرى، عليك أن تزوري إحداها."

"المعايير؟ أهذا ما تقصد بكلامك، الحفاظ على المعايير؟ أراه أمرًا غريبًا."

"هل أثار حديثي اهتمامك، نورا؟"

"أجل، قد أثرت اهتمامي. فأنت تقول أنَّ علينا أن نفعل الأمور كما لو كنا نكترث لها، حتى وإن لم نكترث لها؟"

"أرأيت، أحيانًا قد تتعلمين شيئًا جديدًا من أحاديثنا." قال

لي بينما أخذ يتلمس مرتبكًا لقمة الكعك التي وقعت عن شوكته. "الحياة لا تعني وحسب القيام بالأمور التي تمتعنا."

"الرب يعلم أني مدركة لذلك. لكن المتحف ليس من ضمن تلك الأمور، فزيارة المتحف ليست بضريبة دخل أو ما شابه. من المفترض بزيارة المتحف أن تشعرك بالمتعة."

"ومن قال إني لست مستمتعًا."

"أنت! أنت قصدت قولها ضمنيًا. أعني، لنا أن نذهب للسينما، أو أي مكان آخر عوضًا عن هنا."

"نورا، لم تفعلين بي ذلك؟ ألا يمكننا الجلوس واحتساء الكاكاو معًا والحديث عن أمور لطيفة؟ هيا أخبريني، كيف كان أداء الأطفال في حفل الكريسماس؟"

" تقصد حفل الأعياد، أبي. فما عاد من أحد يدعوه "حفل الكريسماس". كان جيدًا. حسنٌ، لن أواصل الحديث في الموضوع الآن، لكن ما أريد قوله إنه يبدو لي مهمًا..."

وإذ به يقاطعني رافعًا يديه للأعلى. "نورا، رجاءً. فلنقل إننا أتينا هنا لأجل أمك. أن قدومي هنا يذكرني بمدى سعادتها كلما زارت المتحف. أهذا سببٌ كاف لكِ؟"

"بالتأكيد، أبي." أجبته متنهدة، واحتسيت الشاي. "أتدري، العرض المسرحي للصف الثالث هذا العام كان حكاية **شجرة التنّوب**. أتعرفها؟ هي حكاية من حكايا هانز كريستيان أندرسون ... "

ومن فم أبي، حاولت استقاء حكمة الرجل الأبيض البروتستاني في قضاء حياتنا كما لو كنا. كما لو كان **بيت المرح** هو واقع حياتنا. كما لو كنت أستمتع بفعل أمور لا أستمتع بها. كما لو كنت سعيدة، وكما لو

أن الناس الذين أحببت لم يهجروني ويتركوني وحيدة.

ديدي ما كانت لتقبل هراءً كهذا. قبل حلول الكريسماس بثلاثة أيام، وفي أشد الأوقات ازدحامًا، تركت متجرها في عهدة مساعدتها جايمي لساعتين، واصطحبتني للتسكع في الثلج حول بركة جاميكا، ندخن الحشيش ونحتسي النبيذ المحلّى الدافئ مباشرةً من الثرموس.

"ما الذي يتآكلك، دودتي؟" وجنتاها كانتا متوردتين من البرد، خصل شعرها الزاهية المشرقة تتطاير من أسفل قبعتها. قدماها عريضتان لذا جاءت خطاها واسعة، تخبط على الثلج بقوة مع كل خطوة.

"ما قصدك؟"

"فيغاس، فيغاس. أيًا ما سيحدث هنا سيبقى هنا. لن أنبس ببنت شفة، ولا حتى لإستير، أعدك." كان من عادتها أن تقول لي ذلك، وما كنت لأعرف يقينًا إن كان يجدر بي تصديقها. "أنت مستاءة حول أمر ما."

"وكيف لك أن تعرفي؟"

"لأنك تضعين الماكياج. تلك دلالة مؤكدة. هيا، صارحيني."

"لا شيء هناك لأصارحك به."

"تبادل الغزل في الأروقة؟ معلمٌ شهي يدرس مادة العلوم؟ رجل إطفاء يلوح لك كل صباح لدى مرورك من أمام المحطة؟"

"لا تكوني سخيفة."

"أحدهم أزعجك؟ أضرَّ بك؟ هل الأمر يتعلق بسياسة المدرسة، مرةً أخرى؟ تلك الفاجرة شونا؟"

"هي ليست بفاجرة. أجل، هناك أمور نختلف حولها، لكنها ليست بفاجرة."

"أتظنين أن الأف بي آي يتجسس علينا؟ هيا صارحيني، ما خطبك؟"

"لا خطب بي."

"إذن هذه هي المشكلة." توقفت عن المسير ونظرت مباشرةً إلى عيني، نظرتها الشاخصة تخترقني. "الأمر يتعلق بالمحترف، أليس كذلك؟"

"أي أمر؟"

" تلك المرأة، والمحترف. الأمر يتعلق بعملك. يتعلق بفنك. لي أن أرى ذلك."

"وما الذي ترينه؟"

ثم عاودنا المسير لبرهة في صمت. كانت تعرف متى عليها أن تنتظر. كانت مهارةً تتمتع بها: مثلها مثل مهارة تقشير المحار.

" في الوقت الحالي لا أعمل شيئًا،" قلت لها، "لا شيء البتة."

"لكن من الجنون أن تفعلي ذلك - هذا موسم الإجازة. لا أطفال مزعجين بين يديك، ولا حاجة بك للسفر إلى أي مكان. ما الذي دهاك؟"

"ما عدت أطيق الذهاب إلى هناك."

"هل المسألة تتعلق بالإلهام؟ بالتنفيذ؟ هل أنت عالقة؟"

"لا."

"إذن المسألة شخصية. هي تلك المرأة سيرين. دعيني أخمن: احتلت مساحةً أكبر من حقها؟ لا تكف عن الثرثرة؟ تنبعث منها رائحة نتنة!" قهقهت ديدي منتشية، من ثم تداركت نفسها. "هل تبكين؟"

"لا،" قلت لها، لكن الدمع كان يترقرق في عينيّ، حتى حين

طرفت عيني كي أخفيه عرفت أن ديدي قد لمحته. "ليس بالأمر بالمهم."

وهكذا وجدت نفسي أحاول أن أفسر لها ما الخطب بي. أفسر لها أسابيع العمل وتبادل أطراف الحديث على فناجين القهوة والبسكويت، عن الخريف الذي راودني فيه الشعور بأن سيرينا ورضا هما ملكي، تقريبًا عائلتي، سري الدفين؛ من ثم غرابة الالتقاء بإسكندر، والغرابة الأكثر المتأتية عن حلمي، مجرد استدعاء الحلم وسرده صيّرني أمامها مفرطة الوعي بنفسي؛ من ثم أخبرتها عن الاعتداء، المستشفى، التواجد في بيتهم؛ من ثم الصمت الرهيب الذي لقيته منهم.

ما برحت أفكر، وأنا أسرد تلك الأمور على ديدي، أن ماهية تلك الأمور في رأسي - في ذاكرتي وفي أفكاري - لم أوفق البتة في ترجمتها على حقيقتها إلى هذا العالم. شعرت وكأني بحديثي قد صيّرت أناسًا وأحداثًا ثلاثية الأبعاد كائنات ثنائية الأبعاد، كأنما بمجرد كلامي عنها غدت أصغر ومسطحة، كأني أنقصت عمدًا من قيمتها الحقيقية. فما كان ينقصها هو العاطفة المتقدة التي أشعر بها أنا اتجاهها، تلك العاطفة التي مثلها مثل الماء الجارف أو فورة الشباب ذاته، هي ما تعوّم تلك الأمور التي قد تبدو تافهة في عين أي شخص إلى معناها الحقيقي في قلبي. وها أنا أراها الآن تغرق، تنكمش أمام عينيّ؛ تنكمش إلى كلماتي. أيُّ شيء كان لي أن أصفه، قلته بوضوح. أي شيء لم يسعني وصفه، عجز لساني عن نطقه.

ما إن فرغت من السرد، حتى غمرني الشعور بالهجران. برودة الرياح، جمود الثلج على الطرقات، صقيع الجليد المُصرَّد[33] على سطحِ البركة المنحدر، كلها تجسدت في دواخلي؛ قلبي، منقبضٌ

(33) الصَّريد: جليد حبيبي يتكون من ماء الضباب.

ومنكمش، بات أجوفَ بين جوانحي.

"ألا تشعرين بالتحسن الآن وقد فضفضت؟" قالت لي ديدي، تربت بيدها العملاقة بحنوٍّ على كتفي.

"ليس تمامًا،" أجبتها، "بل أشعر بالسوء."

"إذن، مما فهمت، فأنت واقعة في غرام سيرينا، تشتهين مضاجعة زوجها، وتتوقين إلى سرقة طفلها. هل أنا محقة؟"

"ولا في شيء مما قلته."

"إذن لخصي لي الأمر، في عشرين كلمة أو أقل. كيف ستصفين الأمر برمته؟"

"هي أشبه بلحظة اليقظة، أتفهمين ما أعني؟ مع بداية العام الدراسي، كل عام، أتناول كتاب طاولة-القهوة عن عجائب الدنيا، العجائب الطبيعية وتلك المصنوعة على يد الإنسان، وما إن أفتح الكتاب حتى أجده زاخرًا بتلك الصور المذهلة - أولورو، سور الصين العظيم، معبد أنغكور وات، البتراء، برج إيفل، الأهرامات - "

"فهمت، والخلاصة؟"

"والخلاصة أني كلما فقدت الإيمان في حياتي، أنظر إلى تلك الصور وأتأملها، وأقول في نفسي، "أنت لم تذهبي بعد إلى هنا"، "لم تري هذا بعد"، وإذ فجأةً يغمرني ذاك الإحساس بالذهول، وكأن السماء انشقت، بمجرد إدراكي أن كل تلك العجائب هي بالفعل موجودة، ومن خلف السماء المنشقة يشرق الأمل، الأمل أني يومًا ما سأختبر شيئًا مما أراه في تلك الصور، الروائح، الأصوات، الأنوار."

"حسنٌ؟"

"من ثمَّ حلَّ هذا الخريف، ووجودهم في حياتي كان أشبه بتلك

اللحظة: بانشقاق السماء؛ بإشراقة الأمل. أن الاحتمالات لا تزال مفتوحةً على المدى. أجل، الأمل. أنَّ حياتي، ربما، ربما لم تنقضِ بعد."

"ولم عساها تنقضي حياتك؟"

"لأني في السابعة والثلاثين وعزباء ومعلمة في المدرسة الابتدائية وأرتدي القبقاب كل يوم."

"أنا سأبلغ التاسعة والثلاثين الشهر المقبل. أي قد بلغت الأربعين تقريبًا. لكني أراها بداية عقد جديد بكل ما فيه. وسيكون أمرًا عظيمًا. أنا متيقنة من ذلك - فإستير في الثانية والأربعين، ومع كل دقيقة تغدو شهيةً أكثر."

"بالدقيقة؟"

"في عينيّ، نعم. لكن ليس هذا موضوع حديثنا. صدقًا نورا لا أفهم علام إحباطك. هل لأنهم منحوك الأمل، والآن قد سافروا خارجًا لقضاء الأعياد؟ وأين هي خيبة الأمل الكبيرة في سفرهم؟ أتظنين لو كانوا هنا كانوا سيدعونك إلى عشاء الكريسماس؟ أو تراك كنت تنوين دعوتهم إلى عشاء الكريسماس برفقة والدك في شقة خالتك بيبي في روكبورت؟"

ورغمًا عني ضحكت. كنا قد طفنا حول البحيرة عائدتين إلى نقطة انطلاقنا، قريبًا من طريق جاميكا السريع وضجيج السيارات. امرأةٌ عجوز كانت تنزه كلبها الكهل على مجاز المشي في اتجاهنا، لابرادور أسود مقيد برسن رمادي يشق طريقه في الثلج بصعوبة وكأنما ملمس الثلج يؤلم براثنه؛ أما هي، المرأة العجوز، فكانت تغمغم شيئًا لنفسها، تهز رأسها في قبعتها الصوفية ضاحكة، مثلي أنا.

"أوه نورا، دعي عنك تلك الترهات، لا بد أن شعورك هذا يعود

إلى لخبطة في هرموناتك. فأنت لا تملكين سببًا حقيقيًا واحدًا يبرر شفقتك على نفسك."

"أنا من حمل رضا إلى المستشفى. بقيت برفقته وأمه حتى منتصف الليل. وبعد كل هذا لا يردني حتى اتصالٌ واحد منها أو من زوجها يطمئناني فيه على حال ابنهما؟"

"خنازير برية. تربية قطيع من الذئاب. لا أرى أين المشكلة. فوصفك ينطبق على نصف سكان أميركا وربما حتى على ما يزيد عن نصف سكان الكرة الأرضية. الحق معك، رسالة شكر بسيطة على قرطاسية ورق شخصية لكانت بادرة لطيفة، لكن لا يتسنى لنا الحصول على كل شيء."

"لكن ربما لن يعودوا أبدًا."

"ولم تعتقدين ذلك؟"

"هي تكره المكان هنا، هي أخبرتني؛ والآن بعد تعرض رضا للاعتداء مرتين ... فمن المحتمل أنهم سيبقون في باريس."

"إذن في هذه الحال ستحظين بالمحترف كله لنفسك. هيا نورا، كفي عن ذلك، كفي عن التصرف بسخافة."

"إن بدوت سخيفة لك، فلأنني أخفقت في تفسير ما يجول حقا في خاطري، حقيقة ما أشعر به."

ديدي قذفت بعصا اتجاه البركة، انزلقت على سطحها الجليدي، كلب اللابرادور، الذي بات بعيدًا عنا حينها، اندفع إلى النباح. "بل فسرت لي، وأنا أفهمك. لكن عليك أن تكفي عن الاعتقاد بأن مشاعرك لا تقع تحت سيطرتك."

"مشاعري ليست تحت سيطرتي. ليس بوسع أحدنا منع نفسه

عن الشعور."

"ومن قال هذا؟"

هززت كتفيّ استخفافًا. "بات الجو باردًا. أيمكننا العودة الآن؟"

"حسنٌ، لكن أتدرين، لست مضطرة إلى الشعور بالبرد إن اخترت ألا تشعري به."

"حقًا!"

" اسمعيني نورا، كل تلك القصص التي سردتها عليّ أنت اختلقتها في رأسك. لا شيء منها حقيقي. أنت لا تملكين أي فكرة واقعية عما يفعله أولئك الناس، أو ما يفكرون به، أو السبب الذي حال دون اتصال حبيبتك سيرين بك. أيًا كانت مشاعرك اتجاههم فهي من صنيع خيالك."

"أنت تدرين أني لست بغبية."

ديدي طوّقت كتفي بذراعها. الدفء الذي انبعث منها غمرني، حتى في ذاك الجو القارس. "لا أحد قال عنك أنك غبية. فقط متشائمة. إن كان كل ما تعرفينه هو ما تجهلينه، ألا يمكنك على الأقل ترك الموضوع وشأنه؟ أو على الأقل اختلاق قصة جيدة؟"

"وسواسي القهري يقف عائقًا في طريقي."

"إذن سخري وسواسك القهري في عملك. عودي إلى ذاك المحترف واجلسي وأنهي العمل على غرفة إميلي. هكذا، أيا كان ما سيحدث لدى عودتهم، أو حتى في حال عدم عودتهم كما تقولين - وهو الاحتمال الذي أشك في صحته - فستحظين على الأقل بالرضا عن نفسك لاستغلالك الوقت لمصلحتك. أمي لطالما اعتادت أن تقول ألا جدوى من القلق على أمور لا يد لك فيها."

"الحكمة المبتذلة ذاتها التي تقولها في كل مناسبة."
"هذه هي أمي. لكنها، ولعلمك، ما كانت يومًا امرأةً غبية."

***

لذا حاولت الأخذ بنصيحة ديدي، من بعد نصيحة أبي. كنا قد قضينا عشية الميلاد أنا وأبي لدى خالتي بيبي - شقيقة أمي - في منزل الشّاليه المُطل على البحر في روكبورت، هي وأبي سبعونيّان وحيدان لا يهويان استذكار الماضي ولا الاستغراق العاطفي في الذكريات، سفيهان عالقان في حاضريهما، في اعتلالاتهما الصغيرة، في الطقس، في نشرة الأخبار، الأخبار التي لا شيء جديد فيها - مع أن نهار اليوم التالي كان سيحمل لنا خبر تسونامي آسيا، جارفًا الكثيرين إلى الموت. كنا قد انهمكنا مرحين في إعداد العشاء الكبير - الديك الرومي الجاف الذي بالغت أنا بطهيه، الصينية العظيمة من البطاطا الحلوة المكسوة بالسكر، المعجنات المحشوة والبطاطس المشوية والبازلاء الخضراء الرخوة - على وقع الحلقة المتواصلة الرنانة من سيريناد ترانيم الميلاد تنشدها جوقة فتيان فيينا التي، على مدار أعوام حياتي، عشقت خالتي بيبي الاستماع إليها عشية كل ميلاد.

خالتي بيبي، في فكها الغليظ المبودر، بدت مختلفة تمامًا في هيئتها عن هيئة شقيقتها الصغيرة الناعمة التي كانت أشبه بهيئة الطير؛ كانت تعاني من التهاب المفاصل، لذا باتت تعرج، ومع كل خطوة كانت تخطوها تصورت مفاصلها المتيبسة تجرش بعضها بعضًا في تجاويفها. وحتى مع أحمر الشفاه القرمزي الذي كانت ترسمه بدقة

على شفتيها، أو ربما بسببه، بدت خالتي بيبي مثل جدي الميت لو كان متشبهًا بالنساء. شعرها كان أبيض وخفيفًا، تمشطه في لفات كبيرة محاولةً تغطية فروة رأسها، كان لها صوتٌ خشنٌ عميق. كانت تنضح برائحة مرهم ياردلي لافندر الانجليزي، والذي بات تدبر الحصول عليه في الأسواق أمرًا شاقًا في القرن الحادي والعشرين.

لم تتزوج قط. كانت كاثوليكية ورعة، وكذلك كانت أخشى ما أخشى التحول إليه: المرأة الباسلة، المكتفية بذاتها، التي لا همّ يومي في حياتها يؤرقها. جلست على أريكتها الزرقاء بلون السماء الصافية أحاول أقصى جهدي ألا أرى، على كل سطح، صفوف الصور العائلية المؤطرة لي ولأخي في طفولتنا، صور أبي وأمي وجدّي وجدّتَي، أبناء عمومتي في أتلانتا، أبناء ابنة عمها جوون الثلاث، مؤرَّخون هم أيضًا من المهد إلى التخرج إلى الزفاف، وحتى الأفراد الجدد، ابنة أخي، أبناء ابن خالي، في أطر منفوض عنها الغبار في حرص وإتقان، أطر عتيقة أثرية مثلها مثل كل شيء في بيتها. لطالما وجدت في تعليق خالتي تلك الصور تصرفًا صفقًا منها، وكأن خالتي بيبي بتعليقها الصور تدعي بوقاحة ملكيتها لحياتنا العائلية، أن حياتَنا حياتُها هي، كأنما أنا ومات كنا طفليها لا طفلي شقيقتها. "اخلقي حياتك الخاصة،" تنتابني الرغبة بالصراخ في وجهها، "فحياتي ليست ملكًا لك!" لكن كيف كان لها أن تخلق حياتها الخاصة وقد وهبتها لرعاية كل من هم حولها - والديها، أقربائها، أبناء الأبرشية. الحقيقة المرة هي أن الدور الثانوي في أحداث الحياة لطالما جاء من نصيب خالتي بيبي. حتى في الموت، أمي هي من نالت دور البطولة.

وكم أود الآن أن أسألها كيف لها أن كنزت غيظها كل تلك

الأعوام وتدبرت الظهور على مرأىً من الناس في سكينة وهدوء، متواضعة، يستثير حماسها تلقي أصغر بادرة اهتمام (كنت قد أهديتها في ذاك الكريسماس ماكينة صنع الاسبريسو، ورغم اكتشافي لاحقًا أنها لم تستخدمها أبدًا، فقد وقفت مرتعشة، متأثرة أيّما تأثر، لدى فتحها علبة الهدية: كيف أني قد كلفت نفسي شراء شيء كهذا لها! أن لها قيمتها وتقديرها في قلبي!) لكن لا يسعني سؤالها، فهي من ضمن حصيلة خسائري الأعوام الخمس السابقة؛ بوركت، كما كانت سترى عليه الأمر، بوقوعها مغشيًّا عليها فجأة في مكتب راعي الأبرشية جراء تمدد الأوعية الدموية وعدم استعادتها مرةً أخرى لوعيها، موتٌ حلو جزاء حياتها التي قضتها في تفان وإخلاص؛ موتٌ، من رحمة الرب عليها، لم يشكل عبئًا للحظة على عاتق أحد.

لي أن أتصور الآن ما الذي كلفها كونها خالتنا بيبي، رضيعةٌ مسنة حتى النفس الأخير، عوضًا عن حملها اسم المرأة البالغة سيسيلي مالون التي لربما كانت ستصير إليها. مع إدراكي اليوم حقيقة حياتي وكيف أن أقل القليل مما يهمني هو متجلٌّ فعلًا أمام أعين الناس، كيف أن صورتي الخارجية نائية كل البعد عن انعكاس حقيقتي على المرآة، أقول في نفسي وبكل أسى أن خالتي بيبي الحقيقية قد فقدت للأبد. أنا، من خشيت دومًا التشبه بها، ما كلفت نفسي يومًا عناء سؤالها عن حقيقتها، وأعلم ألّا أحد آخر فكّر أصلاً في طرح السؤال؛ فخالتي بيبي الشجاعة عاشت "كما لو كانت" حتى خط النهاية. لكن من يعلم، ربما هي أخذت بنصيحة أبي وطبقتها مجتهدةً بكل حذافيرها حدَّ غدت معها روحها ونفسها الدنيوية كيانًا واحدًا.

***

على الأقل انقضت عشية الميلاد في روكبورت بسرعة. كنا قد توجهنا إلى هناك قبيل الظهر، تعاونا في إعداد مائدة العشاء، قدنا بالسيارة على مدِّ الشاطئ كي نتأمل الأمواج تتكسّر بيضاء على الصخور في إيقاعها الأبدي؛ تناولنا العشاء، نظفنا المكان، وغادرنا. مع حلول التاسعة والنصف عشية الميلاد عدت إلى شقتي، بعد إيصالي أبي إلى شقته في بروكلاين. كنت قد غسلت كل الأطباق عن خالتي بيبي قبل مغادرتنا، تاركةً إياها تستريح في غرفة جلوسها الدافئة جدًا رافعةً قدميها المنتفختين على العثمانية، منهمكة بفتور في سرد أقاويلها على أبي بخصوص آخر مستجدات اعتلالات معارف جيلهما الصحيّة.

"هل سمعت بما حل بروبي هاوارد؟ زوجة بيرني؟ ليس بالزهايمر - بل الأسوأ منه، ذاك الباركنسون. خرف لوي؟ أسمعت به من قبل؟ مروِّع." ثم برهةٌ من الصمت، أظن كلاهما استغرق في قيلولة، من ثم صوت خالتي بيبي عاد يتناهى إليّ: "وهناك بيت رنيون - هل تذكره؟ كان من رعية كنيستك. كان قد انتقل هو وزوجته إلى هنا بعد تقاعده، زوجته أصيبت بالنُّفاخ - باتت حبيسة منزلها، تجر معظم الوقت أسطوانة الأكسجين على العجلات معها. كنت قد زرتها مؤخراً عدة مرات، كي أبهجها. لكن بيت الآن قد أصيب بالسرطان. أظنها المثانة. أو ربما البروستات - لكن ليس بالنوع الهيّن، إن كان هناك من نوع هين. فبيث كتومة جدًا على الخبر، لكن من الواضح أنه شيء ما يتعلق بأنابيبه، شيءٌ خصوصي. لم ترد أن تقل لي أين بالضبط،

لكن من الواضح أن الأمر خطير." تنهدت، من ثم عاودت سردها. "ألا تظن أنه من الأسوأ إن أصيب الزوجان بالمرض؟ أنا أظن ذلك. فالأمر مختلف إن كنت وحدك - لكن معًا فإما تغدو عبئًا أثقل أو أخف. أعني، حينها ستودعان في دار العجزة، لا خيار آخر، وبذا ينتهي الأمر، لا حل وسط. خذ على سبيل المثال آليس وروبين مينيل - هل تذكرهما؟ حسنٌ، آليس تعرضت لجلطة في الربيع الماضي و..."

وهكذا دواليك. أنا أفرغ القدور، وبيبي تفرغ خزائن أدوية معارفها جميعًا، وأبي، جالسًا رابط الجأش معها، يهضم كل حديثها. عند الباب، بين حرِّ الشقة وبرودة الأجواء، قبلت وجنتها الناعمة المحبّبة، أمسكت بيدها المتشبثة كالبراثن بيدي، من ثم أمسكت بذراع أبي، وقدته بتأن على آثار الجليد الزلق - جليدٌ أسود هنا وهناك متناثر على الممر الاسفلتي لمدخل شاليه الخالة بيبي - وأجلسته على مقعده. وعلى الطرف الآخر من المدينة، ركنت السيارة أسفل مدخل المبنى المسقوف - البواب في المبنى الذي يقطنه أبي كان قد انكب على تمليح المدخل - فرافقت أبي حتى أوصلته إلى باب شقته، حاملةً له كيس مشتريات متجر ترادير-جو المملوء حتى النصف بالهدايا (ماكينة حلاقة كهربائية؛ السيرة الذاتية لهاملتون؛ وزوج قفاز كشميري) يعلوها وعاء حفظ الطعام المملوء بالبطاطا الحلوة المهروسة.

لم أخلد إلى فراشي ليلتها، فالنار شبت مستعرة في صدري. فمن تراه سيفعل ذات الصنيع لي في سنوات خرفي؟ من تراها ستكون فتاتي البارة؟ هل ستكون شارلوت، طفلة مات وتويتي الغالية؟ لا أظن. لا: أخذت أتلذذ مرارة الحماس بتصوري أني سأتدبر الوصول حتى خط النهاية اعتمادًا على نفسي، حماسٌ هو مزيجٌ من النكران

والشظف، لايختلف عن حماس الملتزمة بحمية غذائية اتجاه واقع معدتها الشرهة. سأعيش مكتفية بذاتي. سأواصل المسير قدمًا. لن انسكب في حيوات الآخرين من حولي، ذليلة متطلبة محتاجة طامعة في كرم أخلاقهم. لا لن أفعلها. أبدًا لن أفعلها. لن أطلب أي شيء من أي أحد؛ سأحترق وحدي، من الداخل للخارج، مثلي مثل الرهبان الذين يهبون أجسادهم قربانًا بسكب البنزين على أنفسهم. أشبه بالاشتعال الذاتي العفوي. أشبه به. **أتمنى لكم من كل قلبي ليلة ميلاد لعينة.**

وفي فورة غضبي، فعلت أغرب تصرف يخالف طبيعتي؛ في الساعة العاشرة من ليلة الميلاد قدت بالسيارة عبر الشوارع الزلقة الخالية، المفسطنة بالأضواء الوثنية، كل الطريق إلى سمرفيل، نحو الصمت المطبق للمستودع، حيث عدوت بخطىً سريعة على الدرجات الواهنة، أمسك بمفاتيحي سلاحًا بين أصابعي (حتى في فورة غضبي، كان لا يزال من مكان في الزوايا لخوفي)، وما إن بلغت المحترف حتى فتحت الباب ثم أقفلته بالقفل من خلفي.

كان البرد قارسًا - إذ على ما يبدو فالتدفئة كانت مغلقة لأيام - وانتابتني إذ ذاك لحظة تردد، أتساءل إن كنت قد ارتكبت خطأً في مجيئي. لكني أعددت فنجان قهوة لنفسي، أدرت مشغل الاسطوانات، نقبت في حاجيات سيرينا وعثرت على زوج قفاز منسوج من صوف أسود ناعم مقطوع عند الأصابع. حين ارتديته شعرت وكأني أوليفر تويست على مسرح الحكايا العالمية، ("أرجوك سيدي، هل لي من مزيد؟")، لكن القفاز أوفى بالمطلوب؛ تمكنت من حشر كل أصابعي فيه ولم يقيد حركتي. جلست إلى منضدتي، لا في بركة ضوئي

الصغيرة، بل بعد إشعال كل إضاءة سقف وكل مصباح أرضي وكل مصباح مكتبي لعين موجود في المحترف، خلقت بيديّ ضياءً مدويًا، محيط رالف إليسون من مصابيح الإضاءة، وبذا، بعد كل الوقت الذي قضيته بعيدًا عنها، وأخيرًا، تسنى لي العمل على إميلي دي.

كل مرة توهمت فيها أني سمعت صوتًا، ركزت سمعي أكثر على الموسيقى، أصدح غناءً معها، أو أخبط بقدميّ الأرض. لكنها كانت ليلة الميلاد: لا أحد هناك في المبنى. لا أحد هناك في الشوارع. كنت وحدي، وحدي ولا أحد معي، كما يقول الأطفال، وكنت سأظل هكذا حتى النهاية. سحقًا لهم جميعًا. وإن حاول أحدهم اقتحام المحترف أو إخافتي أو اغتصابي، فليجرؤ ويفعلها، وسأحرقه بنار غضبي.

انكبيت على العمل لأربع ساعات متواصلة دون أي لحظة راحة، ومن ثم، مذعورة من التوجه إلى الحمام نهاية الرواق، تبولت في دلو في إحدى زوايا المحترف، رميت بالبول في حوض المغسلة وشطفت الدلو من ثم جلست أعمل لأربع ساعات متواصلة أخرى، إلى أن نال مني في النهاية الإرهاق الشديد، الإرهاق الذي يعمي القلب والعين، عيناك تعجزان عن الرؤية، كل ما تراه أمامك يتبدى لك ضبابيًا وكأنما ستصاب بجلطة، لا تعود حتى واثقًا مما تصنع وعليك إذ ذاك أن تتوقف لبرهة. لذا وضعت أدواتي جانبًا ودثرت نفسي بكل أوشحتها وشالاتها - كانت عبقة برائحة عطرها، بعبق الليمون - ووضعت عددًا من وسائدها على بساطها الصغير الذي فرشته على زاوية الأرضية الأقل غبارًا، جانب الكراسي، واستلقيت مع قدميّ ملتحفتين بمعطفي. وهكذا في غمرة الضياء الساطع، الموسيقى تصدح في الأجواء (كان مشغل أسطوانات من النوع ذي السماعات الضخمة

بسعة خمس اسطوانات مدمجة، مع خاصية التشغيل المستمر: آني لينوكس، جوان آرمترادنغ، جوني ميتشيل - موسيقاي القديمة، موسيقى الفتاة اليافعة فيّ، رفيقاتي الموسيقيات اللواتي أعول عليهن في الهدهدة لي حتى المنام)، أدركت أني سأعيش هذه الساعات مع إميلي نستقبل معًا العام الجديد، أني سأنهي العمل على غرفة إميلي - وربما حتى سيتسنى لي الانتهاء من تركيب الإضافات الكهربائية التي ستجسد رؤى زائريها - قبل أن أعود إلى عملي في المدرسة - أني أعيش اللحظة قمة حماسي وحيث أريد أن أكون وغاضبة بما فيه الكفاية، على الأقل لمرة واحدة في حياتي، كي أكون وحسب نفسي الحقيقية.

أغلقت عينيّ، لعقت عن أسناني بقايا الطعام، وعلى الفور استغرقت في منام عميق.

***

الجزء الثاني

1

مع حلول اليوم الأول من المدرسة، كانت غرفة إميلي قد باتت جاهزة. كل ما كان ينقصها هي الشرائح الضوئية، فانوسها السحري الخاص يسلط الضوء على كلماتها، **الموت، الإلهام، السعادة**. كنت قد قضيت الأسبوع بأكمله من ليلة الميلاد وحتى رأس السنة الجديدة شبه ملتصقة بإميلي. مرةً تناولت العشاء مع أبي، ومرةً اجتمعت بمجموعة من أربع صديقات لي لاحتساء الشراب - كنَّ صديقاتي الحميمات لأعوام، بيد أنهن بدون لي في تلك الليلة صاخبات وسخيفات، على بعد مليون ميل من عالمي. عدا تلكما النزهتين القصيرتين، قضيت أيامًا وأمسيات طويلة في عالمي من الضياء الأبيض الساطع، أصقل بالرمل وألصق بالصمغ وأبري الخشب، أقتات على شطائر الجبنة البائتة الملفوفة في الورق الشمعي التي أعددتها، شبه نائمة، كل صباح في بيتي، على قطع التفاح البنية وألواح الشوكولا الإيطالية الباهظة سريعة التفتت، داكنة جدًا ومغطاة بقصدير ذهبي، كانت مكافأتي لنفسي متى ما أنجزت ما بين يدي على أفضل صورة. لم أعاود النوم هناك مرةً أخرى، ففي صباح الكريسماس استوعبت عمري الحقيقي، عظامي المتألمة، مفاصلي الملتهبة؛ لكني مع ذلك كنت قد قهرت شيطانًا في داخلي وما عدت أخشى الظلمة. لا: لست صادقة

معك تمامًا. كنت لا أزال أخشى الظلمة - كلما غادرت المبنى قبيل منتصف الليل، هرعت خارجة على السلالم مثلي مثل سندريلا، أتخطى الدرجات، خشية تدق ساعة منتصف الليل، أندفع في سيارتي الفولكس واغن غولف البالية وكأني أرمي بنفسي في عربة اليقطين المذهبة التي ستتلاشى على الفور - لكني في ذاك الأسبوع، حبي لإميلي فاق خوفي. برفقتها شعرت بالصفاء والسكينة والفخر؛ عشت تلك الأحاسيس وحدي، مثلما عاشتها إميلي.

أما بالنسبة للآخرين - عائلة شاهيد - فقد عالجت جرحي بالكيّ، أو ظننتني فعلت. لو أني أسرَّيت إلى ديدي أن ما جرى قد أصابني بجرح غائر، لكانت استهزأت بي؛ لكنه كان جرحًا غائرًا، وتحت إلحاحها، أجبرت جرحي على التخثر. وهكذا بقي ملتئمًا إلى أن عادوا.

***

في اليوم الأول من المدرسة، حين رأيته يخبط الأرض في جزمته الشتوية، داخلاً الصف حاملًا حقيبة ظهره، يحمل في يده قبعته الصوفية بكُرتها البيضاء السوداء، تعلو وجهه الحنون نظرةٌ جادة، وما إن رآني أبتسم له حتى رقّ وبادلني بابتسامة، ابتسامة عريضة صادقة من القلب، ابتسامة عينيه ذات الرموش الكثيفة - عينه العزيزة، ندبة عينه الغالية! - ومثلها ابتسامة ارتسمت على شفتيه، ما إن رأيت تلك الابتسامة، ابتسامتي، الابتسامة التي ارتسمت لي، أحشائي تشقلبت وكأني مراهقة تلقت التو قبلةً في الهواء من نجمها الغنائي.

لم أكن واثقة تمامًا، وكيف لي، من مسألة عودته. لا اتصال،

لا إيميل، لا رسالة - حتى أني تساءلت بيني وبين نفسي، أنقب بأصابعي في أوشحة سيرينا في محترفي، لعلّي ألتقط عبقها العتيق - لم يكن محترفنا تلك الأيام، بل محترفي أنا - إن كنت قد تخيلت الأمر برمته في حلم ما، إن كانت كل أحاديثي معها لا تفوق واقعيةً حلمي الجنسي بزوجها.

هناك قصة قصيرة لتشيكوف تدور حول أمر كهذا، كنت قد قرأتها في الجامعة ومنذ ذاك أسرتني. قرأتها في ذاك الشتاء الكئيب المظلم في سنتي الدراسية الثانية، لدى انقضاض الشك علي ببراثنه الحادة بعد قراري عدم الدراسة في كلية الفنون، أعدت قراءتها المرة تلو الأخرى. **الراهب الأسود**: حول رجل يزوره راهب، فيتبادلان الحديث في أعمق مواضيع الحياة، عن الإبداع، العظمة، ومعنى الوجود. في حديثه معه يؤكد عليه الراهب أهميته الفردية كإنسان، القيمة العظيمة لمواهبه الاستثنائية. من ثم يفيق الرجل ويدرك أن الراهب ما كان إلا طيفًا؛ أنه وبلا ريب قد فقد عقله. لكن أما كان خيرًا له أن يكون مجنونًا برفقة الراهب، على أن يعيش عاقلًا مكبّلًا وحيدًا في برج طموحاته، يعيش رجلًا عاديًا يواجه أقسى حقيقة عليه أن يدركها، ما دفعته عائلته قسرًا إلى إدراكها بوضوح: ألا شيء استثنائي فيه. سيرينا كانت راهبي الأسود، ربما هي الأخرى ما كانت سوى طيف في أوهامي.

لكن ها هو رضا، يتجلى فجأةً أمام ناظري، في فصلي في آبلتون، باسطًا راحة يده لي، متورد الوجنتين خجلاً بعض الشيء، يهديني ميدالية مفاتيح مبتذلة لبرج إيفل، هدية كريسماس متأخرة. إذن فقد خطرت له - لهم - فكروا بي، كما فكرت أنا بهم. هم أيضًا اشتاقوا

لي. أول ما خطر لي أنها ولا بد متواجدة الآن في المحترف، واجتاحتني لحظتها الرغبة في التغيب عن المدرسة، تركهم جميعًا خلفي، والجري بحثًا عنها. ولم أكن لأكترث أني في الأيام العشر التي قضيتها وحيدة في معتزلي حققت ما يفوق بكثير ما أنجزته في الأسابيع التي قضيتها في أحاديثي معها، لأن أحاديثي معها هي ما قادت إلى تلك الأيام العشر - فهي كانت ملهمتي، هي كأس البوربون بالثلج في عيني مدمن الخمر: هي الإغراء الذي لا يقاوم.

عين رضا لم تبد في حال سيئة. كانوا قد أزالوا الغرز عنها؛ الندبة - نظيفة، نظيفة، فقد رأيت الجراحة تخيطها، ترتق لحمه - لا تزال حمراء، بلون اللحم مسلوخ الجلد، لكن لم تثر ذعرًا بين الأطفال. بل العكس، أضفت على رضا هالة من أناقة الفتى المشاغب، بدا أشبه بقاطع طرق يافع وسيم. تحاشى الإجابة على أي أسئلة من زملائه تتعلق بالحادثة، مكتفيًا بابتسامة أو تربيت على ذراع: من الواضح كان يطبق ما لقناه إياه والداه، ما كان لينبس بكلمة في الموضوع.

لكنه، مع ذلك، استطرد في حديثه عن باريس، عن لعبة سيارات التصادم في الباستيل، عن مخبزه المفضل حيث المرأة العجوز ذات الثآليل، تدعى ليوني، ما انفكت تهديه قطعة من حلوى البالمي كل صباح لأن مجرد رؤيته تسعدها. سرد على زملائه قصة شجرة الميلاد البلاستيكية البيضاء، العارمة بخرق الأوراق، التي نصبوها في ردهة المبنى الذي يقطنون فيه، كيف أن كلاب المقيمين في المبنى باتوا يرفعون سيقانهم ويتبولون على جذعها الصناعي كلما مروا من جانبها، لذا سريعًا ما غدا الرواق عبقًا لا برائحة أوراق الصنوبر والثلج، بل برائحة البول البائت. رضا، مع كونه طفلًا، ورغم كل

الثغرات في لغته الإنجليزية، فقد أثبت كم هو راو رائع، عرف كيف يضحك الجميع بحكاياته، ما أشعرنا جميعًا، بعد فترة الانفصال، وكأننا قد عدنا عائلةً من جديد.

***

لم أذهب إلى المحترف بعد ظهيرة ذاك اليوم، لم أرغب برؤية نفسي مثيرةً للشفقة في عينيها. لم أرغب بترك نفسي أنجرف في توقي إليها. كان قراري المتزمت، تعبيري عن شخصيتي الجديدة المستقلة. وعلى أي حال، لم أكن حتى واثقة من تواجدها هناك. عوضًا عن ذلك، خرجت لممارسة الجري، اشتريت سمك سلمون طازج من السمّاك، وعدت إلى البيت.

أنا لست بطاهية. أجل اشتريت السمك، لكن ما كانت لدي من رغبة في إعداده؛ ما إن أخرجته من البرّاد أعدته إليه. كنت أتفحص علب الحساء الجاهز في خزانتي حين سمعت رنة الجرس على الباب في الطابق السفلي. كنت على وشك ألا أنزل وأفتح الباب: فالجو باردٌ في بيت السلم، وتوقعت الزائر أن يكون أحد الفتيان من بائعي اشتراكات المجلات أو مندوب ما من ماسبيرغ[34] يتسول شلنًا. لدى اقترابي من الباب، أشعلت الإنارة الخارجية، وجهزت تقطيبة جبيني للزائر المزعج.

وها هي تقف أمامي، في معطفها الأسود الطويل المنتفخ، تحمل كيس مشتريات كبير: بدت أقصر، عين من عينيها مجهدة، شعرها

(34) Masspirg: منظمة غير ربحية لحماية حقوق المستهلك في ماساتشوستس.

مشعث أكثر مما أذكره عليه في خيالي عنها، لكنها كانت مبتسمة، ذراعاها مفتوحتان لي على المدى ، شفتها الأنيقة الملتفة ممتدة على سنها الأمامي شبه الناتئ، تجعيدة عينيها متغضنة.

هتفتْ "كاريسيما[35]" بمجرد ما فتحتُ الباب. "عزيزتي، عزيزتي نورا! كيف حالك طمنيني؟" أمسكت زندي بيدها، تقبض عليها، قادتني للداخل وأغلقت الباب من خلفنا. "أراك كنتِ منكبة على العمل - منحتِه كل جهدك، من كل قلبك! كنتُ هناك هذه الظهيرة، في المحترف. يا لها من شيء مثالي، تلك الغرفة الصغيرة التي صنعتها." بدا وكأنها ستسوقني خلفها على السلم، لكنها توقفت، ذراعها ممدودة بالكامل بيني وبينها، تنظر إليّ: "يا له من عمل مذهل نورا، غرفتك لإميلي لا تشبه أي شيء آخر رأيته قط."

"أوه، لا داعي للمبالغة." كم كنت سعيدة، وخجلة. "ما الذي تفعلينه هنا؟"

" أحضرت لك شيئًا. كي تتناولينه. اشتريته من باريس لأجلك، وقلت في نفسي، ربما ستسعدين بتناوله على العشاء الليلة، كذلك رأيت فيها فرصة لي للمرور وإلقاء التحية عليك، وشكرك."

"شكري؟"

"آه نورا، أنت تعرفين علام يجب أن أشكرك. لا تدرين كم شعرت بالسوء إذ لم يتسنَّ لنا توديع بعضنا بالشكل اللائق، ولم يتسن لي شكرك. فما كنا سنفعل من دونك؟ لكني أكره التراسل بالإيميل، وكذلك الحديث عبر الهاتف - لاسيما في اللغة الإنجليزية، فالأمر يربكني - لكن هَأنذا هنا أخيرًا! أحمل لك معي فوجرة[36] وقنينة

(35) Carissima: وتعني عزيزتي بالإيطالية.

(36) الفوجرة – foie gras: طعام من أكباد الإوز المسمن.

سانسيري، وكعكة بانيتوني، كي أقول لك: عامًا سعيد."

"فوجرة؟"

"ألا تحبينها؟ كنت قلقة من ذلك. لا تشعري بأنك ملزمة بتناولها. سأحضر شيئًا آخر - فطيرة كيش، يخنة؟ ما الذي سيناسبك؟"

"أحب الفوجرة. حقًا. شكرًا لك."

كانت مهتاجة. كانت جد سعيدة برؤيتي. الذنب يتآكلها لأنها تركتني دون كلمة وداع واحدة. وقد ابتاعت لي فوجرة. فما الذي كان سيرضيني أكثر من هذا؟ صببت لها كأسًا من قنينة نبيذ سانسيري التي أحضرتها، مع أنها لم تكن باردة كما يفترض بها أن تكون. جادلت نفسي إن كان عليّ أن أعرض عليها إضافة قطع ثلج في الكأس، لكني قررت ألا أفعل.

ها هي: سيرينا في مطبخي. لم تكن قد تواجدت فيه من قبل. أخذت تقول أشياء لطيفة عن شقتي، تعبر عن إعجابها بلمساتي الفنية. كانت قد رمت بمعطفها المنتفخ على الأريكة وجلست إلى منضدة المطبخ وكأنها تعد نفسها لحديث شخصي طويل معي. وأنا، مثلي مثل الدهن الأصفر حول الفوجرة التي غرفتها عن الجرة، أميع على إثر كل كلمة مديح تنطق بها.

"كيف قضيت الوقت في وطنك؟"

"وطني؟ أوه نورا. أتمنى لو كان لي حقا من وطن، مثلما كامبريدج هي وطنك - هذه الشقة الجميلة، التي تنضح بعبقك، تعبر عن روحك، المكان الذي يعرفك وتعرفينه كما تعرفين ظاهر يدك. لكن ما أظل أنساه من ثم أعود وأكتشفه من جديد كلما عدت إلى باريس، أن باريس ليست موطني، ليس بمعنى الكلمة - فأنا أجنبية

حتى هناك. وإن فكرت بالأمر، فمن يا ترى لا يزال يرى في باريس وطنه، عدا البوابين الذين يثرثرون الأقاويل في جنباتها."

" لكن لا بد أنك كنت سعيدة بعو-"

"أجل، أدرك ما تقصدين. رضا يعشق أصدقاءه الصغار هناك. وإسكندر يعشق أصدقاءه الكبار. بطريقة ما وجودي هناك كان متنفسًا لي - ألا أشعر بثقل المسؤولية نحوهما."

"وماذا عنك؟"

"أنا، بالطبع لي تاريخي هناك، لي أصدقائي، وزملائي؛ ففي النهاية وطني هو حيث ولداي. لكن، هل تبدو لك مألوفة فكرة الوطن المتخيَّل؟ ما إن ترفعي قدمك عن الشاطئ وتطئي القارب الصغير، ما إن تنطلقي في الرحيل، فلن تعودي تشعري مرةً أخرى بأنك في وطنك، كل ما تركته خلفك بات موجودًا فقط في ذاكرتك. وبذا فالوطن المثالي الذي تحملينه معك ما هو في الحقيقة إلا خيالٌ غريب اختلقته من كل ما تركته خلفك في كل منعطف في حياتك."

"إذن لم تحظي بوقت ممتع؟"

"بلى، حظيت بوقت ممتع، ولم أحظ بوقت ممتع. فقد اشتقت إليك، وإلى المحترف، إلى عملي - فكما ترين، لم أصنع شيئًا، على خلافك أنت - لم أملك أي وقت للعمل الإبداعي، أخشى أني لم أفعل شيئًا سوى تناول الوجبات الدسمة في المطاعم والانشغال في موسم الأعياد."

لم أدر إن كان عليّ الوثوق بها: فقد بدت متصنعة في حديثها، وكأنها تؤدي دورًا على خشبة مسرح.

"ومتى عدت؟"

"قبل يوم أو يومين. فإسكندر كان لديه ارتباطٌ مسبق في نيويورك الليلة الماضية - لحضور مؤتمر. لقاءات وما شابه، تعرفين كيف هي الحال معه." ابتسامةٌ حسرى ارتسمت على شفتيها. تصورتها مجبرة على قضاء أوقات كثيرة وحدها، وحدها برفقة رضا. لا، هي ليست مثلي. هي ليست وحيدة.

"لكني هنا لأعرف أخبارك،" قالت لي. "عامٌ جديد، بداية جديدة. ما تراك فعلت كل تلك الفترة الماضية؟"

"لا شيء حقًا، كانت إجازة هادئة. واصلت فيها العمل."

"وماذا عن الميلاد؟"

"قضيته برفقة أبي وخالتي."

"شقيقك المزعج لم يحضر؟"

"مات؟ هو لا يحضر هنا في هذا الوقت من العام. فمتى ما غدوت صاحب أسرة، فأنت معفيٌّ من الحضور، أليس الحال نفسه معك؟"

"معفيّ؟ ليس من حيث جئت. أمي قدمت إلى باريس لقضاء الميلاد معنا، وبرفقتها أختي الكبرى. كان البيت صاخبًا جدًا. ليتك رأيت رضا، قد تمرغ في الدلال."

"دعيه يتمرغ، فهكذا يجب أن تكون أجواء الميلاد."

"أجل، أظن معك حق. لكن أترين، كل فرد عليه أن يلعب الدور المناط به. وفي هذه المسرحية، أنا الابنة والشقيقة والأم - لا الفنانة، أبدًا. حتى لو كنت لوك تيومان[37]، لما عنى ذلك شيئًا لهم. فلا هامش لديهم أتنفس فيه خارج حدود واجباتي اتجاههم."

---

(37) Luc Tuymans: رسام بلجيكي

"حالي من حالك"

"أنت؟ لكنك حرة! وكم أحسدك على حريتك. فكم مرةً خطر لي المحترف وتصورتك فيه، تعملين دون أي انقطاع. وكم مرة تصورتك تفكرين متأملة، جالسة هنا في شقتك الجميلة - والتي لا تبدو تمامًا كما تصورتها، لكن ليست ببعيدة عن الصورة في خيالي، بينما أنا منكبة على إعداد الأسرة وأطباق اليخنة ولف الهدايا وتبادل الأحاديث السخيفة..."

"العشب دائمًا أكثر اخضرارًا ... " كان الحماس قد اعتراني لمجرد التفكير أنها فكرت فِيّ - تتآكلها الغيرة مني. "كنت قلقة بشأن رضا."

"حاله جيدة جدًا. لقد رأيت عينه، أليس كذلك؟ مع الوقت ستغدو الندبة أثرًا خفيفًا ... كم كنتِ في منتهى اللطف معه، ومعي، في تلك الليلة الفظيعة."

"ليلتها كنتِ قلقة من الأمور العاطفية."

"الأمور العاطفية. آه، أجل. أولاد يقذفون الحجارة. لكن الأطفال مرنون. وخيرًا فعلنا أننا سافرنا - فهكذا حظي بفرصة كي ينسى. الكوابيس كانت تراوده أحيانًا، لكن ما كان ليفصح لي عمّا كانت. ولا أدري إن كان لها علاقة بما جرى. من عساه أن يعرف؟ شونا ماكفي أبلغتني أنها قد فصلت الولد."

"على الفور."

"حسنٌ: ها نحن في عام جديد، بداية جديدة. وقد عاهدت نفسي ألا أتذمر. فقد بت ماهرة في التذمر، وبات لزامًا عليّ البدء في ممارسة مهارات أخرى. كما أني عاهدت نفسي على الانكباب في العمل

- فلا وقت لدي أضيعه من هنا وحتى شهر مايو. الأشهر ستجري قبل أن نشعر بها؛ وقد أعطيت كلمتي لصالة العرض في باريس بأني سأعود جاهزةً لمعرضي. لذا: أوتْغافِيّ!" كانت تنهض عن كرسيها لدى قولها هذا: إعلانها الرسمي بالرحيل. ومن ثم سألتني،"وما العهد الذي قطعته على نفسك لأجل العام الجديد؟"

جفلت على وقع سؤالها. فلم أفكر بقطع أي عهد على نفسي بمناسبة العام الجديد. فتلك الليلة قضيتها في المحترف، في غفلة عن الوقت، وما إن وعيت، بعد فوات الأوان، لهبوط الكرة في تايمز سكوير معلنةً العام الجديد، تمنيت لإميلي دي عامًا سعيدًا: حملتها، في منامتها من الدانتيل، عن فراشها المرتفع الضيق، ومسدت رأسها اللامع؛ من ثم أعدتها، بحذر، إلى حياتها في بيت الدمى. عامًا سعيدًا لك أنتِ أيضًا. "قد قطعت على نفسي عهدًا بأن أكون أكثر استقلالية."

"أنت؟ لكنك أكثر شخص مستقل التقيته في حياتي!"

"الأكثر وحدة، ربما." ولسبب ما خطرت أمي لي، الأبواب تُغْلق عليها يومًا بعد يوم، إلى أن دُفِنت حيَّة في وحدتها. "وشتان ما بين الأمرين."

2

لأني شكوت لها عزلتي، فقد رأيت في دعوتها لي على العشاء الأسبوع اللاحق دعوة شفقة، مما أثار قلقي. موعد العشاء المتفق عليه كان السابعة والنصف. وصلت أنا السابعة وأربعين دقيقة، قلقة من وصولي متأخرة، أحمل معي قنينة نبيذ إيطالي باهظة - أظنها كانت بارولو - أوصت بها الفتاة العاملة خلف نضد الأجبان في فورماجيو. ما إن فتح إسكندر الباب راودني الشعور بأنه قد فوجئ برؤيتي.

"آه! أنت هنا. سيرينا، نورا هنا. تفضلي." المدخل كان ضيقًا جدًا، وكذلك السلم المؤدي للأعلى، كان على إسكندر التراجع للخلف والصعود على الدرجات كي يتسنى لي الدخول. لم يكن من الواضح ما هي إيماءة التحية الجسدية المناسبة لنا، إن كان هناك من داع لها أصلًا، لذا اكتفينا بهز رأسينا والابتسام بشكل أخرق.

"أرجو ألا أكون قد أخطأت في اليوم."

هز رأسه ضاحكًا، ومد يده كي يتناول معطفي، بينما يتراجع للخلف درجةً درجة.

"إذن أخطأت التوقيت؟"

سيرينا ظهرت أعلى السلم، مع رضا إلى جانبها، مستعدًا منذ الآن في منامته الموشاة بالمربعات. "أهلًا بك! زيارتك الليلة تأتي في

ظروف أفضل بكثير من الليلة السابقة. هذه الليلة سنقدم لك مائدةً من أشهى المأكولات عوضًا عن الخبز المحمص والشاي."

كانوا قد زينوا المائدة بالزهور والشموع، إذ أطفأوا تلك الكرة الملطخة، ووزعوا المصابيح في المكان توزيعًا استراتيجيًا أضفى على الأجواء إحساسًا شبه جذاب.

"تعالي آنسة إي، تعالي أريك غرفتي." فورًا كان رضا قد أمسك بيدي وجذبني خلفه، والده كان يصب النبيذ وأمه عادت إلى الفرن.

لحقت به هناك، ورأيت أن غرفته كانت قد تحوّلت هي الأخرى، فمن السقف تدلت إنارة فانوس سحري دوّار يسلط الضوء على الحوائط عاكسًا عليها أخيلة ملونة لعازفي موسيقى الجاز - قارع طبول أخضر يجلس خلف عدة طبوله، عازف ساكسوفون زهري، ظلٌّ أزرقٌ ضخم متقن للاعب غيتار كهربائي. ملصقٌ كبير للاعب كرة قدم يجري بالكرة - افترضته لاعبًا فرنسيًا - احتل معظم الحائط أعلى رأس سريره، يخفق تحت الإضاءة فيتراءى لك وكأنما اللاعب حي.

"هذا زيدان،" قال لي رضا مفسّرًا. "هو الأفضل على الإطلاق. كان لاعبًا في فريق جوفنتوس أتعرفينهم؟"

"لا."

"سأشرح لك ... " سحبني من يدي وأجلسني جانبه على سريره وأخذ يعدد عليّ، مغلوبًا بحماسه على حساب وضوحه، المسار التصاعدي لمسيرة زيدان الكروية، لاعبًا في المنتخب الوطني الفرنسي ولاعبًا في فرق الأندية الكبرى.

"رضا" - والده كان يقف مبتسمًا عند الباب، يحمل في يد كأس نبيذ أحمر وفي الأخرى كأس ويسكي مع الثلج - "وقتك الذي تقضيه

برفقة الآنسة نورا هو في النهار، في المدرسة. هذه الأمسية هي للكبار."

"دقيقة فقط؟ أرجوك؟"

إسكندر أجابه بالفرنسية. ناولني كأس النبيذ وانسحب من الغرفة.

ارتسمت على رضا ملامح ابتسامة متواطئة. "لقد منحني ثلاث دقائق،" قال لي هامسًا، "لكن من سينتبه إلينا إن أخذنا أربعًا!"

***

رضا كان قد تناول طعام عشائه في وقت أبكر، ورغم أنه جلس معنا إلى المائدة لبرهة، يؤرجح ساقيه ويقطف متكاسلًا حبات العنب من وعاء الفاكهة، فلم يعرض المساعدة، ولا حتى بدت عليه أمارات الاستماع إلينا، وقبل رفع أطباق المقبلات - إمام بايلدي وكروستيني - عن المائدة، استأذن النهوض والذهاب إلى غرفته لقراءة مغامرات أستريكس.

كان بحق أمرًا مؤسفًا، حتى وإن بدا وجود رضا بيننا زائدًا بشكل غريب؛ إذ مثلما العدد ثلاثة بالكاد يخلق أسرة، أسرة هزيلة مقتصدة، فبالكاد للعدد ذاته أن يخلق حفل عشاء. لا سيما إن كان اثنان من الثلاثة على علاقة حميمة والثالث هوالغريب، المرأة في الطابق العلوي بسلوكياتها المتزمتة وافتقارها لروح الطيش. ووفق هذا السيناريو، ستعم الأجواء حتمًا هالة من الكدح - على الأقل في البداية. وبالفعل، جميعنا كنا مهذبين جدًا، نشق طريقنا في تبادل الحديث على طبق الباذنجان المثالي بالخبز المقرمش. تحدثنا عن

المدرسة؛ إسكندر سألني كم عامًا توليت التعليم هناك، وكيف هي المدرسة مقارنةً بغيرها من المدارس؟ من ثم توسعنا بالموضوع، عن أوجه المقارنة بين نظامي التعليم الأميركي والفرنسي؛ ونعم، رجاءً - فبالتأكيد سينفعني - سيكون رائعًا احتساء كأس أخرى من النبيذ ... ومن ثم، شيئًا فشيئًا، أخذ النقاش منحىً أقل تشنجًا ورسمية. سيرينا تحدثت عن أيام دراستها في ميلان، من ثم تحدث إسكندر عن التعليم الذي تلقاه في بيروت، في كلية فرنسية، وكيف أن أبويه بعثا به إلى مدرسة داخلية في باريس لقضاء السنتين الأخيرتين من تعليمه (الوضع كان، كما وصفه، أشبه بأجواء فيلم فرنسي قديم، قاس وتنافسي ومتقشف، الطلبة فيه يتساقطون من شدة الإرهاق والتوتر، ويتناولون لحم الأحصنة على العشاء. "اعتدنا سماع القطط الضالة تنقب في القمامة وتموء عاليًا في الزقاق خلف مطبخ مدرستنا، وما إن نسمعها نمازح بعضنا قائلين إنها غدًا ستكون في أطباق الكسرولة التي سنتناولها.") كيف لقرار أبويه هذا أن بدّل مسار حياته بأسرها دون أن يدرك ذلك حينها. "نصف أصدقائي من وطني - وربما أكثر من النصف - كانوا قد التحقوا بالجامعة الأميركية في بيروت؛ وانتهى بهم الحال بالقدوم إلى هنا، إلى الولايات المتحدة الأميركية، لإكمال دراساتهم العليا وما شابه. ما يعني أن حياتهم إما اكتست، على الأقل، رداء اللغة الإنجليزية، أو أنهم غدوا أميركيين - أميركيين حتى النخاع، لدى البعض منهم." تريث لبرهة ثم واصل، " اثنان أو ثلاث منهم هاجروا إلى كندا. وفي مونتريال، لك أن تحظى ببلح الشام وعنب اليمن - تتحدث الفرنسية والانجليزية، والعربية حتى، لأن الجالية اللبنانية هناك باتت كبيرة."

"وكيف اختلف وضعك عنهم؟ فها أنت في أميركا الآن - في هارفارد. أنت أقرب ما يكون إلى المؤسسة الأميركية."

عيناه اتسعتا من خلف نظارته في إيماءة ساخرة، حاجباه المقوسان ارتفعا حتى جبينه. "نعم، أظن ذلك،" قال لي. "لكن ليس هذا ما عنيته حقًا بكلامي. ما أعنيه أن للمنفى أنماطَ وجود، ففي أوروبا بالنسبة للمتعلم غير الأوروبي، وبصرف النظر عن هوية وطنه الأصلي، فحياة المنفى لها أن تأخذ نمط الحياة المريحة في تعددية أبنائها ..."

"موطن اللهجات السخيفة،" فلتت مني وقلتها عاليًا بلا قصد.

"وما الذي تعنينه؟" سألتني سيرينا عابسة.

"تعليقٌ سمعته من صديقة لي. كانت تعمل في محطة إذاعية، ولسبب ما وجهوا إليها دعوة لحضور حفل عشاء أكاديمي، برفقة كل هؤلاء الأساتذة في برنستون، أخبرتني أن نصف هؤلاء الأساتذة قد تلقوا جائزة نوبل، ولا أحد منهم يتحدث الانجليزية إلا في لهجة غريبة. برفقتهم شعرت وكأنها استقلت الطائرة إلى موطن العباقرة أصحاب اللهجات السخيفة."

إسكندر ابتسم ابتسامة مبهمة.

"لا أعني بكلامي أنكما تتحدثان بلهجة سخيفة."

"لكنها الحقيقة، صديقتك محقة تمامًا فيما قالت. في هذا البلد، هناك جيوب مثل تلك التي تواجدت هي فيها، كأنها سحب منخفضة على مستوى سطح البحر، بالكاد ترى. نحن الآن في واحدة منها. هذه الجيوب هي في أميركا، سحبٌ على أرض أميركية، لكن لا علاقة لها فعلًا بها، ونحن - السُّمر، السود، الصُّفر، اليهود والعرب

من كل أنحاء العالم - نحتشد معًا في جماعات، كلٌّ جماعة في شتاتها، ونخلق عالمنا من الأحاديث المألوفة، حياة صغيرة في بروجنا العاجية. ننبح على بعضنا البعض في لهجاتنا السخيفة، في لغة هي لساننا الأجنبي. لطالما تعجبت من قدرتنا أصلًا على التواصل. لكن ربما تدبرنا قول أكثر مما نظن - ولربما أقل. من يدري."

"الانجليزية لغةٌ مستبدة،" علقت سيرينا نزقة، وكأن اللغة في حد ذاتها هي من يقع عليها اللوم.

"لكن أليس الحال ذاته مع الفرنسية؟ ألم تقولي لي ذاك النهار أنك لا تشعرين حقًا بالانتماء إلى هناك."

"في فرنسا،" قالت في جفاء، "الناس يتحدثون الفرنسية لا الإنجليزية."

"لكنهم باتوا يتحدثون الإنجليزية الآن." قال إسكندر متسليًا على ما يبدو بمنحى النقاش. "وكذلك الألمانية. ما عاد مستغربًا الالتقاء بزملاء قد تتحدث معهم باللغات الثلاث، في أوقات مختلفة. فهناك، أنت في أوروبا، لا في سحابة عابرة تطفو فوقها مثل كائن غريب."

"لا أظنني فهمت ما تقصد."

تريث، احتسى شرابه. ومن عينيه كان لي أن أستشف سخريته وجديته في ذات الآن. "في أوروبا، بخيرها وشرها، التاريخ دائمًا ماثلٌ هناك، السياق التاريخي دائمًا حاضر. متى ما أخبرت أحدهم أني لبناني من أصل فلسطيني، من بيروت، أن إرثي في أغلبه مسيحي، أني أتممت دراستي الجامعية في باريس، وأني أستاذ في مدرسة الأساتذة العليا، ففورًا سيفهم المتلقي ما أعني ويتعرّف على خلفيتي - ما أنا عليه وما لست عليه. وسيستنبط معلومات أكثر من هندامي وتصرفاتي -

وسيصنفني وفق كل تلك المعطيات. ولعلمك، هذا لا يحدث وحسب مع زملائي من أصحاب اللهجات السخيفة، بل حتى مع البقّال وسائق سيارة الأجرة."

"وما الرائع في ذلك؟ خصوصًا إن أخطأوا تصنيفك؟"

"أنا لا أقول إنه أمرٌ رائع أو سيء. أنا فقط أفسر لك كيف الوضع مختلف عن هنا."

"لست مضطرًا للدفاع عن وطنك." قالت سيرينا في نبرة موبخة. تكبت غيظها في انشغالها بتقديم الطبق الرئيس. أخذت تغرف من قدر يخنة لحم العجل وتسكبه على الأرز في أطباقنا، دسم ومبهّر وعَطِر.

"في أميركا،" واصل إسكندر حديثه، "هناك أماكن مثل هارفارد، أخطو عتبة باب وشيءٌ من هذا القبيل يقع لي وسرعان ما أنسى الأمر. لكن التصنيف في هذه الحال لا يعود متعلقًا بأصولي، بل أكثر بأفكاري الفلسفية، انتماءاتي الأكاديمية. أنا معروفٌ هنا، بطريقة ما، لكن في الغالب - " وها هي الابتسامة الساخرة ترتسم على ملامحه مرةً أخرى. تحت تأثير ثمالة البارولو الذي احتسيته، تصورتها ابتسامةً مثيرة، موجهة سرًا لي. "في أميركا، أنا لغز. إن قلت لشخص ما في الشارع أني من بيروت، فاحتمالٌ كبير سيسألني أين تقع. إن أخبرته بأن لي أقارب فلسطينيين وأني تربيت على الدين المسيحي، فسيتعجب مني قائلًا ' وكيف يعقل ذلك؟ ' وإن شرحت له أني تلقيت تعليمي الجامعي في باريس، فقد يستغرب أيضًا ويرى فيما قلت أمرًا غير منطقي. ففي أميركا، أوروبا والشرق الأوسط يبدوان عالمين بعيدين جدًا عن بعضهما. إن كنت لبنانيًا قدم هنا لأجل الجامعة، لأجل الدراسة، فوراً

ستغدو أميركيًا. سيتقبلونك، وهو أمرٌ رائع، لكنهم أيضًا سيمنحونك طقم بدلة جديدة، وهيئةً جديدة، لا مضمون فيها، وأنت من عليك أن تنمو فيها حتى تلائمها، أو أنت من عليك أن يعدل فيها حتى تلائمك، أو أيًا كان ما ستفعل. هم يريدون استقبالك بلا أي متاع تحمله معك."

"إليّ بالكادحين، الجائعين ... هذا ما تقوم عليه أميركا."

"بالطبع. كل ما أقوله إني لو أتيت إلى هنا في عمر الثامنة عشرة، بدلًا من ذهابي إلى باريس، لكانت هيئتي، ونمط حياتي بأكملها، مختلفة في صور لا حصر لها."

"نحن من نحن،" قالت سيرينا في نبرة تحذير طفيفة، تلك النبرة التي تعني بها الزوجة أنه قد سبق وسمعت هذا الحديث من قبل، أو أن زوجها بات على شفا الإطناب والتطويل. "وبما أننا نحن من نحن، فلنأكل طعامنا. هيّا نورا، ما بالك لا تأكلين، كلي!"

غرزت شوكتي في يخنتها المذهلة وتناولت لقمة كبيرة منها في فمي، أقول في نفسي، "من بين كل ما جرى الليلة، هذا ما عليّ أن أحتفظ به في ذاكرتي: هذا الانفجار من النكهات، الصنوبر، العجل، الكمون، الكشمش" - لكني بالكاد كنت منتبهة إلى طعامي. فقد التهيت بمراقبة إسكندر يعبث بطعامه مستغرقًا في الحديث، أتأمله يحادثني أنا وحسب، كأن سيرينا ليست معنا في الغرفة. فقلت في نفسي كرةً أخرى، ثلاثة رقمٌ صعب.

"لكن ألا ترى أن الأمر ذاته ينطبق على الطرف الآخر؟" سألته أخيرًا. " أعني، إن قررتُ الذهاب والعيش في أوروبا، أو في بيروت، ألن أبدو فجأةً، آه، متجردة من ذاتيتي؟ فهنا، وجودي الذاتي له مضمون؛

لكن هناك، لن أكون سوى أميركية."

وهنا نظر إليّ إسكندر شاخصًا، وكأنما يثمّنني. كأنما يعيّر أميركيّتي. "سوى أميركية؟ أبدًا. امرأةٌ جميلة مثلك، في فرنسا أو في لبنان، سيرونها أولًا وأخيرًا امرأة جميلة. أليس كذلك سيرينا؟"

سيرينا أومأت بضجر. "أنا ذاهبة إلى رضا كي أتمنى له ليلة سعيدة، فقد حان وقت نومه."

بعد عدة دقائق، ظهرت مرةً أخرى مقاطعةً حديث زوجها: "نورا،" أومأت لي من الرواق. "هل لك أن تأتي هنا لدقيقة، أتسمحين؟"

"بالطبع."

رضا نهض جالسًا على سريره ومد إليّ كلا ذراعيه كي آخذه في حضني - مرةً أخرى، أحدهم يعانقني، وكأن إظهار العاطفة الجياشة في هذه العائلة أمرٌ اعتيادي. "تصبحين على خير، آنسة إي،" قالها هامسًا في أذني. "أنت الأفضل على الإطلاق." من ثم تراجع وأنعم عليّ بابتسامة نيّرة مُحِبّة. أدري أن ما أقول سيبدو سخيفًا، لكني شعرت وكأنه في تلك اللحظة كان ابني. كأنه فعلًا أحبّني. وغمرت نفسي في هذا الوهم؛ لكني أيضًا شعرت بالحنق، بالحنق من سيرينا التي بدت وكأنها تأخذ وجوده في حياتها أمرًا مسلمًا به، تقف متكاسلة رائقة عند الباب مكتفةً ذراعيها مع نظرة ترنو إلى البعيد.

"بون وي، شيري[38]" قالت له، وشيئًا آخر بالفرنسية في طريقنا للخروج، تاركتين إياه في الظلمة، مع عازفي موسيقى الجاز يتراقصون متألقين على حوائط الغرفة.

---

(38) في الأصل بالفرنسيّة: Bonne nuit, chéri وتعني "ليلة سعيدة، حبيبي"

***

لأن المكان ليس بالبعيد - أو ربما ... كان لي أن أتخيل أسبابًا تطريني، وأخرى لا علاقة لها البتة بي - فقد عرض علي إسكندر مرافقتي في العودة سيرًا إلى منزلي. بيتي كان يبعد وحسب ست قطع سكنية، عبر منحدر على امتداد أكثر شوارع كامبريدج ازدهارًا. أنا واياه سرنا في عتمة الليل، متجاوزين الحدائق الساكنة من أي حركة خلا أطياف قمم أشجارها المدببة بالثلج تلوح لنا منذرة، مررنا على البيوت الكهفية المظلمة حيث لا ضوء ينبعث منها سوى من نافذة صغيرة في الطابق العلوي تشع ساطعةً مثل صفار البيض وتنير صفًّا صغيرًا من أعشاب المرج المتجمدة؛ أو بيوت أخرى، مكفَّنة تمامًا بدثار الليل، مثلها مثل غول نائم. إسكندر ما انفك يدخن طوال مسيرنا، راحة يده مكوبة حول سيجارته مثل صائد سمك في قلب العاصفة. كنت مريكة برفقته، وهو من أربكني، بصمته، وإن لم يبد عليه أنه قد لاحظ ارتباكي، ولم يخطر لي شيءٌ أقوله أكسر به الصمت سوى أن الشوارع جد هادئة، ملاحظةٌ لا قيمة لها فتجاهلها.

"فتاةٌ جميلة مثلك،" قال لي، دون أن ينظر إليّ، "ولا زوج لك ولا أطفال؟"

"ليس في الوقت الحالي."

"إذن سبق لك الزواج؟"

"تقريبًا، منذ زمن بعيد."

"صديقٌ حميم؟"

"إسكندر، أرجوك..."

"لا أقصد إحراجك بسؤالي. لكن حين أخبرتني سيرينا أنك عزباء، قلت في نفسي بالتأكيد هناك خطبٌ ما، ربما أنت متكتمة ولا تريدين إخبار أحد."

"لا، صدقًا، لا صديق حميم لدي الآن." وبعد لحظة، "وأنا لست سحاقية."

"أعرف أنك لست بسحاقية."

يا ترى هل رأى في تصرفاتي وحديثي معه غزلًا؟ "وما هو شعورك اتجاه رضا؟"

"ما باله رضا؟"

"أعني ما حصل له في المدرسة، قبل الإجازة."

هز كتفيه لامباليًا، ونفث في الهواء نفسًا متجمدًا من دخان سيجارته. "هل أنا مطالب بأن تكون لي مشاعر اتجاه ما حصل؟ في واقع الأمر، لا أظن. بالتأكيد أتمنى لو أن الحادثة لم تقع؛ لكن ما الخير الذي سيتأتى من تمنٍّ كهذا؟ ولي أن أتمنى ألا تقع مرةً أخرى - لكن حتى في هذه الحال، إن كان ما أتمناه أمرًا مستحيلًا، فلا خير سيتأتى البتة من تمنيه."

"أنت إذن متشائمٌ ساخر."

وإذ به، هو الذي عادةً ما تأتي حركاته الجسدية متمهلة، يلتفت لي فورًا ناظرًا إليّ، نظرته بدت شبه حانقة. "متشائمٌ ساخر؟ أبدًا. أنا إنسانٌ واقعي. إنسانٌ عملي. لكني أيضًا متفائل. وإلا كيف لي أن أفعل ما أفعل."

"وما الذي تفعله؟"

"ما الجدوى من الحديث عن أخلاقيات التاريخ، عن السؤال

الأخلاقي المتأصل في تاريخ التاريخ ذاته، إن لم يكن بهدف النظر نحو المستقبل آملين - لا، لا آملين، بل كادحين - في سبيل خلق عالم أفضل؟"
"أظنك -"

"لا، هذا أمرٌ بالغ الجدية. أنا رجلٌ يبحث ويتأمل ويتفكّر، لكني أيضًا ملتزمٌ بمواصلة النقاش الدائر، أينما كان النقاش جار، مع أي حزب كان وأي جماعة. ولعلمك فكل تلك النقاشات هامة."

تصوّرتُ هالةً ذهبية من نور تحيط به، لكن ما كانت الهالة سوى فقاعات زهرية من إنارة الشارع. تلك هي العلة في أماكن مثل كامبريدج، ماساتشوستس: في هؤلاء الناس - هؤلاء الرجال - من يظنون أنفسهم هبة الرب لنا؛ في أن هناك احتمالاً، وإن ضئيلًا، أن تلك الهالة لربما هي حقيقية، أنهم فعلًا هبة الرب لنا - احتمالٌ متى ما صدقناه فلا سبيل لنا لمقاومته.

***

لو كانت تلك العائلة وليمة، لتلذذت بتناول كل طبق منها بذات الشهوة: كل طبق منها مميزٌ في ذاته، فريدٌ في نكهاته. لكن لا قدرة لي على الاستمتاع بها جميعًا على مائدة واحدة - لا بد أن أكون واضحة معك في هذا الشأن، وإلا ستظن أني مولعة بالعائلة؛ أن كيانهم العائلي هو مصدر ملذتي واستمتاعي؛ ولربما كنت ستستنبط أن علاقة ثقة قد تكونت بيننا (وسيكون استنباطك صحيحًا فقط في حال رضا)، أن عاطفةً متبادلة قد نمت بيننا، وهو ما شككت دومًا في صحته. كنت واقعة في غرام رضا. كنت واقعة في غرام سيرينا. كنت واقعة

في غرام إسكندر. كل تلك العواطف كانت حقيقية؛ لكنها لم تكن متبادلة بيني وبينهم بشكل حصري، والأهم، أنها لم ترتبط، وفق ما رأيت، إحداها بالأخرى.

تأويل ديدي - أني واقعة في غرام سيرينا لكني أشتهي مضاجعة زوجها وأسعى لسلبها ابنها - لم يكن في محله. ما أردته حقًّا هي علاقة كاملة مع كلٍّ من الثلاث مستقلة تمامًا عن الآخرين. كنت في حاجة طبعًا إلى كيانهم العائلي - وإلا فكيف كان لي أن ألتقي بأيٍّ منهم؟ - ومع ذلك ازدريت كيانهم هذا. فما كنت لأرغب بالتواجد معهم جميعًا (وإن كنت أفضل هذا الخيار على ألا أكون مع أيٍّ منهم على الإطلاق)، وكم كرهت تصورهم جالسين معًا، في الأمسيات ونهايات الأسبوع، من دوني، بالكاد أخطر لأيٍّ منهم.

أما بالنسبة للثقة، فقد كانت شبه معدمة: "لم عساه يود أصلًا الحديث معي؟" وجهت سؤالي هذا لديدي لدى التقائي بها بعد الدعوة. "لماذا اختار مرافقتي سيرًا إلى بيتي، في البرد القارس، في العتمة؟" ما كنت لأعترف لنفسي بما أردتها حقًّا أن تقول لي، التطمين الذي سعيت إلى سماعه منها، لكن جسديًا كنت واعية لمكري، غصةٌ في وسط صدري - هل يا ترى المريء ينقبض؟

"وهل أنت في حاجة حقًّا إلى سؤالي؟ الرِّجال سيظلون رجالًا ويظلون رجالًا."

هززت رأسي بشدة آلمتني. "لا، الأمر لا يتعلق بهذا. ليس بهذه البساطة. يستحيل أن يكون بهذه البساطة."

"ربما سعى وراء نيل استحسانك له، ولا شيء أكثر من هذا."

"أظن - "

"أريدك أن تريدني،" أخذت تغني، "أحتاجك تحتاجني..."

"حفل بدوكان[39]، أدري. لكن ما الذي سيجنيه من استحساني له؟"

" ربما هي طبيعته."

"لم تبد لي طبيعة - بل بدت تصرفًا شخصيًا موجهًا لي وحسب. أسلوبه في الحديث معي - في النظر إليّ - كان ينظر إليّ، أتفهمين ما أعني؟"

"هل تحاولين القول إنه أغواك بعينيه الفاتنتين؟"

"لا، الأمر أعمق بكثير من مجرد إغواء، لم يكن يحاول إثارة إعجابي؛ صدقًا كان يحاول التكلم معي؛ هو -"

وإذ بديدي تمسك بكل كتف من كتفيّ وتنظر مباشرةً في عينيّ. "إن كان بارعًا في عمله،" قالت لي، "فلن تظني أنه يحاول إغواءك. هذا ما يعنيه أن تكون غاويًا." من ثم أطلقت سراحي. "بالنسبة لهؤلاء الناس، الكل هو الاستثناء. أنت أدرى بذلك. بالنسبة للغاوي، كل فرد هو فريسة مباحة للصيد، يرى قيمته في قيمة آخر فريسة اصطادها. وهو ليس بالضرورة أمرًا يتعلق بالجنس، وإن كان في معظم الأحوال مرتبطًا به. أليس هذا ما قاله الناس عن بيل كلنتون - لطالما كانت لديه القدرة على جعلك تشعر وكأنك الشخص الوحيد في الغرفة."

"إذن برأيك هذه هي حقيقة وضعي معه؟ أن كل ما يريده مني جنسٌ فموي سريع من تحت الطاولة؟"

هزت كتفيها. "أنا لم أقل أيًا من هذا. فأنا لم ألتق بالرجل. جل ما أقوله هو أن هناك أناسًا في العالم من هذه النوعية. إن كانت على

(39) في إشارة إلى الألبوم الغنائي Cheap Trick at Budokan

صورة ورقة شجرة قيقب، بلون وقوام ورقة شجرة قيقب، وعثرتِ عليها أسفل شجرة قيقب ... هذا كل ما أقوله."

لكني كنت أدرى بحقيقة الوضع، حتى وإن خشيتُ وقوع الأسوأ. فمع كلٍّ من سيرينا وإسكندر، تعلقتُ بحبال الرغبة المتأرجحة بين وهم الخيالات الحميمية واحتمال الرفض القاتم. الشك، تلك الفراشة القاتلة، ظلت تحوم صافقةً جناحيها في صدري. فمن أنا بالنسبة إليهما؟ ما عساني أن أضيف لهما؟ لا أنا بالمرأة المتألقة ولا الذكية بشكل جليّ ولا المهمة في هذا العالم. ومع ذلك، فالثلاث ارتأوا حاجةً لهم بي، حتى وإن كنا جميعًا عاجزين عن تحديد ماهية تلك الحاجة. كل واحد منهم أراد شيئًا مني، واحتياجهم هذا دفعني للتصديق بأني امرأة قادرة. لا أعني بالقادرة المرأة الاستثنائية، بالضبط، لكن ليس بعيدًا عنها، بل أقرب إليها. وهو ما أردت سرًّا تصديقه عن نفسي منذ طفولتي - لا: بل هذا ما آمنت به في أعمق دواخل نفسي السرية، مدركة أن مجرد إيماني هذا هو الشرط المسبق الذي سيمكنني من فعل أي شيء - لكن ما كنت لأسمح لنفسي بالبوح عن إيماني هذا لأحد. لا، ليس صحيحًا القول بأنهم شجعوني على إضفاء قيمة أعلى على نفسي؛ بل الأصح أنهم، في احتياجهم لي، قد فتحوا عينيَّ على قيمة نفسي الحقيقية. إيماني السري الراسخ بأني امرأةٌ فريدة، فرادتي العزيزة السرية، قد أيقظوه من سباته وبات يقتات على احتياجهم لي، غدا وحشًا يلتهم بنهم دون شبع، وغدا كذلك يخشاهم: يخشى نفوذهم الذي قد يتأتى لهم عليّ بسببه؛ وخشيته، كما ستثبت الأيام، كانت في محلها.

3

وهكذا، من سخرية القدر، بتُّ في ذاك الموسم حاضنة أطفال. من الواضح أنها ليست بالتسلية المثلى للمرأة شبه الاستثنائية؛ مع أني أدرك الآن، لدى استذكاري ما حدث، أنها كانت الخطوة المثالية - قدرٌ محتوم لا مفر منه - في المسار التصاعدي لحياة المرأة في الطابق العلوي. وحتى آنذاك، كنت واعية لحقيقة الأمر. فالكثيرات من المعلمات في آبلتون الابتدائية، على الأخص اليافعات منهن، عملن حاضنات أطفال لأجل تأمين دخل إضافي. ولطالما ازدريت تصرفهن هذا: فقد بدا أمرًا كفيلًا بتقويض سلطتهن التربوية كمعلمات. كان ازدرائي جد حازم اتجاه المسألة حدَّ أني لدى اقتراح سيرينا أمر الحضانة عليّ، شعرت برعدة صاعقة تسري في بدني، وكأني تعرضت لمسٍّ كهربائي.

كنا في المحترف مستلقيتين على الوسائد، أضحك على سردها عن العشاء الرسمي الذي حضرته في كلية كينيدي، حيث جلس إلى جانبها قطبٌ سياسي أشيب أسهب في حديثه معها لعشرين دقيقة عن عدم قابلية الحزب الديمقراطي للانتخاب (هو نفسه كان ديمقراطيًا، وإلا لبدت محاضرته عدائية)، وعلى ذقنه تلمع لطخة سميكة من الحساء الأحمر. أخبرتني أن اللطخة تحت الإنارة بدت وكأنها تغمز لها.

"أتظنينه كان يعاني ليلتها من مضاعفات عملية أسنان فاشلة نتج عنها فقدان إحساسه بذقنه، ما جعل بقايا الطعام تتجمع دائمًا في تلك الفجوة الصغيرة؟ أو أن المرء متى ما بلغ مرتبة عالية في العمل السياسي، ذاك النوع الذي يعمل من وراء الكواليس، فلن يجد حرجًا في الضراط علنًا أو الظهور مع بقايا طعام متجمعة على وجهه، أو ربما هو كائنٌ من الفضاء الخارجي، أو لربما يعاني من التوحد؟"

"هناك مصطلح في لغتنا الإنجليزية لوصف شخص كهذا،" قلت لها، "آشهول[40]".

"لا، أرجوك، وإلا سأتخيل تلك اللطخة السائلة في صورة أكثر إزعاجًا."

انفجرنا ضاحكتين وإذ بالقهوة الفاترة تنسكب من فنجاني على حجري؛ ولا أدري كيف، لكن رأينا في انسكابها محاكاة للطخة الحساء فعدنا وضحكنا. وفي غمرة تلك اللحظات التي كنا نلتقط فيها أنفاسنا، كلتانا تتنهد تلك الأنفاس الغريبة المتشنجة التي تواكب نشوة الابتهاج، إذ بها تنقلب فجأةً إلى حديث جدي، "كنت أنوي طلب مساعدتك في شيء، شيء يتعلق برضا."

"ما الأمر؟ هل يواجه مشكلة في المدرسة لا علم لي بها؟"

"لا، لا - لا داعي للقلق إلى هذا الحد. الأمر يتعلق بالبيت. فكما تعرفين، مع التزامات إسكندر، لا سيما في هذا الفصل الدراسي، فقد بات علينا الخروج كثيرًا. ومتى ما كان إسكندر متواجدًا هنا وليس في إحدى رحلاته، فسنضطر للخروج ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع - الوضع فعلًا بغيض، وكم أكرهه." تنهدت بعمق. "ورضا يكره الوضع

---

(40) الأصل بالإنجليزي: asshole وتعني "أحمق"

أكثر مني. غالبًا ما يبكي. يتشبث بي - ونتعارك - أتصدقين ذلك؟ أو أسوأ، يتجهم. يتوجه إلى غرفته ويقفل الباب على نفسه رافضًا الخروج، أو حتى السماح لي بالدخول، كي نتمنى لبعض ليلة سعيدة."

"لا يبدو لي هذا التصرف من شيم رضا." سمعت نبرة المعلمة في صوتي. "هل حاولت التحدث معه عن الوضع. فهو كبير بما فيه الكفاية، صدقًا - فهو في الثامنة."

"ويقولون إن سن السابعة هي سن المنطق. أعرف. لذا نعم، تحدثت معه: ولهذا أسألك الآن يد العون."

"أنا؟"

" يقول إن الشيء الوحيد الذي سيجعله يطيق الوضع، غيابنا عنه تلك الأمسيات، هو قدومك أنت."

"قدومي؟ قدومي واصطحابك لتلك الفعاليات؟"

"لا، بل القدوم إليه بالطبع! بالتأكيد ليس كل مرة نخرج فيها - وإلا لغدا الأمر سخيفًا ..." أخذت تضحك، ولم يكن ذات الضحك الذي تشاركناه قبل دقائق. كنت واعية لإدراكها الخطب في طلبها هذا مني، إذ حتى مع صياغتها الطلب بتلك الطريقة على لسان رضا عوضًا عن لسانها فقد بدا الأمر غريبًا. وضعنا في موقعين مختلفين، في مسار مختلف لعلاقتنا. لا بد وأني بدوت مجروحة.

"أوه صديقتي، ما قلته ليس بعرض عمل." كانت قد وضعت يدها على ذراعي وبدت كأنها تمسدها، كما لو كنت قطة. "هو عرضٌ عائلي ... أوه عزيزتي، هل نعيش الآن لحظة اختلاف ثقافي؟" أخذت تعبر بعينيها، بأداء مبالغ فيه. " عندنا في إيطاليا، المقربون وحسب من نسألهم شيئًا كهذا، وكأنك زيا، عمته. لك أن تتصوريه، أليس كذلك؟

يقف رصينًا حانقًا، أقول له، 'وما الذي بيد ماما وبابا أن يفعلاه كي يتسنى لنا الخروج وتركك في البيت؟ ما الأمر الذي عساه يرضيك؟ ' وإذ بوجهه يشع ضياءً، يقول لي ببهجة من يطلب تحقيق حلم مستحيل، 'أن تأتي الآنسة إي لقضاء الوقت معي'. من ثم، أتصدقين ذلك، قال إن الأمر لن يرضيه وحسب، بل سيكون أروع شيء يحصل له - أروع حتى من وجودي أنا في البيت معه. لذا تظاهرت بالحزن على كلامه، فقال، 'حسنٌ، أنتما الاثنتان رائعتان بذات القدر. ' وأنت تعرفين كيف يشع وجهه نورًا في لحظات كهذه - فمن عساه يجرؤ على رفض طلب له؟ لذا وعدته أن أطلب منك، لأن سعادته تكمن في تحقيق طلبه ... وأرجوك لا تشعري بأنك مجبرة على القبول - فلا أطيق حتى التفكير في الضيق الذي تسببت به لك لدى طلبي، لا أطيقه البتة - أوه صديقتي؟" وكأن يدها التي ربتت بها على ذراعي ما كانت إلا مجسة تمهيدية، إذ نهضت وحضنتني، في عناق من عناقاتها الغامرة التي دائمًا ما أرخت توتري.

"وبالطبع،" أردفت قائلةً بينما أطلقت سراحي من عناقها، "سندفع لك. لا نقاش في الأمر."

ما زاد الأمر سوءًا. "لا تكوني سخيفة،" قلت لها. "أنا أحب رضا، وأحبك. لن أقبل بشيء كهذا."

"لكن نورا - أنا مصرة - فكري بالأمر، الوقت الذي - "

"هل تمزحين؟ إما أنا من العائلة أو لست منها. فما كنت لتدفعي أجرًا لعمته!"

"آه نورا." هزت سيرينا رأسها. "يا لك من امرأة استثنائية. وبالتأكيد أنت من العائلة. أوه تعالي أحضنك مرةً أخرى."

لحظتها شعرت بالغباء، أني بالتأكيد حمقاء غبية لكسري قواعدي وتجاوز الحدود التي رسمتها لنفسي. لكنها صدقًا جعلتني أشعر وكأني قد نلت الشرف باختيارها لي لهذه المهمة: كما لو كنت، في هذا الدور، امرأةً لا بديل عنّي.

***

في الأشهر القليلة اللاحقة، لا شيء وكل شيء حدث. من حيث تقف أنت، خارج الدائرة، لك أن تقول إن الآنسة إلدريدج، معلمة الصف الثالث ابتدائي في أواخر الثلاثين من عمرها، قد كسرت إحدى قواعدها الكهنوتية وعملت حاضنة أطفال، لا مرةً واحدة، بل مرات كثيرة، ولدى طالب من طلبة صفها. وماذا إن فعلت؟ لك أن تقول أيضًا إنها قد قطعت شوطًا طويلًا مفاجئًا في عملها الفني، فرغت من صنع لا غرفة واحدة وحسب بل غرفتين، في روحية الإبداع الجزيل؛ ولك أن تقول أيضًا، وستكون محقًا في قولك هذا، أنها قد ساهمت بفعالية في خلق عالم صديقتها سيرينا ثلاثي الأبعاد - في توليها كل تلك المهام الصغيرة العملية من خياطة وتقديم العون في اللحام، إلى تركيب أسلاك الأنوار الصغيرة وتركيب كاميرات الفيديو. وثالثًا، لك أن تشير إلى أن طوال تلك الفترة من انفلات الجنون - من الانغماس في المتع الشهوانية - فالآنسة إلدريدج ذاتها قد اختبرت في أحاديثها مع زوج صديقتها سيرينا، إسكندر، - أو الأصح، مع مضي الوقت، مع صديقها الحميم إسكندر - إحساسًا باليقظة، شعورًا من الحماس اتجاه العالم الأكبر ما كانت لتتخيل أنها في منتصف عمرها سيظل

ممكنًا الشعور به.

هل تستذكر تلك اللحظات المفاجئة التي عشتها ربما في المدرسة أو الجامعة، لحظة التجلي تلك وكأن الكون كله يملك خطةً عظيمة مترابطة لك، أن الرواية التي قرأتها ليلاً قبل نومك مرتبطة بمحاضرة علم الفلك التي حضرتها، مرتبطة بما سمعته على الإذاعة الوطنية، مرتبطة بنقاش أصدقائك في المقصف ساعة الغداء - تلك اللحظة وكأن الحجاب قد رفع عن العالم بأسره، كأنما العالم بيت دمى، وستلمح في نظرة خاطفة ما سيكون عليه العالم ككل، من الأعلى - ويا لها من عظمة متجليّة تصيبك بالدوار. من ثم ينسدل الحجاب مرةً أخرى وإذ بك تهوي من علٍّ وحياتك العادية تعاود استلام الزمام.

فإن انتابتك تلك اللحظة في ريعان شبابك، مرات لا تقل ندرةً وسرعة عن رؤيتك مذنبًا يهوي، فمع مضي العمر سيبدو لك الأمر وكأنه لم يقع أصلًا، أو بالأحرى لم يقع لأناس عاديين مثلي ومثلك. وستفهم إن أخبرتك أن الشهور التي قضيتها من فبراير وحتى مايو من ذاك العام، عام 2005، قد مرّت عليّ وكأنها سلسلة انفجارات صغيرة تفجرت في دماغي - إن أخبرتك أني حظيت بتلك اللحظة الخاطفة من رفع الحجاب عن العالم لا مرةً واحدة وحسب بل مرات عديدة أعجز حتى عن حصرها، كما لو كان دماغي يعيش تجربةً غريبة من الانتشاء الجنسي المتواصل، مدٍّ لا نهائي من الولوج الروحي والدغدغة - لربما ستفهم لماذا، حتى بعد مضي كل تلك السنوات، بقيت مؤمنة أن قولي "نعم" لحضانة الأطفال كانت وبلا أي شك الخيار الصائب.

***

غدت شعيرةً مقدسة. وكرةً أخرى، كما فعلت في إبقاء الوقت الذي كنت أقضيه مع سيرينا سرًّا عن رضا (بمعنى أننا لم نقل له أبدًا بوضوح أننا كنا معًا) - تلك الشعيرة التي أؤديها فترات بعد الظهيرة التي أنسل فيها مهرولةً من آبلتون إلى سمرفيل، أسرع الخطى نحو المحترف في الشتاء، يلوح لي بنوافذه المبيضة المغشاة قبالة الضوء الآفل خارجًا، الضياء الساطع داخله يشع عبر نوافذه ويحمل لي بشارة الحياة - كذا أبقيت على شعيرة أمسياتي مع رضا سرًّا، وتلك السرية كانت عاملًا من عوامل جاذبيتها، وكأني كنت في علاقة غرامية غريبة من نوع ما، إن كان لك أن تتخيل التشبيه مجازًا لا تدنسه شهوة الجسد. أعني أن في تلك الأيام التي كنت سأقضي فيها الأمسية في بيتهم في الضواحي على جانب النهر، رضا كان سيكون على علم مسبق بالأمر، وعلى علم أيضًا من قبل والديه أن عليه ألا يذكر الأمر بتاتًا في المدرسة. كنا سنتبادل رقصة النظرات الخاطفة، تبادل الابتسامات المختلسة الكتومة، التي كانت ستثير ولا شك حفيظة أي شخص لدى انتباهه إليها، إشارات كهذه يتبادلها صبي في الثامنة مع امرأة من عمر أمه، لكنها ليست بأمه. بمعدل مرتين في الأسبوع تقريبًا، كنت سأغادر المدرسة متوجهةً إلى المحترف، ومن المحترف إلى بيتي كي أترك سيارتي، ومن ثم أتوجه سيرًا - وأحيانًا جريًا - مباشرةً إلى بيت عائلة شاهيد؛ وعلى هذا المنوال، على مدار يوم واحد، كنت سأستلذ بكل نكهة أصبو إليها وأشتهيها، كل نكهة على حدة: وقتي مع سيرينا، وقتي مع رضا، ومن ثم - لأنه دائمًا ما رافقني سيرًا إلى بيتي - وقتي مع إسكندر.

وظيفتي، والتي لأعوام عديدة ابتلع طيفها الضخم حياتي، انكمشت واضمحلت في عقلي إلى ظلٍّ باهت لنفسها، بينما تلك المهام

الأخرى أخذت تحل محلها الكبير في يومياتي. لربما تظن، من حديثي هذا، أني بالكاد قد أنجزت مهامي كمعلمة، ربما أديت مسؤولياتي لنهار أو نهارين في الأسبوع وحسب - لكن الحقيقة هي أن أطفالي ولسبب ما قد أزاحوا أنفسهم عن طريقي ودعوا المجال لي كي أحقق رغباتي: تقريبًا ولا أحد منهم اختلق مشكلة على مر الشتاء والربيع. الطلبة الذين يعانون من صعوبات تعلم اجتهدوا بيسالة وأدوا ما عليهم من واجبات دون أن ينتكس أي منهم. العوائل، تلك البراكين الخامدة، لم تتدفق منها الحمم المنصهرة على رؤوس أبنائها: لا انفصال، لا عنف، لا اختفاء لأحد الأبوين، لا أمراض كوارثية. الصبي في الصف الثاني - ليس ضمن نطاق سلطتي لكن يظل يعنيني - من جاء تشخيصه بإصابته بورم في الدماغ قد حالفه الحظ المطلق وتبين أنه ورمٌ حميد. الآلهة كانت تبتسم لي.

***

أسمعك تقول في نفسك، "لكن تلك المرأة المسكينة، تلك العانس في منتصف عمرها، من أين لها أن اجترحت تلك الفكرة بأن لها عائلة؛ أو بالأحرى أن لها عائلة إلى جانب أبيها القابع مكتئبًا في شقته الزهرية الناضحة برائحة المراهم، خالتها بيبي المتيبسة في شاليها في روكبورت بين حوائط التذكارات العتيقة، أو أخيها وتويتي وطفلتهما القابعين في تلك المجرة البعيدة في أريزونا؟" لكن ألا تدري، ألم تعرف حتى الآن كم أن العائلة كيانٌ لدنيّ وغريب. ديدي هي عائلتي أكثر بكثير مما عليه الحال مع مات. وذات الشعور عرفته غريزيًا،

برفقة كلٍّ من أفراد عائلة شاهيد الثلاث. أجل، بالتأكيد كنت في حاجة إليهم، ولي أنا وأنت أن نتجادل حول اللحظة التي اختلَّ فيها الميزان وبت أحتاجهم بشدة، أحتاجهم حدَّ إيذائهم لي. لكن ليس بوسعك أن تدعي أنهم ما كانوا أيضًا في حاجة لي، كلٌّ على طريقته أو طريقتها. أجل، ما كانوا ليعترفوا لي باحتياجهم - عدا رضا - لكن لا يتسنى لك إنكار حبهم لي. فالقلب يعرف. الجسد يعرف. متى ما كنت برفقة سيرينا، أو رضا، أو إسكندر، الهواء بيننا يتبدل في سكونه وحركته؛ الكلمات والإيماءات تأخذ معنىً يتجاوز حدود حرفيتها. إن لم يسبق لك وأن عشت هذه التجربة - لكن من منّا لم يزره طيف الحب، ضاحكًا؟ - فلن تفهم أيًّا مما أقوله لك. وإن عشتها، فلست في حاجة إلى أن أزيد على حديثي معك كلمةً واحدة.

4

في أواخر يناير، أو لربما في بدايات فبراير، بدأت سيرينا، وبشكل جدي، تنكب على بناء عالمها: بلاد العجائب. كانت قد قضت الخريف تصنع الأجزاء الصغيرة - زهور الصابون والأسبيرين في كل أشكالها وبكل ألوان طيف قوس قزح، وابلٌ من كسر زجاج المرآة المتشظية، التي كانت ستتدلى من السقف في أسلاك شبه خفية، مخزنة في الأكياس والصناديق المبعثرة في نهاية ركنها من الحرف (L).

وإذ ذاك، ما بدا لي خربشات فنان تجلت لي خطوات مقصودة: ففي أمسية قضيناها متأخرتين في المحترف، بسطت أمامي كامل مخططها. بدا الأمر وكأنها فتحت لي الباب على عقلها، وسرعان ما سرت تلك الرعشات الصغيرة، تلك الرجّات المثيرة، كالقشعريرة في عظامي. الحميمية التي عشتها تلك اللحظة كانت أعظم مما شعرت به مع أي جسد عار: أن أرى تلك الورقة منبسطة أمامي على منضدة العمل، مع آثار المحو واللطخات، وبما أنها تعود لسيرينا، مع حلقة أو حلقتين من آثار فنجان القهوة، وعلى مدِّها تنبسط ملاحظاتها لنفسها، بالغة الصغر، حشريّة الحجم، يستحيل كتابتها إلا بأحدِّ أقلام الرصاص المبرية، عصية على القراءة، لأي شخص غيرها، إلا مع الاستعانة بالعدسة المكبرة.

كانت تشيد بلاد العجائب لكل الناس. كلٌّ واحد منا هو أليس. وبينما كان العمل، في جزئية منه، عن الغموض الذي يكتنف عالم الخيال، فقد كان كذلك عن الاكتشاف الروحاني للعالم الحقيقي: فسيرينا كانت قد مزجت في عملها ما بين خيال لويس كارول ورؤية مسلم من القرن الثاني عشر يدعى ابن طفيل، كان قد كتب قصةً عن ولد ينشأ وحيدًا في جزيرة صحراوية، فيكتشف هناك كل شيء - من ضمنها نفسه، وربه - للمرة الأولى.

سيرينا لم تكن مثلي، مقيدة بالواقع، بما وقع فعلًا أو كان. هي سبرت عوالم كتب الحكايات، تنهب خيالات غيرها من الناس غير آبهة بتاريخهم. ربما هذا ما جعلها - ما يجعلها - فنانة حقيقية في أعين الناس، بينما يرونني أنا عانسًا صاحبة هواية، أنتمي إلى تلك النوعية من الأشخاص، من ينطبق عليهم تلك الصفة المروِّعة، بهلول. عدا أن لا شيء يثير الضحك والتهريج في عملي. غرفة إميلي ديكنسون هي بالضبط غرفة إميلي ديكنسون: شيدتها كي تتطابق في أدق تفاصيلها وفق المستطاع مع الوصف المعتمد لدى المؤرخين، الفرق أني شيدتها منمنمة. رؤيتي الفنية، دائمًا وأبدًا، تنصب في الموت - ففي النهاية، عملي الفني لا يدور حول الحاضر ولا ما قد يكون عليه الحال، بل عمّا جرى وكان. لذا لك أن تسمي كل علبة شيدتها ضريحًا.

أما سيرينا، في الجهة الأخرى، فرؤيتها الفنية تنصب في تجسيد قوة دفق الحياة. وأليس هذا حقيقةً ما نبتغي الشعور به جميعًا؟ أليس هذا ما يجذبنا: أن يفتح أحدهم الباب أمامك على الاحتمالات، على واقع جديد ما كنت لتجرؤ حتى على تخيله؟ شخصٌ يعتنق الألوان والمحسوسيات، النكهات والتحولات - شخصٌ يعتنق أي

شيء، أي شيء وحسب. فنحن جميعًا نسعى وراء كل ما هو عصاريّ، كل ما هو حيّ. وإن كنت حقًا ذكيًّا، مثل سيرينا، فستخلق لنفسك شخصية - أو ربما، على نحو أكثر اضطرابًا، ستضحو شخصًا - تقنع الناس في الظاهر وبأسلوب مثير للإعجاب بأنك لا تطيق الزيف في تطبيق رؤاك الفنية، بينما في الواقع أنت تمنح الناس، بشكل واع مقصود، تمامًا ما يريدونه منك. فما عساك تسمي شخصًا يشيد عالم بلاد العجائب - بلاد عجائب محسوسة لك أن تراها وتلمسها وتشمها، عالم هو في ذات الآن بلاد عجائب أليس وليس ببلاد عجائب أليس، إذ ينطوي أيضًا على نسخة مسلم ما من القرن الثاني عشر عن بلاد عجائب روبنسون كروزو، عالم يجمع الشرق والغرب، الماضي والحاضر، المتخيَّل والحقيقي، وبطريقة ما، بداعي حرية عدم الالتزام بأصالة المصدر، سيغدو العالم بلاد عجائبك أنت، أو بلاد عجائبك أنت وسيرينا معًا، وكأنما عشت معها تجربة حميمية من نوع ما، أما كنت ستسمي شخصًا كهذا بمتعهد بوفيه الأحلام؟ كنت ستفعل، فقد فعلها ناقدٌ فرنسي فيما بعد، وإن كنت تتساءل ما الخطأ في كون الشخص متعهد بوفيه أحلام - أعني من حقك أن تتساءل، أفليس هذا الغرض من الفن؟ - فعليك أن تضع في الاعتبار أن الرغبة في التحول إلى شخص كهذا، إلى فعل هذا - أن تكون الأقوى في عالم الفن الشرس - يتطلب منك قسوة القلب. ربما هذا، حقًا، الوصف الذي ينطبق على كل فنان في هذا العالم: إنسانٌ قاس. وهو ما يفسر عدم اعتبارهم لي فنانةً جدية.

في ذاك المساء، حين وقفنا أنا وإياها نتأمل مخططها، أتأمله أنا في اندهاش، سألتني يد العون كرةً أخرى. لم يكن قد مضى حينها

أسبوعان على طلبها مني حضانة ابنها، إذ أذكر أني وقتها قضيت أمسيتين وحسب في رعاية رضا، دفقٌ من الامتنان اتجاه سيرينا كان لا يزال يندفع جارفًا من كل قلبي: هذا إلى جانب كل عواطفي المعقدة الأخرى المندفقة اتجاهها، لأني ظننت وكأنما وهبتني ابنًا، ابني. كنت قد طهوت العشاء له؛ قرأت له؛ أنبته على إهماله واجباته، ليس كمعلمة بل كأم؛ وبعد تقبيل جبينه وتمسيد اللحاف عليه، جلست في غرفته جاثمة على المقعد القاسي، في الظل، عازفو الجاز يستعرضون أداءهم متألقين على الحائط، بينما أتأمل أنا صعود وهبوط جسده الصغير المتدثر إلى أن يغفو في عالم أحلامه.

كان شعورًا جديدًا عليّ آنذاك، شعوري مع رضا، ما جعلني أعشق سيرينا أكثر وأكثر لأني رأيت في طلبها مني الحضانة نعمةً إلهية. وكأنما سيرينا وهبتني فلذة كبدها، وأخذت أنا أنهمها بكل تلذذ، غضة طرية بين يدي، وإذ بغتةً بلا أي مقدمات، ترمي عليّ بفلذة كبد أخرى: مخططها، منبسطٌ على الطاولة أمام عينيّ.

"ما رأيك؟" سألتني. وبالطبع كانت قد وضعت يدها عليّ. نظرت إليّ شاخصةً بعينيها اللوزيتين الشهيرتين، كانتا واسعتين. "هل يبدو لك - ما رأيك؟ أترينه عالمًا عجائبيًا ومنطقيًا في ذات الآن؟"

كيف كان لي أن أجيب عليها، وجل ما أشعر به هي لمسة يدها عليّ؟ أتساءل، كما كنت أتساءل دومًا، عن ماهية شعوري اتجاه لمستها؟

"تبدو لي خريطة."

طقطقت لسانها. "لا داعي لإغاظتي. هي حقًا خريطة، وتلك هي مفروشات عالمي" - وأومأت اتجاه الأكياس والصناديق - "لكن في هذه

المرحلة فأمامي بناء أجزاء أكبر. الجزيرة نفسها، إن أردت تسميتها بهذا." أخذتُ نفسًا عميقًا وتنهدت. "لكن حتى اللحظة لا أستطيع تصور بنائها، ففي باريس شكل المساحات يختلف عن هنا، فالمساحة هناك ليست بالمساحة الطويلة الضيقة بل أقرب إلى مستطيل غريب. لذا أظن سأشيد عالمي أشبه بطريق، برحلة. لكن عليّ أن أشيده هنا أولًا، كي أرى بنفسي المقاييس على حقيقتها، وكي أبدأ أيضًا عملي على الفيديو."

تلك كانت فكرتها العظيمة. أرادت أن تشيد نسختها من بلاد العجائب هنا في المحترف كي، وفقًا لما قالته لي، أحضر أطفال آبلتون - أطفالي أنا في آبلتون، فصلي في الصف الثالث - ويكتشفوا عالمها. كانت ستصورهم بنفسها على الفيديو. تلك كانت خطتها. كانت تأمل بإعداد أفلام أخرى، ربما إن أسعفها الوقت، لكن جل اهتمامها انصب في الأطفال. "وهنا المشكلة، نورا، عزيزتي نورا: ليس بيدي تشييد بلاد العجائب، وليس بيدي إعداد الفيديو، من دونك." وها هي تغضينة عينيها، تجعيدة زاويتي فمها، تتجلى أمامي في ابتسامتها المحبة. "أنت مدركة لحقيقة ما أقول، أليس كذلك؟ بعد كل تلك الأحاديث التي تبادلناها." وها هي تنهيدةٌ أخرى. "لم يسبق لي الاستعانة بأحد في عملي. لكن أنت - بمساعدتك أنت، سنصنع شيئًا مذهلاً بلاد عجائب عجيبة!"

"أجل، بالتأكيد -" خالجتني مشاعر كثيرة في تلك اللحظة، على رأسها الحماس؛ لكن أيضًا، الخوف. لكن، كرةً أخرى، تجاوزت الحدود وكسرت قاعدة من قواعدي. كنت سأسمح لنفسي بكسرها لأن هذا ما أردته؛ لكن ما الذي كان يعنيه لها، أن أحضر أطفالي - أن

أحضر طفلها، طفلنا - إلى هنا؟

ما كان من داع لسؤالي، فقد سبق وتصورت الأمر برمته: "الجبروكي[41]، يهوي - ما التتمة بالانجليزية؟"

"snicker-snack "

"أجل، الجبروكي، عيناه، عينان مشعتان في الظلام - الإيحاء الرمزي للوحشية، سيكون الخيار الأفضل."

"أظن."

"فهو في النهاية يعبر عن الوحش الكامن في كلٍّ منا، أليس كذلك؟ هل فهمت ما أعني؟ ليس بيدي أن أخبرك ما هو الوحشي في هذا العالم، مثلما ليس بيدي أن أخبرك ما الشيء الذي يستحق حبك. كل ما أفعله ببساطة هو منحك الفرصة كي تتخيلي." كانت قد سحبت يدها عني واستردت كيانها الجسدي لنفسها، مكتفةً ذراعيها على صدرها، متدثرة بالكامل بشالها، لكن مع ذلك، ظلت على ابتسامتها. "فلكلٍّ منا خيالاته، لكلٍّ منا كوابيسه."

"صحيح."

"وما أراه أنا مثاليًا، قد لا تعبئين حتى بالنظر إليه."

"وما أدراك؟"

---

(41) (الجبروكي – Jabberwocky): وحشٌ متخيل في قصة أليس في بلاد العجائب (أليس عبر المرآة)، ومفردة (جبروكي) ابتدعها لويس كارول، مع الكثير من الكلمات والمفردات التي ابتدعها على مدار قصة أليس في بلاد العجائب؛ الإشارة إلى الوحش تأتي في قصيدة تقرأها أليس تحمل عنوان (الجبروكي) ولأنها تتضمن الكثير من الكلمات المبتدعة تعجز عن فهمها، ومن ضمن تلك المفردات (سنيكر-سناك: snicker-snack) الواردة في البيت: "One, two! One, two! And through and through, The vorpal blade went snicker-snack!" وأقرب تفسير لها هو: وإذ بالسيف ذي الحد القاطع يهوي مقعقعًا.

"وما أدراني؟ بالضبط. لهذا علينا أن نبقي أبواب بلاد العجائب مشرعة على كل الخيالات الممكنة. كي يتسنى لكل من يدخلها أن يرى نفسه فيها."

"لطالما بدت لي بلاد العجائب في طفولتي عالمًا مخيفًا."

"أجل! مخيف، ونحن نريد أن نصاب بالذعر."

"أظن."

"مع المرايا والأضواء - مثلنا مثل الأطفال، نريد لكل المشاعر، الجيدة منها والسيئة، أن تعترينا، ومن ثم، في طرفة عين، نود لها أن تختفي. سنشيد هذا العالم أنا وأنت لأجل الأطفال، لزملاء رضا في الفصل، متى ما أحضرتهم إلى هنا..."

"بالتأكيد تعين أن الأمر يعتمد ..."

"لأن في النهاية، جلُّ ما نريده هو أن نشعر بالأمان، أليس كذلك؟ هذا هو الشعور الذي، في نهاية المطاف، كلنا نسعى إليه."

***

وقفنا أنا وإياها نتأمل خارطتها لبلاد العجائب وأخبرتني أن ليس بيدها أن تشيد هذا العالم دون مساعدتي. أرادت أن تجمع بين رؤيتين مختلفتين للأعجوبة، إحداهما خيالية والأخرى روحانية. من جهة، لديها تلك القصة عن صبي، من ثم رجل، ينشأ وحيدًا على جزيرة، عن اكتشافه في عزلته للعلوم والروحانيات، إلى أن يبلغ اكتشافه أوجه في عبادته للرب الذي بات يؤمن به إيمان اليقين - عبادة تجلّت طقوسها في صورة نشوة الدوران حول النفس. من ثم كانت

ستخلط تلك القصة المشرقية الصوفية العتيقة مع أعجوبة من نوع آخر، أعجوبة الغرب الحديث، ألا وهي أليس في بلاد العجائب: عالمٌ حيث لا المنطق - ولا الأرض - موزونٌ ومستقر، حيث الخيال يخلط الخير بالشر والصديق بالعدو. إحداهما بلاد عجائب عن محاولة البحث ورؤية الأشياء على حقيقتها، وفق ما قالت، عن الإيمان في أن تجلي الكون أمرٌ ممكن؛ وبلاد عجائب أخرى عن النسبية، عن رؤية الأمور من وجهات نظر مختلفة، وكذلك عن تجليك أنت أمام الناس، وكيف لرؤية الآخرين لك من منظور مختلف أن يغيرك. كلا الاحتمالين مذهل ومرعب في ذات الآن؛ لكن أحدهما وحسب، كما قالت، سيقود بك إلى الحكمة. هي أرادت من عملها الفني، كما قالت، أن يعرض على الأقل احتمال خروجك منه بحكمة. وحتى يتحقق لها هذا، كما قالت، فقد كانت في حاجة إليّ.

التزمت الرصانة في إظهار رد فعلي على ما قالت، لم أسمح لمشاعري الحقيقية بأن تتدفق عليها، لم أنظر إليها بعيني كلب يهز ذيله توددًا وتملقًا. فقناعي التنكري كان لا يزال ينفعني. أخبرتها - وهي الحقيقة - أني لم يسبق أن عملت مع شخص آخر على مشروعه الفني منذ مرحلة الثانوية - فترات بعد الظهيرة الحماسية التي قضيتها في عرين دومينيك كرايس. ذكرت لها أني، الآن وقد فرغت من عملي على إميلي وغدت جاهزة من كل النواحي، أرغب في إتمام العمل على سلسلة الغرف المتبقية، وإن لم أكن أنوي الالتزام بالترتيب الزمني لها - وبذا في نهاية اليوم بالكاد سيتبقى أي وقت، فقط عدة ساعات. لكن عينيها ظلتا تبتسمان لي وكأني كنت في الواقع أقول لها، "نعم، نعم، أتمزحين، بالطبع نعم!" وكنت واعية لإداركها حقيقة قبولي، وأن

كلتينا متحمستان للعمل معًا على مشروعها.

حديثنا ذاك جاء منتصف الأسبوع، بداية فبراير؛ ومع حلول نهاية الأسبوع اضطررت إلى إلغاء زيارة أخرى إلى أبي المسكين في بروكلاين، وذلك كي أتفرغ لاصطحاب سيرينا بسيارتي إلى مستودع كبير للملابس المستعملة جنوب البلدة كانت ديدي قد دلتني عليه. كنت قد وعدته باصطحابه إلى متجر المستلزمات الطبية في بيلمونت كي نبحث له عن كرسي مرحاض مرتفع يريحه من آلام وركه، كنت قد قلت في نفسي والذنب يعتريني، أن أسبوعًا آخر أو أسبوعين مع المرحاض القديم لن يقدم ولن يؤخر في ألمه شيئًا. سيرينا وأنا كنا ذاهبتين لاختيار كومة ضخمة من الملابس الزرقاء الفاتحة والمريلات - ملابس أليس - والتي منها كنا سنخيط قبة سمائها الجديدة.

شيءٌ ما في تلك الرحلة أعادني بالذاكرة إلى قسم الأزياء المسرحية في الكلية، ذاك الصوت "ومن يكترث" يصيح مشجعًا بابتهاج في عقلي متناقضًا مع شخصيتي الورعة التي أعدت بناءها بدقة؛ كان صوت - وكيف لي أن نسيته؟ - المرح. كم كان مبهجًا إدارة المذياع والتدفئة في السيارة على أعلى درجة، أن نغني مثل هاويتين مع أغنية ماسي غراي: أحاول الابتعاد لكنني أتعثّر. من ثم نصدح عاليًا مع أغنية آفريل لافين الناجحة آنذاك: نهايتي السعيدة، التي أحبها طلبة الصف الثالث دون أن يعوا حتى ماهية العواطف التي تعبر عنها: كنت لي كل شيء، كلّ ما أردته... لكنك كنت تدّعي طوال ذاك الوقت، ما أكثر ما فعلت في سبيل نهايتي السعيدة. زعقنا كلمات الأغاني كمراهقتين، غناء سيرينا بلكنتها الإيطالية ومطها نهايات الكلمات أثار ضحكنا أكثر وأكثر.

السماء الحقيقية أعلانا كانت عظيمة وزرقاء، مُنزَّهة وأميركية،

لوحة مشرعة على كل الاحتمالات، الطريق السريع الرمادي الممتد أمامنا، مملّح بلون أبيض مثل الرمال، والشاطئ على يسارنا، في طريقنا جنوبًا، بدا لامعًا في شمس الشتاء. كنت سعيدة، سعيدة وكأني أقف على مائدة عامرة بما لذ وطاب، ألتهم بنهم من أطباقها حتى الامتلاء، فوجرة إوز من السعادة؛ منتشية بالسعادة حدَّ إدراكي وإحساسي المطلق بأني سعيدة، وحدَّ حماقتي، لثانية واحدة، بأن أجرؤ وأقول لنفسي: "تخيلي - تخيلي لو قضيت كل صباح سبت هكذا،" وفي غمرة الغناء توردت وجنتاي، دون حتى أن أنظر إليها، لأني حتى في لحظتها أدركت أن هناك خطبًا ما في تصوري هذا. أني تجاوزت حدًّا آخر - في اعترافي لنفسي، في خاطرة سريعة لكن تظل خطرة، إلى أي حدٍّ في الحقيقة كنت جائعة.

كان لي صديقٌ قديم من أيام الجامعة، فقدنا الاتصال ببعضنا منذ زمن بعيد، اعتاد القول بأن عليك ألا تتصور أي رحلة تقطعها بأنها رحلة طويلة، لأن حينها ستبدو لك الرحلة طويلة بصرف النظر عن مداها الحقيقي. وانطلاقًا من مقولته، فمن المهم جدًا، متى ما كنتِ المرأة في الطابق العلوي، ألا تتصوري نفسك أبدًا - أبدًا، أتفهمين؟ - امرأةً وحيدة تكابد الهجران، أو فليكن الرب في عوننا، ناقصة. إياك ثم إياك أن تفعليها وإلا، صدقيني، سينتهي بك الأمر كما تتصورين.

***

في المستودع، أخذنا ننقب في حوامل ومستوعبات الملابس من كل الأنواع - ملابس الجدات الضخمة عديمة الشكل من النايلون،

الفساتين الصوفية واللدنية المنكمشة، بناطيل البوليستر المطاطة، الملاءات والألحفة، الشباك المترترة، الأورجانزا المتقزحة، الستر الصوفية البلشية الموشاة برسوم الحيوانات، لفافات من أقمشة القطن المخملية في درجات عجيبة من اللون الخوخي الأحمر الداكن والفحمي. سيرينا كانت تتحسس كل تلك الأقمشة بأصابعها مغمضة العينين، وكأن تلك الملبوسات تحمل في طيها رسائل مشفرة بالبريل - "كي أعرف إن كان بوسعي العمل عليها،" شرحت لي لدى إغاظتي لها. "بعض الأنسجة، الصناعية منها، الزائفة، مثلها مثل بعض الناس، أراها هكذا" - من ثم رفعت يدها وميّمت حركة الكشط بأظافرها على سبورة سوداء.

"إذن هناك أناس تكرهينهم؟" سألتها، إذ لم يخطر الأمر لي.

"نورا!" هزت رأسها في شكٍّ من جدية سؤالي. "أليس هناك من أناس أنت تكرهينهم؟"

"العديد منهم."

"لا يسعني العمل مع أناس لم أخترهم، ليس في عمل كهذا. فبالنسبة لي الحياة جد قصيرة. نعم؟ الحياة قصيرة جدًا. ومتى ما بدأوا" - وعادت ميّمت حركة الكشط بأظافرها - "فتلك إشارة خروجهم من حياتي. حالهم من حال هذا النسيج في يدي، لن آخذه معي إلى البيت، وذات الصنيع سأفعله معهم. لن أسمح!"

"لا بد وأن هناك كلمة تصف الوضع،" قلت لها. "ما هو الوصف لها في الإيطالية؟"

"ربما رسبينجيريه[42] - أن ترفض القبول بشخص، أن ترد غرضًا

---

(42) الأصل بالإيطالية: Rispengere.

لصاحبه."

"رسبينجيريه؟ تروق لي: ´اسفينجة؟ اكشط الحمقى عن حياتك بالاسفينجة! اغمس الاسفينجة واكشطهم مرةً أخرى - اكشطهم إلى أن يزول كل أثر!"

كنا متحمستين كفاية لنضحك على ما قلت رغم سخافته، ومن يومها باتت قولًا في حواراتنا، مفردةً في قاموسينا، وبذا متى ما انزعجتُ من أحد كنت سأقول، "سأكشطها بالاسفينجة،" أو لربما سيرينا ستتذمر مقهقهة، "فلنغمس الاسفينجة." لا يبدو لي الأمر مضحكًا الآن، لكن من بعد ذاك اليوم، باتت المقولة شيئًا يخصنا.

في طريق العودة أدركنا أننا جائعتان، وأن الوقت قد بات متأخرًا. شمس بعد الظهيرة كانت لا تزال ساطعة، معلقةً باردة أدنى أفق السماء، الحرارة في السيارة بعثت فينا ذاك الإحساس من الوخز والرمض الذي يتأتى عن شدة البرودة خارجًا. لذا قررنا الذهاب إلى مكان ما لتناول الطعام.

لا أدري لماذا خطر لي لحظتها الحانة الإيطالية خلف دايفيز سكوير. فالمكان تقصده بالعادة لاحتساء الشراب، متى ما تأخر الوقت على الذهاب إلى أي مكان آخر؛ ولم يكن بالمكان الذي تقصده لتناول الطعام. لكن قبل أعوام، قبل حتى أن تمرض أمي، في حياة أخرى كنت لا أزال أعيش فيها ذهنية الفنان، حين ظننت أن في يدي التحول إلى الشخص الذي أردت أن أكون - أيًا كان ذاك الشخص - قضيت ساعات طوال من بعد الظهيرة هناك برفقة صديقين لي - شابٌ مثليّ وسيم، لوي، من كان ماهرًا في تسريح الشعر بشكل مذهل، واعتاد تسريح شعري لفترة، قتل بعد عامين من لقائنا ذاك في

حادث على جسر ماساتشوستس آفينيو بينما كان يقود دراجته ليلًا؛ وامرأة تدعى إيريكا كنت قد تعرفت عليها في نيويورك، كانت زميلة بن في كلية الحقوق لكنها انقطعت عن الكلية كي تكرس جهودها لصالح المشردين، وهو ما أضفى عليها هالة من الرصانة، لكنها في الواقع كانت مضحكة بقدر ما كان لوي. ولربما لهذا السبب خطرت لي الحانة، لأننا استغرقنا في الضحك يومها طوال تلك الساعات السبع، جالسين أمام سلطانية ضخمة من حساء الزفاف الإيطالي، أعدَّته كما أذكر والدة الساقي الصقليّ، كمية الحساء عادلت أربع قنان من نبيذ نيبيولو شهي، نصيب كل واحد منا يزيد قليلًا عن قنينة، القدر الأمثل لاحتساء الشراب على مدى سبع ساعات. لم يكن من نوافذ في الحانة، ليس بالمعنى الحقيقي، أجواء العتمة الأزلية داخلها كانت عتيقة، لذا في دخولنا إليها بدا وكأننا نغادر حقبة وندخل حقبة أخرى، مثل الرحالة عبر الزمن. كنت قد أحببت تلك الساعات الطويلة التي قضيناها هناك - حدثت مرةً ولم تتكرر، في عمر كنت لا أزال مؤمنة فيه أن هذا هو النحو الذي يقضي فيه الفنانون أوقاتهم، أو كيف يجدر بهم قضاء أوقاتهم - ولربما لذاك السبب، أو لأجل الحساء، اقترحت تلك الحانة وتوجهنا إليها.

مالك الحانة كان ذاته لم يتغير، رأيته واقفًا خلف النضد، لكنه كان أسمن وأكثر صلعًا، لكن لطالما كان سمينًا وأصلعَ كل تلك الأعوام. هو وسيرينا، وكأنما في تخاطر إثنيٍّ ما، عرفا من النظرة الأولى أن عليهما التحادث بالإيطالية، وفي ظرف لحظات خاضا في حديث نابض بالحياة، ووعدنا بطهي طبق والدته الخاص من الباستا والبروكلي والأنشوفة بيديه خصيصًا لنا - فوالدته على ما يبدو قد لاقت ربها

في السنوات المنصرمة. من ثم أجلسنا في مقصورة على الزاوية، ظهور مقاعدها الجلدية المعنقدة أعلى من رأسينا، وعلى الحوائط معلقة الصور الإلزامية اللا غنى عنها لصوفيا لورين وآنا مغناني، مع ثلاث شمعات على طاولتنا. عدا الرجل الكهل الذي كان يحتسي الويسكي عند البار، فأنا وإياها كنا الزبونتين الوحيدتين. حين دخلنا الحانة، أغاني سيناترا كانت على النظام الصوتي، لكن المالك قال شيئًا لسيرينا أضحكها فوضع أغنيةً أقدم توحي بأجواء الملاهي الليلية، امرأة ما تغني بالإيطالية، وسيرينا أحبت الأغنية، أغمضت عينيها وأخذت تتمايل وتدندن على أنغامها، لبرهة قصيرة.

أنا وسيرينا جلسنا هناك في مقصورتنا مع طبقيْ الباستا وكأسيْ النبيذ الأحمر وشموعنا الثلاث. كنا مرهقتين من بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة، وانتابني إذ ذاك الإحساس بالوخز من تحت جلدي، ذاك الإحساس الذي ينتابك متى ما أصبت بنزلة برد، منعشٌ وفي ذات الآن مخدِّر. شعرت وكأني في حلم، وفي غمرة هذا الحلم عشت لحظة تجلٍّ. سيرينا كانت تقول لي شيئًا، وما كان بوسعي سماع ما قالت، أو إدراكه، بسبب ذاك الشعور الذي خالجني، لذا اكتفيت بالنظر إليها، أتأملها تتحدث، أتأمل يدها الغليظة المكتنزة تمسك بأناقة كأس نبيذها، الغضون في زاويتي عينيها، السواد المجنون لحاجبيها ورموشها الفاتنة، وميض لهب الشموع يخفق على قزحيتيها الداكنتين وخصل شعرها. وفجأةً مرّ بي خاطر: أريد أن أبقى معك. صدقًا، أريد البقاء معك كل العمر. إلى الأبد.

من ثم لمحتني أنظر إليها، في تلك النظرة الحمقاء المولعة، فرفعت حاجبًا من حاجبيها - وما عساها عنت بتلك الإيماءة؟ أراك؟ أفهمك؟

نحن الآن معًا؟ - وتناولت يدي بيدها وظلت ممسكة بها وهي تسجيها على الطاولة. "لقد قضينا يومًا رائعًا، أليس كذلك؟ تخيلي لو كل يوم سار هكذا، كارا ميا!" وبالكاد سمعتها، فإحساسي بيدها على يدي غمرني، غمر سائر جسدي. شعرت بجلدها. صدقًا أحسست به.

لا أحد يسعى وراء خاطر كهذا. ولا أحد يسعه التخلص منه متى ما راوده. قبل ذاك اليوم، لم يسبق أن مرّ بي ذاك الخاطر عن سيرينا طوال وقوعي في غرامها. لكن الخاطر تجلى لي هكذا دون أي مقدمات، في حانة أموديوز، وفي لحظة تجليه انتابتني الرغبة في الضحك، وانتابتني الرغبة في الإفصاح لها عنه. فالشخص الوحيد الذي كان له أن يفهمني هي سيرينا ذاتها. من ثم، في طرفة عين، خالجني الحدس الرهيب برفضها لي. فرضًا كانت لا تبادلني الشعور؟ أو فرضًا كانت تبادلني إياه؟ كيف لكل هذه الأمواج العظيمة المتلاطمة من مشاعري اتجاهها أن اضمحلت فجأةً - أن اختزلت - إلى هذا الخاطر؟

5

لدى تأملي الآن ما حدث من على بعد، لي أن أرى أن ذاك الخاطر ما كان سوى خاطر عابر، مثله مثل الخواطر العابرة التي تمر هباءً منثورا في عقولنا الفوضوية المزدحمة. لكني التقطت ذاك الخاطر العابر وصنعت منه غرضًا ملموسًا، تعويذة تشبثت بها وأخذت أقلبها ظهرًا وبطنًا في راحة يدي، كأنما فتحت عينيّ على حقيقة كل ما مضى؛ وتشبثي بها كان سيغير كل شيء من جديد.

لو كنتَ أنا، واختبرتَ لحظة تجلٍّ كهذه - لكن على مهلك! فأنا لا أحب وحسب، بل أتوق! - ورغبتَ في البوح إلى سيرينا لكن ما كان بيدك فعل ذلك، فما عساك كنت ستفعل؟ كنت ستخبر ديدي. وفي المحصلة، إن كنت أنا، فستجد نفسك في المساء التالي وقد أفصحت عن مكنونات نفسك بحماقة إلى كلٍّ من ديدي وإستير في ذات الوقت، في تلك المقصورة الدبقة في حانتهما المفضلة في جاميكا بلاين، حتى وإن لم ترغب أصلاً في الاستماع إلى رأي إستير. بيد أنّ لحظة التجلّي كانت جمرةً متقدة في قبضة يدك وما عاد بمقدورك التمسك بها ثانية واحدة.

إن كنت أنا، فستفاجأ بردة فعلهما الموحدة؛ من ثم ستفاجأ كونك فوجئت.

لم تضحكا بمعنى الكلمة، لكن صدر عن ديدي ذاك الصوت أثناء احتسائها البيرة، من خلف أنفها، والذي قارب بشكل مغيظ حدَّ الضحك.

"أتسخران مني؟ أبوح لكما بأمر جلل كهذا - أمر جلل بالنسبة لي - إلى من أعتبرهما أقرب الناس إليّ، وتضحكان علي؟ هل فقدت عقلي؟"

"أوه نورا القمورة -"

"لا. دعي عنك المزاح فأنا جادةٌ هنا. ربما الأجدر بي –"

"خذي نفسًا عميقًا. لم أكن أضحك. إستير لم تكن تضحك. هل كنت تضحكين عزيزتي؟ نحن نحبك فكيف لنا أن نضحك عليك. اهدأي."

"كل ما في الأمر أنّي وديدي توقعنا ما كنت تنوين قوله لنا،" قالت إستير. "كنا نضحك على قدراتنا التنبؤية الغيبية."

"تبًا لكِ." أجبتها. "كنتما تضحكان على الفتاة المستقيمة الغبية التي الآن وحسب أدركت يقظتها المتأخرة، تقولان لنفسيكما يا لها من مخلوق تعس."

"حسنٌ، هنا وكفى. أنت تعرفيننا خير المعرفة. صدقًا، ما بالك؟ كيف تتوقعين منا تصرفًا كهذا؟"

إستير كانت ترمقني بعيني كلب البجّ، أما ديدي فكانت تمسك بكلتا يديّ، بعذوبة، وكأنما خشيت أن أندفع غاضبةً وأرحل.

"لأننا توقعنا ما كنت ستقولين - والذي صراحةً لم يكن بالتوقع الصعب - أعني، أنت أخبرتنا أنك عشت البارحة لحظة تجلٍّ وكنا نعلم مسبقًا أنك لم تكوني برفقة أبيك - لذا تحدثنا في الأمر."

شدّت ديدي على يدي اليسرى. خاتمها المتكتل جرح إصبعي فجفلت، ردة فعلي لفتت انتباهها. "وبعد حديثنا، قررنا أنك مخطئة."

"وما الذي تعنينه بكلامك هذا؟ كيف تقرران أنتما الاثنتان أنني أسأت فهم شعوري؟ أني مخطئة في حقيقة ما أشعر به؟ إن كنت عاجزة حتى عن قراءة مشاعري، فمن عساه يقدر، رجاءً أخبراني."

"ثقي بنا،" قالت إستير. "فنحن خبيرتان. ولنا أن نعرف." نوت قولها كمزحة لكنها تراجعت، وكم كرهتها في لحظة تراجعها، موجةٌ عارمة من الغضب الحانق اعترتني تلك اللحظة اتجاهها.

"أعلم كم يبدو الأمر غريبًا لك،" قالت لي ديدي، يداها لا تزالان متشبثتين بيديّ. "لا أعني بكلامي هذا انتقاصًا من قدرتك على الحكم على الأمور-"

"ولا انتقادًا لتجربتك،" قالت إستير مقاطعةً. "أعني، من الواضح أنك اختبرت لحظةً حقيقية."

"واو! ممتنة لك فعلًا. كرمٌ منك أن تقولي هذا."

"اهدأي حلوتي-"

"ارفعي يديك عني، فأنا لست حلوتك."

"كفاك الآن، وأنصتي إليّ،" قالت ديدي في نبرتها الجادة الحازمة التي لم أسمعها منها مذ أيام عملها في المحطة الإذاعية، تاركةً يديّ ورافعةً ظهرها في جلسة منتصبة، فبدت حتى وهي جالسة، أضخم وأعلى بكثير مني. ضوء النيون الأحمر للافتة بيرة بود المعلقة خلفها أنار خصل شعرها. فإذ أراها أمامي تتحول جنيةً عرابة ضخمة من عالم الحكايات. "أنصتي إليّ جيدًا آنسة إلدريدج، وكفّي عن مقاطعتي. ستستمعين أولًا لما سنقول لك، ومن ثم لنا أن نتناقش، حسنٌ؟"

كانت قد ارتكبت خطأ استخدامها ضمير الجماعة في حديثها، في شملها إستير، لكني أومأت لها، أسحب يدي عن الطاولة وأعيدهما إلى الأمان على حجري.

"لا أحد ينكر ولعك المراهق."

"ولعي المراهق؟"

"مصطلحٌ بغيض، لكنه التشخيص الصحيح."

"ولعي المراهق؟"

"أخبرتك أن تنصتي إليّ، بصمت. أرجوك اسمعيني حتى النهاية. حسنٌ؟"

اكتفيت بالنظر إليها شزرًا.

"منذ التقائك بتلك المرأة وأنت مدركة لكل تلك المشاعر الجياشة التي تخالجك اتجاهها - فهي تلهمك كفنانة، تضحكك، تبث فيك الحياة. كل تلك المشاعر حقيقية، ورائعة ونادرة، وفعلًا، أحيانًا تلك المشاعر ترتبط بالرغبة الجنسية. ولم تدركي الرابط بين الأمرين - حتى الآن - لأنك -"

"لأني كنت أخشى معرفة الحقيقة."

"ليس هذا ما كنت أنوي قوله. بل لأن رابطًا كهذا ما كان سينفعك بشيء. ما كان سيأخذك إلى أي مكان. ما كنت في حاجة إليه أصلًا. فطوال الفترة السابقة تجلت مشاعرك اتجاهها في صورة مرضية لك، توقك واحتياجك إلى الحميمية كنت قد أشبعته أصلاً في علاقة الصداقة بينكما، أما العنصر الجسدي في العلاقة فما كان ضروريًا على الإطلاق. لم يكن حتى المغزى لعلاقتكما من الأساس."

"حسنٌ، لكن الوضع تغير الآن."

"على مهلك. ما أقوله إن المشاعر قد تتبدل من لحظة لأخرى، وربما تلك الرغبة المفاجئة التي اعترتك في تقبيلها، كانت أقرب إلى دفق مفاجئ في التيار لا تغييرًا في المسار - أتفهمين ما أحاول قوله لك؟"

"ما تعنيه ديدي ..."، قاطعتها إستير، لكن ديدي كونها تعرفني خير المعرفة رفعت يدها محذرةً إستير من المواصلة.

"ما أعنيه هو، نعم، هناك لحظة فارت فيها مشاعر الغبطة والتعلق لديك وكان لا بد من تجليها في صورة ما، ومع توقك إلى علاقة أقرب إلى سيرينا، فإذ، فجأةً، نزوة القبلة تنازعك. أنا لا أنكر حقيقة إحساسك في تلك اللحظة. لكني حقا أتساءل إن كانت تلك اللحظة سافووية[43]، لحظة تغيير مزلزلة في حياتك. أنت تعرفين أني - من بين كل الناس - سأقف إلى جانبك وأشجعك إن كانت تلك هي حقيقة الوضع، فلا شيء أحبه أكثر من عشق المرأة للمرأة. لكن في هذه الحال، وأظن أني وإستير كلتانا متوافقتان، نتساءل إن كانت تلك هي القصة. المسألة تبدو لنا وكأنها تنتمي إلى سياق قصة أخرى، أتفهمين ما أعني؟ وكأنها قطعة تنتمي إلى أحجية مختلفة."

"ما الذي تجنينه من إنكارك عليّ لحظة التجلي التي عشتها؟" قلت لها في نبرة أقرب إلى النكد منها إلى الغضب. "لماذا لا تريدنني أن أقع في غرام سيرينا؟ لماذا؟"

"الشخص الوحيد الذي نكترث له هو أنت، نورا. أعرف أنك هائمة بها، لكني لا أكترث البتة لتلك المرأة الإيطالية. ولا أريد رؤيتك ترمين بنفسك مندفعة هكذا وبلا داع في طريق الأذى. أنا لا أنكر عليك مشاعرك، أنا فقط أتساءل عن القصة التي اخترت أن تضعي

(43) سافووية: نسبة إلى الشاعرة الإغريقية (سافو – Sappho) التي اشتهرت بقصائدها عن عشق المرأة للمرأة.

تلك المشاعر في سياقها. هذا كل ما في الأمر."

قلبت عينيّ ردًا عليها. التداخل بين انزعاجي المسرحي وانزعاجي الحقيقي جعلني أبدو خرقاء. "ومن يا ترى عيَّنك طبيبتي النفسية اللعينة؟" قلت لها، رافعة ذراعي في الهواء في إشارة للنادلة أننا في حاجة إلى جولة أخرى من المشروبات. "لعلمك لن أدفع مقابل خدماتك النفسية." قصدت قولها ضاحكة، لكن ضحكتي بدت أقرب إلى قهقهة محرجة، من ثم سألتهما عن فريق كرة القدم النسائي المغمور الذي تشجعانه وتحرصان على متابعة مبارياته، وكيف جاء أداؤه هذا الموسم - ليس بالإداء الجيد. وهكذا أغلقت الباب على النقاش.

فقط لأن أحدهم يخبرك بعقلانية أنك لا تشعر حقا بما تشعر به، فلا يعني أن تلك المشاعر ستختفي. بل العكس، في حالتي أنا، اقتنعت أكثر وأكثر بحقيقة مشاعري التي انتابتني في حانة أموديوز، بت متيقنة من اختباري لحظة التجلّي، وكأني اهتديت إلى دين جديد. كذلك بت واثقة، بعد ردة فعل ديدي وإستير، من ضرورة الاحتفاظ بتلك الحقيقة التي عرفتها عن نفسي لنفسي، مخفية عن أعين الجميع.

قد تتساءل عن أهمية تلك اللحظة بالذات في سياق كل ما شعرت به سابقًا طوال كل تلك الشهور التي عشتها، بطريقة أو بأخرى، واقعة في غرام سيرينا. ربما تقول في نفسك، وما الفرق الآن؟ لكن تلك اللحظة ما كانت تجليًا وحسب، بل بدت لي يقظة، أن العالم أخيرًا قد بات واضحًا أمامي، معقولاً منطقيًا بكل صوره. لم يغمرني الأمل وحسب، الأمل بشكل عام، بل أملٌ محدد. كنت واثقة من أني أخيرًا فهمت. وواثقة كذلك أني إن حاولت تفسير ما فهمته، فسيحدث

تمامًا ما حدث لي مع ديدي وإيستر - سيساء فهمي.

حين سألني والدي بلطف إن كنت أواعد أحدًا - طريقته المواربة الواضحة في التعبير عن قلقه اتجاه احتمال تكلّسي في عنوستي، عاجزًا عن استيعاب تحقيقي تقريبًا حلم والدتي في استقلالي - رددت عليه بحدة قائلةً إني بت كبيرة الآن على تلك الحماقات، مرارتي الزائفة في ردي عليه صيّرت نبرة صوته في رده عليّ حزينةً وخافتة.

لكن لحظة التجلي تلك فتحت الباب في عقلي على مدىً جديد، مدىً بدت فيه الحياة فجأة أكثر دغدغةً لمشاعري، وكأنما كل شيء أراه بات جزءًا سريًا لا يتجزأ من سري. كلما قرأت مقالًا، أو كتابًا، أو فيلمًا عن الحب المحرم أو المستور أو عن الحب من طرف واحد، قلت في نفسي أن الحياة قد وضعت تلك الإشارة عامدةً في طريقي كي تؤنسني، كي أغالب الوحشة في وحدتي. كلما كنت أقود السيارة أو أمشي الهوينى في ممرات السوبرماكت، أو مستلقية في فراشي ليلًا، أصابع قدمي تغلي أسفل مطارة الماء الحار من الفرو الصناعي التي اشتريتها في تنزيلات يناير، أستغرق قلبًا وعقلًا وروحًا في التفكير بسيرينا.

لا، دعني أكن أكثر دقة: لم أكن مستغرقة في التفكير بسيرينا. فمن شأن ذلك أن يشير إلى الواقعية. بل كنت أفعل ما لم أفعله من قبل، كنت مستغرقةً في تخيلاتي عن سيرينا. كنت أتخيل نفسي أفصح لها عن مشاعري، أو أتخيلها تعترف لي في لكنتها المميزة وأسلوبها الإيطالي عن مدى جمالي في عينيها، أو رأيها عني بأني فنانة عظيمة، مرةً تخيلتها تقول لي أنها لا تتصور الحياة من دوني. يا لها من محادثات مذهلة، تلك التي خضناها في مخيلتي! يا لها من لحظات صادقة، شفافة، الالتقاء المثالي للعقول، تلك التي عشناها أنا وهي سويًّا.

وفي أي صورة تجلى رضا في تلك التخيلات؟ حسنٌ، أحياناً كنت أتخيلنا نحن الثلاثة، وقد انتقلنا للسكن في مزرعة في فيرمونت أو تسكاني، أو في كوخ من القش على جزيرة من جزر الكاريبي، كي نتمكن من العيش بأقل التكاليف ونسخر طاقتنا للفن، كنا سنزرع حديقة خضراوات مذهلة ونتغذى من محصولها. تصميم تلك البيوت وغرفها، غرفةً غرفة، كانت جلية في عيني. فقد شيدتها بنفسي في خيالي، وكل مرة شددنا الرحال وسكنّا إحداها. رأيت شمس الصباح، ضياؤها ينتشر قددًا على أرضية التراكوتا في إيطاليا، على وقع أصوات الدجاج تخمش خارجًا في الفناء، أسمع جلبتها ما إن أفتح النافذة البابية. رأيت الثلج على الحقل الخلفي ينعكس أبيضَ على مرآة الحمام في فيرمونت، حيث الماء الحار في حوض الاستحمام ذي المخالب عبق برائحة الميرمية، وسيرينا، تدخل الحوض، تخلع نعليها - شربيلها المغربي - فردةً تلو الأخرى على البساط الدائري الزهري الأرجواني البالي في منتصف الأرضية الخشبية المطلية بالأبيض. أحسست بقبلة نسيم جزر الكاريبي العليل، دافئةً على شعيرات ذراعيّ المنفوشة، أقف في ظل مدخل الكوخ أمعن النظر إلى ركب الأطفال القادمين من مدرستهم، في أزيائهم الرسمية الكحلية والبيضاء، يركلون بأقدامهم الصغيرة التراب متلكئين في مسيرهم، أتفحص حقائبهم من بعد بحثًا عن رضا، وجهه الزيتي الضاحك مندمجٌ بين وجوه الشوكولا والقهوة لأقرانه.

في تلك الخيالات، رضا دومًا ما يناديني أمي، يربت بيده الصغيرة الدافئة على كتفي بينما أعمل على مشروعي الفني على المنضدة في غمرة ضياء الشمس، أو أغسل الخس في حوض البورسيلين في بيت المزرعة، وحتى إن بدت تلك الخيالات سيريالية - فقاعات ثخينة الجلد

لا علاقة لها بالسيارات العالقة في أزمة السير ولا صف علب رقائق الذرة ولا اللحاف المبتل بعرقي وغيرها مما يحاوطني في واقع يومي - فتلك الخيالات كانت أكثر وضوحًا وحياةً لي من كل ما هو محسوسٌ في واقعي. وكما كان الحال مع حلمي الجنسي عن إسكندر، كان عليّ أن أذكر نفسي، للحظة، أن ما رأيته في خيالاتي لم يقع فعلًا - أو كما ارتأيت الوضع آنذاك، لم يقع بعد.

وماذا عن إسكندر، من سبق وقد حلمت به أيضًا؟ حسنٌ، في تلك الفترة من أواخر ذاك الشتاء، لم يكن إسكندر قد تجلى بعد في حياتي المتخيلة. كان عليه أن ينتظر، بمعنى الكلمة، حتى حلول الربيع.

دعني أفسر لك، أن رغمًا عني، وطوال تلك الشهور - وبصورة أخف وقعًا في السنوات التالية - فتلك الحالة المتخيلة التي ولدت غداة "نهاية أسبوع البحث عن المنسوجات" أو ربما من الأصح أن نطلق عليها "نهاية أسبوع نسج الخيالات،" باتت هي موطني الذي أفر إليه وأخيم فيه وآثر البقاء في ربوعه.

كنت واعية إلى أن الأمر محتملٌ حدوثه وليس فعليًا، لكني لم أفهم أبدًا آنذاك أنه لم يكن أصلاً بالحقيقي. لم أعِ حقيقة اختلاقي له. حين تناولت سيرينا يدي وضمتها بين راحتي يديها قائلةً لي، "ما كنت سأفعل من دونك؟ أنت ملاكي، أنت الأعز على قلبي،" صدقتها. حين قال لي رضا، "لا أريدك أن ترحلي أبدًا،" صدقته. شيدت بيوتًا من خيال، وحيوات كاملة، بناءً على تصديقي لهما. إن أخبرتني قصتي هذه على أنها قصة شخص آخر، لكنت أخبرتك موقنةً أن ذاك الشخص مخبولٌ تمامًا. إما ذاك أو أنه طفل. فهذا هو التفسير الوحيد، ولا تفسير عداه.

6

كنت سعيدة. صدقًا كنت سعيدة. كنت واقعة في غرام الحب، وكل موقف سيارات حالفني الحظ في العثور عليه، كل قطعة شمام لذيذة، كل اجتماع موظفين انفض باكرًا، بدت لي تجليات مختلفة عن جمال حياتي، الجمال الذي عجزت، جراء ضعف معرفتي بنفسي، عن إدراكه قبل تلك اللحظة.

كنت مجنونة، مجنونة جنون طفل، جنون من مسّه إيمانٌ متقد وطائش بأن الحياة لها أن تكون - أنها حتمًا ستكون، وبكل تأكيد - تمامًا كما تمناها. كيف كنت بهذه الحماقة؟ فأمي، من بين كل الناس، قد علمتني بالمثال الحي، بدورها في المماطلة النزوية المذعورة لطفولتي، ومن ثم، في مثال أكثر قسوة، بالإغلاق المطوّل القسري لأبواب جسدها عليها، أن إيمانًا كهذا ما هو إلا حلمٌ محال، والقدر هو السجّان. لكني اخترت، في ذاك الوقت، ألّا ألتفت إلى دروسها. فكيف لنا أن نكون أبناءً بحق إن لم نتعمد الاستخفاف بأهم نصائح والدينا.

لدى دنوها من نهايتها، أمي قالت لي مع ابتسامة عذبة، "الحياة، كم أمرها غريب. عليك أن تعثري على طريقة تواصلين فيها الضحك، حتى بعد إدراكك أنَّ ولا حلمًا من أحلامك سيتحقق. ولحظة إدراكك هذه ستأتيك والحياة لا تزال بعد طويلة أمامك." جرحني كلامها، لأني

أردت أن أؤمن، كوني طفلتها، أني كنت حلمًا من أحلامها وقد تحقق؛ لكن الشعور الأقوى الذي غلبني كان شعوري بالشفقة عليها. فكنت لا أزال حينها مؤمنة أن مصيري سيختلف عن مصيرها. لم أكن قد حظيت بعد بلحظة لوسي جوردان، ذاك الحكم المصيري الذي منحتني عائلة شاهيد إعفاءً طويلاً مؤقتًا من تنفيذه.

سعيدة، مجنونة - أيًا كانت الصفة فلا يهمني. المهم أن الحياة بدت لي وكأنما تفيض بالنور الإلهي. وهنا تكمن المشكلة مع الأقوال المبتذلة: هي فعلًا تصف حقيقة الأمر، ولهذا نعيدها تكرارًا ومرارًا في وصف ما يستحق وما لا يستحق، إلى أن يتآكل جوهرها ويضحو غبارًا. لكن تظل تلك الأقوال حقيقة: بت أصحو باكرًا، أكثر انتعاشًا. طاقتي تضاعفت؛ عقلي بات يرى الحياة أكثر وضوحًا، بات أسرع بداهةً. لم أصب بنزلات برد، ولا شعرت بأي ألم، حالفني الحظ، تحسنت علاقتي بالناس، ضحكت أكثر، اجتهدت في عملي أكثر، نومي غدا أعمق. كنت متيقظة في حياتي بصورة كانت جديدة تمامًا عليّ، وأدركت أن تحقيقي لأي شيء - آه! فني! - أي شيء! - هو في متناول يدي.

وهناك الحقيقة الأخرى، إصابتي آنذاك بتلك الحكة المزعجة الدائمة، العرض الجانبي للانتشاء على مخدر الغرام. تلك الحكة تسكن حدتها فقط كلما كنت في رفقة أحد من عائلة شاهيد، أو منكبةً على فني. ما إن يقرع جرس نهاية الدوام المدرسي، إذ بالحكة تتآكلني على الفور بعد قضائها كل تلك الساعات متربصةً بي. قد أكون في رفقة ماغي، معلمة الصف السادس، نجرد المستودع، أو أصطحب أبي إلى موعده مع جراح تقويم العظام بخصوص الألم في وركه، وسيبدو عليّ

الإنصات، بل وأشارك بذهن متيقظ في النقاش ("أوه أجل، سيكون من الرائع إن وافق والد لنغ على إعطاء دروس بعد الظهر في الماندرين الخريف المقبل - من شأن ذلك أن يجذب اهتمام الكثير من الأطفال والآباء". أو، "حسنٌ، أظن أن رأي الدكتور فوتش فيما يخص الجراحة التبديلية بأنها تستحق مخاطرتك بالألم الذي ستعاني منه في البداية يستحق الأخذ في الاعتبار، فقد أخبرنا أنك قادر على اجتياز التأهيل البدني. صدقني ما كان ليقترح عليك الجراحة إن وجدك عاجزًا عن اجتياز التأهيل.")، لكن في واقع الأمر، ففي دواخلي أنا منهمكة في مهمة أخرى، مهمة إشباع تلك الحكة المستترة، أستحضر محادثاتي المرة تلو الأخرى مستغرقةً في تأويلها ("لن تتمكني من الحضور حتى الساعة السادسة؟" - سيرينا بدت خائبة الأمل. أجل هي حاولت ادعاء عدم اكتراثها حقًا لغيابي عنها، لكن لي أن أستشف أن أملها فعلًا قد خاب!) كنت أتساءل ما الذي تفعله في تلك اللحظة، أتساءل إلى متى لي أن أكبح نفسي عن الاتصال بها ومعرفة الجواب، أتساءل متى سيتسنى لي الذهاب مرةً أخرى إلى المحترف، وما الوقت الذي سيتسنى لي قضاؤه هناك. كنت أتساءل، معظم الوقت، إن لاحظت، هي أو أي شخص آخر، التغيير الذي طرأ عليّ، إن كان للحظة التجلي التي اختبرتها، أو يقظتي الروحية، أي دلالة خارجية.

هل فتحت فمي؟ هل أفصحت عن مكنونات نفسي لأحد فأخاطر بالاستيقاظ من يقظتي المذهلة؟ بحقك، هل تتصور أني كنت سأفعل شيئاً كهذا؟

كل تلك المزايا المذهلة لحالتي، وحتى آثارها الجانبية المزعجة، دفعت بي إلى قضاء أطول وقت ممكن في المحترف. قضيت صباح

كل أيام السبت في فبراير، وحتى في مارس وأبريل، وتقريبًا كل يوم أحد، جالسة أو واقفة أو متكئة أو حاملة، أعمل على تشييد بلاد العجائب، بلاد عجائب سيرينا، أضحك وأستهبل، أو أكتفي فقط بالمشاهدة، قادرة على تجاهل الحكة المستترة لأنها ببساطة تختفي. من ثم كنا سنتناول شيئًا من الطعام. بعد أول أسبوعين، أخذنا نتناوب على مهمة إحضار الغداء، وكل مرة يأتي الدور عليّ أقف متريثةً في كل متجر مساء الجمعة أتأمل خياراتي: عصيّ الخبز المنكهة أو قطع بسكويت سويدية هشة وكبيرة تشبه قطع الخبز المقدس في العشاء الرباني، مغلفة بورق أبيض متجعد؛ زيتون، جبنة، لحم مقدد؛ ورق عنب؛ بوريك؛ حبات الفلفل الحلو محشوة بخثارة اللبن. قدور من يخنة الراتاتوي، حساء البيسك، وصلصة الأنشوفة. أوراق الهندباء، وشرائح الشمر. سيقان البروكلي الأرجواني، طماطم غير مهجنة، والتي تكلف ثروةً في بواكر الربيع. وحلويات: كنت سأحضر معي حلويات من مثل - كب كيك هايلاند آفينيو الشهير أو كعك بالسمسم مغمس في العسل، أو كوكيز مملحة بالشوكولا والشوفان، أو راحة الحلقوم، أو ألواح الشوكولا الإيطالية الباهظة من المتجر نهاية الشارع حيث يقع بيتي - ودائمًا ما كنت أحضر معي ما يكفي لرضا، وحتى لإسكندر، قدرًا كافيًا من الحلويات للفردين الآخرين، من باب تخفيف ذنبي بسعادتي.

وفي تلك الأشهر، كشفت سيرينا عن جانب آخر في شخصيتها، الجانب المهووس والمتغطرس، جانب لم أره عليها في الخريف، ولربما بدا لي آنذاك أنانيةً منها. لكني كنت هائمة مسلوبة الإرادة أمام شغفها الأحادي وتركيزها الحاد، ربما لأني اعتبرت نفسي، بصفتي مساعدتها

الافتراضية، امتدادًا لها. بدت وكأنما أصابها مسٌّ من الجنون، غدت بلاد العجائب كل شيء بالنسبة لها، ومع أنها لم تكترث بالحديث عن مشروعها على الملأ، فقد تحدثت عنه معي. مثلًا: "أظننا في حاجة إلى المزيد من حبال المطر، المزيد، ألا توافقينني؟ ... أحاول أن أحسم قراري بترك كسر الزجاج حادة وخطرة - ما رأيك نورا؟ بالتأكيد لا نريد أن نتسبب بالنزيف لأحد، لكن أليس من المفترض بلمسها أن يتسبب بالألم؟"

في أسبوع إجازة فبراير، سجلت سيرينا رضا في مخيم لتصميم الروبوتات تابع للمتحف العلمي، وبذا كل يوم من أيام ذاك الأسبوع قضيناه بأكمله في المحترف. كانت قد بدأت هي نفسها تتحول إلى عضو حيوي من عالمها، مثلها مثل حوض المغسلة أو الرائحة الكيميائية في الرواق. مع حلول منتصف مارس بالكاد بدلت ملابسها، أو غسلت شعرها، رؤوس أصابعها باتت متشققة وملطخة جراء الصمغ والأصباغ، بنطالها الجينز، حاله من حال شعرها، أخذ يتيبس ويتلطخ أكثر وأكثر مع مرور كل يوم. كانت تختلس سجائر زوجها وتدخنها مع احتسائها القهوة، يدٌ قذرة تحضن كوب القهوة المشظى، والأخرى تنفض رماد سيجارتها على الأرض. مع الأيام بدأ المحترف ينتن والبرد كان قارسًا - بدأت تشرع النافذتين كي تهوي المحترف، لكن بلا أي فائدة.

سيرينا أخذت تتحول، أمام عينيّ، إلى الصورة المثالية للفنانة - كما تخيلتها أنا، وكأنما بتخيلي لها، استحضرتها للوجود. وها هو الغريب في الأمر: تجسدها في صورة الفنانة المثالية لم يحبطني ولم يسيطر على تفكيري، لم أنظر إليها وأقول في نفسي، "لماذا من بيننا

أنت من غدوت الفنانة شبه المشهورة وأنا مساعدتك؟" لا أذكر أن تلك الخاطرة قد مرت عليّ ولا حتى مرةً واحدة. بل ما حصل أني كنت أنظر إليها وأرى نفسي، أرى الاحتمال الذي أصبح ممكنًا لي أيضًا، لأنه أصبح ممكنًا لها.

وأغرب ما في الأمر برمته أن في ذاك الوقت، إضافةً إلى حياكة الملابس بعضها ببعض، غرس الزهور في العشب الصناعي، تعليق كسر المرايا على الأسلاك الرقيقة، ضف عليها إعداد أشرطة أصوات الجنادب والحيوانات تحت الأرضية، تصميم ونحت أنياب الجبروكي التي في نهاية المطاف ألقينا بها ونسيناها، وأعددنا بدلًا عنها عيني الجبروكي الثاقبتين من المصابيح الصغيرة، ضف عليها أيضًا إعداد الكاميرات لأجل فيديو الأطفال - خطة آبلتون، كذا أطلقنا عليها - وفوق كل هذا وذاك حملي المعتاد في التدريس وجلبة اختلاط الحابل بالنابل في الفصل الربيعي من العام الدراسي - جداول الضرب! الشراغف! رحلة في باص المدرسة إلى متحف الفنون الجميلة في بوسطن! - لياليّ الحالمة التي قضيتها عمة رضا المحبوبة - إضافةً إلى (يا ترى كيف طار الوقت، ما فتأت أتساءل حينها، وها أنا أجد نفسي أتساءل مرةً أخرى: هل كونك سعيدًا يخلق ببساطة وقتًا أطول بين يديك وإن كان سيمر سريعًا، كما من شأن الحزن، وهو ما نعرفه جميعًا، أن يبطئ الوقت ويثخنه كما يصنع نشاء الذرة بالحساء؟)، على أي حال، إضافةً إلى كل تلك المهام، وجدت وقتًا للعمل على مشروعي الفني.

من الصعب عليك تصديق ذلك، وكذلك عليّ، لكني فعلتها.

لم أعمل وحسب على غرفة واحدة، بل على غرفتين من

سلسلتي، في ذات الفترة معًا. كان يجدر بي، لو أني التزمت بالترتيب الزمني، أن أبدأ بالعمل على غرفة فيرجينيا وولف للكتابة في رودميل، مع دفتر ملاحظاتها المفتوح وشالها المنسدل على كرسيها ورسالتها الأخيرة مستندة على إطار الموقد، لكن ما كنت لأطيق العمل عليها - لم يكن الموسم المؤات للانتحار، ليس في ذاك الفصل من حياتي - لذا اتجهت إلى العمل على غرفتيْ أليس نيل وإيدي سيدجويك، ليس أنهما مبهجتان هما الأخريتان؛ لكن تسنى لي إيجاد قبس من السعادة فيهما.

غرفة أليس نيل هي حجرتها في جناح الانتحار في المصح النفسي في بلدة صغيرة في بنسلفانيا حيث حبسوها بعد انهيارها العصبي. كانت قد خسرت طفلتيها الصغيرتين، إحداهما جراء إصابتها بالخانوق، والأخرى على يد زوجها الكوبي متقلب المزاج الذي اصطحب ابنتهما معه إلى كوبا، واعدًا بإحضارها، لكنه ترك ابنتهما في بيت أبويه، ورحل وحده إلى باريس. أردت استحضار ذكرى طفلتيها في غرفتها المجدبة، لكني أردت أيضًا أن أدس في الزوايا طيفيْ ابنيها المستقبليين، الصبيين المتفانيين المحبوبين اللذين بقيا إلى جانب أمهما أيام السراء والضراء - في معظمها ضراء؛ وبثمن باهظ دفعاه من حياتيهما - بينما أخذت هي تكبر في العمر وتسمن وتبهت، فقيرةً على الدوام، فنانة لم يعترف بها لزمن طويل، مهووسة بعملها، لوحاتها التي بارت دون أن يشتريها أحد مكدسة في الرواق الضيق لشقتها العلوية المسخمة - لكن في خضم كل ما جرى لها، ظلت دائمًا تملك ابنيها، كلاهما فرّ من الحياة البوهيمية واعتنق الحياة الوظيفية، كل منهما أصبح برجوازيًا جادًا وحصيفًا يعيش عن عمد حياةً لا جلبة فيها، يحمل في قلبه آلام ومعاناة أمه،

شبابها الضائع وأختيه المجهولتين المفقودتين، لكن ما هجراها قط، ولا للحظة؛ وكوني كنت مفعمة بإشراقة الضوء الذهبي الفتيّ لحالة الغرام التي كنت أعيشها آنذاك، الذي أضاء العالم بأسره في عينيّ، ما كنت لأجده صوابًا أن أعكس في غرفة أليس الدرك الأسفل من حياتها وحسب، عزلتها المظلمة، حيث كابدت الهجران على يد حياتها وفنها وحبها.

كنت لا أزال سأصنع الأسرة الحديدية بملاءاتها البيضاء، النوافذ المتقشفة البيضاء المرتفعة، أرضية اللينوليوم البيضاء الممسوحة؛ أردت نسج قميص نومها الأبيض ممزّقًا عند الكتف، يديها على أذنيها مُحاكيةً صرخة مونك[44]. لكني كذلك أردت إضفاء ألوان كوبا، الأمومة، المستقبل، أدسها في الثغرات، خلف النوافذ، أعلى الحوائط، وكأنها النبات البري يطلع ويشق الأرض، وكأنها بشائر الربيع الموعود.

أما إيدي، الفاتنة إيدي، فالغريب في أمرها أن السعادة كانت أصلاً متجسدة في الغرفة، حتى وإن كانت السعادة من قتلتها. متى ما كنتِ امرأة، وصيّرت نفسك العمل الفني، متى ما اختزلت وجودك إلى الصورة التي يراها الناس فيك، فمهما كان ما يجري حقًا في حياتك، فعلى الأقل أنت لست بوحيدة. في الظاهر، إيدي لم تكن أبدًا وحيدة. إميلي، فرجينيا، أليس - جسدن الفنانة المعتزلة بحكم فنها. من ثم تأتي إيدي: من لم تعش الوحدة يومًا. لم تكن خفية يومًا. وما يظل حتى اليوم مثارًا للجدل، لم يرها أحد يومًا؛ في هذا السياق، هي كانت أكثر من وحيدة: هي انتقلت من الوجود إلى العدم.

---

(44) في إشارة إلى لوحة الصرخة للرسام النرويجي إدفارت مونك Edvard Munch.

تصوري لغرفتها في حد ذاته كان أمرًا مبهجًا وغريبًا عليّ. إذ كنت حرة من القيود في تصميمي لها، فغرفتها هي الوحيدة المتخيلة، الوحيدة التي لا صور لها ولا لوحات ولا وصفًا دقيقًا للمكان. كان لي أن أختلقها: غرفةٌ الحوائط فيها مصفوفة بالصور الفوتوغرافية المكبرة لإيدي، وبين الصور النوافذ، وخارج النوافذ الحشود المجتمعة، تراقبها، تتأملها منشدهة. كأنما إيدي تمثال عرض تسلب الأنظار، منتصبة خلف واجهة متجر بلومينغدايل عشية الميلاد.

***

احتفظت بعملي على غرفي لنفسي. ولا أقصد القول إني خبأتها عن أنظار سيرينا. بل أني ببساطة عملت عليها متى ما كانت سيرينا غير موجودة. انتظرت. كبحت لجامي. عرفت كل شيء عن مشروعها، وهي ما عرفت سوى القليل عن مشروعي، واخترت أن أرى الوضع انتصارًا لي، يدٌ عليا عليها. كرامتي، إن أردت تفسير الوضع من تلك الزاوية، في ظل خضوعي لها.

وبالطبع ما عدت أخاف البقاء في المحترف. فقد اختلقت أسطورةً عن مناعتي وآمنت بها. إن لم يسبق لك أن عشت تحت نير الخوف، فلن تتصور إذن الحرية التي ستشعر بها متى ما انعتقت من قيوده. لك أن تقول لي إن من السخف إذن أني عذبت نفسي لأعوام بقلقي الزائف، ولن أعارضك؛ لكن تظل الحقيقة أن سيرينا - أو ربما رضا، أو حتى إسكندر - قد أطلقوا سراحي من سجن الخوف. ما عدت أجبن وأختبئ في الزوايا. تلك كانت هدية أخرى أهدتني إياها.

كنت حرة وجريئة بما يكفي لرفع صوت مشغل الاسطوانات على مداه - أستمع إلى أغاني فاتس وولر أو تشبي جاكسون أو جو مارسالا أو هز دلتا فور كلما عملت على أليس نيل؛ وفيلفيت آندرغراوند لدى عملي على إيدي - أو تدخين سيجارة أو نصف سيجارة تركتها سيرينا خلفها. ومرَّ عليّ أسبوع - كان تصرفًا سخيفًا أقر بذلك - حاولت فيه تقمص شخصية إيدي. كنت قد أحضرت معي الكثير من مساحيق التجميل وطليت وجهي بها على انعكاس كسرة مرآة انتشلتها من مخزون سيرينا - الزجاج المنكسر وجدته ملائمًا لثيمة إيدي، كأنما كانت لقية وجدتها في **المصنع**[45] - بودرت بشرتي بالأبيض وغمقت عينيَّ بالأسود إلى أن تحولتا إلى عينين واسعتين غائرتين داكنتين. لم أقص شعري، لكني ملسته ومشطته للخلف، وارتديت قميصًا أبيض وطماقًا أسود ولعنت نهديّ، ولعنت دنوي من عتبة الأربعين وجسدي المتكتل، مع ذلك رقصت كما الدراويش والتقطت لنفسي الصور بالبولارويد وأنا أرقص، كانت كاميرا أمي القديمة. الصور كانت مغبشة ومجتزأة - عينٌ وأنف، لمعة زيتية لفرق الشعر، ذراعٌ مرتفعة صدت اللقطة - لكن بطريقة ما جاءت تلك الصور ملائمة لروح الموضوع. خلعت قميصي والتقطت الصور لنفسي، معجبة بلمسة الموضة القديمة الغبشاء لحدود جذعي، نهديّ في الصدرية البيضاء جليتان ومنتصبتان عاليًا في وجه الكاميرا.

في ليالي العزلة تلك التي قضيتها في المحترف، اعتدت التجول في الممرات الصغيرة في بلاد عجائب سيرينا شبه المشيد، أقطع المسافة من أوله إلى آخره. أحدق في الأعلى حيث كنا سنعلق لاحقًا السماء التي

(45) The Factory: اللقب الذي كان يعرف به محترف آندي وارهول في نيويورك.

نسجناها من أثواب أليس. أستشم رائحة زهور الأسبرين، أحادث نفسي، أو سيرينا، في صوت عال وفي نبرة شبه جافة. أحيانًا أتحدث في لهجات غريبة، في خليط من المكسيكية والكوبية، كأني حماة أليس نيل أخبرها بأنها لن تستعيد ابنتها. كنت قد صنعت سرائر المصح النفسي لأليس من طبقة البلاستيك البيضاء السميكة العازلة للكابلات الكهربائية، وخطت فرشاتها المعنقدة الصغيرة جدًا من نسيج الفلانيل الإيرلندي المخطط وحشوتها بالرغوة. انهمكت مشغولةً بما بين يدي مثلي مثل أقزام صانع الأحذية، أنوح بصوت عال، أصرخ لاعنةً الدلائل الأولى على ضعف بصري في منتصف عمري كلما خززت الإبرة بسبابتي. كنت قد بسطت بحذر شديد ألواح الباركيه المنشورة من عصي مصاصات البوظة ووزعتها على أرضية غرفة إيدي في المصنع، طليتها بطبقة تلو الأخرى من اللطخات والورنيش كي أضفي التدرج المثالي للونها الدافئ. أطَّرت الزجاج اللوحي على مدار المساحة مسدسة الأضلاع - كلها نوافذ وبلا أبواب - وألصقتها بإحكام على الطريقة القديمة، بالمعجون. بسطت ألواح الباركيه للممشى الخشبي حول غرفتها، غرفة-استعراض-إيدي، والتي كنت قد خططت لاحقًا بملئها بحشد من المتفرجين. لكن لم يتسن لي أبدًا صنع حشد المتفرجين، وهو ما أراه الآن أمرًا منطقيًا لي.

كنت أعيش ثورة. غدوت مثلي مثل طالب الصف الثالث، منغمسة في حياتي، في الحياة. كنت حية. نائمةً كنت وها قد استيقظت، من سبات عميق مثل الأميرة النائمة. وفي الواقع، لم أبد حتى في حاجة إلى ساعات نوم طويلة، وكأن كل تلك الأعوام التي قضيتها في سبات قد هيأتني الآن للاستغناء عن الراحة، مع كل

ما استغنيت عنه. أحيانًا كنت أغادر المحترف الساعة الواحدة، أو الثانية ليلًا، أستحم الساعة السادسة والنصف صباحًا في يوم دراسي، وفي الساعة الثامنة إلا خمس دقائق أقف في صفي مشرقة ومرتبة ومستقيمة الظهر كالوتد، أغمز غمزةً مختلسة اتجاه رضا كلما دخل الصف متأخرًا كي أخفف من قلقه. كنت قد قضيت جل حياتي ألتهم وألتهم البازلاء - وأخيراً! - دوري على طبق الآيس كريم قد حان.

7

هناك خيطٌ آخر مجدولٌ في نسيج الحكاية. يا ترى ما المغزى وراء اشمئزازي من البوح به لك، تباطؤي في اعترافي به لك؟ أود أن أقول إنه خيطٌ منفصل، خيطٌ يعود إلى حكاية أخرى. لكن ستكون كذبةً فاضحة إن فعلت، وبكتماني الأمر، في قاموس خالتي التقية بيبي، سأكون قد اقترفت خطيئة السكوت عن الحق.

تقريبًا كل مساء قضيته مع رضا، كان إسكندر من يصطحبني سيرًا إلى منزلي. كلما أثلجت، ارتدى قبعته، قبعة تريلبي عتيقة الطراز، بالية، من اللباد الرمادي بلون جلد الفيل، وحتى مع ارتدائه نظارته بدا مثله مثل رجل العصابات. حسنٌ، أقرب إلى محاسب رجل العصابات. وكلما هطل المطر، اصطحب معه مظلته الكبيرة، مظلة من نوعية مظلات الفنادق وملاعب الغولف، يحملها بشهامة فوقي وكأنه خادمي الشخصي. لا أظنه يملك حتى زوجًا واحدًا من القفازات، إذ لم أره يرتديها قط، لكنه ولا مرة اشتكى من البرد، في يده سيجارة مشتعلة، يكوب راحته حولها، يدخنها بأسلوب مجرمي العصابات طوال مسيرنا. قطع مسافة الطريق سيرًا من منزلهم في الضواحي بمحاذاة النهر إلى شقتي ثلاثية الطوابق في الجانب الخطأ من هورون آفينيو ما كان ليأخذ منا أكثر من خمس عشرة دقيقة.

لم تكن بالمسافة الطويلة. وفي البداية، في الشهور الباردة، كنا نتوجه مباشرةً من بيتهم إلى بيتي. في فبراير، وقت تساقطت الثلوج بكثافة، اعتاد السير خلفي على الطرق المجروفة، جليديةً كانت، زلقة وضيقة، وبذا نادرًا ما تبادلنا كلمة. فقد صعب عليّ مع مسيرنا كالرتل أنا وإياه أن أسمع أي شيء، ولدى وصولي إلى باب بيتي، أشعر بأنفي وقد احمر، أرى أنفه وقد احمر، يداه مدسوستان عميقًا في جيبيه، على وجهه ترتسم ابتسامة حمقاء ومبهمة في ذات الآن، كأنه التقى بي التو صدفة ولم يكن واثقًا من أكون، "حسنٌ، أكرر لك امتناني، تصبحين على خير،" إيماءة جسده توحي وكأنه على وشك أن يطقطق كعبي حذائه. كان يقف ينتظرني، كما يفعل الآباء، إلى أن أدخل المفتاح في قفل الباب، من ثم ينطلق في مسيره عائدًا إلى بيته، يخطو بحذر شديد خوفًا أن يزلق بكعبي حذائه الرسمي الجلدي على الطريق.

اليوم الذي عقب ليلة عيد العشاق - ولا تتخيل كم تنفست الصعداء لعدم طلبهما مني حضانة رضا في تلك الليلة - كان مقررًا أن يتوجها إلى حفل عشاء متأنق آخر، في بيت عميد كلية كينيدي، لكن سيرينا أخبرتني في المحترف أن إسكندر قد ينوي الاعتذار عن الحضور.

"هل هو متعب؟" سألتها. كنت أخيط شيئًا، أنا متيقنة من ذلك لأن وضعي الجسدي، أخزر عينيّ محدودبة الظهر، لا يزال منطبعًا في ذاكرتي، وأذكر أني ما إن رفعت عيني اتجاه سيرينا تطلّب الأمر مني لحظة كي أركز بصري عليها.

"ألا تقرئين الصحف؟" ردت عليّ سائلة، "ولا حتى تستمعين إلى المذياع؟"

"ما الذي تتحدثين عنه؟"

"أتحدث عن الحريري."

هززت كتفيّ.

"رفيق الحريري؟ من الواضح أنك لم تسمعي بالخبر."

"لم أقرأ الصحف هذا الصباح."

"أتحدث عن رئيس الوزراء اللبناني - فقد اغتيل البارحة. سقط معه اثنان وعشرون ضحية - حراسه الشخصيون، وكذلك عددٌ من رفاقه. فجروا موكبه خارج فندق السانت جورج – شدّة الانفجار خلّفت وهدةً في الأرض بحجم بيت."

أطرقت رأسي آسفةً، "واو".

"تلك هي المشكلة في الحياة هنا. كل ما يجري في العالم يبدو بعيدًا جدًا عنكم حد عدم انتباهكم لأيٍّ مما يقع."

"ومن فعلها؟"

"من يدري؟ إسرائيل، سوريا، حزب الله - كثرٌ من أرادوا الحريري ميتًا."

"وهل كان إسكندر يعرفه شخصيًا؟"

"سبق أن التقى به، أكثر من مرة. إسكندر جدًا منزعج - لك أن تتفهمي وضعه. بلده يعيش حالة حداد وعلى عتبة اضطراب عظيم؛ وهنا، في الجامعة، رغم أن حفل العشاء حفلٌ خاص، يريدون منه التحدث عمّا وقع وكأنه مفهومٌ نظري، فكرة لا رجل، رجالٌ كثر."

"إذن كان مناصرًا له؟"

طقطقت أسنانها. "أنتم الأميركيون تأخذون الأمور بمنتهى البساطة - رجلٌ صالح، رجلٌ فاسد، هل قبعته بيضاء أم سوداء؟ سؤالك ليس في محله. إن أردت حقًا معرفة الإجابة فعليك أن تسألي

إسكندر. سيمنحك شرحًا مستفيضًا، إن تركت له المجال للكلام."

لذا في تلك الليلة، حين أوصلني إسكندر إلى بيتي بعد حفل عشاء العميد - حيث، كما علمت فيما بعد، تحدث إلى جموع الحاضرين على مدى نصف ساعة، شارحًا لهم سياق الحدث والعواقب الوخيمة التي قد تتأتى عن اغتيال الحريري - لا يزال بعد على عادته في السير خلفي على الأرصفة، وإن ليس طوال الطريق، بادرته بالسؤال عن الهجوم. لم يسمعني المرة الأولى لذا كان عليّ أن أستدير لأسأله مرةً أخرى، وإذ به يكاد يصطدم بي وكلانا ارتبك.

"آه،" قال لي حين أدرك عمّا كنت أسأله. "هذا سؤالٌ معقد."

"لكنك منزعج."

"من الطبيعي، فوقع العنف شديدٌ في النفس، أينما حلّ، وأيًّا يكن ضحاياه. لكن لبنانيَ المسكين حالةٌ خاصة، قصةٌ مختلفة تمامًا. وطنٌ لا يزال يتعافى من حربنا الضروس البشعة، شعبٌ لا نزال نحاول إعادة خلق جلدنا من جديد، نعيد رتق جسدنا الممزق - وإذ بتلك الجريمة تقع. يومًا ما سأحاول تفسير ما حصل. لكن من أين عساي أن أبدأ؟ من بدايتي؟ من بداية الحرب؟ من بداية القرن الجديد؟ من هنا، مع الحريري؟ كل قصة سأسردها ستختلف باختلاف البداية التي أختار. سيتسنى لنا الوقت لاحقًا لذلك." وهكذا ترك إسكندر الموضوع ذاك المساء.

أما أنا بدوري، فما إن عدت إلى البيت فتحت حاسوبي وطبعت في خانة بحث جوجل "الحرب في لبنان." لم أكن جاهلة تمامًا لحقيقة وقوع حرب أهلية في لبنان - ففي طفولتي الكل كان يعرف بوقوع حرب فيها، فمثلًا إن ذكرت أمامي "صبرا وشاتيلا" عقلي تلقائيًا

سيضيف الكلمة "مجزرة" - فقد تشرب عقلي النزر القليل عمّا كان يجري هناك من سماعي أحاديث الآخرين. لكن إن سألتني عنها، فما كنت لأتمكن من تفسير تلك المجزرة لك، من قتل من وفي أي سياق وقعت، وبالتأكيد ما كنت لأتمكن من إخبارك بأن الحرب الأهلية قد دامت خمسة عشر عامًا. وبينما أخذت أقرأ عنها في نتائج البحث، شعرت بأنه كان واجبًا عليّ أن أعرف مسبقًا عن الموضوع - فبحق الرب أنا معلمة، ورضا طالبٌ في فصلي! سيرينا كانت قد ذكرت مرة فقدان إسكندر لأخيه في الحرب - ألم تقل إنه قتل في تفجير؟ ليس لبنان وحسب، بل تلك كانت حالي أيضًا مع تاريخ فرار لاجئي فيتنام على القوارب (بعض الأطفال في فصلي هم إما أبناء أو أحفاد لاجئي القوارب)، وما كنت لأستطيع أن أسرد عليك موجزًا لائقًا عن تاريخ هاييتي، رغم وجود طلبة من هاييتي في آبلتون؛ مرةً درس لدينا طالبٌ من عُمان وطالبة أخرى من ليبيريا تدرس الآن في الصف الرابع، الشيء الوحيد الذي عرفته عن بلدها كان موقعه على الخريطة، أما ما عداه من معلومات رئيسة فكنت سأحتاج إلى الاستعانة بجوجل كي أعرف بها، لكني على مدار العام الذي قضته طالبةً في فصلي، لم أستعن به ولا مرة. قلت في نفسي لربما كانت سيرينا محقة حين أشارت إلى القماط القطني الذي تلتف به الحياة الأميركية. ذاك كان بيت مرح من نوع آخر، بيتًا أوهمنا بالأمان في بعدنا عما يجري من حولنا إلى أن حل الحادي عشر من سبتمبر، هكذا من المجهول، وفجر البيت بأسره، مفاجئًا ايانا على حين غرة، وكأن لم يكن منطقيًا من الأساس افتراض أقل احتمال لوقوعه.

في غمرة إحساسي الجديد بالتحرر، أو هكذا تهيأ لي، مع اعتناق

مذهب الواقع-المقاوم-لبيت-المرح عاطفيًا، - مع إدراكي ماهية الغرام - ومن بعدها اختبار نقطة التحول في حريتي الفنية التي عشتها مع عملي، فقد بت أتوق الآن، أيضًا، إلى اتساع أفقي المعرفي. بت أرغب في معرفة كل ما يجب معرفته عن أمور مثل اغتيال الحريري، أصبو إلى اكتساب القدرة على فهمها واستنباط آراء بناءً عليها. ففي تلك الليلة، جالسة أمام الحاسوب، بدا لي وكأني أتصفح كتابي عن عجائب الدنيا، بل كتابًا أفضل بكثير، وكذلك أسوأ: فالعالم الشاسع بتاريخه المعقد تجلى أمامي فجأةً، لبرهة، عملاقًا ضخمًا يلوح في محيط بصري، لكن ليس ضخمًا جدًا حد إخافتي، ليس تمامًا. إذ ها هو هناك، أمام ناظريّ، وكم تقت إلى التعرف إليه.

***

ليالي العودة سيرًا برفقة إسكندر تفتحت براعمها مع حلول الربيع. فمن بعد إجازة فبراير، غدونا نمشي جنبًا إلى جنب، وطريق العودة بات مناسبةً اجتماعية صغيرة، وقتًا طبيعيًا لتبادل أطراف الحديث. المسافة بين البيتين باتت قصيرة بالنسبة إلى نقاشاتنا، لذا مددنا المسافة. كنا قد وقفنا عشر دقائق عند مدخل بيتي حين فعلنا ذلك أول مرة، أطرافنا بدأت تتنمل من شدة البرد، وقد رأيت في دعوتي إليه للدخول تصرفًا غريبًا. أخيرًا قال، "هلاّ عدنا إلى السير قليلًا، منها نتابع حديثنا ولا نتجمد من البرد؟" وليلتها طفنا أربع مرات حول قطعتي السكنية قبل أن يرى أن الوقت قد أزف كي يعود إلى بيته. تلك كانت البداية وحسب. المرة التي تلتها سرنا ذهابًا وإيابًا

حتى متجر هاي رايز للمخبوزات. كل مرة نقطع مسافةً أبعد وأبعد. ذهابًا وإيابًا إلى هارفارد سكوير في حلقة متصلة عدنا ومررنا فيها حرفيًّا على مدخل بيتهم. لكن نزهة السير التي شعرنا أخيرًا وكأننا كسرنا فيها قاعدةً ضمنية بيني وبينه جاءت مع نهاية أبريل - موسم كسري القواعد، مصادفًا ذات الأسبوع الذي تقمصت فيه دور إيدي سيدجويك في عرض منفرد. النسيم كان عبقًا بالربيع، الإحساس الرقيق لملمسه على الوجنتين، عجر أوراق الشجر الساطعة تتدلى من على الأغصان، حفيفها يتناهى للأسماع. ليلتها اجتزنا سَيرًا على الأقدام كل الطريق إلى ووتر تاون قاطعين نواحي بيلمونت. كنا قد سرنا لأكثر من ساعة ونصف، على مدِّ الشوارع الخالية - كانت ليلة مدرسة، وقد قارب الوقت منتصف الليل - في الضوء الزهري الخافت لأعمدة إنارة الشارع وعلى وقع أنفاس الأغصان، لا يقطع حديثنا سوى المرور النادر للسيارات. في عقلي، كنت قد رأيت دلالةً في عدم قطعنا النهر ولا مرة واحدة. في عدم إمساكه بذراعي. في عدم تلامسنا البتة.

بقدر علمي، فهو لم يدّعي لسيرينا سيره وحيدًا في الوقت الإضافي. وبقدر علمي، فهي كانت على علم بسيرنا معًا. لم تذكر الموضوع لي البتة. لكن مرةً كنت قد أشرت إلى أمر تحدث عنه إسكندر، فلوحت بيدها باستخفاف قائلة، "ثرثرة في ثرثرة! أحبه، لكن يا له من ثرثار - يهذر ويهذر. كم أنت طيبة معه لاضطرارك إلى سماعه. أحيانًا أقول له، 'لمن المؤسف ألا وجود لوظيفة لا تتطلب من شاغلها سوى الكلام. لكانت تلك هي الوظيفة المناسبة لك'."

"يناسبه العمل مقدمًا في برنامج حواري."

"ستظنينني أمزح، لكن صدقيني لن يسعه القيام حتى بتلك

الوظيفة. فمقدم البرنامج عليه أن يستمع إلى ضيفه، أليس كذلك؟ لكن جل ما سيفعله إسكندر هو التحدث. لا، الأنسب له أن يكون هو الضيف في البرامج الحوارية،" ثم أردفت مقهقهة، "لكنها ليست بوظيفة."

"كلامٌ بلا أفعال،" قلت لها فقط من باب الرد. وتلك كانت المرة الوحيدة التي اقتربنا فيها من الحديث عن نزهي الليلية برفقة زوجها.

لكنها كانت محقة: هو من تولى دومًا زمام الحديث. أخبرته مرة أن اصطحابه لي إلى بيتي كان أشبه بالاستماع إلى شهرزاد، لكنه ضحك قائلًا لي إني فهمت المسألة بالمقلوب، لأني في هذه الحال أنا من يجدر بها أن تروي الحكايات - "من حيث أتيت،" قال لي، "المرأة هي الحكواتية. والرجل هو أسيرها."

وفي غمرة لهفتي على تفسير كل شاردة وواردة على أنها إشارةٌ لمعنىً مستتر، فقد فسرت قوله هذا على أنها محاولة تودد منه، يعرض عليّ أن يكون أسيرًا لدي. فسرته انجذابًا نحوي. أووه، بحق السماء، على من أكذب؟ فسرت كل تلك الأمسيات التي قضيناها سيرًا على أنها إشارةٌ ضمنية بانجذابه لي. ليس فورًا، ولا بهذه الصورة الحميمية. لكن مع مضي الوقت، وقته الذي منحني اياه، اهتمامه - ومن أنا ليمنحني اياهما؟ - بينما زوجته وابنه في البيت في انتظاره، فراشه يستدعيه. فسرت كل تلك الأمور أنها ولا بد تحمل في باطنها معنىً لي.

وما الذي تحدثنا عنه؟ في هذه سيرينا كانت أيضًا محقة: كان يعشق الكلام لمجرد الكلام؛ ولربما بدت طبيعته تلك مثارًا للملل، لكنه كان متحدثًا بارعًا. حتى إن روى عليّ القصة ذاتها مرتين وثلاثًا، كل مرة كنت أنصت إليه مأسورةً ذاهلة.

في أول ليلة لنا من التنزه الحقيقي، حين طفنا حول قطعتي السكنية أربع مرات، أخبرني عن جدته من أمه وعن بيتها في القرية أعلى الجبل، عن قضائه أيامًا من طفولته هناك، حين كان صبيًا صغيرًا في الخامسة أو السادسة، وكيف أنه مرةً في عتمة الليل لمح نمرًا أو فهدًا في حديقة بيتها. كان متيقنًا مما رآه رغم إصرارها عليه أثناء الفطور، ومرةً أخرى في الغداء، أن تلك الحيوانات لا وجود لها في لبنان.

إخوته الكبار هزأوا منه قائلين بأنها إما أضغاث أحلام أو أنه في الحقيقة لمح قطة الجيران وعقله الصغير ضخم ما رآه؛ لكن في الأيام اللاحقة خروفان وجدا مقتولين ليلًا أعلى الجبل، ومن لحظتها بدل أفراد عائلته نبرتهم معه.

إسكندر، مثله مثل أي حكواتي بارع، ترك في كل حكاية هامشًا من الخيال، حيث للسحر والأشباح أن تلعب دورها. "لطالما افترضت، " قال لي، "بأن ما رأيت في الواقع هي روحٌ مظلمة لإنسان ما، قرينه الشرير."

من ثم أخذ يستفيض في الحديث عن ابن البيك في منطقتهم، من كان في ذاك الصيف فتىً في أواخر سني مراهقته، وسيمًا كما الآلهة وممسوسًا بلعنة الغضب، انهال على حمار عجوز بالضرب بلا أي رحمة ولا شفقة، حدَّ كان لا بد من قتل الحمار رأفةً به. كانت حادثة شهيرة في القريَة، والتي لم ينل عليها الفتى أي عقاب يذكر، ولطالما تساءل إسكندر إن كانت تلك القطة المثيرة للقشعريرة التي لمحها تنسل في ظلمة الليل في حديقة بيت جدته ما كانت في الحقيقة سوى الروح المظلمة لذاك الفتى، أو الشيطان الذي تلبسه. من ثم، مع ابتسامة،

أشعل سيجارةً أخرى - الأخيرة في نزهة السير الطويلة تلك - قائلًا لي، "بالطبع، تلك الروح المظلمة ستحظى بنشوة مجدها، وستنال كذلك قصاصها، في العشر سنوات اللاحقة، بعد اندلاع الحرب."

"وكيف ذلك؟" سألته متلهفة مثلي مثل طفلة، تلهث وراء ما يخبئه الفصل الجديد من الحكاية.

"أحمد عقيل عباس،" قال لي. "مع حلول عام 1975، كان مثله مثل بقيتنا، أكبر من عمره، وروحه أكثر ظلمة. الكثير من الشرب، المخدرات، والكثير الكثير مما يدعى بالشجاعة. وفي عام 1977، أو ربما 78، نظّم ميليشيا محلية - عصابة من قطاع الطرق - أخذت على عاتقها قتل الجيران المسيحيين في سرائرهم. أشكر الرب أن جدتي كانت ميتة قبل أن ترى ذاك اليوم - فزواجها كان زواجًا مختلطًا، قصة حبٍّ حقيقية، وتلك الحرب الطائفية كانت ستدمرها. الأبوان في عائلة خوري التي كانت تقطن البيت الملاصق لبيتها، قتلتهما الميليشيا، نحروا عنقيهما وقطعوا أياديهما. أبناء عائلة خوري الثلاثة، من كانوا آنذاك في بافالو في نيويورك، كانوا جد مذعورين من العودة ودفن والديهم؛ لذا العائلات المسيحية في القرية هي من تولت الدفن. أصلًا لم يكن قد تبقى وقتها سوى القليل منها. فمن تسنى له الرحيل، رحل. لكن بالنسبة إلى مصير أحمد عباس، فمن يعش بالسيف يمت بالسيف، حتى وإن كان وسيمًا كما الآلهة، فبعد وقت قصير من ارتكابه جريمته بحق عائلة خوري، وجدوه هو الآخر مقتولًا ومرميًا في الزقاق خلف بيت أبيه، إلى جانب دراجته النارية العزيزة على قلبه، خصيتاه مدسوستان في فمه. أظن أن قتله أيضًا جاء على يد قطة سوداء. ولربما كانت روح ليلى خوري ذاتها. كانت امرأة سمينة

وحليمة الطباع، مع ضحكة متقرقرة كما الماء المندفع من مضخة، تنقط من ثم تندفق، وكم كانت طاهية مذهلة. ربما خطر لها أن تطعمه خصيتيه في عشائه الأخير. ربما هي من ضحكت آخرًا.

كان من المستحيل ألا تصغي إليه. كنت مستعدة للسير ذهابًا وإيابًا إلى بروفينس تاون لأجل حكاياه. فكم كانت تجربة إسكندر في عنفوان مراهقته بعيدة كل البعد عن تجربتي أنا في (مانشستر-على-البحر). فحين كنت في الخامسة عشرة من عمري، اعتنقت دور الفوضوي المتخيّل وأخذت أرسم الشعارات المناهضة بعد نهاية الدوام في قاعة الفنون محاولةً تعليقها بعد ذلك على حوائط الأروقة والممرات. ذروة تجارب مراهقتي تجسدت في رحلتنا المدرسية إلى قاعة فانيول[46]، كانت الحدث الجلل. أما في حال إسكندر، ففي عمر الخامسة عشرة، رأى جيرانه وزملاءه في الفصل ينسلون الواحد تلو الآخر خارج حياته، إما يلتحقون بركب الميليشيات أو الهجرة؛ وفي نهاية الأمر، هو أيضًا التحق بركب الهجرة على متن الطائرة المتجهة إلى باريس حيث أنهى دراسته في مدرسة داخلية هناك. كان بالكاد يبلغ العشرين، ولا يزال بعد طالبًا في باريس، حين قتل أخوه الأكبر في تفجير: يومها كان يزور صديقًا له، فقرر قضاء الليلة لديه، وإذ بالمبنى يقصف. كان صديقًا آخر للعائلة، يعمل ضمن الصليب الأحمر، من انتشل جثمان أخيه من تحت الأنقاض.

" كيف يُتوقّع منك حين تكون يافعًا - وحتى الآن في عمري هذا - أن تفهم ما جرى؟" سألني بعد أن روى القصة عليّ المرة الأولى،

(46) Faneuil Hall: مبنى تاريخي في مدينة بوسطن شيد عام 1742 ويشار إليه بلقب "مهد الحرية" إذ شهد في قاعاته الخطب الداعية إلى الاستقلال عن بريطانيا.

أثناء سيرنا في الشوارع المظلمة. "لن تفهم. لن تجد أي منطق فيه. وقد تسمح لغضبك أن يبتلعك، لكن من شأن ذلك أن يقتلك. وحتى إن أردت أن تفهم، فكيف لك أن تنظر نحو النمر، كيف لك أن تحدق في عينيه، إن لم يقف ثابتًا في محله؟ إن كان النمر جليًا في كل مكان وخفيًا عن كل الأعين، ينتمي إلى الجميع ولا يعود إلى أحد؟ لذا إن كنتِ أنا، فتعاملك مع الوضع سيكون بقولك فلنتأمل حديثنا عن النمر. سأدرس تاريخ التاريخ، القصص التي نرويها وتلك التي نكتمها، وسأحاول فهم ما تشير إليه عن طبيعتنا، روايتنا لقصة وكتماننا لأخرى، سردنا لها في أسلوب لا في آخر. سأطرح الأسئلة عما هو أخلاقي، ومن يقرر ما هو الأخلاقي، سأطرح السؤال الجدي عن إمكانية وجود نظام أخلاقي في عرضنا للتاريخ."

"لا أدري ما الذي تعنيه بكلامك هذا،" قلت له. لم أرغب بالظهور غبية أمامه، لكن كان من الأهم لي أن أفهم حقًا حديثه. كانت له يدان مربعتان وسيمتان، ودائمًا ما كان يلوح بهما في الهواء البارد، إما كي يفض سحابة دخان، أو غمامة أنفاسه، أو كليهما.

"لماذا استهليت سردي عليك مع حكايتي أنا والنمر؟ هل لأني كنت أحاول أن أفتح عينيك على الصبي ذي الستة أعوام الذي كنته يومًا، وبذا أضمن شعورك بالتعاطف معي؟ وها هي حكايتي هذه قد غدت الآن أول انطباع لك عن لبنان. حسنٌ، ربما الحريري هو انطباعك الأول - كنت سأتحاشى الحديث في موضوعه لو كان بيدي. لذا العنف أولاً، من ثم قصة الولد صاحب الخيال الواسع. لكن كان بيدي أن أبدأ معك بسرد حكاية غارات منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل في تلك الفترة، أو عن الدور الإسرائيلي في مجزرة صبرا

وشاتيلا، أو لربما كنت سأبدأ مع بيروت اليوم، كيف أعيد إعمارها إلى مدينة أخاذة في الجمال تماثل مدينة طفولتي ومختلفة عنها في ذات الآن. كان بيدي أن أستهل سردي بحكاية الحريري، والتي لم أبدأ بعد بسردها على أحد ...

"فما معنى أن أول ما يتعلمه كل طفل أميركي عن ألمانيا هو هتلر؟ ماذا إن كان أول ما عرفه عن ألمانيا هو أمرٌ آخر؟ هناك من الناس من سيقول إن في عصرنا الحالي ومن بعد أهوال الحرب العالمية الثانية فمن الضروري، بل من الأخلاقي والحيوي، أن يكون هتلر أول ما يعرفه كل طفل. لكن شخصًا آخر قد يأخذ الطرف المناقض من النقاش ويطرح السؤال. ما التغيير الحقيقي الذي قد يطرأ على التاريخ إن لم يسمح لأي شخص بتعلم أي شيء بتاتًا عن هتلر، ولا الحرب، إلا بعد أن يتعلم أولاً عن برامس، بيتهوفن وباخ، هيغل وليسنغ وفيشته، عن شوبنهاور وريلكه - أن تعرف كل هؤلاء أولًا قبل أن تنتقل إلى هتلر. أو على الأقل، خماسية بيانو برامس على المفتاح فا الصغير، أو تنويعات غولدبيرغ، أو لاوكون - أن تستهل معرفتك بحكاية ألمانيا مع أيٍّ من تلك الأمور، تتعلمها وتقدر قيمتها الإنسانية، قبل تعلمك عن النازية."

"لكن العالم لا يسير على منوالك هذا."

"لا، لا يسير عليه." قالها مبتسمًا ابتسامته المبهمة، وكأنما يضحك بينه وبين نفسه على نكتة هو وحده سمعها. "لكن ما هي دلالة ثباته على منواله؟ وماذا ستكون دلالة تغييره إلى منوالي؟"

***

لم يتطرق إسكندر في حكاياه على الدوام - ولا حتى غالبًا - إلى طفولته ومراهقته، وإن بالتأكيد ظل مصرًّا على مغزى استهلاله حديثنا بقصة منها. تحدث عن أيامه في أميركا، عن السياسات الدولية، وقليلًا عن باريس؛ لكن غالبًا ما انصب كلامه في الحديث عن لبنان، تاريخه - مقتطفات من تاريخه على مرِّ القرون، على مدى الألفية: التاريخ الفينيقي، التاريخ الروماني، التاريخ العثماني. أخبرني بأن عاصمة روما في الشرق الأوسط، بعلبك، لا تزال قائمة وزيارتها متاحة للجميع، على بعد مئة كيلومتر أعلى الجبال من بيروت، أسهب في وصفها أيما إسهاب، أعمدتها الراسخة في السهل الخصب ترتفع شاهقةً حتى السماء، قمم الجبال الثلجية تلوح في الأفق. وصف قطع الحجارة الهاوية عنها بأنها أضخم من أي إنسان، منثورة بكثرة في المكان كما الحصى، كذلك وصف معبد ديونيسوس الجميل الصغير، سليمًا لا يزال وتقريبًا لم يمس، مع أعمال الفسيفساء المثالية وأفاريزه المبنية بأدق التفاصيل - نتيجة مئات السنين من الجهد الروماني في الحقبة التي عقبت مباشرةً ظهور المسيح. كنت ستسمعه وتشعر كأن بيلاطس البنطي قد تنزه هناك، أو يقينًا حفيدٌ من أحفاده.

أخبرني عن مجتمع الصيادين في صور من اعتبروا أنفسهم المسيحيين الأوائل إذ اهتدوا إلى المسيحية لدى قدوم المسيح إليهم ووعظهم، قبل أن يصلب - وبذا اعتبروا أنفسهم من الناحية التقنية مسيحيين قبل المسيح نفسه. أخبرني عن حضوره مؤخراً حفل زفاف صديق فلسطيني شاب أقيم في ناد شاطئي على البحر جنوب بيروت، حضر الحفل زهاء أربعمئة مدعو من كل مشارب الحياة، من خلفهم أمواج البحر المتكسرة وأعلاهم نجوم الليل البراقة، يرقصون

ويغنون ويحتسون عصير برتقال فانتا (حفلات الزفاف الإسلامية لا تقدم مشروبات كحولية - وكم صدمت لمعرفة ذلك: تخيل! أربعمئة شخص صاح مجتمعون حول وليمة!) العروس في فستان زفافها المتألق المرصع بالحليّ تدخل حفلها على طوف مزين بالساتان المنسدل، ينزلق على مد المسبح الضخم، ومن خلف الطوف سباحون مخفيون عن الأعين يدفعون به قدمًا، على جانبيه المفرقعات النارية اللولبية المشتعلة تنير لها الطريق، وفي استقبالها صفٌّ من آكلي النار وبالعي السيوف يؤدون عروضهم البهلوانية تشريفًا لها.

"تلك هي المعايير المعتادة في حفلات الزفاف،" قال لي، "صديقي كاتب، ولا يملك الكثير من المال. وعروسته معلمة مدرسة. لكن في لبنان، إن كنت ستحتفلين، فلا بد وأن تحتفلي. لذا أنا وسيرينا، أتينا من باريس لحضور الحفل، الطاولة إلى جانبنا كانت تضم رجلًا وزوجته من سكان المخيمات، في لباسهما التقليدي، وابنتهما، كانت جد فاتنة، ترتدي حجابها المرصع بالحلي.

"نحيي بعضنا البعض، لكن عدا ذلك لا نتبادل أطراف الحديث، الفتاة تجلس وتعود إلى تدخين أرجيلتها، والأم تدخن السيجارة تلو الأخرى من سجائر جلواز، طبقها ممتلئ بأعقاب سجائرها البيضاء المتجعدة، وكأنها يرقاتٌ دودية، أما الأب، من لم يتبق لديه سوى القليل من الأسنان، يشرب كل قناني الفانتا الموجودة على الطاولة، رشفةً رشفة. لا أحد منهم يبتسم، لا أحد منهم ينهض للرقص، وبالكاد تناولوا أي شيء من الطعام. كان من الصعب عليّ قراءة انطباعهم عن الحفل." تريث قليلًا. "سبق أن كنت في المخيمات، لي أن أتصور المكان الذي يقطنون فيه - المصابيح

الفلورسنتية، الطلاء المتشقق، المقاعد غير المتطابقة. الحليّ على حجاب الابنة - لا بد أنها قد وفرت لأشهر كي يتسنى لها شراء تلك القطعة من القماش. الأب معدوم الأسنان، تجاعيده محفورة عميقًا في وجهه كما الأخاديد، لا أظنه يفوقني عمرًا، ومع ذلك فقد ظننته جدًّا ما إن وقعت عيناي عليه. وها هم جالسون إلى جانبنا، والسؤال يخطر لي، يا ترى من منّا قطع مسافةً أطول في هذا العالم، نحن أم هم؟ فأحيانًا نجد أنفسنا قد قطعنا عدة عوالم، وعشنا عدة قرون، دون أن نخطو حتى خطوة واحدة."

حين كان يسرد عليّ حكايته هذه كنا نتنزه، فضحكت وأومأت اتجاه شوارع كامبريدج حوالينا، وأجبته، "وأحيانًا تقطع خطىً كثيرة ومع ذلك تظل حبيس عالم واحد."

"أجل، هذا وصفٌ آخر."

لكنها لا تصف التجربة التي عشتها في نزهاتنا. ففي المحترف، أنا حرة بالسفر إلى عوالم الخيال، بل وإلى عوالم خيال شخص آخر - في ذاتها مغامرةٌ غير متوقعة - لكن متى ما سرت على الشوارع الجليدية الزلقة ليلًا، وجدت نفسي على بساط إسكندر السحري يرتحل بي إلى عالم واقعي، عالم لا يقل عجائبية عن عوالم الخيال، فأقف أمامه مذهولة، وأستغرق في الأحلام. ها أنا فجأةً، في عمر السابعة والثلاثين، أجسد المرأة المضادة للوسي جوردان: يقيني الوحيد أن من الخطيئة التيقن من أي شيء. فمن عساه يجرؤ ويقول لي الآن أني لن أحظى أبدًا بلحظة القيادة في شوارع باريس في سيارة رياضية، شعري يتطاير مع هبوب النسيم العليل؟ فها أنا قد جلت في بعلبك وبين أعمدتها، تسكعت في صور مع الصيادين، وشيدت بيدي اللعينتين

هاتين بلاد العجائب! غدوت مثلي مثل أطفالي في الصف الثالث، مثل تشاستيتي وإيبولينس مع دجاجتهما الأليفة، مثل خوزيه حين صنع بركانه المتفجر لأجل معرض العلوم. ليلي وعالمها المخبأ أسفل طاولة شرفة ديدي وإستير لا تفوقني خيالًا. حتى رضا، نائمًا في غرفة أحلامه الصغيرة، مع زيدان يركل الكرة على الحائط وعازفي الجاز يستعرضون مهاراتهم في العتمة - كل عوالم خياله الخفية تلك ليست سوى قرى مقارنة بالعوالم التي ارتحلت إليها ذاك الربيع.

***

لا عجب أني تقمصت إيدي، أرقص في المحترف شبه سكرانة في ملابسي الداخلية. فقد وعيت فجأةً في نوبة ذعر - ذعر بهيج - المدى اللانهائي للاحتمالات في هذا العالم، للاحتمالات المنطوية فِيّ. حياتي اليومية في آبلتون، مكالماتي الهاتفية مع أبي، شربي البيرة مع الأصدقاء، جولات الجري الصباحية أيام السبت حول خزان كوابين المائي - وعيت إلى أنها كلها في الحقيقة ما كانت سوى القشرة الخارجية المخدرة، دوران رحى الحياة العادية، القفص المشيد من التقاليد والاستهلاكية والالتزامات والخوف حيث تراخيت وتكاسلت لعقود، في غفلة من الحياة، مثلي مثل آكلي اللوتس[47]، إلى أن تقدم العمر بجسدي وضاعت أيامي سدىً. كنت قد عشت حياتي مثلي مثل الأعمى، وفي لحظة الوعي تلك أبصرت - على يد الرب - ويا إلهي كم

(47) في إشارة إلى قوم من الناس في ملحمة الأوديسية، كان قد وجدهم أوديسيوس في حال نسيان دائم جراء تناولهم ثمار شجرة اللوتس.

شعرت وشعرت وشعرت.

في تلك الأسابيع التي قضيتها منتشية ببصيرتي، بدا لي جليًّا أني لا أدين لنفسي وحسب باعتناق حياة جديدة، لكن أيضًا أدين لأمي - فمخاوفي (مخاوفي التي حبستني في بوسطن، أبقت عليّ معلمة، وبالتأكيد أبقت عليّ عزباء) ما كانت في الواقع سوى مخاوف أمي، حملتُها نيرًا على عاتقي مع كل بواعث قلقها وخيبات أملها، وفوقها شخصية الفتاة الكاثوليكية الصالحة، والتي لسخرية القدر، سلبتني الإيمان، الإيمان بقيمة جهودي، يقيني بفرادة روحي.

آه أيتها المغامرة العظيمة! ها هي الحياة على وسع مداها تنبلج أمامي، وها الوليمة العظيمة منبسطة على مد البصر في انتظاري.

8

الأسبوعان اللذان سبقا وفاة والدتي لا يزالان موسومان في روحي، كل ساعة من كل يوم من أيام رقادها الأخير في المستشفى. أتذكر موقع غرفتها في وحدة العناية، كيف كانت، وما كانت تحتويه، النقش على الحوائط، وأتذكر بالساعة موقع جلوسي في الغرفة وزاوية الإنارة وقوتها ووجود أبي هناك، أتذكر في أي يوم قدم مات - دون تويتي وابنته المزعجة، من لم تكلف خاطرها المجيء سوى إلى الجنازة إذ على ما يبدو رأت فيها مناسبة لرحلة تسوق شاملة لكل ما هو أسود. هناك أوقاتٌ في الحياة، وكأنك تعرف بالفطرة أن كل شيء يتوقف على هذه اللحظة ومن بعدها لن يعود أي شيء إلى سابق عهده، لذا يختزنها عقلك، يقظًا يتنبه إلى كل التفاصيل الصغيرة - الممرض ذو القدمين المفلطحتين من يدندن موسيقى الفالس لشوبان بينما يمسح الأرض، معالج التنفس الشاب بحاجبيه الكثيفين، من يتحاشى النظر إليك مباشرةً بينما يشرح لك أن رئتي أمك، حتى بالاعتماد على التنفس الصناعي، قد بدأتا تتعطلان كليًا - يصوب نظره اتجاه نقطة تبعد ست بوصات عن يمينك، وكأنك ظل ذاك الجسد الواقف الذي ينظر مباشرةً إليه، واقفاً هناك إلى جانبك، وهو ما سيبدو لك في تلك اللحظة العصيبة، مع استحالته، أمرًا محتملاً. عقلك سيحتفظ لك

بكل تلك التفاصيل دون الرجوع إليك، وكأنه يدرك من نفسه ضرورة احتفاظك بها - لأن بكل بساطة من الضروري لك أن تعرفها. عقلك سيتولى المهمة عنك.

وأحيانًا - مثلما كان الحال مع وفاة أمي - ستدرك نوعًا ما أي التفاصيل التي عليها أن تتجلى لك لاحقًا، وسيخالجك خاطرٌ ما، مهما كان مبهمًا، عن الأثر الذي ستتركه فيك. بينما في أوقات أخرى - مثل تلك الأسابيع الأخيرة من أبريل وبدايات مايو 2005، حين دفئ الجو ثم عاد البرد من جديد، حين أمطرت بغزارة، أمطرت وكأن الآلهة في السماء تبكي محروقة الفؤاد، كأن الربيع ما هو إلا أسىً، رغم كل السعادة التي كانت تفيض بها روحي آنذاك - ستدرك أهمية تلك التفاصيل التي اختزنها عقلك، أهميتها وحسب. أما كنهها ومغزاها وأثرها عليك فلن تدركه حينها، ستظل غافلًا عنها، لا لأشهر، بل لأعوام.

لي أن أخبرك أنها كانت ليلة ثلاثاء حين سرت برفقة إسكندر كل الطريق إلى بلمونت ذهابًا وإيابًا، أنها كانت ليلة هطل فيها المطر باكرًا ثم انقطع، السماء المعتمة كانت مخططة بالسحب المندفعة. الهواء كان عبقًا برائحة الأرض، برائحة التراب، خصب وقاتم، لدى مرورنا على المقبرة حيث دفنت أمي، وكذلك لدى مرورنا على حيٍّ من البيوت حدائقها صغيرة ومربعة ومنبسطة مثل علب الشوكولا المفتوحة على مد الشارع المتواضع. حفيف الأوراق الجديدة على وقع النسيم كان يعلونا، قطراتٌ من الماء تساقطت منها على رؤوسنا.

أذكر في ذاك المساء أني لعبت الشطرنج مع رضا بعد العشاء، وقد تركني أفوز عليه - الشهامة كانت من خصاله المفضلة لديه،

طفلي الشهم، إثبات تفوقه من ثم التخلي عنه. من بعدها، في ساعة النوم، قرأت له القصة المختصرة للفرسان الثلاثة والتي استمتع بها؛ وحين أطفأت الأنوار طلب مني، عوضًا عن جلوسي على الكرسي ذي المقعدين كما هي عادتي، إن كنت لا أمانع الاستلقاء جانبه، كما كانت ستفعل أمه لو كانت هناك. ترددت فقط للحظة قبل أن أفعل، استلقيت على امتداد فراشه الضيق، أتكئ على ذراعي كي يتسنى لي مراقبته؛ يده أسندها على ذراعي الأخرى، كي يتيقن من وجودي، مثلما تفعل أمه معي، أسدل جفنيه على عينيه الجميلتين وسرعان ما استغرق في النوم.

لذا أجل، أتذكر تلك الليلة، ليلة الثلاثاء، لأنها الليلة التي أخذت فيها خطىً جديدة في تقربي إلى الابن والأب: في ذات الليلة، وإن لم يعلم أحدهما عما فعلت مع الآخر.

ففي نزهتي الطويلة برفقة إسكندر، بعد عودته وسيرينا من حفل العشاء، فعلت ما لم أفعله من قبل، توليت زمام الكلام. كنا قد تجاوزنا المقبرة وسألته إن تجول فيها من قبل، فهي مكانٌ جميلٌ جدًا، فأجابني أنه لم يسبق له أن فعل، لذا أخبرته عن ترددي عليها لزيارة قبر أمي، ومن ثم سردت عليه حكاية بيلا إلدريدج، سنوات مرضها، شخصيتها المثيرة للإعجاب المركبة من الكفاءة والتكيف، كيف لشخصيتها هذه أن أثارت حنقي عليها، كيف لرؤيتي إياها تعيش حياتها هكذا خلقت فِيّ ذئبًا مسعورًا، أردتها أن تحظى بالفرصة لالتهام العالم، أردتها جائعة جشعة، وأردت لها أن تلتهم وتلتهم حتى تشبع. وإذ به يضحك عليّ قائلًا، "وما الذي يمنعك عن طلب تلك الأمور لنفسك، ألست من لا يزال حيًا يرزق على هذه الأرض؟ ألا تظنين أنها

كانت ستسعد أكثر لو أنك أردتها لنفسك عوضًا عنها؟"

"لكني أريدها،" قلت له، في نبرة حازمة كدت معها أن أمد يدي إليه لألمسه. "بالطبع أريدها لنفسي، بكل ذرّة فِيّ."

" لو لم أسمع منك الآن، لما خمنت أبدًا ذلك. فأنت تبدين هادئة ورصينة بشكل رائع، كأن أمور حياتك كلها منظمة بصورة مذهلة تحسدين عليها. كأن لا حاجة بك إلى أي شيء آخر. فلا فوضى في حياتك، ولا تختلقين الفوضى. كريمة معطاءة اتجاه الجميع - مدرستك، رضا، سيرينا - وحتى معي. لا تبدين لي البتة ذئبًا مسعورًا."

"لكن تلك هي حقيقتي، وأنا أتضور جوعًا."

لحظتها كنا نمر على متجر بوظة، فقال مازحًا أني كنت سألتهم كل ما في المتجر حتى الشبع لو كان مفتوحًا.

"كنت سألتهم كل ما فيه حتى آخر ملعقة وما كان سيملأ شذرة من بطني."

"إذن عليك أن تعثري على طريقة تشبعين بها نفسك،" قالها لي في منتهى الجدية. "عليك أن تسعي وراء ما تحتاجين."

"أحتاج؟" أجبته ضاحكة. "تلك كلمةٌ معقدة، ألا ترى ذلك؟ فمن منا حقا يحتاج إلى أي شيء، عوضًا عن النزر اليسير من الطعام والشراب؟ لا، ليس احتياجًا، فأنا لدي أصلًا ما يفوق احتياجي بكثير."

"لكن إن كنت حقا ذئبًا مسعورًا ..." رنا ببصره في المدى، مبتسمًا كما هي عادته. "يستحيل عليّ أن أتصورك هكذا، أتفهمين ما أعني. لا يسعني أن أجد فيه أي منطق. ما الذي تريدينه حقا؟"

"الحياة،" أجبته. "كلها. كل شيء. أخشى أن تفوتني. لا أريد لأبواب السجن أن تغلق عليّ."

"أبواب السجن؟ ألا ترين أنك تبالغين..."

"أدري. لن تجد منطقًا فيما أقول، فأنت كبرت في أجواء الحرب، المآسي تحيط بك من كل جانب، وأعلم بالنوائب التي ألمت بعائلتك - عن أخيك - أعرف. لكن صدقني، أنا لا أبالغ."

من ثم سردت عليه حكايتي - وهو ما أجده تصرفًا غريبًا حتى حين أستحضره بذاكرتي الآن، فأنا لم أفعل الشيء ذاته مع سيرينا؛ لم أخبرها إلا بالنزر اليسير عن حياتي، مقتطفات عشوائية من هنا وهناك، لكن أبدًا لم أخبرها بالقصة كاملةً - كيف أني تربيت في ظل توق أمي إلى أن تصنع شيئًا ذا قيمة من حياتها ولم يتسن لها أبدًا تحقيق هدفها هذا، كيف أني ظننت دومًا أن هناك قواعد فيما يخص المسموح به والمحتمل تحقيقه في الحياة، حتى وإن كنت أجهل من سنَّ تلك القواعد من الأساس. كيف أني في مرحلة الثانوية، رأيت في الفن السبيل الوحيد إلى تحطيم تلك القواعد، الالتفاف عليها؛ ومع ذلك لم يبد الفن بالتصرف الناضج، ليس آنذاك، ولا حتى فيما بعد، بل أقرب إلى نزوة طفولية.

"ومن قال إنَّ عليك أن تكوني ناضجة؟"

"أتقول هذا لمعلمة مدرسة ابتدائية! لا أدري. بدا الأمر لي وكأنَّ، من ظننت نفسي كي أجرؤ وأتصور أن لي أن أصبح فنانة؟ وكيف كنت سأتدبر معيشتي إن فعلت، هل كنت سأكسب ما...؟"

"وهل حاولتِ؟"

"لم أحتمل الفشل. بدا لي من الأسوأ أن أحاول وأفشل من ألا أحاول على الإطلاق. من ثم هناك أمي وما جرى لها، أتفهم ما أعني؟"

"أجل، أفهم."

من ثم سرنا في صمت لبرهة.

"الخدمة،" قال لي، "هي من أعظم صور السعادة في الحياة. لهو امتيازٌ عظيم أن تسخرك الحياة لخدمة الناس."

"أنت تمزح، أليس كذلك؟ وما الذي تعنيه أصلًا بكلامك هذا؟" فدائمًا ما تصورت خدمتي الناس استعبادًا.

"هي راحةٌ عظمى، هبة من السماء، أن تسخّر نفسك لأداء عمل أنت عالمٌ تمام العلم بضرورة أدائك له لصالح شخص آخر. أيًّا يكن السبب من ورائه: الحب، الواجب، أو أي سبب آخر. لا يهم السبب طالما أنك وهبت نفسك له. لن تقلق بشأن أي شيء آخر، والرضا الذي ستناله، متى ما أديته، سيغمرك بسعادة لا توصف."

"لكن ليس هذا ما عنيته بكلامي على الإطلاق."

"أدري، لكن تظل هذه هي الحقيقة."

***

لذا، وكما ترى، وجدت لزامًا عليّ أن أقول شيئًا لسيرينا. فقد كان وقتًا رأيت في كل أمر يقع لي حدثًا يحمل في طياته دلالة ذات مغزى ومتصلًا بالحدث الآخر، وهكذا ما إن أخبرني إسكندر عن السعادة العظيمة في الخدمة، عن حقي في إشباع الذئب الكامن فيّ، فهمت كلامه هذا على أنها إشارة إلى سيرينا، أو بالأحرى، إلى علاقتي أنا بسيرينا.

طوال يوم الأربعاء التالي في المدرسة، يداي ظلتا ترتعشان حتى في سكونهما، وكأني احتسيت الكثير من القهوة. كان يومًا حارًا بشكل

غريب، قائظًا مثل يوم صيفي، وجسدي أخذ يتصبب عرقًا، أحشائي تتقلب وتتلوى كما هي عادتي قبل صعود الطائرة. لم أقو على تناول سلطة غدائي. لم أقو على البقاء ساكنة. فكل ما كان يشغل بالي هو إفصاحي بمكنون قلبي لسيرينا، وعجزي عن تصور ردة فعلها.

طوال حياتي تحاشيت فعل أي أمر أعجز عن تصوره في خيالي. مبدأي في هذا أني إن عجزت عن تصوره، فلا بد وأنه فكرةٌ سيئة. هكذا كنت مع مرض أمي: تصور الأسوأ وسيتسنى لك حماية نفسك منه. وإن عجزت عن تصور الأسوأ، فستعرض نفسك حتمًا للأذى. ليست بالفكرة الجيدة. ليست بالفكرة الجيدة على الإطلاق.

رفضي حياة الفنان حتى قبل أن أعيشها جاء وليد هذا الاقتناع. فقد عجزت عن تصور نفسي فنانةً في هذا العالم.

كنت أتأمل زملائي في كلية الفنون، أولئك الذين كنا موقنين من تحقيقهم النجاح، ولم أتصور نفسي قادرةً على التزلف لكبار الشخصيات في مجالس إدارات المعارض والمتاحف، أقطاب صناعة الأزياء المنظمين لأهم المناسبات السنوية. ولا تصورت نفسي متملقة مثل نجوم الكلية، أتحايل بالإطراء على الفنانين الأقدم والنقاد البالين علّ تنفتح أمامي فرصةٌ للانتشار. رأيتهم بأم عيني يفعلون كل ذلك، ومع هذا استحال عليّ تصور نفسي أفعلها. كان بوسعي الثرثرة في كل ذاك الهراء عن انهيار الهوية وأساسيات النسوية، أيًا كان ما تعنيه تلك المصطلحات، عن رولاند بارت وجوديث بتلر وميكا بال – كنت فعلًا أملك القدرة على ذلك، فهذا ما دربونا عليه في الكلية، وكأنما كلية الفنون قائمة في الأساس بهدف تعليمنا هذا النفاق، لكن استحال عليّ إظهار وجه آخر، بل استحال علي حتى تصور نفسي أظهر وجهًا

آخر، ولهذا السبب سعيت للحصول على درجة الماجستير في التعليم، وظهرت أمام نفسي وأمام الناس وكأني تخليت عن حلمي الوحيد.

لكن كما ترى، فقبل دخول سيرينا حياتي، حلمي الخيالي عن تحولي إلى فنانة، وحلمي الواقعي بأن أغدو فنانة، كانا منفصلين، إلى أن جاءت هي ووجدت نفسي قادرة على الربط بينهما. فقد هجرت العالم لأجل الحلم في خيالي، لأن في غرفة النوم الثانية في بيتي في جادة هورون، ومن ثم في ذاك العام الذي عشته في نعيم سمرفيل، تسنى لي الاحتفاظ بصورة الفنانة في حلمي، وفي ذات الوقت مارستها واقعًا في حياتي، دون اضطراري لتحمل أي من ذاك الهراء الذي غدا الأساس في حياة أي فنان غربي معاصر في القرن الواحد والعشرين. بات متاحًا لي في عزلتي أن أعيش نموذج الفنانة إميلي ديكنسون.

وها هو خاطرٌ آخر أخذ يتآكلني بينما كنت أقطع المسافة القصيرة بين متجر الكعك والمحترف، من الرصيف وحتى باب المحترف - هل رأيت في سيرينا فنانةً مذهلة لأني كنت واقعة في غرامها، أم هل وقعت في غرامها لأنها فنانة مذهلة، أم هل كنت واقعة في غرام تصوري عنها، تصورٌ أبعد ما يكون عن الحقيقة، وعلى أي حال ألا يجدر بي أن أسأل نفسي أصلاً ما رأيي الحقيقي في عملها - ما كان رأيي حقا في عملها؟ لم أعرف الجواب. لكن ما إن وعيت للسؤال، عرفت أن فيه دلالة ذات أهمية لي. بل أهم من أي شيء آخر: فإجابتي على السؤال ستحدد إن كنت أخيرًا أعيش في العالم الواقعي؛ أم أني لا أزال أحلم، عالقة في الرواق اللانهائي من المرايا.

تخيل، عقلي يجري مهووسًا على عجلة أفكاري كما الجرذ، القلق يمزقني، أجمع شتات نفسي لدى وصولي عتبة الباب - لكنك

أدركتَ ما سيحدث أصلًا، أليس كذلك؟ - أصل المحترف وأفتح الباب وأنادي على اسمها في زقزقة مبهجة، لكن ما من إجابة. لا صوت. الأضواء كلها مطفأة، كل شيء ساكن. وضعت جانبًا قهوتي شبه الباردة وكيس الكعك وحقيبة يدي وحقيبة أغراضي القماشية التي احتوت الملف حيث أحمل صوري المصغرة عالية الوضوح لإيدي سيدجويك، مشيت من أول حرف (L) حتى نهايته، خطاي تتمهل أكثر وأكثر لأني عجزت لحظتها عن استيعاب حقيقة غيابها. في تلك الدقائق القليلة التي تفحصت فيها المكان (المحترف كان يفيض بضياء الربيع المتشعشع من خارج النافذة، أذكر ذلك جليًّا، هباء الغبار يتراقص في شعاعه، هواء المحترف ينضح بأثر من رائحة الصمغ والتفاح القديم، بعبق سجائر سيرينا)، تساءلت لحظتها إن كنت فعلًا قد فقدت عقلي، فقدت السيطرة على نفسي. فقد كنت جد واثقة من وجودها، متيقنة من رؤيتي لها منشغلة في صنع تفصيل دقيق، تدخن لدى النافذة المفتوحة، أو حتى مستلقية على الوسائد متدثرة بأوشحتها مثل طفل من أطفال الهنود الحمر، كنت متيقنة من واقعي حدَّ وجدت فيه من المستحيل عليّ تقبل الحقيقة الماثلة أمامي.

***

في اليوم التالي، لم أدر في البدء إن كنت سأتوجه إلى المحترف أم لا. لذا كسرت قاعدة أخرى من قواعدي، وسألت رضا إن كانت أمه بخير.

"وما الذي تعنينه؟" كنت قد فوجئت بلغته الإنجليزية

المتحسنة: قد أتقن نبرة أبناء البلد.

"لم تكن موجودة البارحة في المحترف، لذا ظننت أنها ربما ..."

وإذ به يضحك عاليًا. وعادت إلى ذاكرتي ضحكته المجلجلة قبل عدة شهور، في متجر الأغذية، لدى إيقاعي التفاح. " أمي لا تمرض أبدًا،" قال لي. "بابا يقول إنها امرأة خارقة. لا، هي ليست مريضة، بل رحلت."

"رحلت؟"

كان واقفًا عند الباب متلهفًا على المغادرة. تناهى إليّ صوت أصدقائه ينتظرونه في الردهة. "لكنها عادت الآن. عادت في الليل." أجابني دون أن يلتفت إلي في طريقه خارجًا.

حين قطعت الطريق إلى المحترف بعد الظهيرة، قطعته متذللة: فالقصة التي كانت في خيالي، توقي إلى الإفصاح لها عن اعتراف ما، رغبتي في خلق دراما بيني وبينها، ادعاء أحقيتي باهتمامها، قد وقفت مكبوحة اللجام أمام الواقع الأقوى لحياتها. أيًا كان ما أخذها مني وبتلك الصورة المفاجئة، سيحتل دومًا الأولوية لديها عليّ. فكما هي الحال دومًا - معنا نحن نساء الطابق العلوي! - حياتها ستبدو دائمًا أهم من حياتي.

كانت هناك، شعرها الأشعث مرفوع، جبينها ملطخ بخط من الحبر الأزرق. كانت منحنية فوق كتاب مصور كبير، تحضن شالاً من شالاتها على صدرها، وحين التفتت إليّ فتحت لي ذراعيها ، فهوى شالها، ابتسامة عظيمة طبيعية التجاعيد ارتسمت على وجهها، انهارت على مرآها كل دفاعاتي.

"نورا!" أقبلت نحوي تسير الهوينى، كم كانت خطاها رشيقة.

"أحمل معي أخبارًا مذهلة!"

"إذن كل شيء على ما يرام؟"

"كل شيء على ما يرام؟ الأمور كلها رائيعة" - قالتها بلكنتها الإيطالية المميزة. عبثت بشعرها وأسدلته على كتفيها. "أولًا سأعد لنا فنجاني قهوة - وسأخبرك -"

رمقت حقيبة أغراضي. "لم أحضر شيئًا اليوم،" قلت دون أن أفصح لها بأمر التهامي علبة كب كيك كاملة قبل البارحة لأني لم أجدها، أني سرعان ما شعرت بالغثيان واضطررت للعودة إلى البيت.

"خيرٌ أنك لم تفعلي،" قالت، تثير الجلبة في إعدادها القهوة، الإبريق، الماء. "فقد بت أعتمد كثيرًا على عطاياك الحلوة."

ارتميتُ على الوسائد قائلةً، "وما الخبر؟"

"حسنٌ، كما تعلمين فالبارحة كنت في نيويورك."

" لا أعلم، فأنت لم تخبريني بذهابك هناك."

"أوه، لا بد أني في غمرة انشغالي نسيت. أو ربما لأني كنت متوترة، لم أرد أن أنحس حظي."

تريثت للحظة ثم سألتها، "حسنٌ، وهل حالفك الحظ؟"

هزت كتفيها مبتسمة مرة أخرى، وقالت، "سنرى، لكن على ما يبدو فالأمور واعدة، هذا الأسبوع قطفت ثمرة، وبعد أسبوعين سأقطف ثمرة أخرى؛ سنرى."

"أوه سيرينا، دعي عنك اللف والدوران وأخبريني."

جلست إلى جانبي، وأحنت رأسها اتجاهي تحادثني كأننا متواطئتين في مؤامرة: "البارحة، تناولت الغداء مع صديق لي، فنان، وفنان جاد وناجح، هو في الستينات من عمره - نحات - وجذابٌ أيضًا،

كم صوته عميق - وقد خطط لالتقائي بناقدة فنية مهمة. امرأة من الجامعة. هي أكبر سنًّا، وذائعة الصيت جدًّا، هي القيمة بعد سنتين من الآن على معرض مهم لأعمال الفنانات، مشروع يخص الفنون النسوية. لن يشبه أي معرض قبله - فالمتحف في بروكلين سيفتتح جناحًا جديدًا، جناحًا نسويًا، ومعرضها سيكون الأول، العرض الافتتاحي ... مثيرٌ جدًّا أليس كذلك؟"

"إذن هي طلبت الالتقاء بك؟"

وضحكت سيرينا على سؤالي، ضحكةً "متواضعة". "طلبت الالتقاء بي؟ أوه لا، هي لم تعرف حتى بوجودي. فرانك - صديقي الذي حدثتك عنه - دبر اللقاء وكأنه جاء مصادفة، أو لقاء ودي بين أصدقاء على الغداء. أخبرها في عرض الحديث أني أبحث عن صالة عرض في نيويورك - وهي الحقيقة بالطبع، ليس في الأسبوع القادم بل الذي سيليه سأسافر إلى نيويورك يومين للالتقاء بصاحبيْ معارض قد يهتمان بتمثيلي. وهنا طرح عليها السؤال الذي لأجله طلب منها الانضمام إلينا، أيٌّ من المعرضين هو الأنسب لي، ولماذا، وهل من الأجدر بي البحث عن آخر. لكن سرًّا بيننا، ما أراده فرانك هو تشجيعها على اختيار أعمالي ضمن معرضها. المعرض سيضم حوالي الأربعين فنانة، وهي تريد لمعرضها أن يكون عالميًا" - رفعت راحتي يديها جانب وجنتيها باسطةً أصابعها في إيماءة تحاكي إيماءة البطلات على ملصقات الأفلام - "وأنا النجمة العالمية."

"أمرٌ مذهل. أعني، لا بد - "

"سيفتح لي بابًا على عالم جديد. الانتشار، الصيت، الاعتراف - ألك أن تتصوري كل هذا؟"

"أجل." كان لي أن أتصور ذلك. إلى أي مدىً ستقذف بها هذه الفرصة بعيدًا عن عالمي، وبأي سرعة. "خبرٌ مذهلٌ تمامًا."

"لم يتحقق بعد - وقد لا يتحقق أبدًا، أدري - لكني أظنها أعجبت بي، فقد ضحكنا كثيرًا، وتبادلنا حديثًا ممتعًا - لكن يا له من حلم، إيه؟ يا له من حلم يتحقق."

وفي تلك اللحظة أدركت، في يقين لا يشوبه شك، أن الأحلام التي وضعناها نصب أعيننا أنا وهي ليست بذات الأحلام؛ أن دوامة الحوار الداخلي الذي تخيلته في عقلي وشغل جوانحي لم يكن، على الأقل لليوم، بالمناسب مشاركته معها. فاليوم هو يوم سيرينا. بالطبع كان يومها. "ليتني أحضرت معي كعكًا، " قلت لها أدعي البهجة. "كي نحتفل بك."

"نحتفل؟ لا ليس بعد! فلا نزال ننتظر - لن نحتفل قبل معرفة قرار الناقدة - وهو ما قد يأخذ وقتًا طويلًا - قد نعرفه قبل سفري للالتقاء بأصحاب المعرضين - موافقتها ستغير كل شيء."

"لم تخبريني بأي شيء من هذا من قبل."

"أنا امرأةٌ متطيرة. لست منطقية في تلك الأمور، أدري - لكني أقلق بشأن إفساد فرصي، نحس طالعي."

"لكنك ستخبرينني الآن." لم أقلها في صيغة سؤال. وإن بدوت مكسورة الخاطر، فهي لم تلاحظ.

"من المفترض ألا أفعل - أوه، أرجو أن تسامحني الأقدار - لكني سأخبرك، أجل سأخبرك، فإن لم أفعل سأنفجر." وأخذت تسهب في وصف صاحبيْ المعارض اللذين ستلتقي بهما. أحدهما امرأةٌ شابة في أوائل الثلاثين من عمرها بدأت التو بناء اسم لها في عالم الفن اعتمادًا

على نفسها، بعد العمل عشرة أعوام لصالح معرض من أهم معارض سوهو، معرض حتى أنا كنت قد سمعت به؛ أما الآخر فهو إلياس، رجل في الأربعين من عمره، شرق أوسطي، مجازف، أقام معرضه منذ فترة قريبة وجذب إليه الاهتمام في عالم الفن لخياراته الجريئة. هو، كما أخبرتني، صديق صديق لإسكندر، وهو بالخيار الجيد كونها ستفهمه، تاريخه وسمات شخصيته ستكون مألوفة لديها، كما أن سجله الفني جيد، وكان قد تواصل معها بمجرد معرفته بإقامتها في الولايات المتحدة لمدة عام. أما المرأة الشابة فقد راسلتها على عنوان بيتها في باريس، دون أن تعرف حتى بوجودها في الولايات المتحدة، وأخبرتها أن عالم إلزينور قد سلب لبها وأدمعها، التجربة بأسرها ظلت محفورة في ذاكرتها، وفي حال لم يكن لسيرينا ممثلٌ أميركي، فهي، آنا زي، ستسعد جدًّا بالسفر إلى باريس وعرض الأمر عليها - وهذا عزيزتي"، قالت سيرينا معلقةً، "الالتزام، الشغف."

سيرينا استغرقت في سرد مزايا وسلبيات كل خيار، تتلعثم من شدة حماسها، الآن وقد سمحت لنفسها بالكلام. لا، لم أغر منها - كيف لي أن أغار منها وأنا، باختياري الديوراما، قد وليّت ظهري عامدة متعمدة لأشباه آن وإلياس في عالم الفن؟ - لكن ما تمنيته حقا هو أن أرى عليها، أن يتبدى جليًا على ملامحها، دلائل قلقها مهما كان بسيطًا، من احتمال غيرتي.

"وما كان رأي إسكندر؟" سألتها أخيرًا، وكعادتها لوحت بيدها في إيماءة سخط.

"إسكندر؟ وما الذي تتوقعينه؟ سيحلل الأمر من وجهة نظر، من ثم سيحلله من وجهة نظر أخرى؛ في الواقع أخبرني أنَّ لا قول له

على الإطلاق في هذه المسألة. رغم حبه للثرثرة، فأحيانًا لن تأخذي منه كلمة مفيدة. وفي هذه الحالة، فقد أعلن رسميًا ألا رأي له. لكني واعية لرغبته باختيار إلياس. فعائلته لبنانية. هل شاركك إسكندر اسطوانته المشروخة عن صيادي صور؟ قد فعل، حسنٌ: إذن لك أن تتخيلي رحلة إلياس الطويلة من صور إلى برنستون. هذا هو إلياس. ومنية قلب إسكندر أن أختاره."

"لا تعرفين ذلك،" قلت لها في نبرة ممتعضة على إثر اكتشافي أن نقاشي المذهل مع إسكندر ما كان إلا "اسطوانة مشروخة".

"صدقيني، أنا أعرفه. وأعرف ما يدور في خلده. لذا عليّ أن أكون حذرة ألا يأتي قراري من باب إرضائه، أو حتى من باب إغاظته. لا بد لي من أخذ قراري مستقلةً عنه." ثم قالت متنهدة، "كم أتمنى لو كان بيدك الحضور معي. كنت سأهتم بمعرفة رأيك في أولئك الناس. فأنت تملكين بصيرةً نافذة."

"حسنٌ، ربما - يعتمد - متى تنوين الذهاب؟"

"الخميس والجمعة، الأسبوع بعد القادم. أخشى من المستحيل عليك مرافقتي."

"إن أجلته لأسابيع قليلة - "

"مستحيل. لن أغير المواعيد. ليس من صالحي أبدًا. سأخبرك بكل ما سيجري معي لدى عودتي. على أي حال، فلندع المستقبل للمستقبل وكفانا حديثًا عنه. الآن دورك، كيف حالك، صديقتي نورا، ما أخبار عملك؟"

وهل كانت تكترث أصلًا؟ ما أردته منها هو سؤالٌ عفوي، تلك العفوية التي لا تتأتى إلا مع أقرب أصدقائك وأكثرهم حميمية - مثلي

وديدي، لا إستير بالتأكيد - العفوية في افتقار الحذر والمراعاة، ردود الفعل صادقة وطبيعية ونابعة عن حب. أبوح بهذا لك وأدري أني أطلب الكثير. ربما كلامي هذا تعبيرٌ عن سخطي العسر، متولدٌ عن شكي إن كانت أحبتني قط، وإن فعلت فإلى أي حد، وإن كنت سأعرف الجواب يومًا.

قد تقول في نفسك يا له من سؤال يسير - هل تحبني؟ - هذا سيكون شعورك إن لم تضطر يومًا لطرح السؤال. وفي بعد ظهيرة ذاك اليوم، عوضًا عن إفصاحي لها بحبي كما تصورت في عقلي مئات المرات، وجدتني أطرح عليها سؤال الوداع.

"أليس من العجيب كم يمر الوقت سريعًا؟" قلت لها. "لا أصدق أنكم قريبًا سترحلون عن هنا."

"عجيب، أليس كذلك؟"

"ومتى موعد السفر؟ عليّ أن أعرف، لكن ..."

"معرضي سيفتتح في السادس عشر."

"في السادس عشر من يوليو؟"

"في السادس عشر من يوليو؟" رددت ورائي ضاحكة. "وفي باريس؟ لكان خيرًا لي ألا أفتتح معرضًا من الأساس!"

"ستكونين في باريس في السادس عشر من يونيو؟ كيف لم أعلم بذلك؟"

"لم أشأ الكلام في الأمر كي لا أوتر نفسي في العمل. حيلة تشعرني بأن أمامي المزيد من الوقت."

"السادس عشر؟ لكن آبلتون لن تغلق أبوابها قبل الثالث والعشرين. لن يتسنى لك الرحيل قبلًا. وماذا عن الأطفال؟ ماذا عن

الأطفال الذين سنحضرهم هنا؟ كنت أظن أننا اتفقنا على ترتيب الرحلة نهاية الشهر." كنا قد قطعنا معظم المراحل في إعداد المكان - الزهور الأسبرينية، المطر من كسر المرايا المتدلية، وبدأنا العمل على عيني الجبروكي - وقبل أسبوعين قضينا فترتي بعد ظهيرة ممطرتين في تركيب كاميرات الفيديو: عمليًا، كنا مستعدتين فيما يخص المحترف. لكن إحضار أطفالي إلى المحترف أمرٌ آخر، فالموضوع يتطلب الكثير من المعاملات الورقية في آبلتون: الموافقة على الرحلة المدرسية من مكتب شونا؛ أذونات الموافقة من الأهالي. وتلك الأمور يستحيل إنجازها في يوم وليلة.

"كفي عن التصرف كمعلمة متزمتة نورا، لا داعي للهلع، سنتدبر الأمر. فمحال أن أتواجد هنا يوم افتتاح معرضي في باريس. لم نتناقش الترتيبات في البيت بعد. فإسكندر أيضًا لديه التزاماته المعقدة هنا - في مونتريال، في واشنطن - إيه، باستا. لا عليك سنتدبر الأمر." ثم أردفت، تلوح بذراعيها اتجاه المحترف من حولنا: "ومن الضروري إحضار الأطفال هنا، طالما لدينا متسع من الوقت. فالأمر ليس مفتوحًا عندي للنقاش! فلنحدد التاريخ اليوم. أمامنا الكثير من العمل - جبالٌ نتسلقها!"

"وعجائب نبنيها"

"إذن ما الذي ننتظره، أوتْغافِيّ" وهبّت على قدميها الرشيقتين، ولَّت ظهرها لي، ثم مضت إلى عالمها، واختفت.

***

وجدتها وقحة - افتتاح معرضها في باريس بعد شهرين، والآن فقط تعلمني بالتاريخ. حين وصلت بيتي ذاك المساء تناولت الرزنامة، تأملتها، صناديق الأيام الصغيرة منبسطة على الورق. مخططاتها تعتمد على مدى العمل الذي سيتسنى لها إنجازه في كامبريدج؛ لكنها بالتأكيد سترحل مع بداية يونيو. كان عليّ أن أتمالك نفسي. لن يسحبوا رضا من المدرسة، أليس كذلك؟ إسكندر سيبقى. وربما سيطلبان مني الاعتناء برضا، متى ما ذهب إسكندر إلى محاضراته. وإذ بي أستحضر دفء رضا حين غفا نائمًا على ذراعي، شعرت به يسري في أوصالي - لن أمانع، بالتأكيد سأتولى الاعتناء به.

ذاك كان مساء الخميس. وكنت على علم أنها لن تأتي مساء الجمعة. فلا مشكلة لدي في عدم حضورها متى ما أعلمتني. إذ ليس الأطفال وحسب من يطمئنون إلى إعلامهم مسبقًا بما سيجري. كمعلمة، ومن تجربتي الطويلة، أعرف أنك متى ما حذرت الناس مسبقًا، فالأمور ستجري على ما يرام. كنت أدري أني سأحظى بالمحترف لنفسي تلك الليلة، لذا خططت الذهاب هناك في وقت متأخر، اشتريت علبة سلطة من متجر إيلوايف وقنينة من النبيذ الأحمر الرخيص من متجر الكحول الملاصق، جمعت مخزون أمي من أفلام كاميرا البولارويد - أفلامها لم تكن من النوع الجديد بل القديم الذي يندر وجوده في السوق، لذا أخذت معظمه معي - وحملت كل مستلزمات تقمصي إيدي - من ضمنها مستلزمات لا أظنك ستتصور امتلاك معلمة كهلة في الصف الثالث الابتدائي لها - وشددت الرحال إلى سمرفيل.

قد سردت عليك سلفًا ما فعلت تلك الليلة. سكرت قليلًا.

أدرت مشغل الاسطوانات ورفعت الصوت إلى الحد الأقصى. رقصت، تموضعت، والتقطت الصور لنفسي. كنت أعيش حريتي، وأظنني بطريقة ما كنت أمارس طقوس طرد الأرواح الشريرة - هل تشك في دقة وصفي؟ إذن دعني أشرح لك. فبسماحي لروح إيدي أن تسكنني، كنت أطرد من جسدي الآنسة الخنوعة المتكيفة نورا إلدريدج، الآنسة الرزينة اليقظة نورا إلدريدج، الصديقة الصدوقة، الابنة البارة، المعلمة الطيبة، الممسحة إلدريدج، النكرة إلدريدج، عديمة القيمة إلدريدج من يبتسم بوجهها الجميع وينساها الجميع بعد لحظة. تلك كانت الروح التي سعيت ليلتها إلى طردها. هل فهمت الآن؟

رقصت وشربت ودخنت واستهلكت الأفلام في التقاط صور البولارويد المغبشة لنفسي، كأنَّ روبرت مابلثورب وباتي سميث تقمصاني معًا وفي ذات اللحظة. استغرقت على هذا المنوال إلى أن فرغت قنينة النبيذ - كنت قد احتسيت معظمه، ولا أدري كيف، لكني أرقت مقدارًا ضئيلًا منه على صدر قميص إيدي الأبيض. لطخة حمراء قانية كالدم انسالت على نهدي الأيسر، فبدا مع القطرات المتساقطة منه وكأن قلبي ينزف. لذا خلعت القميص عني، وأخذت أواصل الرقص في صدريتي البيضاء، الملطخة بأثر بقعة حمراء.

وهل تدري ما فعلت في نشوة ثمالتي؟ مشيت على رؤوس أصابعي متسللة إلى غابة بلاد عجائب سيرينا واستلقيت على العشب الصناعي، الزهور تتموج من حولي وأعلاي، أخيلة ظلالها في الضوء المعتم تمايلت على الحوائط كما الراقصات؛ من ثم أغلقت عينيّ ودسست راحتيْ يديّ أسفل النطاق ودغدغت بطني، أصابعي العمياء تابعت انحدارها إلى عظمتيْ وركي؛ كأني بها رحالة تستكشف العالم

المجهول لجسدي مستقلةً عني، تلمستُ بأناملي خفق الدم في عروقي، نشوة طريه على جانبيّ، على امتداد عظمتيّ الوركيتين، تلمست فروة عانتي، من ثم الرطوبة بين ساقيّ؛ وفي تلك البرهة من الزمن، لم أكن إيدي ولا أليس ولا إميلي ولا أي شخص آخر، كنت جسدًا وحسب، أو ربما كنت نورا في تجلٍّ آخر لها، العشب الشوكي أسفل ظهري يخزني، وكلتا يديّ الآن مقابلي، داخلي، والجلد على سائر جسدي يرتعش ويردد صدى آهاتي، آه آه آه، أصدح ملتاعة في بلاد العجائب، عجائبي، وفي تلك البرهة القصيرة من التخلي عن العار، التخلي عن القناع، عشت حريتي.

9

نهضت صباح اليوم التالي إنسانةً جديدة. أو على الأقل، هذا ما ظننته. استيقظت متخمة، أتأمل النفس التي كنت الأسبوع الماضي - الشهر الفائت - على مر شهور - مع شيء من الفزع، مثلما يتأمل مدخنٌ سابق نفسه الماضية، نفسه الجائعة المحتاجة، ويعجب. نهضت، اتصلت بأبي، قدت بالسيارة إلى بروكلاين، اصطحبته إلى تناول فطور متأخر في زافتجز، من ثم قدت به إلى المشجر وتنزهنا سيرًا لفترة طويلة بين الأشجار المورقة المكتسية بالأخضر العذري والزهور المتفتحة الساطعة مثل زهور أفلام ديزني. كان يعرج بسبب الألم في وركه، لكن كل مرة سألته فيها إن أراد العودة، يصر على المضي قدمًا، وهكذا فعلنا. كان الطقس باردًا، لكن لم نكترث، ورأيت الدم يفور بالعافية في وجنتيه المتدليتين، أبي العزيز، أبي الأشيب، يشق طريقه مجهدًا بكل بسالة. كم اعتراني الحزن لإهمالي إياه.

تحدث عن مباراة الريد سوكس التي كان ينوي متابعتها لاحقًا ذاك اليوم - أظنها كانت ضد فريق تامبا - وتحدثنا عن ولع أمي بالورود وزهور الأشجار، اعتناقها هواية العناية بالحدائق بحماسة جارفة، وضحكنا كذلك على سخطها وفقدها لأعصابها متى ما ماتت النباتات بين يديها، متى ما عجزت عن النجاة من طقس الشتاء. وكأن موتها

إهانة شخصية لها. فقلت له أني أظنها تصرفت بهذا الشكل لأنها عجزت عن السيطرة على أي شيء في حياتها، لهذا كانت تمني النفس بانصياع النباتات لها، ومتى ما ماتت، تحطمت ثقة أمي بنفسها.

أبي رمقني بعينيه وكأني فقدت عقلي. قال لي، "وما الذي تتحدثين عنه؟ أمك سيطرت على كل شيء في حياتها، على حياتنا. هي من اختارت أين نعيش وكيف نعيش وماذا نأكل وماذا نلبس ومن نصاحب ومتى وأين نلتقي بهم. هي من اختارت عدد الأطفال الذين سنحظى بهم - أنت وأخوك، كان خيارها هي؛ أنا أردت ستةً منكم - وهي من قررت موعد إنجابكما. دائمًا وعلى الدوام كانت هي المسيطرة على كل شيء، ولذلك كانت العناية بالحدائق تثير حنقها حتى الجنون، لأنها وأخيرًا وجدت على هذه الأرض من لن يخضع لها. أمك كانت امرأةً فريدة. مذهلة. لا أعرف شخصًا واحدًا في حياتي أحبه الناس بقدر محبة الناس لأمك، لكن إلهي كم كانت امرأةً متسلطة."

كنت شبه مصدومة لسماع أبي يقول كل هذا - ومصدومة كذلك بنبرته المتقدة في حديثه، برؤيتي له عاشقًا لأمي، عيناه المضطرمتان في جيوب تجاعيده، نقطٌ من ريقه تلمع على شفتيه - كذلك كنت قد ذهلت، فللمرة الأولى يخطر لي أن من الطبيعي والجليّ أن يكون لكلٍّ منا قصته المختلفة عن بيلا إلدريدج، من تكون وكيف كانت عليه حياتها. فالأمر منطقي. والمنطق ذاته يحتم أن سيرينا وأنا، لكل واحدة منا قصتها المختلفة عن تلك السنة التي تشاركناها، وأن قصتها لن تتطابق مع قصتي - حسنٌ، هذا المنطق لا ينفي صحة قصتي، مثلما صورة أبي عن أمي لا تنفي صورتي. بطريقة ما، بعد قضائي تلك الليلة في تقمص إيدي، بدت كل الأمور، لبرهة، قابلة للتصديق.

أعدت أبي إلى بيته في وقت مبكر قبل عرض المباراة، وفي طريقنا ابتعت له صندوق جعة وكيس دوريتوز بالجبن الإضافي من الحجم الكبير. أمي ما كانت لتسمح له أبدًا بتناول تلك الأشياء، أبي معه حق في هذا، أما الآن وقد استعاد عزوبيته فقد منح نفسه حرية التصرف في أمور صغيرة كتلك، وكنت أرى كم تثير حماسته، كأنه صبيٌ صغير وجد طريقة يفلت فيها من العقاب.

كنت قد قررت ألا أذهب للمحترف طوال نهاية الأسبوع، ما جعلني أعي إلى أي درجة ذهابي هناك بات تصرفًا تلقائيًا. بعد أن أوصلت أبي إلى بيته، اتجهت إلى بيتي قاطعةً الطريق على جسر جامعة بوسطن وكأني كنت ذاهبة إلى سمرفيل، فقط لدى وصولي ميدان سنترال أدركت ما فعلت. كنت شبه متيقنة من وجود سيرينا في المحترف بعد الظهيرة، لكني لم أذهب لأرى بعيني. قلت في نفسي، إن أرادت مساعدتي، فلتكلف نفسها عناء طلبها مني. عدت أدراجي إلى بيتي، خرجت لممارسة الجري، ثم استحممت. قلت لنفسي سأقرأ كتابًا، لكن لا رغبة كانت لدي للقراءة. وجلوسي لمشاهدة التلفاز كان سيثبطني. لذا راسلت عدة أصدقاء لي بالإيميل لكن سرعان ما ضجرت. اتصلت بديدي لكنها وعائلتها كانوا في الخارج وهاتفها المحمول مغلق.

أخيرًا، مع بداية المساء، اتصلت بسيرينا: تركت لها رسالة، رسميةً بقدر المستطاع، أؤكد فيها تاريخ ووقت الرحلة المدرسية لطلاب الصف الثالث في مدرسة آبلتون. ذكرتها بأننا لا نزال ننتظر توقيع الأهالي أذونات السماح. ثم أعددت لنفسي شطيرة بيض وتوجهت للنوم الساعة الثامنة والنصف، أتضور جوعًا لكن ليس للطعام، فأي تخمة هذه!

***

سيرينا لم تعاود الاتصال بي. ما كنت لأعرف سببًا وراء تصرفها هذا، لكني ما كنت لأذل نفسي بسؤالها. تشبثت بموقفي هذا لأسبوع، وفي ذاك الأسبوع كل قصة مجنونة قد تعلل تجاهلها لي عصفت بعقلي. وأخيرًا ليلة الخميس أذعنت. انتظرت حتى وقت متأخر، بعد الساعة التاسعة، وتوجهت إلى المحترف. أقنعت نفسي بأني لا أذهب هناك لأجل خاطر سيرينا على الإطلاق، بل لأجل إيدي وأليس واحتياجي للعودة إلى العمل عليهما. كذلك كنت قد تركت ورائي صور البولارويد على منضدة عملي، ولم أتذكر وجودها هناك إلا ذاك اليوم. كنت أعرف أن الأوان قد فات - فأنا أعرف سيرينا وأعرف أنها ما إن وقعت عيناها عليها ووجدتها مقلوبة على وجهها، لا سيما لأنها مقلوبة، فستختلس النظر إليها لا محالة، بل ستمعن النظر فيها، وتبني آراءها عني على مهل. اعتراني الخجل لمجرد تخيل صوري في يديها. ربما هذا هو السبب وراء صمتها، ازدراؤها لي بعد رؤيتها الصور - أنا، مغبشة في صدريتي البيضاء؛ أنا، عيناي الوحشيتان، ألتقط الصور لنفسي في زي مثير؛ أنا، السافرة، أنا، المزهوة بنفسي، بلا حياء، بشكل صارخ، بشكل خارج، أنا ....

نورا امرأة بيت المرح، المرأة في الطابق العلوي، نحبها لأنها مراعية لشعور الآخرين. لأنها بالتأكيد لا تحمل في كيانها ذرة زهو ولا غرور.

أين نورا؟ فأنا لا أتذكر ملامحها جيدًا ...

تعرفينها، تلك المعلمة اللطيفة، معلمة الصف الثالث ابتدائي - لا، لا أقصد المعلمة ذات الشعر الشبيه بغزل البنات، بل الأخرى.

الأخرى، تلك هي المرأة التي يفترض بي دومًا أن أكون: "لا، لا أقصد الفنانة العظيمة التي تعمل في ذاك المحترف - بل الأخرى."

"لا، لا أعني تلك المرأة الجميلة في فستانها المذهل - بل الأخرى."

"الطريفة؟"

"أوه، أظن، أجل، الطريفة."

ربما هذا ما ظنته سيرينا عن صور إيدي، أنها صور طريفة. ربما رأت فيها أني قصدت المزاح بالتقاطها. وما كان ليزعجني لو أنها ظنت ذلك، عدا أني لم أقصد المزاح.

***

وهكذا في ليلة الخميس، شددت الرحال إلى المحترف كي أعاود العمل على غرفي، على فناناتي، وكي أطلع على صور البولارويد. ذهبت في عملية إنقاذ متأخر إن أردت أن تسميها هكذا. أما بيني وبين نفسي، فقد ذهبت لأرى ما الذي أنجزته هي خلال الأسبوع، ما التقدم الذي أنجزته في غيابي. ذهبت مع أمل واه يحدوني بأني سأرى المحترف تمامًا كما تركته، أن أيًا كان ما يجري في حياتها - وأمرٌ كبير بالفعل كان يجري في حياتها - سيكون مهمًا بما يكفي ليبرر ابتعادها عني.

وما إن دخلت المبنى تناهت إليّ الأصوات. موسيقى مشرقية كانت تنبعث من الأعلى، ليس بالموسيقى المعتادة لديها، سمعت ضجة وجلبة وثرثرة. كانت هناك حركة نشطة تدب بالحياة، لا شخصًا واحدًا بل عدة أشخاص. ما خطر لي وأنا أسير طوال الرواق أنها لربما أقامت حفلة، لكن الضجة لم تكن بضجة حفلة.

لم يلاحظ أحد دخولي. الجميع كان مستغرقًا فيما يفعل. حسنٌ، في الواقع أحدهم قد لاحظ: امرأةٌ يافعة، في منتصف العشرينات من عمرها، في رداء تُنْك أسود قصير جدّا، عيناها واسعتان ووجهها ناصع البياض وصهباء، عقص شعرها المجعد بدرجة اللون البني المحمر النادر بدت مصبوغة وإن كانت طبيعية، ما إن دخلت انفصلت عن جمهرة الحضور وأقبلت نحوي.

"آسفة جداً. هل أزعجتك الضجة؟"

"هذا محترفي،" أجبتها، وليس في نبرة لطيفة. لم يكن بيدي. فعيناي وقعتا على نهاية ركني من المحترف، إلى منضدتي وأغراضي. إحداهن قد رمت بسترتها بلا مبالاة على كرسي عملي، ورمت بأكياس المشتريات وحقيبة يدها على الأرضية جانبه؛ عدا ذلك، فمن حيث أقف رأيت أن غُرَفي لم يمسها سوء. كذلك لمحت حزمة صور البولارويد مكدسة على طرف منضدتي: لم أستطع الجزم إن كانت حيث تركتها، أو أحدهم قد حركها عن مكانها. "ومن أنت؟" سألت تلك المرأة، أحاول عبثًا أن أبدو أقل انزعاجًا. "وما الذي تفعلينه هنا؟"

"سأعلم سيرينا بقدومك - لا بد أنك نورا؟" استشفيت من نظرتها - إذ تفحصتني في لمحة من رأسي إلى أخمص قدمي، عيناها على قبقابي البالي- أني لم أبد لها كما تصورتني. "أنا بيكا، فنانة الماكياج."

لأضعك في الصورة فهذا ما رأيته لحظة دخولي المحترف: سيرينا، وسط زمرة صغيرة من أناس مكتسين بالأسود، في إضاءة معتمة، يتداولون في أمر ما حول كاميرا التصوير. خمنت أن سيرينا هي المخرجة. المصور كان رجلًا هزيلًا مع رأس حليق وحلق فضي على حاجبه الأسود. شعيرات وجهه المنقطة على ذقنه بدت مثل السخام،

ذراعاه الطويلتان البارزتان من كمي قميصه الأسود بدتا ناصعتي البياض في العتمة. لاحقًا، لدى نهوضه، وجدته فارع الطول، ستة أقدام ونصف. كان الرجل الوحيد بين جمع النساء.

إلى جانب سيرينا وبيكا، رأيت ثلاث أو أربع نساء أخريات. إحداهن بدت المسؤولة عن الإضاءة، لمحتها تندفع نحو بلاد العجائب وتتعبث بمصابيح الإضاءة وشاشتين فضيتين عاكستين كبيرتين. كلهن كن يافعات، عدا امرأة فارعة، بأنف طويل، في أواخر الأربعين أو بواكر الخمسين من عمرها، ذات شعر غامق كثيف ونظارة حمراء مستطيلة وأنيقة. كانت مارلين، صديقة سيرينا، مصورة هنغارية من لوس آنجلوس، موجودة هنا في منحة رادكليف.

تركيز الجميع كان منصبًّا على امرأة في ملابس بيضاء ناصعة، من رأسها إلى أخمص قدميها، مع قبعة غريبة على رأسها تغطي كامل شعرها، مثل قبعة سنفورة لكن بلا الطية أعلاها - قبعة طويلة مستدقة. جسدها بأكمله كان محجوبًا عن العيان عدا وجهها، أذنيها البارزتين، يديها وقدميها، كلها على ذات الدرجة من لون بشرتها الحنطاوي الجميل. كانت ترتدي ثوبًا أبيض بالكامل وبكمين طويلين، تعلوه تنورة ضخمة تحيط بطماقها الأبيض. تبدت لي وكأنها زهرة بيضاء انبثقت من العشب الصناعي، مثلها مثل الزهور المنحوتة حولها.

بيكا هرعت نحو سيرينا وهمست في أذنها، وبدورها لفت على كرسيها الدوار العالي اتجاهي (ومن أين بحق الجحيم ظهر هذا الشيء؟) وأرسلت لي قبلاتها في الهواء، بكلتا يديها. لكنها لم تكلف نفسها عناء النهوض: أومأت لي أنها الآن منشغلة؛ لذا وضعت حاجياتي على

الأرض وشققت طريقي اتجاه الكاميرا ما إن أداروا موسيقى مشرقية ما، لحنًا آسرًا من النواح المتهدج، وبدأوا التصوير مرةً أخرى.

وعلى الفور، المرأة في الرداء الأبيض بدأت تلتف حول نفسها، على مهل في بادئ الأمر من ثم أسرع وأسرع، تنورتها انتفخت إلى دائرة ضخمة متموجة تسمو وتهبط على وقع حركي فائق الجمال. الهواء المتدفق من حركتها هز سويقات زهور الأسبرين، وغدت هي الأخرى تشاركها رقصتها. من حيث أقف تسنى لي مشاهدتها ترقص نهاية المحترف، وكذلك مشاهدة نسختها المنمنمة ترقص هي الأخرى على شاشة الكاميرا، هو ذات المشهد لذات الشخص لكن شتان ما بين المشهدين. في عينيّ، بدت لي وكأنها تخلق من حولها سديمًا، نسيمًا جليًّا؛ أما ضمن النطاق الضيق الدقيق للعدسة، فما التقطته عين الكاميرا هو الواقع العلمي لدورانها وحسب.

بقيت في المحترف لأكثر من ساعة، وحتى لدى مغادرتي تركتهم مستغرقين في العمل. كنت في واقع الأمر قد غادرت المحترف وقت الاستراحة قبل أن، كما أعلمتني سيرينا لاحقًا، يعاودوا العمل على تصوير اللقطة الأخيرة. هي أرادت - وقد حصلت تمامًا على ما تريد - سبع دقائق مثالية من الدوران المتواصل، درويشتها - إما بالأجرة، أو متطوعة، من المعبد الصوفي المحلي - ظلت تبرم حول نفسها دون انقطاع، بلا أي عثرة، مستغرقة كليًا في نشوتها التأملية، في سبع دقائق سحرية. وقد نالت سيرينا الدقائق السبع تلك - وما شكت للحظة في حصولها على ما تبتغيه، حتى وإن تطلب الأمر منها سبع ساعات من التصوير كي ترضى بالنتيجة النهائية بين يديها.

حين أوقفوا التصوير لأجل الاستراحة وتناول الطعام

التايلندي، رأيت سيرينا، مرحةً وعلنية - مُقنَّعة! - في حال لم أرها عليه أبدًا من قبل، تقبل نحوي وتعرفني على الجميع. المصور كان يدعى لانغلي. وجدت أسلوبه أحمق، كان أكبر عمرًا مما ظننت، وإن يظل ليس بعمري أنا. مارلين بدت فضولية، على الأقل للوهلة الأولى، بما يكفي لرسم ابتسامة عريضة؛ وما إن عرفت أني معلمة في مدرسة ابتدائية، أسدلت جفنيها على كامل عينيها، كما السحالي، وانسحبت إلى طبق الباد تاي. أما سناء، الصوفية - في الأصل هي كارولين وابنة ثائرة على والديها الكاثوليكيّين من بورتوريكو - انزوت إلى ركن بعيد وأخذت تتناول نيّقةً شرائح صغيرة من البابايا المغموسة في عصير الليمون، دون أن تريق قطرةً واحدة على أرديتها البيضاء الصافية، كانت بحق معجزة! من ثم تناولت من بين طيات أرديتها منديلاً كتانيًا، وبحذر مسحت شفتيها وأصابعها. كم بدت متألقة، وبالكاد نبست بكلمة: ففي نظرها، كانت تعيش تجربة روحية.

لكن من الجلي لم تكن بالتجربة الروحية في نظر سيرينا: " أيتها المجنونة أين اختفيت؟" سألتني دون انتظار لإجابتي. "قد فاتتك الإثارة! يا للأسف الشديد! فيا لها من مغامرات عشناها. واليوم مغامرتنا الأخيرة." وصفقت راحتيْ يديها. "هذه هي لقطتنا الرئيسة." استدارت نحو الفتاة الملائكية في الأبيض: "وسناء هي نجمتنا!" ثم تناولت لفافة سبرينغ رول وأخذت تطحنها بأسنانها. "لكن كل المؤديات كن مذهلات. الفتاة الصغيرة، المرأة الكهلة - ألم تكن مذهلة مارلين؟ مارلين كانت يدي اليمنى، هي من شدت أزري - فالتصوير الفوتوغرافي، الصور الثابتة، ليست بالمهارة التي أصقلها - على عكس الفيديو، التصوير بالفيديو هي حرفتي." كانت تتكلم

وتمضغ، وحتى في تصرفها هذا تعمدت الأداء التمثيلي. "لكن الصور ظهرت بشكل جيد، أليس كذلك؟ مارلين، يا لها من مصورة مذهلة، إلى درجة يعتريني فيها الخجل لمجرد سؤالك عن رأيك" - وربتت بيدها على ذراع مارلين بذات الطريقة التي ظننتها وحسب لي - "وكم هو لطفٌ منك أن تقولي" - كانت توجه حديثها لمارلين بينما تسرد عليّ الأحداث - "أنك رأيت عملي جيدًا."

"سبق وأخبرتك حلوتي، عملك مذهل. وأنت تعرفين ذلك." ثم وجهت مارلين حديثها لي، وكأنما استدارت نحوي لكن دون أن تستدير فعلًا، "يا لها من متواضعة زائفة! عملها هذا على بلاد العجائب هو ما سيصنع اسمها، وهي تدرك ذلك."

"هل بإمكانك المجيء غدًا، بعد الظهيرة؟" سألتني سيرينا، تنظر إليّ شاخصةً بنظرتها التي اعتدتها منها، للمرة الأولى والأخيرة تلك الليلة. "سأعرض عليك الصور - فقد باتت كلها محفوظة الآن في الحاسوب - فأنا بحاجة إلى معرفة رأيك، إن كنت تتفقين معي في اختياري، فأنا ومارلين لنا رأيان مختلفان بالنسبة للفتاة الصغيرة."

"هي تريد اختيار الصورة الرأسية للفتاة، التي يظهر فيها رأسها وفمها وذقنها، بغية التقاط تعابير الوجه كاملةً،" قالت مارلين مواصلة النظر نحو سيرينا أثناء حديثها معي، "لكني أفضل الصورة بلا الفم. لأن لدينا الفم في صورة الشابة اليافعة، أما بالنسبة للمرأة الكهلة -"

"أوه لا تصفيها هكذا، "قالت سيرينا ضاحكة، "فعمرها من عمرنا!"

"ونحن، عزيزتي سيرينا" - لفظت مارلين الراء في سيرينا كما تقت دوماً أن أفعل - "نساءٌ كهلات. فكوني فخورة بذلك!" لا يعقل،

قلت في نفسي، بالنظر إلى مارلين ولحمها الهزيل المرهق المتدلي من عظامها - أن تلك المرأة وسيرينا في ذات العمر! سيرينا لم تبد أبدًا كهلة.

"على أي حال، صورة المرأة المعاصرة لعمرنا يظهر فيها الفم والأنف وجفنا عينيها السفليين، ومن ثم -"

"نعم، نعم،" سيرينا قاطعتها،"نورا تعرف: من ثم نراها بأكملها، كل ما فيها، المرأة الحكيمة فينا. مثلما سترى نفسها الكلية في النهاية. نورا على دراية بكل ذلك. فقد تحدثنا في الأمر."

"مرات عديدة،" دمدمتُ قائلة، إذ يبدو لي أني أنا من اقترحت الفكرة من الأساس. وإذ بالزمرة بدأت تنفضُّ عن وليمة الطعام التايلندي، والصوفية المتألقة سناء استأذنت الذهاب إلى الحمام. فحتى المتصوفون لا بد لهم من استراحة يتبولون فيها. تساءلت بيني وبين نفسي كيف ستتدبر أمرها في حمام الفنانين الوسخ آخر الرواق مع تنورتها البيضاء الفضفاضة؛ لكنها عادت من هناك مثلما ذهبت، نقيةً من أي دنس.

***

طبعًا لا داعي لأقول لك، أنه كان من المحال لي العمل على إيدي أو أليس. وكان من المحال لسيرينا أن تفتقدني: فقد كانت محاطة بحواريها، مساعديها، وزملائها، على رأسهم مارلين - من أذكر أن سيرينا أخبرتني مرة عن اختيار أعمالها في معرض جماعي في متحف الفن الحديث في نيويورك - وبرؤيتي لها تلك الليلة، ذكرتني بحقيقة عالم الفن ولماذا وليته ظهري. ولا داعي أيضًا لأقول لك، أني في كل

تلك الشهور التي مضت، ما كنت سوى الخادمة التي تعد المأدبة قبل وصول الضيوف الحقيقيين. والآن ما عاد من حاجة إليّ.

تصنعتُ الابتسام، وزعت الكثير من الابتسامات. وقبل أن تطفو عائدةً إلى بلاد العجائب، أخبرت الصوفية أنها جميلة، فرمقتني بنظرة وكأني حادثتها التو بالآرامية. شكرت بيكا على لفائف البيض، مع أني لم أتناول سوى قطعة واحدة. وبينما أخذت أجمع أغراضي، اختلست خفيةً صور البولارويد ودسستها في حقيبتي القماشية. عيناي لمحتا سريعًا الغبش على ذقني وكتفي - رباط صدريتي البيضاء - على الصورة أعلى الكومة، فغمرني العار من رأسي إلى أخمص قدمي، عارٌ أسقمني من نفسي. تلك السخافة الصبيانية. تلك النزوة الغبية. من كنت أخدع؟ هل تراهم قلبوا في الصور؟ بيكا؟ مارلين؟

لدى مغادرتي، رنوتُ مرةً أخيرة في العتمة اتجاه بقعة الضوء حيث سناء كانت تتأهب للدوران: لم أرها. كل ما رأيته ومضة بيضاء مغبشة.

10

بعد ظهيرة اليوم التالي، الزمرة بأكملها اختفت، ومعهم كل معداتهم. لا بد أن سيرينا أخرجت أكياس القمامة، أو أمرت بيكا بفعل ذلك، إذ لم يكن هناك من دليل واحد على وجودهم - عدا ربما فناجين الشاي النظيفة، وجودها هكذا كان حتمًا خارجًا عن المعتاد.

"نورا!" نادت عليّ ما إن دخلت، دون أن ترفع عينيها. "انظري!" كانت جالسة أمام حاسوبها، وما إن اقتربت عرضت فيلم سناء على الشاشة. "قد أرسله لانجلي التو. بيدنا أن نجري تغييرات بسيطة بالطبع - لكن انظري!"

الألوان كانت جد ساطعة - العشب الصناعي أخضرٌ ساطع، الزهور بألوانها الليلكية، الليمونية والزهرية، كلها ساطعة. وسناء، عدا الشذرات الجميلة من بشرتها الزيتونية - تلكما اليدان! تلكما الأذنان! - فقد تجلت بيضاء ساطعة، بيضاء نقية. الفيلم كان صامتًا، بدا مثل الحلم.

"وماذا عن الموسيقى؟"

"لا، لا، أترين - ألم نناقش ذلك؟ ربما ناقشته مع مارلين - اعذريني. فذاكرتي مشوشة هذه الأيام."

"لم نناقش الموسيقى."

"أردته أن يكون صامتًا، صامتًا بالكامل. فالناسك في حكاية ابن طفيل عاش حياته منعزلًا عن العالم في جزيرته الصحراوية وبالطبع لم يكن هناك من موسيقى تصاحب دورانه حول نفسه - كان يجهل حتى كنه الموسيقى - الموسيقى التي رقص عليها هي موسيقى الطبيعة أو ما تخيله في عقله. لذلك أردت الفيلم صامتًا. لكن سؤالي - وعليّ أن أقرر بهذا الشأن بسرعة - إن كنت سأضيف إلى الصمت أصواتًا أخرى، خيارات موسيقية."

"لا أفهم."

"حسنٌ، كما تعرفين، أريد لكل امرأة أن تجد، في بلاد عجائبي، حيزًا لخلق بلاد عجائبها. وهذا ما أريده حتى لكل رجل. لكن ماذا إن لم يكن لديك من خيال خصب، أو عالم أحلامك يحتاج إلى عامل مساعد كي يتجلى؟ لذا، لماذا لا نزود قاعة الفيديو بمجموعة من السماعات الرأسية؟"

"حسنٌ"

"ربما أربع - أو خمس - أو حتى سبعة."

"سبعة؟"

" هناك مراحل الحياة السبعة، صورٌ سبعة، سبعة حجب، سبعة تجليّات، وسبع دقائق من الرقص، لأن سبعة هو الرقم السحري للكون." ولوّحت بيديها في الهواء من ثم تناولت سيجارة من علبة سجائر مفتوحة على الطاولة. لم تكن سجائر إسكندر - فأخيرًا كلفت نفسها شراء علبة.

"إذن سيكون هناك سبع سماعات رأسية. أراه مبالغًا فيه وقد يزحم المكان."

هزت سيرينا كتفيها ولم تعقب. كلتانا كنا نشاهد رقص سناء على الشاشة. راحة يد موجهة نحو السماء، والأخرى نحو الأرض. أصابعها تتحرك مثل بتلات زهرة يداعبها النسيم.

"إذن؟"

"إذن سنحدد خيارًا موسيقيًا مختلفًا لكل سماعة. وربما لن تكون كلها بالخيارات الموسيقية. إحداها بالتأكيد ستكون المعزوفة التي رقصت عليها سناء، موسيقى عمر فاروق تكبيلك. لكن لا بد أن أتأكد من استحصال الإذن. وسنضيف تغريد الطيور ضمن الخيارات - تغريد طيور الربيع، عندليب وشحرور، منفردين أو يغردان معًا. إحداها ستكون أغنية بوب معاصرة - سأطلب من شخص يافع أن يختارها. ربما ماريا ستعرف؟ لكن لا، فهي تستمع إلى موسيقى رهيبة. وقد نضيف مثلًا أصوات المدينة - أزمة سير في شوارع نيويورك."

"لا تبدو لي خيارًا تأمليًا. ليست بالأصوات المحفزة على التنوير."

"حسنٌ، هي ليست كذلك في حد ذاتها. لكن تأملي الفيديو، انظري!" - وكلتانا نظرنا - "تخيلي أصوات الأبواق والفرامل والإطارات، الصخب والزعيق. وها هي فجأةً ترقص، أو بالأحرى ترفع صلاتها، على وقع موسيقاها هي - وإذ ببلاد عجائبها تكتسب قوةً أعظم، ألا ترين؟ بل ستغدو أكثر تحررًا. لأنها باتت تملك القدرة على السمو بروحها إلى بلاد عجائبها متى ما أرادت، بقوة تفكيرها، لا على وقع الموسيقى، مثل بافلوف؛ ولا على وقع تغريد طيور الجنة؛ بل حتى في خضم فوضى اختلاط الحابل بالنابل" - "الخابل بالنابل" كذا قالتها - "ورغم كل التشويش." لوحت بسيجارتها اتجاه الشاشة، دخانها علق في الهواء للحظة. "ستكون تجربة جميلة،" قالت لي، "وحقيقية."

انتظرتها لحظة كي تكمل عرض خياراتها، لكنها ظلت صامتة، لذا قلت لها،"تلك أربعة وحسب."

"أربعة وحسب؟"

"أربع سماعات رأسية."

حملقت بي مغتاظة، ثم قوقأت ضاحكة، "لم أعرف أنك مزعجة لهذا الحد، نورا. أعجبتني، يروقني طبعك هذا."

بعد إعدادي القهوة، قالت: "الصور. لا بد أن تلقي نظرةً على الصور قبل مغادرتك. فعليّ أن أطبعها في فرنسا. وكما هي الحال دائمًا مع المعارض، كان من المفترض أن يستلموا الصور مني البارحة قبل اليوم. الصور ستطبع على الموصلين، ستكون ضخمة، بارتفاع سبعة أقدام تقريبًا - وحتى مع البرامج الحاسوبية فذلك ليس بالأمر الهين تنفيذه، على هذا الحجم، على نسيج كهذا، وطباعة سبع صور منها. سيستغرق الأمر وقتًا. ولا مزيد من الوقت لدي الآن."

"أجل، أظنك محقة. لا مزيد من الوقت أمامنا." كم بدا بعيدًا في ذاكرتي، الأسبوع قبل السابق الذي أعلمتني فيه بموعد افتتاح معرضها في باريس. فجأةً انتهى كل شيء: التركيز انصب في اتجاه آخر. عائلة شاهيد بكل أفرادها أشاحت بنظرها عني. كنا مدفوعين بسرعة، أو بالأحرى أنا من كنت مدفوعة، اتجاه نهاية قصتنا. كنت المريض الميؤوس منه، كل لحظة يعيشها هي لحظة تدنيه إلى فنائه. الإدراك الواعي في حد ذاته إلى قلة الوقت المتاح إليك يعجل من سير حياتك، في الوقت الذي تريد لكل شيء فيه أن يتمهل. أدري أن سيرينا لم تعنِ علاقتنا بحديثها عن الوقت. بل كانت تعني الوقت المتبقي على عرضها. الوقت القليل المتبقي على موعد رحيلها وضياعها من

بين يدي.

"أرني الصور،" قلت لها. "ولننْتَه من الأمر برمته."

***

الطفلة الصغيرة لم تكن بالطفلة الصغيرة على الإطلاق. كنت قد صدمت لرؤيتها، وكذلك متأثرة أيما تأثر لرؤيتها عارية. كانت سيرينا حازمة في عدم رغبتها بطفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها، فلا عار في ظهور طفلة عارية في تلك السن، فعلى مد شواطئ البحر ترى البنات في تلك السن عاريات، أعضاؤهن التناسلية غير واضحة المعالم، لذا ما كنت حتى لتفرق بينهن وبين الأولاد. لا، الصدمة تكمن في رؤية اليقظة الجديدة لجسد طفلة في بواكر بلوغها، وحتى يتحقق هذا فلا بد أن تبلغ من العمر أحد عشر عامًا - وسيرينا قد أكدت لي أنها تبلغ أحد عشر عامًا - البرعم الزهري الآسر لكل نهد من نهديها، الاستدارة الوليدة للحوض أسفل خصرها، خطوط انحناءاتها على جذعها المشدود لا تزال بعد مستترة، أطرافها الطويلة المستقيمة المثالية لطفلة لا تزال في رعاية الرب، تقتفي أثرها سحب المجد الوردزورثي[48]. وهناك، على عظمة عانتها، بضعةٌ قليلة من الشعيرات الداكنة، البداية الأولى لاختبائها، ومع ذلك كان لا يزال الفلق الطفولي واضحًا ونظيفًا وملائمًا لأعين العالم. في كل الصور

(48) في إشارة إلى قصيدة الشاعر وليام ووردزورث (Ode: Intimations of Immortali-ty) والتي ترد فيها الصورة المجازية (سحب المجد) والتي يصور بها الشاعر ذاكرة البراءة ورعاية الرب التي تظل تقتفي أثر الإنسان حتى بعد خروجه من مرحلة الطفولة.

التي التقطت لها، كانت واقفة باستقامة، تتكئ قليلًا على وركها الأيسر، قدمها اليمنى منبسطة في ميل بسيط مختلف كل لقطة. إحدى يديها، اليسرى، كانت ممدودة اتجاه الكاميرا، تلوح ضخمةً أمام جسدها، تحمل في أظافر أناملها المربعة الصقيلة بشارة البلوغ الذي تسعى إلى التقاط ثمرته. ولا صورة من تلك الصور كشفت وجهها، لكن زاوية ومكان القص اختلفا من صورة لأخرى، وفي إحداها كان الفم والذقن ظاهرين. كانوا قد رفعوا شعرها كي لا يتسنى لك معرفة لونه، وبذا عنقها الناعم مثل سويق الزهرة - الأطول بنزر طفيف في تناسقه مع بقية جسدها - غدا علامتها المميزة. في صورة من الصور - الصورة التي تظهر معظم جسدها، والتي أرادت سيرينا استخدامها - كانت تعض على شفتها، عضة رقيقة بالكاد تلمح فيها سنًا، تشد على الحتار الزهري الغض لشفتها. كانت صورةً أخاذة.

"أترين، هناك، هذا ما أصبو إليه، أترين ذلك؟" قالت لي سيرينا، "لحظة التردد تلك: هي على وشك الإقدام على أخذ خطوة للأمام، لكنها ليست واثقة. فهي أيضًا تود البقاء في مكانها. هي مسترخية، لكنها مرتبكة. طفلة وليست بطفلة."

"ولهذا السبب أقول لك إياك أن تختاري هذه الصورة، ثقي بالمصورة. ثقي بصديقتك، فهي مصيبة في رأيها."

لوحت سيرينا بيديها مرةً أخرى وبلعت لسانها.

"أنت تنوين استخدام صورة واحدة وحسب للفتاة، أليس كذلك؟ صورة واحدة؟ أفلا ترين، قد تبدو القصة التي ترويها لك هذه الصورة جلية، لكن مع ظهور فمها بالذات، تلك السن، فهي في الواقع تروي قصة في منحىً مختلف عن كل الصور الأخرى. وبما أن

الصورة تروي قصة، فستتاح لكل من يراها الفرصة في تأويلها كما يشاء، يختلق القصة التي تناسب أهواءه ويجسدها في الصورة. فحتى إن كان من الجلي لك المعنى من ورائها، يستحيل عليك السيطرة على المعنى الذي يراه الآخرون. أفليس هذا هو المغزى من بلاد عجائبك، بابٌ مفتوح لكل زائر كي يحظى بتجربته الفريدة."

"أجل، بالطبع، لكن هذه الصورة -"

"ما ترينه أنت في الصورة ' أقف مترددةً على عتبة المعرفة. ' ومئة ألف شخص سيشارك رؤيتك. لكن من ضمن كل مئة ألف هناك مئة منحرف سينظرون إلى هذه الصورة ويؤولونها، ' تلك الطفلة تشتهي مضاجعتي'."

"أظنه من السخف أن..."

"هل قرأت لوليتا؟ هاك إذن."

شعرت بغيظ سيرينا اتجاهي يتفاقم لكنها لم تعارض كلامي.

"هذه،" قلت لها مشيرةً إلى الصورة التي لا يظهر فيها الرأس، فقط عنقها الذي بدا مثل عنق البجعة، حيث سبابة يدها اليسرى تظهر مرفوعة للأمام أعلى قليلًا من بقية أصابعها، الضوء المنعكس عليها خلق هالةً من الظل أبرزت طولها. ما أضفى على الصورة نفحةً من الوهج الديني، صدىً للإيماءة التي نراها في لوحات العصور الوسطى للسيدة العذراء.

"هذه هي الصورة التي عليك اختيارها."

"أتظنين؟"

"بل موقنة."

تنهدت من ثم قالت، "حسنٌ، ربما. ربما معك حق." للحظة

زهوت بتعليقها المتذمر، لكنها سرعان ما أردفت قائلة، "سأطلب من مارلين إلقاء نظرة أخرى. هي لم تختر هذه الصورة - هي اختارت هذه." وأشارت باتجاه صورة أخرى - "لكني أتفهم سبب اختيارك هذه. السبابة، أليس كذلك؟ أنت محقة بشأنها. لم ألاحظها بنفسي، لكنك محقة."

الصورتان اللتان تلتها كانت لامرأة في الثانية والعشرين من عمرها، بشرتها الفاتحة مزينة برشاش الشامات الشهوانية. فمها، ذاك الفم المقوس الفاتن ذو الصدع العميق على شفتها العليا، مبوزٌ للأعلى وبالكاد لها أن تخفي استمتاعها. صورتان ستعرضان لتلك المرأة، لها ولكل امرأة تليها، وفي إحداها هي الأخرى تقف باستقامة مقابل الكاميرا، بيد أن يديها تستران بحياء عورتها؛ في الصورة الأخرى، تقف بنصف استدارة، ذراعها ممتدة تعانق الهواء، وفي هذه الصورة الجانبية لك أن ترى بروز نهدها المكتنز المشدود، الحلمة الداكنة المستدقة، شعر عانتها يفيض بالحيوية والشباب.

بالنسبة للمرأة الكهلة، فقد التقطت سيرينا مجموعتين من الصور. الأولى لامرأة فارعة، ثقيلة الجسد بعض الشيء، كما هي طبيعة الجسد الأمومي - نهداها مكتنزان لكن مترهلان، حلمتاها مستدقتان في اتجاهين متباينين مثل مصباحي سيارة أماميين مثبتين على خط مائل. جلد بطنها المستدير كان مجعدًا مزمومًا في طيات، من المحتمل جدًا جراء الولادة، لكن لا يعكس بتاتًا صلابة جسدها الراسخ كجذع شجرة، امتلاء جسدها المسكون بالحياة، الزخرفة التشجيرية للعروق البنفسجية المتسلقة على فخذيها وتلك التي خلفتها آثار ندوبها - ندبة استئصال زائدة دودية، وندبة جرح على ركبتها. وجه المرأة كان شبه

ظاهر، مقطوعًا أسفل العينين - خطوط تجاعيدها جلية من أنفها إلى فمها، وجنتاها مستديرتان وإن ليستا بالريانتين، مع بدايات ظهور اللغد أسفل ذقنها. لكن في صورة من صورتيها، تلك الصورة التي تحضن فيها خصرها بيدها القوية الأنيقة بعروقها البارزة، كانت تضحك، تضحك ملء فمها، حتى إن لم تر عينيها كنتَ ستشعر بقوتها، وكم هي جميلة.

خالجتني مشاعر مختلطة من الحسد والازدراء اتجاه تلك المرأة عديمة الوجه - في الرابعة والأربعين من عمرها، كذا أخبرتني سيرينا، أمٌّ لثلاثة أطفال. الدافع وراء الحسد عاد إلى جسدي، فحتى إن كان جسدي أصغر من جسدها من كل النواحي، لا يزال على وضعه شبه المنحوت، أقرب ما يكون إلى تمثال كلاسيكي - يظل مع ذلك جسدًا عالقًا في الانتظار، جسدًا لم يستخدم بعد. ورغم أني في بواكر شبابي اشمأززت غريزيًا من صورة الجسد المهمل المنتفخ للمرأة الكهلة، فقد بت أفزع من احتمال عدم وصولي إليها، أن مع كل محاولاتي البقاء يافعة، ففي النهاية سيلحق بي الوقت ويلتهمني حية، وجسدي سيذبل كما برعم الزهرة على الغصن قبل تفتحها. بينما الجسد في الصورة هي الزهرة المتفتحة على شرفات الذبول: الدائرة المكتملة للحياة.

المجموعة الثانية من صور المرأة الكهلة أذهلتني. في البداية لم أتبين السبب وراء وجود مجموعة أخرى - ما الداعي إلى الاستعانة بعارضتين لتلك المرحلة - لكن مع الوهلة الأولى ميزت القلادة الفضية حول العنق، تقوس الأنف، الترقوة بشامتها السوداء الصغيرة، جلية مثل لؤلؤة سوداء.

"لماذا التقطت الصور لنفسك؟"

"حسنٌ، هذا هو السؤال. مارلين التقطتها ..." إذن مارلين تسنى لها الوقوف خلف الكاميرا وتصوير سيرينا عارية: على ما يبدو إن كانت مارلين، فلا بأس. "وحقيقةً، هي مصورة أفضل مني."

"لا أظن ذلك."

"كم أنت مخلصة، نورا. لكن العالم بأسره لا يوافقك الرأي، ولسبب واضح. لذا، إن كان هناك من داع لاستخدام جسدي - فأنا أنتمي إلى هذا العمر، وأنا الفنانة، فكيف لي أن أطلب من امرأة أخرى أن تعرض جسدي العاري نيابةً عني، تعرّي لأجلي..." تنهدت من ثم أردفت، "وفي عمل ثلاثي الأبعاد كهذا، فوجودي أمرٌ بالغ الأهمية. فكما قلتِ، أنا أريد لكل من يدخل بلاد العجائب أن يحظى برحلته الفريدة فيها، رحلة حياته. لكني في ذات الوقت قد شيدت هذا العالم بسبب المكان الذي وصلت إليه الآن في رحلة حياتي؛ لذا أراه من الصواب أن أعرض جسدي، أريهم نفسي في رحلاتي."

"إذن علام التردد؟"

"ليس بسبب ندبة العملية القيصرية إن كان هذا ما تعنينه! فأنا لست خجلة منها. بل لأن الصور ليست صوري، لست أنا من التقطها. وأشعر بالغرابة اتجاه الأمر، وكأنما تغيرت وجهة النظر، أترين؟ فيا ترى هل بوقوفي عارية في الصورة أظهر العالم للرائي من خلال عينيّ، أم أظهر نفسي للرائي؟"

"يعتمد."

"سي[49]، يعتمد. لذا علّي أن أختار. لكن ألا رأي لديك في الموضوع؟"

---

(49) في الأصل بالإيطالية: si وتعني: "أجل"

أجل، كان لي رأي. ورأيي كان أني رأيت عريّها جميلًا، أن جسدها بدا هشًّا، طفوليًّا، وفي ذات الآن أصلب مما كنت أتصور. لم أعِ من قبل كيف أن بشرتها الزيتونية ظلت محافظة على ألقها حتى على سائر جسدها، جلدها يلمع كما الزبدة: عظمتا وركيها على جانبي بطنها المسطح بدتا مثل مقبضي باب مصقولين. وطوال معرفتي بها، لم أتصور حقًّا مدى ارتفاع كتفها اليسرى عن اليمنى. وكم سعدت لرؤية لمحة سنها الناتئ لدى ابتسامها.

"أظن عليك أنت اتخاذ القرار."

"ربما سيهبط عليّ الإلهام."

"ألا يسعك اختيار الصورتين، صورة من كل مجموعة؟"

"الأمر يتعلق بالتناظر. وإلا عليّ أن أستعين بسبع نساء مختلفات. لكن هذا يعني المزيد من التقاط الصور؛ ولا وقت لدي."

"بإمكانك إعداد جلسة تصوير أخرى -"

"مستحيل." قالت لي والمرارة تشوب صوتها. "لا يفتأ إسكندر يقول لي هذا، وكأني أملك الوقت ولي أن أغرف منه ما شئت. المعرض طلب مني إعداد كل شيء مع اليوم الأول من يونيو. والمطبعة المسؤولة عن طباعة الصور الضخمة على النسيج تتطلب ستة أسابيع. ولا أملك ستة أسابيع أمامي. هم مستعدون لاستعجالها لأجلي، لكن إن وقع أي خطأ، أو مشكلة، فلا هامش هناك للفشل - لا هامش!" كانت على حافة الصراخ. "ولا يزال أمامي الكثير لأفعله. القلب، أردت تركيب القلب البلاستيكي هنا، لكن يبدو لي أن من الأفضل تركيبه مع المضخة في باريس؛ لكن لا بد من تنفيذه وفق مقاييس دقيقة - مع بداية الأسبوع القادم سأحاول الاستعانة بصديق لصديق كي يساعدني

هنا - فيوم الخميس سأذهب إلى نيويورك، لأجل الالتقاء بأصحاب المعارض، أم هل تراك نسيتِ؟ ومن ثم لن أعود إلا يوم السبت وربما الأحد، وها هو أسبوعٌ آخر قد ضاع مني. ضاع، أتفهمين؟"

"أفهمك." منحتها الإجابة التي توقعتها مني.

"الأمر ليس سيان لديك، فلستِ مقيدة بمواعيد نهائية، ولا التزامات لديك، كل الوقت الذي تملكينه مسخرٌ لأجلك، محيطٌ من الوقت! أما أنا، فدائمًا أجري لاهثة وراء الوقت. أحدهم دائمًا في انتظاري، سيرينا لقد تأخرتِ، تأخرتِ - هنا، في البيت، رضا، إسكندر، الحاضنة اللعينة، المعرض في باريس يصيحون عليّ في الهاتف - والوضع برمته بات لا يطاق. وهذا العرض يحمل أهمية عظمى لدي، هي فرصتي الحقيقية. فالعمر يتقدم بي، ونعم قد حظيت ببداية جيدة ولفتُّ الانتباه إليّ، لكن كل عمل يحمل أهمية أكبر من سابقه. وإن فشلت في أي عرض فتلك ستكون نهايتي. ومع كل معرض المخاطرة تضحو أعلى. إلا إن تمكنت هذه المرة من تسلق الجدار إلى الجهة الأخرى، إلى نيلي أخيرًا الاعتراف. هذه المرة لا مناص لدي من تسلق الجدار. لا مناص."

"أفهمك،" قلت لها مرةً أخرى. لا داعي لأقول لك أنها كانت تسلخني حية بكلامها.

"حسنٌ إذن، لن أواصل الحديث في الصور. مع حلول الليل سأختار واحدة أو الأخرى. سأختار مغمضة العينين." غطت عينيها بكفيها وأطلقت ضحكة عالية جافة. كانت مهتاجة. لا، بالطبع لن أفهم الشعور بحتمية اقتناص فرصة أخيرة، أو حتى امتلاكي لحياة. "على كلٍّ، قد قاربنا الانتهاء من الصور. فلا تزال لدي المرأة الحكيمة،

وتلك هي أفضل صورها."

"عليّ أن أذهب الآن."

"لا - أرجوك لا تذهبي، أنت أتيت هنا كي تنجزي عملك. أنا آسفة، لم أقصد الاهتياج عليك - فأنا جد مرهقة. مثقلة بالقلق. صديقتي العزيزة، هلا ألقيت نظرة سريعة على الصور، ومن ثم تعودي إلى عملك - أعلم أنه لم يتسن لك الجلوس على منضدتك لأيام عديدة. أريدك فقط أن تلقي نظرة على الجائزة الكبرى، فهذه هي أروع صوري."

وبالفعل كما قالت، رغم روعة الصور الأخرى، فتلك كانت بحق الأروع. سيرينا أخبرتني أن المرأة في الثامنة والثمانين من عمرها وزميلة لها في حصة اليوغا. هي كذلك رسامة، ومعالجة نفسية للأطفال، ورغم تقاعدها رسميًا فلا تزال تمنح الاستشارات. كانت أرملة، بلا أطفال. اسمها، ليس أن هناك أي مغزى من معرفته، كان روز.

في تلك الصور نرى روز بكامل جسدها. مفاصل أصابع الإبهام في قدميها ويديها ناتئة جرّاء الالتهاب المفصلي، ملتوية إلى حدٍّ تتساءل فيه إن كان يسعها حتى الإمساك بقلم. على نهدها الأيمن المنكمش ندبة جراحة استئصالية - فقد أصيبت بالسرطان في الثامنة والخمسين - لكن في الحقيقة كنت بالكاد ستلاحظها. ثدياها حلمتا تيريسياس[50] ذابلتان، مثل أثداء نساء القبائل الأميركية الأصلية اللواتي أعرض صورهن في حصة التاريخ، أثداء لا تثير الشهوة ولا تعكس الأمومة

(50) في إشارة إلى شخصية تيريسياس في الأساطير الأغريقية والذي كان مستبصّرا أعمى وحولته الآلهة في إحدى الأساطير من رجل إلى امرأة لعدة لأعوام قبل أن تعيده رجلًا من جديد.

وبالكاد حتى تعتبر أثداءًا، بل أقرب إلى جراب شبه خاوية متدلية من القفص الصدري. هيكلها العظمي بأكمله كان جليًا، العظام شبه ناتئة: عظام صدرها تترأرأ من أسفل جلدها، بدت معها كأنها الطيف الجسدي للفناء؛ أضلعها؛ البروز الغريب والأنيق لعظمتي وركيها غير المتناسقين؛ ركبتاها المعجّرتان ... وفوق هذا كله النمش المذهل: فالجلد على سائر جسدها كان مرقطًا بالشامات حدًّ كان سيصعب عليك تمييز الجانب الأمامي من جسدها عن الخلفي. شاماتها لم تكن مماثلة للرشاش المتناثر للشامات على عنق المرأة اليافعة وكأنها قُبَل - بل أقرب إلى عمل من أعمال جاكسون بولوك، جسدها البشري هو اللوحة المرشوشة بأصباغه الكثيفة، حدًّ بدت معه روز كاسيةً حتى في عُريّها. وكم أحببت، أنها رغم كل ذلك، قد حرصت على طلاء أظافر يديها وقدميها، لا بلون مبهرج بل أنيق، الزهري الفاتح، دلالة خيلاء السيدة المسنة.

لكن رؤيتي وجهها! بعد رؤيتي كل صور أجساد النساء مقطوعات الرأس، أن أوهب الآن نعمة النظر إلى وجهها أثرت فيَّ حدًّ أوشكت فيه على البكاء. ويا له من وجه. منمشًا كسائر جسدها وربما أكثر، خضابها قناع، تجاعيدها طيّات، لكن هي، منها هي شعَّت الروح. عيناها الزرقاوان الفاتحتان تلمعان، صافيتان، ضاريتان، وفي سعادة مدوية. أنفها القوي المكتنز يندفع خارج محيط تجاعيد وجهها كما قيدوم السفينة. أسنانها، بيضاء ناصعة، وبلا ريب ملتوية. شعرها الأبيض الصافي، مزيت وأملس، مفروقٌ من المنتصف بشكل مثالي ومشدودٌ للوراء بعيدًا عن وجهها، يلمع متوهجًا.

في إحدى الصورتين اللتين اختارتهما سيرينا، روز كانت

ترقص، جسدها ملتف في نصف دورة، في صدىً لدوران رقصة سناء الدرويشية. أما الصورة الأخرى، الأجمل من بين كل الصور، مدت روز ذراعيها اتجاه الكاميرا، كأنما تفتح ذراعيها لطفلة، مع ابتسامة مرحبة على وجهها، ابتسامة متواطئة، كأنما تقول لها، "تعاليْ، تعاليْ، وسأريك كل ما عشته من عجائب."

ولن تعتريك مشاعر الحسد ولا الازدراء ولا حتى الأسى متى ما تأملت روز في عُريّها: بل ستعتريك الرهبة، فهذا ما حدث معي، وجدتني أردد في نفسي، "خذيني معك."

ورغم غيظي من تصرفات سيرينا معي، قلت في نفسي، إن لم تفعل أي شيء آخر لأجل عرضها، إن اقتصرت بلاد عجائبها على هذه الصورة وحسب، لكانت حققت عملًا فنيًا رائعًا وملهمًا. مارلين كانت محقة، هذا العرض سيصنع اسمها. لم تكن في حاجة إليّ كي أخيط لها قبة السماء الزرقاء من أثواب أليس؛ لم تكن في حاجة إلى زهور الأسبرين وشظايا المرايا - فكل تلك الأمور، في النهاية، ما هي إلا توافه عقيمة، مهما كانت جميلة أو ذكية. هذه الصورة، هذه الصورة هي اللحظة الحقيقية: هي هذه بلاد عجائبها.

"الصور مذهلة" كان كل ما وسعني قوله لها. وإذ بها تربت بيدها على ذراعي، بتلك الطريقة، تنظر إليّ وكأنما حقًا تراني، من ثم قالت، "شكرًا لك."

11

في الأسبوع التالي سافرت سيرينا إلى نيويورك، لكن ليس قبل أن نؤكد موعد مغامرة آبلتون يوم الإثنين من بعد أسبوعين، فترة بعد الظهيرة. كنا سنحضر كل الأطفال، لكنها كانت ستصور فقط الأطفال الذين وافق أهلوهم على التصوير. أما الآخرون، فقد أعددت لهم نشاطًا فنيًا في ركني من المحترف. كنت قد أعددت أذونات السماح من قسمين، وأرسلتها مع أطفالي إلى أهاليهم.

في النهاية، سيقع اختيار سيرينا على آنا زي ممثلةً لها، وهو ما بدا آنذاك خيارًا جريئًا ومخاطرة عالية - فهل كانت آنا ستنجح أصلًا في الحفاظ على صالة معرضها من الأساس؟ من يدري؟ - لكن على مر السنوات من تعاونهما، حتى في الأوقات الصعبة، ستثبتان معًا نجاحهما، وستزدهر أعمالهما، ونجاح كل واحدة منهما سينصب في صالح نجاح الأخرى، وبذا باتت آنا صاحبة الفضل في "العثور" على سيرينا، وسيرينا، وهو التقدير الأصح، صاحبة الفضل في "صنع" آنا.

لكن تلك الأحداث لن تقع إلا لاحقًا. سيرينا الآن قد سافرت. ومن الواضح أني هذه المرة كنت على علم مسبق بسفرها. لم أكن قد أنجزت أي عمل على غرفي لما يزيد عن أسبوع، وإن بدت لي فترة انقطاعي أطول بكثير. فأحداث تلك الأيام حجمتني وصغَّرت

من قيمتي وقيمة عملي. بالكاد منعت نفسي عن تمزيق صور البولارويد - ومن ظننت نفسي؟ كيف جرؤت على مجرد التفكير بأنها تستحق حتى نظرة خاطفة من أي شخص؟ - أنا نفسي لم أطق النظر إليها. أقحمتها في مؤخر جارور ثيابي الداخلية وكأني أدس صورًا إباحية جريئة، لا صور تفهة مثيرة للشفقة. إحساسي الجارف بالخزي لم يتأتَّ عن الصور ذاتها، بل تأتى عن إحساسي بالخزي أصلًا اتجاهها. فلا أليس ولا إيدي كانتا ستملكان الوقت ولا الصبر لمراعاة شعوري المتكلف بالاحتشام، ما كانتا لتطيقا تصرفي مثل بقرة غبية.

المهم أن تكون مبدعًا في عملك - في الفن - لا أن تكترث. لم أعرف أيهما الأهم، أو إذا كان الاكتراث في حد ذاته العقبة العصيّة في طريق النجاح. أمن الأفضل إذن ألا تكون مبدعًا ولا تكترث؟ كلا، فقد غدا من الجليّ لي - وأنا أرى في عين خيالي صورة روز في عريها الباهر - أن خيرًا لك أن تكون مبدعًا. فسيرينا، سحقًا لها، كانت مبدعة.

على أي حال، قلت في نفسي، فذلك ليس بالمبرر كي أهجر فناناتي وعوالمهن. هنَّ كن مبدعات، حتى وإن لم أكن أنا بمبدعة - الشك! الشك! آفة الروح المميتة! - وأدين لهنَّ بالاكتراث: لذا ما إن سافرت سيرينا، عدت إلى المحترف يوم الخميس، ومرةً أخرى يوم الجمعة، وبقيت حتى وقت متأخر من الليل، أنتقي الصور المصغرة المثالية لإيدي وأؤطرها بكل حذر بالزجاج، ألصقها أعلى الحوائط بحيث تبدو وكأنها ترنو للأسفل اتجاه إيدي في غرفتها المغلقة. حتى وأنا أبرد وأقيس وألصق، ما فتئت آفة الشك تنخر في عقلي: وما القيمة الفنية أصلًا في تلك الغرف؟ فهي ليست بالجديدة. هي لا تعبر عن مقولة

باوند[51]، اصنع من الماضي جديدًا. تلك الغرف المنمنمة الخرقاء تعبر في كنهها عن هوس جامع مقتنيات تاريخية، لا تدين في واقع أصالتها لي ولا لجهودي بأي شيء. أو بالأحرى: من شأن الكدح المضني الذي تطلبه العمل عليها أن يزيد من فداحة فشلي، فداحة ضياع جهودي سدىً، فشلٍ استشعرته كما يستشعر الأعمى محيطه، فشلٍ عجزت حتى عن تحديد كنهه.

لكن لماذا، حاججتْ آفة الشك، لماذا أحكم بالفشل على عمل لم يكتمل بعد، لم يتسنَّ له أن يتجسد بكليّته؟ فغرف الديوراما ليست في منافسة ضد أي أحد، ولا ضد أي عمل آخر؛ هي تعبيرٌ عن مكنونات النفس. نفسي أنا.

أنتِ؟ وكيف لها أن تكون تعبيرًا عن نفسكِ أنتِ إن كانت في كنهها مجرد تحية إجلال ساذجة لفنانات عظيمات؟

لكن إن وضعتها ضمن سلسلة، فسيكون هناك منطق من وراء-

المنطق عنصرٌ ثانوي في العمل الفني. المنطق هو أسلوب التابعين.

لكن ألسنا جميعًا - معظمنا - تابعين؟

وهل نريد حقًّا أن نكون تابعين؟ فبالتأكيد لا تكمن قيمة العمل الفني في كنهه. ألا ترى معي أن قيمته الحقيقية تكمن أصلًا في تركه الباب مواربًا أمام احتمالات التأويل، أمام من نريد أن نكون؟

أبرد وأقيس وألصق، وما برحت رقصة سناء تشغل بالي، ذراع الفتاة الصغيرة الممدودة للأمام، ذراعا روز المفتوحتان للعناق، أكثر مما

---

(51) في إشارة إلى المقولة الشهيرة للشاعر الحداثي والناقد الأميركي عزرا باوند (Make it new) والتي نادى بها بضرورة صناعة آداب وفنون جديدة مستلهمة من آداب وفنون الماضي، عوضًا عن مواصلة استنساخها.

كنت مشغولة البال بعملي. ما برحت أتفكر في التلميحات الوحشية في عالم سيرينا، عينيْ الجبروكي، وذاك الفيديو الذي ستعده عن الأطفال، وعمّا سيكون عليه في الحقيقة الكنه الفني الجديد للفيديو.

***

كانت قرابة الساعة العاشرة من ليلة الجمعة حين وعيت، كما وعيت مرة قبل شهور عدة، للخطى المتثاقلة في الرواق، التريث لدى العتبة، والطرق المحتوم على الباب. كانت ليلة دافئة، وقد شرعت كل النوافذ، صوت حفيف الأوراق خارجًا غمر المحترف مثل صوت هامس، الأجواء كانت هادئة، ومثلها - مما أذهلني - وجدت نفسي أنا أيضًا هادئة، أو شبه هادئة. هذه المرة لم أتناول مديتي الحرفية، ولا تصبيت عرقًا. فقد عرفت مسبقًا صاحب الطرق. "من؟" ناديت لدى توجهي إلى الباب؛ والإجابة جاءت، مرةً أخرى، بطرقه المميز.

إسكندر كان يقف في الخارج، لطخةٌ من النباتات عالقة على كتف سترة بدلته الرسمية، وكأنه قطع طريقه التو عبر دغل.

"أهلاً." ابتسمت له، رغمًا عني. فقد غمرني إحساسٌ جارف وقوي، أشعرني بالغثيان للحظة. "واو، تبدو مذهلًا."

"كنت في حفل عشاء، ليس بعيدًا من هنا. ثلة من طلبة تخرج لبنانيين، نثرثر. قرب دايفز سكوير." كان يبتسم ابتسامته الخرقاء، من المؤكد أنه شرب بضع كؤوس. كان يحمل معه كيسًا ورقيًا. "ظننتك ستحتاجين إلى استراحة،" قال لي، "كنت أفكر إما أن نحتسي الشراب معًا أو نخرج في نزهة سير. لذا أحضرت قنينة نبيذ

- نبيذ أحمر، أظنك تفضلين الأحمر؟ - وكذلك أحضرت معي - " ثم أطرق رأسه للأرض.

"فردتي حذائك."

"أجل، أحضرت حذائي. سأحتاج إليه إن كنا سنتنزه."

"خصوصًا في هذه الأنحاء،" قلت له بينما أتناول القننية من الكيس. "تفضل."

كان حييًّا، شبه خجل، تصرفاته مختلفة عن سلوكه في زيارته الأولى حين تصرف وكأنه هو المضيف، لا أنا.

"اجلس،" وأشرت نحو وسائد زوجته. "سأحضر كأسين." لم يكن لدي سوى فناجين الشاي، تلك الفناجين الجميلة، مشظاة الحواف، التي تعبر بشكل صارخ عنها. صببت النبيذ الأحمر في فنجانين، ورأيت نفسي بوهيميةً فاتنة، وتساءلت إن كانت بوهيميتي، أو أي شذرة من فتنتي لحظتها، تعود في الحقيقة لها، لا لي. لكن سرعان ما أزحت الفكرة عن بالي. فمجرد التفكير في الأمر كان سيستحضر إحساسًا بالذنب. أملت ألا يعلق إسكندرعلى الفنجانين. لم يفعل.

"حسنٌ،" قالها مرتبكًا وخائفًا. "حسنٌ. شكراً لكِ."

"شكراً لك." رفعت الفنجان في صحته، وشربت. كنت متأثرة بارتباكه، وارتباكي. لبرهة خيم الصمت علينا، إذ أول ما خطر لي قوله، "ومن برفقة رضا؟" أو "أي أخبار عن سيرينا؟" كلاهما موضوع لم أشأ التطرق لحظتها إليه. أما هو فقد أخذ يتأملني، يتفحصني بعينيه الساكنتين كما القط. تساءلت إلى أي حدٍّ هو ثمل.

"وهل أطعمك طلبتك؟"

"فلافل، كباب. المعتاد."

"لدي بقايا سلطة باستا إن أردت. من متجر هول فوودز. باستا روتيني مع صلصة البيست."

أومأ لي موافقًا، إيماءة طفل لا رجل مفترس. ناولته العلبة البنية. ادّعيت أني غسلت الشوكة في الحوض قبل أن أناوله إياها.

"هل من أخبار جديدة؟" قلت محاولةً فتح حديث للمرة الثانية. "في العالم الواسع؟"

"آه. في لبنان. وقع انفجارٌ آخر. شمال بيروت."

لم أتوقع إجابةً كهذه. فنيَّتي كانت فتح حديث خفيف. استلزمني الأمر دقيقة كي أقول له شيئًا. "هل من ضحايا؟"

"ستة أو سبعة جرحى. ما كنت لتسمعي بالأمر في الأخبار. التفجير ليس بخبر يستحق التغطية إلا في حال وفاة أحدهم."

"وهل يعرفون من المسؤول؟"

أبقى رأسه مطرقًا، كان يلاقي صعوبة في التقاط حبة روتيني عنيدة. "الانتخابات على الأبواب، بعد ثلاثة أسابيع. وكثرٌ من يريدون لأصواتهم أن تُسْمع. المشكلة عويصة."

"هل كان هذا محور حديثك مع طلبتك؟"

"أنت أدرى بطبيعة الطلبة -"

"أنا أدرى بطبيعة طلبتي، لكنهم في الثامنة من العمر."

ابتسم وأجاب. "وفيم يختلفون عنهم؟ لهم آراؤهم المتشبثين بها ولا يرغبون بسماع رأيك إلا إن كان موافقًا لآرائهم. صدقيني، هي ذات الحال."

"أظنها الحال معنا جميعًا."

"أحيانًا أقول في نفسي، أننا في واقع الأمر لا نزال أطفالًا. وإن

حدث فجأةً وسقطت الأقنعة، فسننكشف على حقيقتنا."

"لم أعرف أنك رفيقي الروحي."

"اعذريني؟"

"كل يوم، أردد في نفسي شيئًا مماثلًا. فأحيانًا، متى ما اضطررت للتعامل مع بالغ مزعج، أقول لنفسي تصوري الطفل فيه. لأن مهما كان الطفل مزعجًا، فسأشعر حتمًا بالتعاطف معه أو معها."

"مع الجميع؟"

"المعظم."

"وأي نوع من الأطفال أنتِ؟"

"مرحة." قلتها رغم أني لحظتها لم أكن أتصور نفسي، بل أمي: بشرتها المسفوعة، سلوكها الأخرق، تنورة الغولف الخضراء الليمونية وقميصها البولو بلا كمين، الصندل الموشى بالخرز ونظارتها الشمسية الضخمة، سيجارة في يد، وكأس الجن والتونيك في اليد الأخرى. كانت تغازل جارنا هوراس والكر، وبالتأكيد لم تكن بالطفلة. "كنت طفلة مرحة جدًا، وماذا عنك؟"

"جديّ." نهض عن الوسائد، مترنحًا. "أتمانعين إن دخنت؟" لم ينتظر الرد. "كنت بالغ الجدية في طفولتي، وعلى إثره، لم أكن بالطفل الممتعة رفقته." تجرع النبيذ من الفنجان في جرعة واحدة. "عليّ أن أرحل."

"لكنك التو أشعلت سيجارتك."

"صحيح."

كانت في المحترف معنا، حتى وإن كانت الأضواء في ركنها مطفأة. ما كان من داع كي أنطق اسمها. "هل تود إلقاء نظرة على المشروع؟"

"لاحقًا." كلانا كان يعرف أيّ مشروع أقصد، مشروعها لا مشروعي. "أودّ أوّلًا إلقاء نظرة على عملك."

لم أعرف إن كان يجدر بي تصديقه - أفليست هي رغبة الجميع إلقاء نظرة على مشروعها؟ صببت المزيد من النبيذ في فنجانه.

"حسنٌ، لا بأس. وأي الغرف تود رؤيتها؟"

"كلها. إن كان الأمر ممكنًا. كم عددها؟"

"ثلاث. بالأحرى، اثنتان. واحدة مكتملة، والأخريان لا أزال أعمل عليهما."

"رائع. أريني."

أخذ يحدق فيها، الغرفة تلو الأخرى، لم يتأملها من الأعلى، بل تأملها رابضًا، مع عين مغلقة، يتمعن النظر عبر النوافذ. أخذ يتفحصها متمهلًا، وكلما أراد لمس أي شيء، رفع عينيه لي متسائلًا، وكأنما ينتظر الحصول على إذني. وفي غمرة تأمله رأيت فيه الطفل الجدي الذي ادعاه، وكم أسعدتني رؤيته - كم أثار حماستي - وقاره في التعامل مع غرفي، مع فناناتي، امتناعه عن كيل عبارات المديح والتعجب، كل ما أبداه لي هو الاهتمام الصامت. ما يعني أنه حقًّا اكترث. وكم أحببته لما فعل، ولم أستطع منع نفسي من مقارنته بزوجته؛ كم يبدو شخصًا أكثر ثباتًا وعزمًا منها، أكثر تحررًا منها، أكثر صدقًا وتصالحًا مع نفسه.

وما إن فرغ أخيرًا، نهض واقفًا ونظر إلي، يتأملني بذات النظرة الجدية. "الغرف مذهلة،" قالها بعد لحظات. "رائعة بما يفوق الوصف." صب النبيذ في فنجانه، وأشعل سيجارة أخرى. "وفي ذات الوقت صادقة، تجيش بالعاطفة - وصغيرة جدًا."

"صغيرة جدًا؟" لم تبد لي إطراءً.

"كل هذا القدر مشيدٌ في مساحة جد صغيرة. ذكرتني بالمنمنمات الفارسية، مطلية بشعرة واحدة: بالغة الصغر، دقيقة، دنيا بأسرها، بكل ما يحمل أهميةً فيها، بكل عواطفها."

"أجل." إن كان هذا ما عناه، فلا بأس.

"لكن سؤالي هو، ما المغزى؟ لماذا هي هكذا بالغة الصغر؟ هل كي تثبت أن للحقيقة الكبرى أن تتجلى في أرق صورها؟ أو، مثلما الحال مع المنمنمات الفارسية، كي يسهل نقلها، كي يتسنى لها الذهاب إلى كل مكان، وتظل بجمالها وتعقيدها قادرة على عكس الثراء العظيم لصاحبها؟ أو، كما أراها أنا، لأنها ترى نفسها حبيسة حيزها، غير مسموح لها بالتمدد؟"

"وما الذي تعنيه؟"

"لماذا لا تحتل الغرفة الواحدة فيها المحترف بأكمله، تتجلى بحجمها الحقيقي في الحياة الواقعية؟ لماذا هي حبيسة تلك العلب الصغيرة؟"

هززت كتفيّ استخفافًا، واعية تمامًا للوخز خلف عينيّ.

"كذلك: لماذا، مع كل تلك العواطف التي تجيش بها تلك الغرف، كل العواطف التي اختبرتها تلكن الفنانات في حياتهن - لماذا الحزن وحده من يطغى على عوالمهن؟"

"دائمًا ما أترك السعادة في كل غرفة. كل ما عليك فعله هو أن تبحث عنها. ستجدها - التميمة الذهبية."

"حسنٌ. لكن لماذا لم تتركي لتميمة السعادة الفرصة، ولو مرةً واحدة، أن تكون هي العنصر الأكبر؟ لماذا لا تحتل السعادة الغرفة

بأكملها؟"

الدموع أخذت تترقرق في عيني. شعرت بها تنسال على وجنتيّ. أخذت أطرف عيني كي لا يراها. وفجأة وعيت للحقيقة الغائبة عني: أيًا كان ما تفعله سيرينا، ففنها زاخرٌ بالسعادة: تلك هي الحقيقة - حتى وإن لم تكن سيرينا صادقة في تعبيرها الفني - هي تعرف كيف تصنع من فنها عملاً مبهجًا. أما فني فقد جاء حزينًا، سوداويًا، لأن روحي حزينة. وأليست هذه هي الحقيقة؟

"هل ترى روحي حزينة؟"

"أرى روحك جميلة،" قال لي، ومع أنه ظل على نبرته الجدية - وفق ما رأيت، فقد كان بالغ الجدية - فقد ذكرني أيضًا بما قالته ديدي، "إن بدت مثل ورقة قيقب بملمس ورقة قيقب ومسجاة أسفل شجرة قيقب ..."

"أظنك تجهلين ذلك، لكن روحك جميلة." واصل حديثه، متناولاً يدي اليسرى بين يديه، يديه المربعتين المكتنزتين الحارتين الجافتين، وإذ بي كأني فرنٌ مهجور أوقد بيديه النار فيه. "وأرى روحك قادرة على استيعاب الحزن والسعادة. لا حاجة بك للقلق بتاتًا بشأن روحك. كل ما تحتاجين إليه هو إطلاق سراح كل عواطفك من علبها الصغيرة، والسماح لها باحتلال المحترف بأكمله."

"لن يكفيها المحترف."

"أدري، فأنت الذئب المسعور الفجع. لكن كيف لك أن تعرفي مدى اهتياجه إن لم تطلقي سراحه من قفصك؟"

كنت أعيش تلك اللحظة وأطوف خارجها في ذات الآن، واعية للمسرحية، للنص الرخيص - فكيف لي ألا أعي ذلك؟ - ومع ذلك

انغمست في الدور بكليَّتي - أصابعي، جلدي، قلبي. في أذني، تتردد ضحكات ديدي - "أيتها السخيفة!" - وصوت سيرينا الذي لم أجرؤ حتى على تصوره، صياحها المتألم، وأمي تهمس في المدى البعيد، "ما الذي تفعلينه فأرتي؟ كيف تجرؤين؟ من تظنين نفسك فأرتي، من تظنين نفسك؟"

لكن الإغواء لم يكمن فيمن ظننت نفسي، بل فيمن ظنه هو عني: لم أكن إميلي، ولا فرجينيا، ولا أليس، ولا إيدي، ولا حتى سيرينا. لم أكن المرأة في الطابق العلوي. لم أكن شيئًا واحدًا. أني نفسي عشت حياتي جاهلةً حقيقة معالمي لم تعد في تلك اللحظة بالمسألة التي تهمني. لأني في عينيْ شخص آخر، قد باتت لي معالم، معالم ما كنت لأعقل يومًا أنها تستحق النظر. حين تحركت يداه، تتلمس ظهري دافئةً كما الحجارة، فكرة أن يتسنى لي الفرصة أن أتجلى على صورة نورا إلدريدج العارية، بدت لوهلة خطيئةً تغتفر؛ بل حتى أنها بدت وجبةً مشبعة.

12

في بادئ الأمر، ظننت أن كل الأمور ستسير على ما يرام. إسكندر وأنا تناقشنا - نقاشًا مواربًا، غريبًا، لكن يظل نقاشًا - عن تجربتنا، كيف أنها كانت سامية لكن في ذات الوقت خاطئة، ومن المستحيل علينا تكرارها. كما ترى، فقد كنت مرتبكة: فما حدث لم يكن خيالًا اختلقته في عقلي. الخرزة لم تلائم خيط خيالاتي. وأجل، صدقت أن بمقدوري، بقوة إرادتي، أن أمحو ما جرى بيننا، لأن لا خيار لدي، لأني قد أخسر كل شيء.

كم هو شعورٌ غريب، أن ترى نفسك الحقيقية جلية متجسدة في أنقى صورها في عينيْ شخص عزيز على قلبك حنون عليك، يتطلب مخاطرتك بالتجلي خسيسًا وضيعًا في عيني عزيز آخر. دائمًا ما نقول للأطفال خيرٌ لكم أن تكونوا صادقين؛ لكني أعرف كذلك متى الكذب يغدو التصرف الصحيح، في سبيل الوفاء لحقيقة أعظم. ما حدث بيني وبين إسكندر لم تكن بنزوة جنسية، ولا إغواءً متعمدًا، ولا حتى خطيئة. لم أرها متعارضة بأي شكل مع صداقتي لسيرينا، أو بالأحرى غرامي - غرامي المجنون - بها.

بواعث حزني كثيرة، لكن تجربتي وإسكندر ما كانت بينها قط،

فالقيمة الأخلاقية التي رأيتها فيها لم تكن بالسلبية على الإطلاق: إن كان بيدك أن تفصل الخرزة عن جاراتها، تنزعها عن خيط الزمن وترفعها عاليًا في الضوء، فسترى كم هي جميلة ونقية. إن كنت ستصنع غرفةً للفنانة نورا إلدريدج، وتجسد فيها تجربتها هذه، لكانت تجسيدًا للسعادة. لا أدري ما كانت الدلالة في واقع استلقائنا عاريين على العشب الصناعي لبرهة من الزمن، بين زهور الأسبرين المتمايلة. ليس بيدي تفسيرها؛ أو بالأحرى، لم يكن بيدي حينها.

***

صباح الاثنين، كدت أغص لدى رؤيتي رضا جالسًا على درجه، في قميصه المكوي مع خصلة من شعره الأسود معقصة صوب السماء. فجأةً، ما عدت أرى فيه عيني أمه بل أنف أبيه، شفتيْ أبيه، ابتسامته الخرقاء. لا بد أني حدقت به بشكل غريب، إذ ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة كشفت لثته، ابتسامة من لم يرتكب أي خطأ بيد أنه قلق من توجيه أصابع الاتهام إليه. حتى من خلف مكتبي أمام الفصل، كان لي أن أرى الندبة على عينه، ندبتي؛ وما إن لمحتها استعدت ذكرى جرّاحة التجميل في المستشفى، تخيط غرزها المثالية في جلده.

لم أغص، لم أتوقف، اليوم انطلق، واللحظة مرّت، وفي خضم الروتين الثابت للفصل (E3)، في خضم الضوضاء وجلبة الهرج والمرج المألوفة لأطفالي من حولي، بدت لي أحداث ليلة الجمعة حلمًا عابرًا؛ ومع مرور اليوم، نسيتها. لاحقًا في بعد الظهيرة، حضرت الاجتماع

العام لموظفي آبلتون - وكم كانت شونا مغرمة بسماع صوتها، أخذت تتحدث وتتحدث برتابة عن كل الخطط المزمع تنفيذها نهاية العام الدراسي: عرض المواهب، حفل جمع التبرعات، النزهة المدرسية - لم أحاول حتى الذهاب إلى المحترف. لم تساورني ذرة ندم.

بعد ظهيرة يوم الثلاثاء، غالبني الجبن؛ لكني كنت واعية أيضًا إلى ضرورة اللقاء - أني مثلما تخطيت لحظة الارتباك مع رضا، كنت سأتخطاها مع سيرينا، أن من الضروري تجاوز الأمر كي أواصل معها بقية المشاهد، مشاهد وضع اللمسات الأخيرة على بلاد عجائبها، حماسنا المشترك حول إنجاز عرضها العظيم، حول فهمنا المشترك أن بلاد عجائبها هي العمل الفني، أن حياتها هي الحياة التي تهمّ بحق.

***

صدمتي بشأن سيرينا أنها بدت مذ لحظة دخولي المحترف وكأن شيئًا لم يقع مذ آخر مرة التقينا بها. هي ذاتها تحيتها المرحة، فتلها المتحمس لخصل شعرها وتعديل وضعية شالها على صدرها، ولا شائبة تغيير طرأت عليها. كانت هي سيرينا ذاتها التي انطلقت في قطار آمتراك متجهةً إلى نيويورك قبل خمسة أيام، تغمرها السعادة، في غفلة أنانية عما يجري من حولها، يغالبها الحماس اتجاه رحلتها.

"من الصعب عليّ أن أقرر - كلاهما رائ-يع وكلاهما يرغب في تمثيلي. سأحتاج إلى مساعدتك نورا - فأنا أثق بك كثيرًا. حين أريت آنا الصور العارية، عيناها ترقرقتا بالدموع. وصفتها بالمذهلة - وأخبرتها، 'لكن ضعي في الاعتبار السياق، تخيليها مع بقية عناصر عرض بلاد

العجائب.'- فقالت، 'سيرينا، هذه الصور في حد ذاتها مذهلة، أيًّا كان ما ستضيفينه إليها فلن ينقص من روعتها. قد تضيف إليها، لكن بالتأكيد لن تنقص منها.'

"وماذا عن الآخر؟" لم أستطع كبح جماح حماسي لأجلها، حتى أمام تبجحها. لا أدري كيف أفسر لك، لكن كأن كل مشاعري المختلطة اتجاهها باتت منفصلة عن بعضها البعض - حتى غمامة الإحساس بالذنب التي تشوبها وقاحة لذة الانتصار؛ كلها تسنى لي الاحتفاظ بها والإحساس بها في ذات الوقت.

فحتى أنا ليس بوسعي تجاهل الحقيقة، أني لم أشته وحسب سيرينا ورضا - والآن، شهوتي المحسوسة لإسكندر (لا تدع أحدًا يخدعك بقوله إن المتخيَّل يماثل الحقيقي: جلدك، هذا الكائن العظيم المتنفس، سيصرُّ على إثبات النقيض)، لكني بتُّ الآن أشتهي بلاد العجائب، أشتهي خيالها، وأتمنى لو كان بيدي الاستحواذ عليه.

استمعت إلى سيرينا تتكلم عن صاحبيْ المعارض، عن المساحة التي يملكانها والوعود التي قدماها، وفي خضم حديثها كنت معها ولم أكن معها. لم يكن الحال كما كان عليه في المدرسة مع رضا، حيث احتل الواقع اليومي ببساطة محل الواقع الليلي. فهنا، رأيت طيف إسكندر يحوم في المحترف، ظلًا يقطع الضياء الساطع من خلف النوافذ؛ وحقيقة عجزها عن رؤيته بيننا لم تفضِ إلى اختفائه. المريك في الأمر أن ما جرى لم ينقص من حبي لها، ولا من توقي إليها، وإن بتُّ أحسدها أكثر. لو أنها في تلك اللحظة طوقتني بذراعيها - حسنٌ، مجازاً هي طوقتني بذراعيها، طوقتني مذ لحظة لقائنا، وربما راودني الشعور، طوال كل تلك الأشهر معها، أنها حقًّا تراني؛ حتى بعد أن وقف

إسكندر، تأملني وصدقًا رآني - حتى لحظتها، بعد فوات الأوان، بقيت على إيماني أنها تراني، ولهذا عجبت كيف لظل الذنب الذي ارتكبته مع إسكندر أن تاه عنها، كيف عميت عنه تمامًا. قلت في نفسي، "سيكون من الصعب إخفاء ذنبي عنها، أصعب مما توقعت." لكني لم أقل في نفسي، " من المستحيل إخفاء ذنبي عنها."

***

ليلة الخميس، توجهت إلى بيت شاهيد كي أرعى رضا. توقعتها ستكون المرة الأولى التي أجتمع بها بثلاثتهم معًا منذ ليلتي مع إسكندر، لكن إسكندر لم يكن في البيت: يحضر اجتماعات في الجامعة، كذا قالت لي سيرينا. أمرٌ ما يخص نهاية العام. ستنضم إليه لاحقًا في حفل العشاء.

بدت شاردة الذهن، لم تكن في مزاج لتبادل الحديث - تعجلت دخول غرفتها لتبديل ملابسها، بعد أن ألقت عليّ قائمة الطعام المتوفر والاتصالات المتوقعة في نبرة متعجرفة. قاومت شعوري بأن فظاظتها معي هي دلالة على نيتها السيئة اتجاهي. كما تعرف: فالمجرم يترقب في أي لحظة أصابع الاتهام تشير إليه. من ثم عادت مرتدية قفطانًا أسود موشى بفيض ملون من الزخارف المطرزة، مع مدلاة ثقيلة غطت حنجرتها. في اللحظة التي تريثت فيها عند الباب كي تخرج، لم أستطع كبح سؤالي: "هل كل شيء على ما يرام؟ هل ضايقتك في شيء؟"

"ضايقتني؟ محال! أبدًا لن تضايقيني. اعذريني - أنا فقط -

فاض بي الكيل. العقبات العملية في مرحلة تنفيذ المعرض تطوقني من كل الجهات. ليتني كنت في باريس الآن، لكنت تدبرت حل كل تلك المشاكل. أفكر جديًا في حجز تذكرة والذهاب هناك - لكن مع رضا - المسألة معقدة. والآن بعد انتهاء الفصل الدراسي في هارفارد، فإسكندر سيسافر كثيراً في جولاته ... لذا: رأسي مشغولٌ بالتفاهات - حياتي باتت لعبة شطرنج. إن حركت هذه القطعة، ومن ثم تلك القطعة - إذن، ربما. وإن غفلت عن رؤية ما يكمن لي في المدى الأبعد، طاخ، سأقع في مشكلة."

وكأني لا أعرف. "إن كان بيدي تقديم أي مساعدة.. "

"أنت هنا، أليس كذلك؟ أنت أعظم عون لي."

"انسي كل تلك الأمور الليلة، واستمتعي."

"أستمتع! برفقة بروفيسور الاقتصاد ذائع الصيت وزوجته المحللة النفسية؟ وذاك الرجل الطويل ذو وجه الحصان من يظهر دومًا على التلفاز! مرةً، علقت في الحديث معه - كم هو ممل ورائحة أنفاسه كريهة، رائحة فأر ميت. من يملك الوقت لتلك الترهات؟ عليّ أن أؤمن زوجة محترفة لإسكندر. لا، أنتما المحظوظان الليلة - أنت وصغيري رضا."

وكان معها حق، فعلًا كنا نحن المحظوظين. ففي ذاك المساء بعد تناولنا العشاء، جلسنا أنا ورضا على أرضية غرفة الجلوس نبني سفينةً فضائية من مكعبات الليغو، من وحي إلهامنا دون الاستعانة بأي مخطط. استخدمنا القطع الموجودة بوفرة في دلو القطع المهملة، وقضينا ما يزيد عن الساعة نعمل عليها، نحسب بدقة برج الصواريخ المثالي المتناسق، البحث عن القطع ذات الأحجام والأشكال

المناسبة لبناء قاعدته البيضَويّة الواسعة، مكتملًا بالأضواء والنوافذ والأبواب المفتوحة. كنا قد صنعنا كذلك حجيرات صغيرة منفصلة، بعضها مجنحة، والأخرى زودناها بعجلات دبابات؛ كذلك عثرنا على شخصيات ليغو - شخصيات ستار وورز حمقاء مفتولة العضلات، مواطنون يعتمد عليهم من طبقة المزارعين، وهمجيّون من آكلي لحوم البشر في تنانيرهم العشبية - وباتت محطتنا الفضائية مأهولة بهذه الثلة. كل مرة نضيف شخصًا، يختلق رضا قصةً عنه، عن ماضيه، عمّا فعل، ولماذا بات هنا.

"حين أكبر،" قال لي دون أي مقدمات، "سأصبح مهندسًا معماريًا. أريد أن أخلق عوالم للناس تعيش فيها. وربما،" قال لي مع ومضة في عينيه ذكرتني بأبيه، "ربما خلق عوالم جديدة سيخلق أناسًا جُددًا. ألا ترين، بتبديلي قبعته، حولت المزارع إلى طبيب قلب. أليس بالأمر المذهل؟"

***

كنت في انتظاره يصطحبني سيرًا إلى منزلي. فلطالما اصطحبني سيرًا إلى منزلي. لكن هذه المرة، ما إن دقت الساعة الحادية عشرة، قدمت سيرينا وحدها.

"كم أنا مرهقة." رمت بحقيبتها ومفاتيحها على طاولة الطعام. "لم أطق البقاء هناك دقيقة أخرى. إسكندر وذاك الرجل صاحب نفس الفأر الميت دخلا في نقاش محتدم. لا أدري ما الذي يتوقعه إسكندر من نقاشه معه، هل يظن حقًا أنه سيقنعه بالظهور على

شاشة سي إن إن والإصرار على ضرورة القبول بحل الدولتين؟ من الأحمق، في هذه البلد، المستعد للاستغناء عن وظيفته كي يفعل هذا؟ لذا أخبرته، إسكندر، ربما أنت قاب قوسين أو أدنى من إنقاذ العالم هذه الليلة، لكني مرهقة وفي حاجة إلى النوم..."

"الوقت متأخر - "

"أدري، وغدًا يومٌ دراسي وفصلك ينتظرك في الصباح الباكر. كم أنا رهيبة لنسياني هذا - سامحيني. الطقس ماطر، مطرٌ خفيف - أتريدين مني الاتصال بسيارة أجرة؟"

"لا بأس. سأذهب سيرًا."

"إذن على الأقل هاك المظلة."

وتناولت من سيرينا مظلة الغولف الكبيرة المخططة التي لطالما حملها إسكندر معه ورفعها فوق رأسي بكل شهامة أكثر من مرة. المسافة بدت أطول مما كانت عليه طوال كل تلك الأشهر. هل تُراه تعمّد البقاء متأخرًا في الحفل؟ لا بد وأنه فعل. يا ترى هل الثمن الباهظ الذي تأتى من تلك الساعة الروحية التي قضيناها معًا هي خسارة الصديق العزيز المقرب لي؟ فبعد كل تلك النزه التي قضيناها معًا وبعد كل تلك الأحاديث، لحظتها فقط وعيت أني عدَدْتُه صديقًا.

***

لذا كان من المحتوم، منذ تلك اللحظة، أن يحتل إسكندر المساحة الأعظم من أفكاري. لكني أحيانًا قد أنسى، وإذ بخيالاتي الهوسية تعاود مسارها التصاعدي المألوف - المزرعة المألوفة في

فيرمونت، الحكم النسائي الفني المسالم، حيث القلب يخفق جذلاً والدم في العروق يتدفق منتشيًا بمجرد لمسة يد على ذراع. ومن ثم، في غمرة الخيال، كما في الحلم، يراودك الخاطر: لم يعد الوضع على ما هو عليه؛ العالم قد تغير. هو ذات الخاطر الذي ظل يراودني حتى بعد مرور عامين على وفاة أمي، كلما نسيت وفكرت بها وكأنها حية ترزق؛ إذ بي فجأةً أتذكر، الحزن يطرق بإصبعه التذكيري على صدري، أمي قد رحلت.

***

في نهاية ذاك الأسبوع، قررت سيرينا أنها مضطرة للسفر إلى باريس كي تشرف بنفسها على تركيب القلب في بلاد عجائبها. لدى اتصالي بها صباح الإثنين كي أؤكد عليها تفاصيل الزيارة المدرسية لاحقًا بعد الظهيرة، أخبرتني بالصعوبة الكبيرة التي تلاقيها في محاولة إدارة الأمور من هنا سواء عبر الحاسوب أو الهاتف. فإن لم يصلح حال القلب - كان من المفترض به أن يكون مفتوحًا، مشقوقًا من المنتصف وموضوعًا على منصة من الزجاج العضوي عدة ياردات أمام فيديو رقصة سناء؛ كذلك كان من المفترض به أن يرش، بين كل عدة دقائق، رائحة عطرة من ماء الورد - فلن يصلح حال بلاد عجائبها. كانت ستغادر الثلاثاء، على متن رحلة الخطوط الفرنسية المتأخرة إلى باريس، وأخبرتني بعودتها نهاية الأسبوع التالي. عرفت كل ذلك صباح يوم الإثنين، لذا أظن سماعي الخبر قد ترك أثرًا فِيّ.

***

الأطفال كانوا جد متحمسين. كقاعدة، فكل رحلة مدرسية هي نشاطٌ ناجح - حتى إن اصطحبت الأطفال إلى مصنع معالجة مياه المجاري سيذهبون متحمسين إليها - لكن هذه الرحلة بالذات كانت غريبة ومتحررة، وبذا بدت أكثر مرحًا. فالأطفال يحبون كسر الروتين، وركوب الحافلة المدرسية في منتصف اليوم الدراسي يمدهم بالإحساس باحتمالات جديدة تلوح في المدى. كنا قد غادرنا آبلتون في الساعة الحادية عشرة والنصف، مباشرةً بعد تناول الغداء المبكر. وعلى غير عادتهم، أخذ الأطفال يشاكسون في الحافلة: نواه تسلق ثلاثة صفوف من المقاعد قبل أن أتمكن من إجباره على الجلوس؛ إيبولينس تشاجرت مع مايلز حول لعبة الكترونية يدوية ما كان يفترض وجودها أصلًا في الرحلة؛ صوفيا شرعت في البكاء قائلة إن مايا شدت شعرها. وجدتني مجبرة على رفع صوتي والتهديد بالعودة بالحافلة إلى المدرسة. كانت بداية من تلك البدايات، تلك التي لا تبشر بالخير.

ومع ذلك كله، كنت أنا الأخرى متحمسة لهذه الرحلة. فمعظم الأهالي قد وافقوا على السماح بتصوير أطفالهم - لا بد وأن فكرة وجود أطفالهم في فيلم ما بدت فكرة رائعة - لكني ومع ذلك أعددت نشاطًا فنيًا في ركني من المحترف، نشاطًا نعد فيه أقنعة من الورق المعجّن. في الأسبوع السابق للرحلة كنت قد قرأت مع الأطفال النسخة المختصرة عن أليس في بلاد العجائب، وعرضت عليهم مجموعةً من الرسومات القديمة الأصلية لأحداث القصة، للقط

تشيشاير، الجبروكي، وتويدلدم وتويدلدي وصانع القبعات المجنون: كنت قد أخبرتهم في الفصل أن لهم أن يصنعوا أقنعةً لأي شخصية من تلك الشخصيات، أو أي شخصية أخرى يختارونها. الخطة كانت تقتضي بتقسيم الأطفال إلى مجموعتين، مجموعة تبدأ بصنع الأقنعة بينما الأخرى تلهو وتستكشف بلاد العجائب، من ثم نبادل المجموعتين. الهدف التعليمي وراء تنظيم الرحلة لم يكن واضحًا حتى لي، لكن لا أحد من الأهالي استفسر عنه. ربما رأوا فيها فرصةً حقيقية يرى فيها الأطفال مرسم فنان حقيقي.

الأمور بدأت بشكل جيد. لدى وصولنا المحترف، بدا الأطفال مذهولين بغرابة الوضع برمته، جلسوا هادئين متحلقين في دائرة على الأرض في قلب الحرف (L) بينما سيرينا أخذت تفسر لهم من هي وما الذي تفعله. كانت جيدة في حديثها مع الأطفال، أفضل مما تصورت، وأخذت تتكلم كيف أن صناعة أي عمل فني هو عملٌ أشبه بالسحر، وكذلك أشبه باللهو. ما أثار اهتمامي حينها هو رضا، لدى دخوله المحترف لم يندفع إلى أمه كي يعانقها: بل جلس محشورًا بين نواه وأرستايد، متململاً مثله مثل أي صبيٍّ آخر. أذكر أني قلت في نفسي كم تغير رضا على مدى العام، من تلك الناحية: في سبتمبر الماضي لم يجد من حرج في إظهار تعلقه بأمه. ربما لم يشعر بالارتياح كونه ابنها، في هذا المحترف الأبيض الكبير، على مرأىً من الجميع، لربما وجد فيه أمرًا محرجًا؛ وربما ساوره إحساسٌ بالغرابة أيضًا حين شاهدنا معًا، أنا وأمه، فأدرك أن المحترف كان المساحة المشتركة بيننا. صراحةً لا أدري.

سيرينا شرحت للأطفال أنهم أحرار في التعامل مع بلاد

العجائب وكأنها مسرح، وكأنهم يؤدون في مسرحية. "أعرف أنكم قرأتم عن أليس،" قالت لهم، "وأريد منكم أن تدَّعوا أيضًا أنكم قد اندفعتم مثلها عبر حفرة الأرنب. وها أنتم هنا، في هذا المكان الغريب، حيث لأي شيء أن يقع." ثم أشارت صوب الكاميرتين اللتين أعددناهما قبل أسابيع، أعلى كل طرف من طرفي مرج العشب الصناعي، وأردفت قائلة، "في حكاية أليس في بلاد العجائب، أليس ليست واثقة إن كان هناك من أحد يراقبها. ربما الكاميرا مضاءة، وربما الكاميرا مطفأة، لذا لا تكترثوا لها. تخيلوا الأمر مغامرة تعيشونها، تخيلوها لعبة. لكم أن تلعبوا مع أصدقائكم، أو وحدكم. لكم أن تخلقوا من هذا المكان العالم الذي ترغبون به."

كنا قد علقنا شظايا الزجاج على الخيوط المتدلية من السقف كي نخلق تأثيرًا متلألئًا للقواطع بين عوالم بلاد العجائب، وبسطنا سماء ثوب-أليس الزرقاء على مدِّ الأرض في صورة منعطفات نهرية متمعجة من النسيج خلقت مساحةً أكبر للتجوال. كنا قد خطنا عناقيد كاملة من زهور الأسبرين، وزهور التوليب الصابونية، ونثرنا قطع الحلوى وحبوب الجيلي في المكان بأسره كي يعثر عليها الأطفال. جررنا مقاعدها العثمانية إلى مرج العشب الصناعي وأسدلنا عليها الخيش كي تبدو مثل الجلمود. وفي الزوايا البعيدة، علقنا عدة أزواج لأعين الجبروكي الحمراء الصغيرة، متى ما أضاءت، أصواتٌ هادرة كانت ستصدر عن مسجل إم بي ثري - كانت بحق أصواتًا مخيفة.

كل الأطفال أرادوا اللعب في بلاد العجائب. لذا كان من المتوقع أن تبدو صناعة الأقنعة بالمقارنة وكأنها جائزة ترضية. لكن التزمنا بالخطة وقسمنا الأطفال إلى مجموعتين وأخبرناهم أنهم سيحظون

بخمس وأربعين دقيقة في أداء نشاطهم الأول. بعدها سنحظى باستراحة نتناول فيها العصير والكوكيز، من ثم سنتبادل الأماكن. الحافلة ستكون في انتظارنا الساعة الثانية ظهرًا.

رضا ونواه وأرستايد ثلاثتهم انضموا أولًا إلى فريقي، مع ثلاثة أولاد آخرين مع مجموعة من الفتيات. ورغم خيبة أملهم لاضطرارهم الانتظار حتى يأتي الدور عليهم في بلاد العجائب، فقد كانوا متحمسين لفكرة صناعة أقنعتهم واللهو بها لاحقًا هناك. أشرت إليهم أن الأقنعة ستحتاج إلى أن تجف أولًا، ما جعل الأولاد يظنون أن عليهم التعجل في صناعتها. ساعدت الأطفال على تحديد أشكال أقنعتهم باستخدام سلك علاقة الملابس: أخذنا قياسات رؤوسهم، من ثم لوينا الأسلاك على هيئة أنوف ووجنات. من ثم، وإن لم يخل الأمر من المشاغبة، بسط الأطفال طبقات ورق الصحف الصمغية، وقولبوا باهتمام بالغ اللحم الورقي على العظام السلكية، طبقة فوق طبقة فوق طبقة.

قناع الجبروكي الذي صنعه نواه بدا هجينًا من ثور وحصان، طرف خطمه الطويل مثقوب بفتحتي أنف واسعتين. أرستايد صنع قبعة القط تشيشاير، أو هذا ما قاله، رغم أنه لم يمنحه أذنين، القناع لم يكن سوى ابتسامة عريضة جدًا، وهو ما أوفى بالمطلوب. رضا اختار الزغبة، شخصية ثانوية، وصنعها بإتقان. الأنف كان مستدقًا، الأذنان ثابتتين على القناع، لكن أكثر ما افتخر به هو شارباه، ست خيوط ملصقة على كل طرف من طرفيْ الأنف، بدت مثل شارب خفيف. الأولاد الثلاثة فرغوا من أقنعتهم قبل البقية، وطلبوا الإذن في الانتقال مبكرًا إلى بلاد العجائب.

كانوا قد أحسنوا التصرف، ووقت النشاط الأول قد شارف

على الانتهاء، لذا سمحت لهم. كان يجدر بي أن أسأل سيرينا أولًا؛ فلم أعِ إلى أي درجة كانت منشغلة في إعداد كاميراتها، واقفة أعلى السلم تعدل اتجاهاتها كي تصور أطفالًا بعينهم؛ وإلى أي درجة كانت منشغلة عن مراقبة الأطفال ككل.

الأمر وقع سريعًا. كنت أساعد صوفيا على إعداد قناع حيوان الفظ - مهمة أثبتت أنها أكبر من قدرتينا - حين لمحت، بطرف عيني، أن لهو الأولاد قد أخذ منحىً خشنًا. لبرهة قصيرة لم أفعل شيئًا لأني ظننت سيرينا تراقب الوضع؛ لكن سرعان ما نهضت وتوجهت إلى منتصف المحترف، فوجدتها منهمكة في تصوير إيبولينس وتشاستيتي تتدثران بنسيج سماء أليس وتبرمان حول نفسيهما، مولية ظهرها لبقية الأطفال. وفي غضون ذلك، من خلفها، رضا ونواه كانا يتشاجران، وأرستايد يلهث مذعورًا؛ من ثم رأيت رضا بوضوح يلكم نواه على فكه.

"توقف!"صرخت بأعلى صوتي - وفي الحالات النادرة التي تصرخ فيها الآنسة نورا إلدريدج المعلمة في آبلتون فالعالم كله يقف في محله. "توقف! الآن" واندفعت كالصاعقة إلى حيث كان الأولاد واقفين، أمسح الصمغ عن يدي على بنطالي. مسكت كل ولد من ياقة قميصه - تصرفٌ اعتاد المعلمون القيام به، لكن لم يعد مسموحًا به الآن - لكني كنت قد فقدت أعصابي. لا أدري كيف أصف لك شعوري لحظتها سوى أني أصبت بخيبة أمل شخصية من رضا. فقد خذلني. "ما الذي يجري هنا بحق السماء؟ رضا شاهيد، عليك أن تفسر لي الآن لماذا فعلت ما فعلت. فقد رأيت ما حدث، رأيتك بأم عيني. ما الذي دهاك؟"

رضا حملق بي غاضبًا، وهز كتفيه.

"إذن أنت أخبرني نواه. لا أصدق أن رضا لكمك هكذا دون استفزاز منك."

هو الآخر هز كتفيه. من ثم رأيت في قبضة يده عنقودًا من زهور الأسبرين، متدلية من سوقها السلكية.

"هل قطفت الأزهار؟"

"لا أحد أخبرنا ألا نفعل." وقد كان محقًا: لا أحد أخبرهم. "ومن ثم انقض رضا عليّ مثل المجنون."

"هل هذا ما حدث رضا؟"

رضا بدا غاضبًا جدًا، لم أره غاضبًا إلى هذه الدرجة من قبل، ومع ذلك لم يقل شيئًا. أخذ يخبط قدميه على العشب الصناعي. راودني الإحساس أن تلك لم تكن بالقصة كاملةً.

"هل صدر عن نواه أي كلام ضايقك؟"

رضا رفع عينيه: كان يبحث عن أمه، ووجدها، الإثنان تبادلا حديثًا صامتًا، لم يشملاني به. وهكذا ظل مصرًا على صمته.

حينها فقط وعيت إلى أن الجميع قد تحلّق حولنا في دائرة، مع سيرينا واقفة خلف الأطفال، تراقب ما يجري. لم يكن جليًا لي ما يدور في بالها. ففي حموة اللحظة كنت قد نسيت أمر وجودها، وإذ فجأةً تبدى الوضع غريبًا بشكل بشع: فقد كنت حانقة أكثر من المعتاد لأني شعرت بالخيانة على يد طفلي، طفلي أنا، طفلي المميز، الولد الذي أراد أن يجعل من العالم مكانًا أفضل؛ لكن، مثل صفعة على الوجه، ها هو التذكير بأنه ليس بطفلي. هو ابن أمه، والنظرة التي علت وجهها لم تكن بنظرة صديقتي بل نظرة أمه، إن فهمت ما أعني: أيًا كان ما

يدور في بالها، فهو ردة فعل الأم على رؤية طفلها يتعرض للتوبيخ على يد معلمته. أنا كنت المعلمة، الغريبة؛ هذا ما كنت عليه.

كانت لحظة من تلك اللحظات التي تسقط فيها الأقنعة، حين ترى بأم عينيك الحقيقة متجلية بوضوح، وكل ما بيدك فعله أن تقول لنفسك، "ها قد تعلمت الدرس." ما كان لدي من خيار سوى مواصلة لعب دور المعلمة حتى النخاع. غدوت متسلطة على الأطفال وصحت بهم: "ما بالكم واقفون هنا تحدقون، ما يحدث هنا لا يعنيكم بشيء، هيا عودوا إلى لهوكم وأقنعتكم. رضا ونواه، كلاكما ستجلسان هناك مقابل الحائط وإياكما أن تنبسا بحرف."

لدقيقة لا أحد تزحزح من مكانه. رأيت بعض الأطفال، منهم رضا، ينظرون نحو سيرينا، والتي بدورها أغلقت عينيها وأومأت لهم إيماءة خفيفة. من ثم ذهب رضا، وتبعه نواه، نحو الحائط، كلاهما منكّس الرأس مثل مجرم محكوم.

أخذت أرستايد جانبًا وسألته عمّا جرى. فأخبرني أن نواه تلفظ بأوصاف لئيمة عن بلاد العجائب، فقد وصفها بـ"المزبلة". كذلك قال لرضا، "أن فكرة أمك غبية جدًا. هل تظننا أطفالًا في الثانية من العمر؟" من ثم اقتبس إهانة عن مسلسل تلفازي، وكونه مهووسًا بالضراط، قالها هكذا، "سأضرط في وجه أمك." نيته كانت إضحاكه، فسر لي أرستايد، لكن رضا لم ير تعليقه مضحكًا.

سيرينا لم تقبل عليّ فورًا وتحادثني. ربما لم ترد أن تخلق مشكلة كبيرة. لم يتسن لي أبدًا أن أخبرها بما قاله نواه. ولا أتصور ابنها قد أخبرها. هي ذهبت صوب رضا وحادثته لثوان، كان جاثمًا مقابل الحائط، بدت متجهمة، لكن متعجلة، همها الشاغل العودة إلى

التعبث بكاميراتها علّها تخرج من هذه الفوضى العارمة بفيلم مقبول. لكن بعدما جرى، ما عاد الأطفال يلعبون بحريتهم؛ ما عاد الأمر يبدو طبيعيًا. حتى بعد تناولهم وجباتهم الخفيفة، وبعد استبدال المجموعتين، ظل الوجوم يعم الأجواء. لم تعد بلاد العجائب كما كانت.

وبينما نظمنا الأطفال في الصف استعدادًا للمغادرة، ظهرت سيرينا عند مرفقي.

"آسفة بخصوص ما جرى،" قلت لها.

"لا تأسفي. فواجبك إدارة فصلك كما ترين مناسبًا. لك قواعدك." تنهدت من ثم أردفت، "لكن للأسف الأجواء تغيرت من بعد ما جرى. فالأطفال حساسون جدًا، يستوعبون كل ما يجري من حولهم." من ثم قالت، "لا تقلقي بشأن العودة إلى هنا لتنظيف المكان. سأتولى الأمر."

"شكرًا، سيرينا." لم تكن من عادتي مناداتها باسمها هكذا. بدا مثل صدىً يتردد في أذني.

"إذن أظن هذه لحظة وداعنا لهذا الأسبوع؟ فأنا مسافرة إلى باريس في الغد."

"كنت قد نسيت." كنت أنوي القول، "سأبقي عينيّ على ولديك لأجلك،" لكني ارتأيت من الأفضل ألا أفعل. لذا قلت لها عوضًا، "أرجو أن تسير كل الأمور على ما يرام."

"لا تقلقي. ستجري على ما يرام" - أشرق وجهها للحظة، وبدت أقرب إلى طبيعتها - "فلن أقبل بأي خيار آخر."

***

لم يطرأ أي تغيير على علاقتي برضا. فقد أبدى ندمه على تصرفه - في اليوم التالي اعتذر مني قبل بداية اليوم الدراسي - عدا ذلك، لا أظنه وَعَى حقيقة التعقيد خلف ما جرى. كذلك لم تكن بنيته إعلامي بما حدث، إما لأنه لم يرد أن يكون واشيًا أو لأنه ما كان ليقبل بتكرار الإهانة التي وجهت لأمه؛ على أي حال هو رأى عقابه مستحقًا ومساويًا لجريمته. ما حدث قد انتهى ورمى به خلف ظهره، على الأقل بالنسبة له - ما بعث الراحة في قلبي.

***

سيرينا بالكاد أدت نصف ما يتطلبه تنظيف المحترف قبل سفرها. كدست كل الحتات الذي خلفه الأطفال - الأكواب والمناديل وغيرها - في كيس قمامة، وكنست فتات الطعام عن الأرض. أعادت ترتيب بلاد عجائبها، أعادت غرس الزهور وطوت النهر النسيجي؛ لكنها تركت كل الأقنعة غير المطلية مرمية في ركام فوضوي في ركني من المحترف، تركت الورق الصمغي ييبس في الدلو مما اضطرني إلى رميه. بوجودي في المحترف تنازعني خليط من المشاعر المتضاربة الغريبة عليّ. لم يكن من السهل عليّ بتاتًا التواجد فيه.

حاولت ترتيب المكان بشكل أفضل، مترقبةً عودتها. أعدت وضع الأدوات والأغراض بترتيب جلي، كما تفعل عاملة التنظيف لدى ترتيبها حجرة مكتبك. ما إن انتهيت، استغربت لدى رؤيتي زاوية سيرينا

من الحرف (L) مهجورة، مثل مريضة على فراش الموت، نصف عارية، ما أوقع في نفسي الحزن، فأدرت ظهري لها. وطوال ذاك الأسبوع، وجدت نفسي أتوجه إلى المحترف كل مساء، بادعاء العمل، لكن في الحقيقة ذهبت يحدوني الأمل، الأمل بسماع صوت وقع الأقدام تترامى إليّ من الرواق، الطرق السري على الباب.

كان مشغولًا، أدري. لكن بالتأكيد لم يجد في نفسه القدرة على المجيء ورؤيتي، مواجهة عجزه عن مقاومة شعوره الجارف نحوي. وكان محتملًا، أيضًا، أنه لم يرد أصلًا التعامل معي؛ لكن هذا الاحتمال لم أشأ تصديقه. من الأفضل لنا نحن الإثنين أن نتعامل بنبل مع المسألة، نغالب جراحنا بصمت، بعيدين عن بعضنا البعض. ما كنت أبدًا لأتصل به. ومع ذلك، كنت لا أزال ذاهلة أمام سطوة اللمس، ملمس الجلد على الجلد، وقدرته على تبديل كل شيء: ذراعه تضم جسدي المتمعج على جسده، رأسي مستلق على صدره، أشعر بخفق قلبه بين جوانحه وكأني أنصت إلى خفق قلبي بين جوانحي. أناملي لا تزال تذكر جليًّا خشونة شعر صدره، نعومة شعر ساعديه. إحساس وخز هلبه اللاسع على ذقني ووجنتيّ لدى نهوضي صباح اليوم التالي. جسده، يداه، لسانه: إن أغلقت عينيّ، سأشعر بها عليّ، فِيّ، ومعي. ما فتأت دومًا أتذكره، ذكرى جسدية، مثل دمغة أثر قدم في الأرض. وهنا أدركت، أن للعقل ما يشتهي وللجسد ما يشتهي. للعقل أن يثير الجسد، بيد أن رغباته قد تكون خيالات واهمة؛ بينما الجسد، الجسد الحيواني، فيشتهي ما يشتهي.

13

نهاية الأسبوع اللاحق كنت سأذهب مع أبي في زيارة إلى الخالة بيبي. لم أكن قد رأيتها منذ عشية الميلاد، في لحظة تهور وعدتها بأن نقضي السبت في بيتها، كي نذهب برفقتها صباح الأحد إلى القداس. قضيت الجمعة ليلًا في المحترف، بقيت هناك حتى منتصف الليل - لم أمس أي غرفة من غرفي، أضعت الوقت في قراءة الصحف الالكترونية واحتساء النبيذ الأحمر من الفنجان - ولا خبر بعد من إسكندر. صباح السبت، بعد جولة الجري حول الخزان المائي والتي لم تصفّ ذهني على الإطلاق، انطلقت لاصطحاب أبي وقطف باقة من زهور عود الصليب (زهرة أمي المفضلة) وباوند كيك (في حياتها، أمي كانت تعد هذه الكعكة بنفسها لخالتي بيبي؛ لكني توجهت هذه المرة إلى مخبز كولدج كورنر، كانت أمي قد عثرت عليه لدى انتقالها إلى بروكلاين وباتت تشتري منه بعد عجزها عن إعداد الكعك)، واتجهنا شمالًا صوب كيب آن.

"هل حادثت أخاك هذا الأسبوع؟" سألني أبي متأملًا الطريق السريع آي تسعة وخمسون، عبر النافذة الأمامية، دون أن يلتفت إليّ.

"لا. هل من سبب لأحادثه؟"

"عيد ميلاد تويتي."

"نسيت." لطالما نسيته. وأحيانًا أظن أني أنساه عن عمد. على أي حال، لم عساني أتذكره، فهي الأخرى ما تفتأ تنسى عيد ميلادي.

"هل هم بخير؟"

"أظن،" قال لي، من ثم ركن إلى الصمت عدة دقائق، لا صوت سوى هسهسة السيارات العابرة، من ثم، "لكني أخشى أن خطبًا ما قد وقع."

"ما قصدك؟"

"خطبٌ ما. لا أدري تمامًا، لم أشأ أن أسأل."

"ولماذا تظن أن خطبًا قد وقع؟"

"لأن... لأني حين طلبت الحديث مع تويتي، كي أتمنى لها عيد ميلاد سعيد، أخبرني مات بأنها خارج البيت."

"وأين الغرابة؟ فالناس تخرج من بيوتها."

"لكني لاحقًا حين سألته متى ستعود إلى البيت، كي أتصل بها مرةً أخرى" - هذا هو أبي اللجوج؛ ما كان ليتخلى عن ملاحقة الأمر ببساطة، عادة اكتسبها من عمله في التأمين - "أخبرني، في نبرة غريبة، بأنه لا يعرف. لذا سيكون من الأسهل لها أن تتصل هي بي."

"وما الغريب في ذلك؟"

"نبرة صوته، كانت ... كانت خشنة."

"لا أدري ما المفترض بي أن أستشفه من ذلك."

"جلف. نبرة صوته كانت جلفة، كأنه متضايق." على حد علمي - فقد كنت أقود السيارة - أبي لم يلتفت مرة اتجاهي، لكنه التفت إليّ الآن، وبدا متوجسًا، يخزر عينيه، قائلًا، "وهل سبق لتويتي أن اتصلت بك؟"

"أنا؟ بالطبع لا. لا تكن سخيفًا. لم تتصل بي ولا حتى مرة واحدة على ما يزيد عن عشرين عامًا."

"هذا تمامًا قصدي. أنا الآخر لم تتصل بي قط. حتى حين كانت أمك تنازع في مرضها الأخير، لم تتصل."

"لا، لم تفعل. أتذكر." كنت قد عبرت بوضوح عن ازدرائي حينها: "وأي عائلة هذه؟"

"لذا إما هو متضايق حدَّ غفلته عمّا يقول؛ أو يكذب عليّ عمدًا؛ أو ربما كانت تمر في تغيير جذري ... أيًا كانت القصة التي أحاول اختلاقها لتفسير الأمر، ما أفتأ أرى خطبًا قد وقع بينهما."

اختلاق القصص ما كان أبدًا من شيم أبي، بل من شيمي. "وما القصص التي تخطر لك؟"

"أنها قد هجرته."

"بالطبع!" وكدت أهتف، منية قلبك!

"أو ربما مريضة."

"مريضة؟"

"يحتمل أن تصاب بأي مرض - جسدي، عقلي، تدرين."

"حسنٌ."

"... أو ربما الطفلة هي المريضة."

"الطفلة ليست مريضة، أبي. ولعلمك فهي ما عادت طفلة."

"أو ربما دخلا في شجار كبير وهربت."

"واو. أراك اختلقت مسلسلًا دراميًا كاملاً عنهم. أخشى أنك شطحت في خيالك أبي."

"أو ربما يعانون من ضائقة مالية -"

وهنا ما عاد يسعني حبس ضحكي. "أبي، كل ما قلته هو ضربٌ من الجنون."

"أتظنين؟"

"مشكلتك الفراغ أبي، فبين يديك الكثير من الوقت. إن كنت قلقًا بشأن وقوع خطب ما، اتصل بمات واسأله. في الغالب سيسخر منك، لكنه ابنك، لذا سيسخر منك بلطف. وستشعر بالارتياح."

"أظنك محقة." تنحنح أبي وعاد شبك يديه المعرَّقتين محوّلاً وجهه صوب النافذة الأمامية. من هدوئه استشفيت أن واقعة الاتصال بالفعل قد أثارت فيه قلقًا عميقًا، لكن بعد حديثنا بدا وكأن الهم قد انزاح عن قلبه؛ وبالطبع، لاحقًا، حين اتصل بماثيو واكتشف أن تويتي قد كسرت سنها ذاك النهار على حبة زيتون وهرعت إلى طبيب الأسنان، ضحك ملء قلبه.

***

لدى قضائنا بعد الظهيرة في روكبورت - بعد غداء مطول على وجبة كركند، تلك الوجبة الجهنمية المبالغ في تقديرها؛ لحقتها نزهة سير بطيئة بطء السلحفاة على حائل الأمواج غير المستو، نشاهد الصيادين وانقضاض طيور النورس الحانقة، راكبي الأمواج الجريئين في ثيابهم اللامعة الشيطانية يحاولون ركوب الموج الأجاج المتكسر على الشاطئ، الزبد الرمادي على قمم الموج مثير للقلق، من الناحية السُّميّة؛ خالتي بيبي تعرج متكئة على ذراعي، تنضح برائحة بودرة كريهة؛ وأبي، متلبسًا هيئة رجل الأعمال المعتزل في سترته القطنية

الكحلية، يتهادى متجهمًا خلفنا - ظل بالي مشغولًا بحديثي غير المعتاد مع أبي في السيارة، والنصيحة التي أسديتها له. كانت النصيحة المثالية: إن أردت الشفافية من الطرف الآخر، فعليك أن تجد الشجاعة في نفسك وتكن صادقًا. النصيحة ذاتها لا تضمن لك صدق الطرف الآخر؛ لكن ما الخيار الذي تملكه؟

كان يجدر بي أن أصارح سيرينا بمشاعري قبل أشهر، لكني، وقد تستغرب ذلك، خشيت احتمال قبولها أكثر من رفضها، أو ربما ما خشيته حقًا هو محدودية واقعنا في حال قبولها. فقد كان من الأيسر لي عيش علاقتنا في عالم الأحلام؛ وها هي النتيجة، قد بات من المستحيل مصارحتها الآن. لكني، هذه المرة، عقدت عزمي على التوصل إلى حقيقة الأمر؛ ما يعني أن عليّ الاتصال بإسكندر، وسؤاله مباشرةً عن حقيقة ما يجري بيننا.

وما إن عقدت عزمي على الاتصال، بت متلهفة له. وجدتني نزقة مع خالتي بيبي: ليتها تعجل خطاها، ليتها تسرع في حديثها، ليتها تثير الاهتمام، ليت هذا اليوم الموحل في البطء – بطيء حتى مقارنةً بيومي الاعتيادي، في ذاته يفتقد لأي إثارة - يتعجل وينقضي. لكن اليوم لم ينقض إلا بعد التاسعة ليلًا، بعد انتهائي من غسل الأطباق، غسالة الصحون العتيقة صدئة الحواف تطن، وبعد اطمئناني إلى أن المسنيْن استكانا مرةً أخرى إلى سرد آخر قصص مرثيات معارفهما، حينها فقط تمكنت من التسلل خارجًا عبر الطريق المسدود باتجاه الشارع الرئيس باحثةً عن إشارة لهاتفي المحمول، كي أتصل ببيت شاهيد.

السبت ليلًا. تخيلت الهاتف يرن في غرفة جلوسهم، ضوءٌ معتم ينبعث من الثريا الكروية المتدلية. تخيلت ماريا، تعبث بأقراطها

وتلتهم الفشار أمام التلفاز، بينما رضا آخر الرواق مستغرقٌ في نومه، صدره يعلو ويهبط في غمرة الاستعراض الملون لعازفي الجاز. إلى هذا الحد كانت تفاصيل حياتهم مألوفة لدي. أو هكذا ظننت: بعد الرنة الثالثة، هو من أجاب.

تصوّرته يهمّ بالنهوض عن المقعد ذي الذراعين على صوت الصرير البالي، نظارته متدليّة من كفّه، عيناه تطرفان - قميصه الأبيض مجعد، الكُمّان مرفوعان حتى مرفقيْ ساعديه المُشْعرَين.

"إسكندر؟"

"نعم؟" بدا واضحًا أنه لم يتعرف عليّ.

" نورا. نورا إلدريدج."

"بالطبع!" تأنى للحظة. "وكيف حالك، عزيزتي نورا؟" عصي عليّ قراءة نبرته.

"كما تركتني،" قلتها بنية أن أبدو مازحة، مبتهجة. "كان أسبوعًا شاقًا."

"أجل." أجاب في نبرة تصريحية.

"ظننت أن طرقنا قد تتقاطع. تلك الليلة مع حفل العشاء - أي يوم كان؟ - توقعت رؤيتك ..."

"اعذريني. تأخرت رغمًا عني - لك أن تقولي إني كنت رهينة، رهينة طموحي. ومن حماقتي فدائمًا ما أخضع له. ما تفتأ سيرينا تهزأ مني لذلك."

"وهل أنت على ما يرام؟"

"من أي ناحية؟" بدا حذرًا، ما أثار حنقي. ألا يرى أن كلينا يقف في جانب واحد؟

"كنت أعني وحسب - أن لديك الكثير ممّا يشغلك، أليس كذلك؟ سيرينا مسافرة، أنت وحدك مع رضا - "

"آه، أجل. شكرًا لسؤالك. دوام ماريا الجامعي قد انتهى، لذا باتت متفرغة لنا طوال الوقت. الأمور على ما يرام."

"رائع." لم تكن هذه هي المحادثة التي أملت فيها. لكني ذكرت نفسي بضرورة استجماع قوتي وشجاعتي، أن أتحرى الصدق، كي أكف عن اختلاق القصص في عقلي."هل وجدت صعوبةً في التعامل - في التعامل مع الشيء الآخر؟"

"أي شيء آخر؟"

"تلك الليلة في المحترف. هل أنت على ما يرام بشأنها؟"

"أوه، عزيزتي. كيف لي أن أكون على ما يرام؟ لساني يعجز عن الكلام. عزيزتي نورا، كما سبق وقلنا، هناك أوقات - كيف وصفتِها؟"

"نخترق المرآة، أظنني قلت هذا. مثل أليس[52]."

"أجل. وكما سبق وقلنا، كانت هبةً نادرة، لكنها أيضًا ..."

"منفصلة عن حياتنا الواقعية."

"أجل. أجل، هذا هو الوصف المناسب. منفصلة عن حياتنا الواقعية."

"كلانا مُدرك أهميّة حماية سيرينا ورضا -"

"حمايتهما؟" فوجئ حقًا بما قلت، وأظنه قلق كذلك.

"كل ما أعنيه هو أنّه لا داعي لهما كي يعرفا بالأمر، أليس كذلك؟ أليس هذا ما اتفقنا عليه؟"

---

(52) في إشارة إلى الجزء الثاني من حكاية أليس في بلاد العجائب (عبر المرآة – Through The Looking Glass) حيث تخترق أليس المرآة إلى عالم آخر يشبه عالمها لكن منفصل عن واقعها.

"أجل. بالتأكيد."

"أتظنها تشك في شيء؟"

"تشك؟ لا أظن، عزيزتي. ما حدث بيننا هو أمرٌ منفصل، لحظةٌ صادقة تجلّى فيها مكنون القلب. لكن للأسف ما حدث بيننا ليس بقصة، من المحال أن يغدو قصة."

"كل ما عنيته -"

"لقد تشاركنا تجربة رائعة، عزيزة على قلبينا، ولا شيء سينقص من قيمتها. وبما أننا متفقان على كنه التجربة، فسيرينا لا شأن لها البتة بها. وأتدرين، لا أظن هناك ما يشغل بال سيرينا الآن سوى قلقها العارم على إنهاء إعداد عرضها في الوقت المطلوب وفي صورة تفتخر بها. صدقيني، هذا كل ما يشغل بالها الآن."

لاحقًا تساءلت إن كان ما يقوله لي أنها مؤخرًا لم تعره أي اهتمام يذكر، مثل حالها معي؛ أنه وجد نفسه مقصيًا من حياتها، أو الأسوأ، هي ببساطة أهملته، وأنه سعى إلى وسيلة إلهاء، أو سلوان مؤقت، معي. ربما لم يعِ حتى حقيقة ما كان يقوله لي.

أخذت نفسًا عميقًا وسألته، "هل لي أن أسألك شيئًا، بخصوص بلاد عجائبها؟"

"وما سؤالك؟"

"إسكندر، أتظنها تحاول أن تفصح عن أمر ما؟"

"تفصح؟" بدا وكأنه يدخن سيجارة.

"ألديك فكرة عمّا تظنه سيرينا المعنى الكامن في بلاد عجائبها؟"

يقينًا إسكندر كان يدخن سيجارة. فقد مرت لحظة قبل رده. جسدي كان يرتعش في الظلمة على الطريق المسفلت قرب الشارع

الرئيس: كان شهر مايو، ومع ذلك نسيم البحر الليلي كان باردًا. "ولماذا عساك تسألين سؤالًا كهذا؟ هذا ليس بسؤال يُسأل عن عمل الفنان، ما كنت لتسأليه حتى عن عملك أنت ... فلا معنى من طرحه. الإجابة تعود إلى الرائي، هو وحسب من يملك الحق والرغبة في منح إجابته الخاصة - هذا هو المعنى الكامن في بلاد عجائبها، وأظنه الشيء ذاته مع غرفك، ألست محقًا؟"

"لكن فكّر بالأمر: هي مجموعة إشارات، أليس كذلك؟ تجمعها في صور مختلفة كي تخلق تأويلات مختلفة، أليس كذلك؟ لكن التأويلات لن تكون لانهائية، أعني، هناك سقفٌ أعلى لاحتمالات تأويلك أي عمل فني، تأويلًا منطقيًا على الأقل، ألا تتفق معي؟"

"نورا، لا أدري إلى أين تريدين -"

"دعني أطرحها عليك هكذا. هل هناك من تأويلات ستكون بالتأكيد خاطئة تمامًا؟"

"تأويلات تظنها سيرينا خاطئة؟"

"لا. بل أعني تأويلات خاطئة في ذاتها - زائفة، مضللة، كاذبة."

"لم أعر الأمر حقًا أي تفكير، لكن إن إردت إجابة مني الآن، فسأقول أجل، أنت محقة. فكما الحال مع أي مجموعة من الحقائق، مع الحقائق التاريخية مثلًا، هناك تأويلات خاطئة. وهكذا الحال مع الفن - تجميعٌ مختلف للإشارات، وبالطبع الإشارات ليست بحقائق، وإن كانت تشير إلى حقائق - حيث هامش حرية التأويل أعرض من مثيله في التاريخ، لكن هناك بالتأكيد سقفٌ أعلى تغدو فيه قراءة الإشارات وتأويلها ليست وحسب في غير محلها، أو متطرفة، بل ببساطة خاطئة. أجل. سأجيبك بنعم. لماذا سألتني هذا السؤال؟"

استشففت من نبرة صوته أنه أعجب بي أكثر بعد طرحي السؤال عليه. لم يكن يجاملني؛ أظنه استعاد في ذاكرته النقاشات التي حظينا بها في نزهنا الليلية الطويلة، التهى بإجابته على سؤالي عن التفكّر في الاحتمال الوارد في عقله أني ربما سأغدو امرأةً متطلبة، مثيرة متاعب له ولعائلته المحبة وزواجه المستقر في طرق لم يتنبأ بها.

"لا سبب معين. كنت أتساءل وحسب. اعذرني إسكندر، عليّ أن أذهب الآن. فأبي في حاجة إلى مساعدتي." وهو ما قد يكون صحيحًا. لكن في الحقيقة، بعد إنهائي المكالمة - وإطفائي الهاتف - تسكعت في مدخل الشاليه لعشر دقائق، يغمرني الحزن على الحقيقة التي تجلّت لي التو.

لا تسأل عن شيء إن يبدو لك يسؤك، إن لن تعجبك الإجابة التي ستسمعها. هذا ما يعنيه أن تملك الجرأة على طرح السؤال. لم أسأله مباشرةً إن كنت أعني له أي شيء، أو عنيت له أي شيء، فما الداعي للسؤال إن كانت الإجابة جليّة في كل ما قال. ربما لن أكون أكثر من مجرد ذكرى متعة عابرة، أو، بوصفه هو، لحظة عزيزة، لحظة تجلي مكنون القلب - لحظة ما كانت لتغير ذرةً في حياته.

وقفت مكتفةً ذراعيّ قبالة ريح روكبورت، أحاول تقبل خسارة قصتي الخيالية الأحدث والأكثر ضرورةً في حياتي. فقد أدركت بعد فوات الأوان أن إسكندر هو راهبي الأسود، صديقي التشيكوفي. كان هو الراهب لا سيرينا. فإسكندر هو من كان بيده إقناعي بجوهري الحقيقي، عبقريتي، تميز أفكاري وجهودي. إن سلبتني الراهب الأسود، فمن أنا؟ إن لم يكن في حياتي من يرى فيّ إشارات قيمتي - قيمتي الفنية - كيف لي إذن أن أصدق تمتعي بها؟ كيف لي أن أقنع

نفسي بحقيقة تأويله، أمام إصرار العالم بأسره على التأويل المعاكس؟ لم تكن نيتي أن أدفعه إلى تفضيلي عليها - ما كنت لتطلب من شخص هجر عائلته لأجلك - لكن الخاطر راودني - الأمل كان يحدوني - بأني سأجد خياره بيننا أصعب. كنت آمل أن أقرأ في كلامه أني كنت من الأساس خيارًا.

متى ما كنتِ المرأة في الطابق العلوي، فلن تكوني الخاطر الأول لأيّ أحد. لا أحد سيتصل بك أولًا قبل الجميع، لا أحد سيبعث لك بأول بطاقة بريدية. ما إن تموت أمك، فلا أحد سيحبّك حبًا يفوق حبه للجميع.

قد تقول في نفسك، يا له من أمر سخيف، يعتمد على مزاجك وطباعك؛ ومعك حق، بالنسبة إلى بعض الناس فالأمر فعلاً سخيف. لكن بالنسبة لي، في تلك اللحظة على الطريق المسدود خارج بيت خالتي بيبي - أتصورها وأبي خلف بوابة الشاليه القرمزية وقد فرغ كلاهما أخيرًا من تشريح الموت، يجران أقدامهما جرًا إلى سريريهما، يستعدان لحضور القداس صباح اليوم التالي بريئين كما الحملان ومزهوقيْ الروح كما المصلوب - وقفت أكابد الهجران على يد الأمل. فأحدهم قد رآني، رآني على حقيقتي، من ثم طرحني أرضًا، ألقى بي مرة أخرى في كومة الجموع العادية مثلي مثل أي صدفة عادية على شاطئ البحر. المسألة ليست مسألة جنس، إشباع رغبة أو شهوة، على الأقل ليس هذا وحسب، رجاءً افهم ما أقوله لك - لم أتصوره أبدًا عشيقًا، ليس بهذه الطريقة، ليس كما يتخيل الجميع؛ لكن ما فعلناه معًا، لحظة اتحادنا، إن كان لي أن أصفها هكذا، كان اتحادًا مطلقًا؛ وربما كانت كذلك بسبب وجود الحدود الحقيقية لواقعيْنا، لحظة خلقت

هكذا بسبب حبنا الحقيقي للأشخاص في حياتنا المشتركة، وقد أثبتنا بالفعل حبنا لهم؛ ملمس جلده على جلدي - كل هذا الجلد العاري، الإهاب الرقيق المسدل النابض بين روحينا: تجربتنا كانت غنية اللمس بكل ما تحمله الكلمة من معنى. أو هذا ما ظننته. هذا كان تأويلي. هناك تأويلات أخرى لتلك الإشارات: "نحن حتى لم ننم معًا" ستكون إحداها.

لدى عودتي داخلًا، وجدتهما قد أطفآ الأنوار في الطابق السفلي. لا بد أنهما اعتقدا أني خلدت إلى النوم. تلمست طريقي على السلم اتجاه غرفة الضيوف في الطابق العلوي - أو بالأحرى الخزانة، مع سرير الناسك الضيق، حيث قوة المصباح على المنضدة لا تزيد عن خمسة وعشرين واط، ما يعني استحالة القراءة. استلقيت على غطاء السرير، بكامل ملابسي، تترامى إليّ في البدء أنفاس شخير أبي من ثم خالتي بيبي، اللحن المتنافر لصفير أنفاسهما، تحملها إليّ الريح عبر الجدران الواهية وكأننا نتشارك النوم معًا في ذات الغرفة، كل واحد منهما يجاهد في التقاط أنفاسه، مع كل شهيق منذر أسمعهما يدنوان خطوةً نحو النهاية القريبة المحتومة، وأنا، جسدي متصلب كما جذع الشجرة، عيناي تحدقان في الظلمة، أنتظر بزوغ الفجر، مشلولةً بالذعر الذي جرفني لحظة استيعابي خسارتي حياتي العزيزة على قلبي، حياتي التي كانت طوال ذاك الوقت، حياةً زائفة، مضللة، كاذبة.

الجزء الثالث

1

سيرينا لم تعد مرةً أخرى إلى كامبريدج.

لا، تلك ليست الحقيقة: في واقع الأمر هي عادت لمدة اثنتين وسبعين ساعة، في الأسبوع التالي، كي توضب كل ما يتعلق بها في نصفها من المحترف. ما يثير استغرابي هو عجزي منذ ذاك عن تذكر تلك الفترة الوجيزة، ومتى ما استذكرتها، دائمًا يراودني الإحساس أنها لم تعد. ربما لأنها كانت ملهية إلى حدٍّ جنوني. فقد نزل عليها الوحي أن بلاد عجائبها لن تتجسد بكليتها إلا في مكانها الصحيح - كذا قالت لي " نورا، وكأن كل ما فعلناه هذا العام لم يكن سوى لهو أطفال. كأني كنت أتظاهر بالعمل على مشروعي. والآن، مع انقضاء الوقت، مع حلول الموعد النهائي للمعرض، أشعر وكأني على فراش الموت، لا وقت أمامي أهيئ نفسي لملاقاة ربي. لا خيار أمامي سوى أن أكون مستعدة. لذا طاخ، حياة اللهو في كامبريدج لا بد وأن تُوأد اللحظة، وعلى الحياة الواقعية في باريس أن تبعث من جديد. طاخ، هذه اللحظة."

كانت ستصطحب رضا معها، ولم أجد جدوى في إقناعها بأنها ليست بالفكرة الجيدة. ليتك رأيتها، جسدها الضئيل شعلة متوهجة، طاقتها العارمة بالغضب، شغفها الجارف اتجاه مشروعها: القلب سيتم إنجازه في الوقت المحدد، والفضل يعود إلى صراخها

العالي على الرجل في المصنع، ووعدها له بأن تدفع له ضعف الأجر - أو لا شيء - في حال أخفق في عمله. نسخ الصور الضخمة المطبوعة على الموصلين ستنجز قبل الافتتاح بستة أيام، ومع ذلك لا تنفك تتصل يوميًا بالمعمل كي تتيقن من عدم نسيانهم لأمرها، نسيانهم لأمر تلك الفتيات، تلكن النساء الماجدات الضخمات العاريات.

كانت قد جاءت برفقة رجال أتوا بشاحناتهم الخفيضة وعتادهم في الضب والنقل وأقفاص الشحن البحرية لأجل زهور الأسبرين والعشب الصناعي وشظايا المرايا وقبة السماء الزرقاء الضخمة التي خطتها لها من أثواب-أليس. لا شيء من تلك الأشياء في ذاتها بدت جديرة بدفع المال إلى شركة نقل مختصة بعالم الفن من أجل نقلها - كاميرات الفيديو تلك التي نصبناها لأجل تصوير طلبة الصف الثالث - جمعوها تحت ناظريها ورقابتها اللصيقة الآمرة، وما إن دقوا المسامير في الصناديق الخشبية الحافظة حتى تبدّى لي كم هو تجميع مميز - أو بالأحرى متفرقات مميزة - تحمل قيمة أكثر بكثير مما كنت أتوقع.

نعم، التقيت بها، وحاولت مد يد العون لها - جررت خلفي كيسيْ قمامة ضخمين من ملابس رضا التي ضاقت عليه إلى المتجر الخيري في دايفز سكوير، أتساءل عن هوية الصبي الأميركي في الثامنة من عمره من سيجد نفسه قد تحول إلى صبيّ آخر متى ما ارتدى الصنادل الفرنسية وبناطيل البرمودا القصيرة من الخريف الماضي - أما الأحاسيس الحميمية، صداقتنا المقربة التي استمرت زهاء العام، فقد وضعت جانبًا بحكم الظروف لصالح التعامل مع الطارئ العملي للحياة الواقعية. لكن لا بأس، أعتقد أن كنه صداقتنا المقربة قد

تجسد في الأفعال لا في الأقوال، لربما كان عليّ أن أشعر بالإطراء لدى منحها إيّاي شرف كنس ركنها من المحترف، شرف استلام ثيابها من المصبغة وتوصيل طرودها البريدية الخاصة إلى مكتب البريد.... كان يجدر بي أن أشعر بالإطراء لأنها منحتني نصف قناني الخل البلسمي العتيق والخردل الفرنسي، بقايا أكياس كرات القطن وقنينة بلسم الشعر المستعملة: رأيتُ في اصطفائها لي المتلقي لعطاياها إشارة حميمية، لا تقل حميميةً عن وثوقها في خبراتي التربوية وائتماني على تولي رعاية ابنها؛ كما لا تقل عنها في حطها بعض الشيء من قدري. أنت مستغرب؟ لا تنتظر مني أي تفسير، أنا نفسي لا أملك تفسيرًا.

لذا، أجل، رأيتها، وفي الواقع تسنى لي قضاء وقت وإن قصير جدًا معها، وعليّ أن أقر أنها حتى في خضم سعار استعجالها المغادرة، واصطحابها ولدي المحبوب - من بدا مبتهجًا أيما ابتهاج برحيله، غافلًا عن أنه تركني هنا، كل تركيزه منصب على استعادة حياته القديمة، أصدقائه القدامى، غرفة نومه، وحتى لوح تزلجه - فقد وجدت في قلبها متسعًا لإظهار عاطفتها اتجاهي، بل حتى بدت معتذرة. قالت لي أكثر من مرة أنها ستفتقدني، وأني كنت "صديقةً لا تعوَّض". حتى أنها أهدتني وشاحها النيلي الأزرق الموشى بنخاريب النحل، المفضل لدي، والمفضل لديها أيضًا. الوشاح كان هدية نابعة عن حب، لأنها كانت ستفتقده.

لكن ذاكرتي تأبى الاحتفاظ بذكرى عودتها، ربما لأن بعودتها لم تعد الأمور كما كانت عليه؛ ربما لأن وقعه كان أكثر إيلامًا كوني لم أتوقع النهاية السريعة. كان يجدر بي أن أعرف أن النهايات السريعة هي من طبيعة الحياة، لأن وفاة أمي جاءت سريعة، وقد سبق وعشت

تلك اللحظات. أجل، لسنوات كنا مدركين موت أمي الحتمي نتيجة مرضها، وقد ماطلنا اعترافنا بحتميته، وبنجاح، لكن الغريب أن محاولة مماطلتنا استيعاب حقيقة موتها كانت أكثر نجاحًا كلما دنونا من النهاية، لأننا بتنا مصممين على النجاة من براثنه، مهيئين للنجاة، مع كل أزمة صحية تتعرض لها. وحتى في الأسبوعين الأخيرين من حياتها ما فتأنا نظن أننا نملك المزيد من الوقت؛ حتى في الساعات الثماني والأربعين الأخيرة ظننا أنها ستحظى بأسبوع أو أكثر، لهذا صدمنا - الموت حرفيًا أخذنا على حين غرة - صعقنا، فوجئنا، برؤيتها تلفظ نفسها الأخير.

وهكذا كان الحال مع رحيل سيرينا؛ كنت مدركة منذ لحظة لقائنا الأول نهاية علاقتنا الحتمية؛ من ثم عشت صدمة معرفتي بمغادرتها أبكر بكثير مما كنت أتوقع. لكن من كان سيهيئ نفسه لدنو النهاية بهذه السرعة دون إنذار، بهذه الطريقة؟

كذلك، حين فككنا مشروعها في المحترف، حين فككنا بلاد العجائب، بت واعية فجأة، مصدومة، أن المشروع بالكاد كان نصف منته - لم يكن مشروعًا على ورق، لكنه في ذات الوقت لم يتجسد حقيقةً بعد على أرض الواقع. فقد عايشته عن قرب طوال تلك الفترة، مع الرؤية الفنية لسيرينا عن بلاد عجائبها مغروسة في عقلي، حدَّ بت أراها في خيالي ولفترة طويلة عالمًا مكتملًا، قائمًا أمامي في المحترف، على عكس ما كان عليه في الواقع.

أمرٌ سخيف، أليس كذلك؟ كل تلك الساعات التي قضيتها برفقة كل واحد فيهم، كلٌّ على حدته، مخزون العاطفة العظيم والشغف الجارف الذي أغدقته على كل واحد منهم؛ أسألك، ما الأكثر واقعيةً

من هذا؟ بحقك أخبرني. وليس أن مصيرهم، كما كان الحال مع أمي، الموت، كأنما فرنٌ عظيم في انتظار سحقهم وتحويلهم إلى كومة غبار مثلهم مثل الخاطر أو الذكرى العابرة. بل كانوا سيواصلون الحياة، سيتنفسون ويتحركون ويضحكون ويتكلمون ويفكرون ويبدعون - لكن في بقعة أخرى على كوكب الأرض؛ وليست حتى بتلك البقعة النائية. لكنها نائية عني أنا، ولأني كنت واعية لمواصلة ثلاثتهم حياتهم معًا في استقرار واستمرارية تفتقر إليها حياتي، رغم أني سأبقى في ذات المكان وحياتي ستظل تدور على ذات المنوال، لأني ظاهريًا، أنا من لم أعش التغيير - فأنا من كنت أذوي على فراش الموت، لا هم. فأنا من اضطررت للتخلي عنهم، وفي التخلي عنهم، تخليت عن الحياة.

لم أرافق سيرينا ورضا إلى المطار لدى مغادرتهما مساء الأربعاء في النصف الثاني من شهر مايو، قبل شهر من انتهاء السنة الدراسية في آبلتون. كنت على علم بموعد مغادرتهما وحرصت على فعل شيء في ذات الموعد: توجهت إلى السينما لحضور عرض الساعة السادسة لفيلم ذه انتربرِتر، تاركةً لنفسي حرية الاستغراق في مكائد نيكول كيدمان وشين بن في الأمم المتحدة بينما الطائرة تقلع من مطار لوغان. لدى مغادرتي صالة السينما إلى عتمة غسق الصيف وقراءتي الرسالة النصية التي تركتها سيرينا على هاتفي: "كم أشتاق إليك، رضا يبعث إليك بقبلاته. زورينا في باريس!" فار الدم في قلبي. كنت قد كبحت نفسي عن تصوره، لكن بقراءتي رسالتها، ها قد اجتاحني من جديد: الأمل.

2

كنت قد التقيت بإسكندر أيضًا، قبل عودته هو الآخر إلى باريس بعد أسبوعين. اتصل بي ذات مساء، في وقت غريب، قرابة التاسعة ليلًا، يسألني إن كنت أود الالتقاء به الآن واحتساء فنجان قهوة. التقينا في المقهى الجزائري في هارفارد سكوير، حيث الأكبر سنًا من بين الزبائن محاطون بحلقات من الطلبة الجامعيين النابضين بحماستهم الغرّة. بدا عليه الإرهاق، عيناه خلف نظارته معتمتان ومطوقتان بالسواد. كم رغبت في مد يدي إليه، جالسًا مقابلي على الطاولة، ولمس وجنته. ما كنت لأسميها شهوة، ولا حتى رغبة، ليس بالتحديد؛ ما أعنيه، دافعي لم يكن بالجنسي، ولا حتى التملكيّ.

هذه الكلمات، هذه الأوصاف، ليست بالدقيقة، ولا حتى الملائمة: حين أتكلم عن الغرام، أو الرغبة، أو حتى التوق، فكل كلمة من هذه الكلمات تحمل في طيها معنىً يختلف من أحدنا للآخر. لذا دعني أفسر لك، وللمرة الأخيرة، طبيعة وقوعي في غرام أفراد بيت شاهيد الثلاثة: يقينًا العنصر الجنسي قائمٌ في علاقتي مع كل من سيرينا وإسكندر. لكن لم يكن الجنس هو الغاية. لم يكن العصب الرئيس في تجربتي معهما. التوق - "التوق" هي الكلمة الملائمة، أكثر من "الرغبة": فالتوق يحمل في طيه ألم مدِّ يدك وعجزك عن الحصول على مرادك،

نزوع نفسك إلى المحرَّم عليك، يحمل قوة الانجذاب الجسدي الجارف لكن السوداوي، انجذابٌ ولد حزينًا، حكيمًا، واعياً لنفسه ومستسلمًا لقدره. أما "الرغبة" فتحمل في طيها الاحتراق، العواطف المتقدة، شهوة الجسد، مخلوقٌ يشتهي الإشباع فوق كل شيء. وما عليك أن تفهمه عن علاقتي بعائلة شاهيد أني دائمًا ما كنت واعية - حتى في تلك اللحظات التي سمحت لنفسي أن أصدق خلاف ذلك؛ حتى في تلك المرة، تلك اللحظة العزيزة، حين حضنت أحدهم بين ذراعيّ - أن رغبتي لن تشبع، أبدًا لن تشبع؛ ومع ذلك فقد كنت قريبة بما يكفي لأتشبث بين الحين والحين بقصتي الخيالية عن إشباع رغبتي، قربي في ذاته كان كافيًا لي كي أبقي على خيالي حيًا، كل هذه الأعوام الطويلة.

لذا في الواقع تقت إلى لمس وجهه - إلى لحظة تواصل جسدي، أشعر فيها بملمس جلده على أناملي - لكني أيضًا كنت واعية تمامًا، ومتقبلة، أن أي شكل من أشكال التواصل الجسدي لم تكن مدرجة على جدول هذه الزيارة. (ومع ذلك، ألا أتمنى لو كنت امرأةً مختلفة؟ فلو كنت، لكنت تصرفت بشكل مختلف. فماذا كان سيظن الطلبة فِيّ إن تجرأت وفعلتها؟ ولم عساهم سيكترثون لشخصين كهلين مملين جالسين على طاولة محشورة في الزاوية؟ وماذا كان سيكشف لنا القدر، وكيف كانت ستتغير مصائرنا، لو أني تهورت ومددت يدي فوق الطاولة، وربت بحنان على وجنته الحلوة المترهلة؟)

إسكندر كان يحمل معه كيس مشتريات ووضعه على الطاولة بشكل أخرق بين فنجان قهوته التركية وكأس شاي النعناع بلونه البولي الساطع الذي طلبه لي.

"أنا مجبرٌ على إنهاء ضب الأغراض وحدي." قالها وفي عينيه

نظرة اعتذار عميق. "أنا لست جيدًا في هذه الأمور. في البدء ظننت أن من الأسهل الاحتفاظ بكل شيء، لكن ما إن أدركت صعوبة حزم المتاع ونقلها، بت أقول لنفسي فلنرمي بها كلها. تلك الأمور هي من اختصاص سيرينا، لكانت أدت عملًا أفضل مني بكثير." كان لي أن أستشف من كلامه أنها المرة الأولى التي تتركه فيها وحيدًا بهذه الطريقة.

"لذا فكرت بك،" أردف قائلًا، "من كنتِ نعم الصديقة لنا جميعًا، قلت في نفسي لربما ستودين الحصول على غرض أو غرضين من الحاجيات التي لا جدوى في اصطحابها معنا." ودفع بالكيس على الطاولة اتجاهي، موشكًا إيقاع كأس الشاي. مددت يدي لأتناوله. "لا تقلقي، لا داعي لفتحه هنا. فإن كان هناك من غرض لا تريدينه، لك ببساطة أن ترمي به."

ضحكت.

"لا، لا - لا أعني أن هذا الكيس هو كيس مهملات؛ على العكس. لكنها أغراضٌ لن آخذها معي على أي حال."

لم نقض وقتًا طويلاً في المقهى الجزائري - كان سيسافر الصباح الباكر في رحلة إلى واشنطن لحضور اجتماعات، ولا تزال أمامه الكثير من المهام التي عليه أن يتولاها - لذا في هذه البرهة القصيرة من الزمن التي جلسنا بها معًا فالشيء الوحيد الذي قاله في إقرار بما جرى بيننا كان هذا: "عيشي، عيشي حياتك نورا. أشبعي جوعك. فكل ما لذ وطاب من الطعام موجودٌ حواليك."

"وأي نوع من الطعام تنصحني به؟ أود أن أعرف."

"آه" - ابتسم ابتسامته - "عليك أن تذوقيها كلها، كي تعرفي الطعام المفضل لديك."

وأردت أن أسأله، ما الجدوى من وراء ذلك، إن كانت الفاكهة الألذ محرمةً عليّ؟

وقبل أن يمضي كلٌّ منا في طريقه على الرصيف، طوقني بذراعيه، يحضنني بشدة - وجدتني مغمورة بعناقه - ضمني إليه للحظات أطول من العناق المعتاد. كان عناقًا لا أحد من المارة سيرى فيه شيئًا غير اعتيادي يستحق التعليق، ومع ذلك فقد عرفت - أو ادعيت معرفتي - أن العناق عنى أكثر بكثير مما بدا عليه، عناقًا كنت سأقتات عليه لأمد طويل. كان خجلاً وأشاح بنظره عني ما إن انفصلنا، وأخذ يمشي مثقلًا يجر قدميه على الرصيف في اتجاه بيته. من الخلف، بدا لي ضئيلًا، مشيته مشية رجل مسن، مشية رجل قصير، وللحظة، وجدتني مرةً أخرى، بصورة أخرى، مأخوذةً به.

***

أما بالنسبة لكيس المشتريات، فسيلعب دورًا محوريًا في عالمي الخيالي على مر الشهور - بحق السماء أي شهور؟ بل على مر الأعوام اللاحقة! وما الذي كان يحتويه الكيس؟ ليت كان بوسعي إخبارك. فتحته وألقيت نظرة سريعة على محتوياته تحت إضاءة واجهة متجر على زاوية تقاطع شارعيْ براتل وتشيرش. لمحت نسخة من كتابه الأخير المنشور باللغة الإنجليزية - هدية تخيلتها تضم إهداء خاصًا منه لي؛ ورغم تلهفي لمعرفة ما كتب، لم أجد من المناسب تناول الكتاب من الكيس وقراءته في الشارع. لمحت كذلك لوحةً مطوية رسمها رضا - عرفت بمجرد رؤيتها أنها لوحة الشتاء: كنت قد علمتها الأطفال في

شهر يناير في حصة المادة الفنية، ولوحته بحق كانت مبدعة. كذلك لمحت في قاع الكيس، مستغربة، ثلاثة أزواج من مقصات المطبخ ذات المقابض البلاستيكية التي تشتريها من أي سوق مركزي؛ كان هناك أيضًا غرضٌ صغير، ومغلف. هذا الغرض بالذات لم أطق صبرًا على معرفته: تناولته ومزقت ورق التغليف، والذي كان ملصقًا بشكل أخرق لكن بحرص شديد، مزقته إربًا إلى أن انكشفت لي قلادة فضية ثقيلة، يتدلى منها، صليب فضي متقن الصنع، مرصع بالفيروز وبما بدا لي في العتمة حجرًا أحمر قان. كان ثقيلًا في يدي، وأنيقًا، باهتًا بعض الشيء لكن لا يزال باهرًا. وما المغزى من إهدائي إياه؟ لمن كان يعود؟

تركت القلادة تنزلق إلى قاع الكيس. فقد أردت تصوره يختار هذه القلادة بعناية لي، لي أنا بالذات. أما في الواقع فالاحتمال الأرجح أنها كانت هدية وداع رضا لي، اختارتها له سيرينا على عجل من كومة أغراضها، ونسيت أمرها في عجلة رحيلها. الاحتمال الأبسط والأقل إطراءً دائمًا ما يكون الاحتمال الأصح، هذا ما تعلمته على مر السنين.

لكن ما حدث، أني لن أعرف أبدًا. فالمعلمة الكفؤة المدبرة لأمورها رأت أن من الأفضل، طالما أنها على موعد لقاء ليلي، أن تصطحب معها أوراق درس الجغرافيا - رحلة جوردان وسامانثا على الطريق عبر عواصم الولايات - وتنسخ منها اثنتين وعشرين - لا، باتت إحدى وعشرين نسخة - كي تكون جاهزة في الصباح. لذا مررت على متجر كنكوز للتصوير المفتوح ليلًا، المجاور لمكتب البريد في حي ماونت أوبورن. الورق علق في جهاز التصوير مع النسخة الثالثة، لذا وجدتني مضطرة للبحث عن الموظف البدين، عيناه لا تنفكان ترفان تحت الإضاءة الفلوريّة، يقحم أصابعه البدينة الشاحبة في أحشاء الجهاز.

كل تلك الجلبة على عدة نسخ - ظننْتُ بذهابي إلى كنكوز أنني سأبسّط حياتي، لأن جهاز التصوير في المدرسة دائمًا ما يكون مشغولاً أو معطلًا - ولدى عودتي إلى البيت أدركت نسياني كيس إسكندر البلاستيكي على الطاولة المجاورة لجهاز التصوير رقم سبعة في مقصورة الخدمة الذاتية. حاولت الاتصال بهم، لكن لا أحد أجاب. تفكرت في أمر العودة هناك، لكن الساعة كانت قد تجاوزت الحادية عشرة، وشجاعتي خذلتني.

في الصباح الباكر هرعت إلى كنكوز قبل ذهابي إلى المدرسة، لكن الفتاة المرهقة التي حلّت محل الفتى البدين لم تملك أي فكرة عن أي كيس بلاستيكي. أرتني صندوق المفقودات والذي ضم مجموعة مفاتيح، مظلة، وقفازين غير متطابقين، وبلاك بيري مع صورة تنين ملصقة على ظهره: هذا هو المكان الوحيد الذي قد تعثر فيه على أي غرض ضاع منك في كنكوز. إريك كان سيعود في العاشرة ليلًا، إن أردت العودة مجددًا وسؤاله شخصيًا عن الكيس؛ للأسف لم تملك في يديها أي شيء آخر تفعله لمساعدتي.

وهكذا، في لمح البصر، اختفى الكيس: لن أعرف أبدًا مصدر القلادة ولا المغزى منها، ولن أعرف مضمون الإهداء الذي كتبه لي إسكندر، إن كتب إهداءً من الأساس، على الصفحة الأولى من كتابه. وبذا، بطريقة ما، بت حرةً طليقة في تخيل كل الاحتمالات.

لم أخبرهم أبدًا بفقداني الكيس، وإن رأوا من المستغرب عدم تطرقي إلى هداياهم وشكرهم عليها، فلم يظهروا لي أي إشارة على ذلك. لكن الطبيعة المتخيلة لتلك الأغراض القليلة كانت ستلعب دورًا جليًّا في إزكاء قدرتي الغريبة على إبقاء تعلقي بهم، على مر كل تلك الأعوام، متقدًا وحيًّا.

3

لقائي التالي بسيرينا جاء في نيويورك، بعد عامين تقريبًا، لدى انضمام مشروعها بلاد العجائب إلى العرض الافتتاحي للجناح النسوي الجديد في متحف بروكلين. طوال تلك المدة كانت آنا زي هي وكيلتها، والاثنتان باتتا صديقتين حميمتين - آنا زي كانت الأصغر عمرًا، وسيرينا كانت نجم الموسم الساطع. حين رأيتهما واقفتين معًا خلف الباب الرئيس لمعرض آنا في الشارع الغربي الثالث عشر، لمحت على تفاعلهما الجسدي ما ذكرني بالعلاقة التي جمعتني بها، وإذ بموجة عارمة من الغيرة تجتاحني.

سيرينا، رغم أنها الضئيلة جسديًا بينهما، بدت وكأنما تشع وهجًا، بل حتى ضياءً، وآنا منحنية نحوها كما الزهرة نحو الشمس. إقبالي على سيرينا لم يشُبْه أي ارتباك - هو العناق المألوف ذاته، أخذت تتأملني على بعد ذراع قائلةً، "نورا، عزيزتي، دعيني أنظر إليك!" لا أحد سيعرف، ومن بين كل الناس هي لن تعرف، ما الذي كانت تعنيه بالنسبة لي، فداحة خسراني، ورؤيتي لها الآن مرةً أخرى من هذه المسافة الحزينة المنعزلة.

كنا سنلتقي لاحتساء مشروب، لا لتناول العشاء: فهي فنانة باريسية في نيويورك مدعوة لحضور الافتتاح الكبير، وكل أمسياتها كانت محجوزة مع أناس أكثر أهمية مني بكثير. لكن في بعد ظهيرة ذاك اليوم كانت سيرينا من اللباقة بمكان أنها عرفتني على وكيلتها بصفتي صديقتها العزيزة الفنانة من بوسطن. وبتعريفها هذا، رمقتني آنا زي

بعينيْ السرعوف متى ما لمح فريسة جديدة، كأني قد أكون شخصًا مهمًا. لكن سرعان ما سألتني عن الأماكن التي "أعرض" فيها فني - مصطلح بيت مرح الفن إن كان هناك من وجود له - وشعرت بالدم يفور في وجنتيّ وأخذت أغمغم كيف لظروف عائلية صعبة أن أجبرتني على التوقف للوقت الحالي. بعدها، أدارت آنا ظهرها لي وعادت انحنت صوب شمسها، عدا عن بضعة نظرات سريعة فضولية ومشفقة رمقتني بها، كانت قد نفضت يديها تمامًا مني.

وماذا عن سيرينا؟ عامان قد مضيا. عامان تبادلنا فيهما تقريبًا عشر رسائل الكترونية، عامان قضيتهما أفكر كل يوم بها - بإسكندر ورضا. أتذكر كيف كلما سمعت أحدهم يقول، "لا يمر عليّ يوم دون أن يخطر لي س أو ص،" كنت أرى فيما قاله عبارة عتيقة محرجة ومغالاً فيها؛ لكن بفضل عائلة شاهيد بتُّ أفهمها. هم دائمًا في بالي، حتى أني خصصت لهم أوقاتًا من يومي، وأماكن أسرح فيها معهم منغمسةً في شهواتي. مثلًا، تلك العوالم الخيالية التي شيدتها - بعضها قديم والآخر جديد - خصصت لها فراش نومي بعد إطفاء الأنوار. كنت لا أزال أسرح بين الحين والحين إلى عوالم حياة الفنانة الحقيقية المنعزلة في فيرمونت أو توسكاني؛ لكن لاحقًا بت أسرح إلى عوالم تشوبها الخسة والدناءة، حيث أتخيل نفسي في باريس - في مطعم أنيق برفقة إسكندر، ركبتانا تتلامسان أسفل مفرش الطاولة في خضم نقاشنا عن الفروقات بين المفكر الفرنسي والمفكر الأميركي، أو أوضاع العراق بعد الحرب. أو قد أتخيل نفسي أتهادى متشامخة برفقة سيرينا بينما أصْحَبُها في جولة على عملي الفني في أحد أبرز المعارض وأسرد عليها كيف تملّقوني كي أقبل بهِم، وفي كل زاوية تقف

شابة يافعة في فستانها الأسود، تهابني، تنظر لي ذاهلة. حتى وأنا في غمرة تلك الأحلام كنت واعية لما يشوبها من نفاق - إذ ألم تكن علاقتي بعائلة شاهيد، بالنسبة لي، مفرًا من عالم المظاهر، بابًا على التجلي بصورتي الحقيقية - لكن ما كان بوسعي كبح نفسي: فطبيعة عائلة شاهيد قد أفسدتني. استماتتي لنيل رضاهم، وإدراكي لما يرونه جديرًا بنيل رضاهم - لم تشوه وحسب أحلامي، بل شوهت معها صورتي عن نفسي.

في ذاك الوقت، بعد عامين من مغادرتهم، بات يعتريني الخجل لبقائي معلمة في آبلتون؛ يكتنفني الخزي لأني ظننتهم سيكتبون لي أكثر، سيعيرونني اهتمامًا أكثر، أنهم سيحبونني بعاطفة أصدق وأعمق، لو أني أثبت لهم أني أكثر قيمة وأكثر إثارةً للاهتمام في هذا العالم؛ وهو ما دفعني - كم نحن كائنات مثيرة للشفقة - إلى تمني التحول إلى الصورة التي ترضيهم.

خذ علمًا، أني بالإضافة إلى خيالات وقت النوم، فقد سمحت لنفسي بالانغماس في هوسي الصامت بكل رسالة الكترونية تحمل أخبارًا عنهم. فقد وضعتُ اسمَي إسكندر وسيرينا في "تنبيهات جوجل"؛ وكم ستذهل - فأنا كذلك قد ذهلت - بعدد المرات الكثيرة التي نقر فيها الأثير على كتفي مع كل تطور جديد في حياة كلٍّ منهما. وبذا، لدى جلوسي برفقة سيرينا في الحانة المعتمة المجاورة لصالة آنا، كنت على علم مسبق بترقية إسكندر في الجامعة، عن سلسلة المحاضرات المهمة التي ألقاها في خريف 2006 في جامعة أوكسفورد. وكنت على علم بنشره تلك المحاضرات في كتاب سيصدر عام 2007، حتى أني كنت على علم بتصميم الغلاف؛ كما كنت على علم بأن

إسكندر قد حدَّث صورة المؤلف وبات يظهر للعالم أقل ضبابية وأقرب إلى حقيقته. كنت قد استمعت إلى حديثه على محطة بي بي سي الإلكترونية، يناقش قضية القصف الإسرائيلي على لبنان، وهو ما أثار فِيّ الحنين العارم إليه على مرَّ الأيام اللاحقة؛ كذلك كنت قد شاهدته على اليوتيوب يناقش بالفرنسية التي أجهلها الشأن السياسي في الجزائر، بدا في قميصه الأبيض الأنيق أكثر رشاقة مما أذكر. كما كنت على علم بكل التقييمات الإيجابية التي انهالت على بلاد عجائب سيرينا في باريس، ومن ثم في برلين، حين نصبوا عالمها في متحف هامبورجر بانهوف ضمن معرض **الروحانيات في الفن**. وكنت على علم بأن جامعي القطع الفنية قد أخذوا يتسابقون على حيازة أفلام الفيديو التي صورتها لزوار عالمها، وأن ذاك الرجل من موقع ساتشي قد اشترى فيلمًا من أفلامها، وبذا صيّر عملها الفني ذا قيمة مالية. كانت قد صورت رجلًا تجول في عالمها عاريًا؛ قهقهة أطفال مدرسة فرنسية، مثل أطفالنا في آبلتون بعد ظهيرة ذاك اليوم الذي بات من الماضي البعيد؛ وبالتأكيد، إذ لا مناص من ذلك، فتاة متنكرة بشخصية أليس. تلك الأفلام، أو بالأحرى، تجميع المقتطفات المختارة منها، كانت معروضة على مدار بلاد العجائب، وبذا كل من يزورها سيعي أنه حتمًا يتم تصويره؛ أحدهم كان قد كتب مقالًا مطولًا في آرت فورم عن الموضوع، عن ثيمة المتفرج والمتلصص في أعمال سيرينا شاهيد. ولأنها خلقت من حيلة التلصص دعايةً لعملها، فقد أوعزت إلى زوار المعرض، إيعازًا يفتقر إلى الحكمة، إلى التصرف بشكل مبالغ فيه لدى زيارتهم بلاد العجائب: الرجل ورفيقته اللذان ادعيا المضاجعة على مرأىً من العامة، الطالب الجامعي الذي دخل مرتدياً

بزة فروية بيضاء لأرنب ذي أذنين ضخمتين ... بالطبع سيرينا لم تعرض تلك النوعية العفوية العارضة، لكن النقاد المأخوذين بعملها أخذوا يسبرون تلك الحوادث طارحين الأسئلة عن الخط الرفيع بين الفن والاستغلال، إن كان ما تعرضه سيرينا هو صورة الفن المصنوع على يد الفنان والرائي أم مجرد عرض هزلي، وإن كان الانحطاط المصاحب لتلك الأفلام، متعمد أو عرضي، سيفضي بمقاربة الفن إلى مفهوم تلفزيون الواقع.

لكن مع كل ما قيل، لا أحد منهم أنكر قدرة سيرينا على صنع فنٍّ عميق وجميل ومؤثرعاطفيًا - الكل أجمع على هذا الرأي. وفي وقت قصير على مر العامين، نجحت سيرينا في خلق هالة جدلية حول عملها واسمها، وهذا الجدل هو ما أطلق شهرتها، خصوصًا في أوروبا، وسرعان ما وصل أصداؤه إلى عالم الفن في أميركا الشمالية، ومن هنا فمشاركتها في العرض الافتتاحي للجناح النسوي في معرض بروكلين ربيع عام 2007 - حتى وإن كانت مقررة بشكل رجعي بداع إسداء معروف أو مخاطرة من قبل قيمة المتحف - جاءت مشاركة محتومة ومطلبًا فنيًا. والآن بات للمؤرخة الفنية الشهيرة - زائد لقب القيمة على المتحف - أن تطنب في تأكيدها للجميع أنها كانت ستفضل قطع أصابعها أو دعوة رجل للمشاركة في المعرض على ترك سيرينا تفلت من يديها.

كل هذا عرفته من تنبيهات جوجل؛ ومع ذلك ادعيت جهلي بها. وكم وجدته مثيرًا للاهتمام - هي دائمًا مثيرة للاهتمام، حتى في إيلامها اياي - سماعها تتحدث عن نفسها، عن ولديها، وعن وقتنا معًا والذي بات من الماضي البعيد.

"أليس من الغريب،" قالت بينما تملس بإصبعها الملطخ بالصبغ القطرات المكثفة على كأس نبيذها الأبيض، "كم كانت تلك السنة جدُّ تعيسة، بالنسبة لي، أتذكرين ما حدث لرضا؟ وغياب إسكندر المتكرر عن البيت - وذاك الطقس. أتذكرين، نورا؟ كانت من أصعب أوقات حياتي." عدا أنها قالتها "أوقا-تِي"

"أظنني لم أع أنها كانت بذاك السوء." فما عساي أن أقول؟

"لم تعي أنها كانت بذاك السوء؟ لكن هذا هو الغريب في الأمر، من المحال أن تكون بذاك السوء، أو ربما كانت سيئة لغاية ما - فبلاد العجائب التي صنعتها -" تريثت من ثم أردفت مع إيماءة رأس رقيقة، "التي صنعتها بمساعدتك المذهلة، والتي ما كنت لأتمكن من صنعها وحدي - بلاد العجائب تلك هي مصدر التغيير الجذري في حياتي. أحيانًا أنسى ذلك، لأن الأمور لم تسر دومًا بسلاسة - ليس من المفترض أن أقول هذا، لأني حينها سأبدو جاحدة للنجاح الذي لقيته، لكن لك عزيزتي نورا" - اللمسة على ذراعي - "لي أن أقر بالحقيقة. العامان الماضيان كانا صعبين، مع كل ترحالي. لك أن تتخيلي أن رضا لم يكن سعيدًا بالوضع؛ ولا إسكندر. هو ليس بالرجل المستعرض، لأنه ببساطة كان محور الاهتمام؛ لكن ما إن أزيحت الأضواء عنه، ما عاد بالرجل المبهج. غدا صعب التعامل، عسرًا، وسيء التصرف. كذلك، فأمه باتت مريضة جدًا العام الماضي - هي أفضل حالًا الآن، لكنه السرطان، لذا القلق دائمًا يحوم في الأجواء - لذا أجل، كنت منشغلة جدا، لم يكن أبدًا بالأمر الهين." - طوال حديثها معي عيناي لم تفارقا وجهها، أمعن النظر إليها، أنتظرها تنظر إليّ، أن تلتقي عينانا وتراني؛ لكنها إما كانت منكسة رأسها أو تشيح بعينيها عني في كل اتجاه، لم

تركز بصرها على وجهي ولو للحظة - "لكن كأنما الوقت الذي عشته في كامبريدج، يا إلهي كم كان بالفعل وقتًا صعبًا علينا جميعًا - بات في صندوق منفصل، ووضعته جانبًا، لا مكان له في حياتي اليومية. مع أنه الوقت الذي شهد بداية التغيير، فهو وقت التقائي بك، صديقتي، وصناعتي بلاد العجائب. "

"لكنك لا تزالين تذكرينه؟" سألتها وأشعة شمس الشتاء المنسكبة على الأرضية عبر نوافذ المحترف تتجلى أمام عيني، صنبور المغسلة المبقع، الفناجين المشظّاة والمقاعد العثمانية والبساط الرث البالي أسفل طاولة القهوة. تجلى أمامي بيتهما، ملمس الخشب الرقائقي المصبوغ المهلهل لبابه الأمامي، مقبض الباب ينزلق في محجره، رؤيتي البقع على سجاد السلّم ذي اللون البيجيّ للمدخل لدى صعودي للأعلى، شمّي الرائحة البسكوتية الواهية التي ظلت عالقة بالبيت رغم تدخينهما المحظور المتكرر داخله. لا، بل أنا أتذكر كل التفاصيل: الملمس الشمعي لأكياس متاجر الكعك؛ انعكاس الضوء على شعرها في بعد الظهيرة التي قضيناها في أموديوز؛ صوت صرير فردتي حذاء إسكندر الرسمي على الثلج المنجرف خلفي، حين رافقني سيرًا إلى بيتي في الشتاء بين تيارات السَّفى، وتجمد حلقي من الهواء البارد الذي ابتلعته. ملمس العضلات الصغيرة المستديرة في عضديْ رضا كلما بدلت ملابسه استعدادًا للنوم، وحمة الفراولة على عضلة ذات الرأسين اليسرى، قفصه الصدري عار وهش مثل صدر عصفور؛ الأثر الفضي ينبثق يومًا بعد يوم من الحبار الأحمر قرب عينه - جراحة التجميل، في كعبها العالي غير المتوقع ويديها المربعتين ورشاقة جنيّات الحكايات الخيالية تغرز الجرح بالخيط والإبرة ... أي لحظة من تلك

اللحظات، كلها، كان لي أن أستحضرها، أحملها لها، واضحةً صافية، خرزةً مشعة تلو خرزة مشعة، لو أنها فقط رغبت بلمسها - رغبة بت أدرك أنها ليست متحمسة لإشباعها، "أوه، لي أن أتذكر إن حاولت - فأنا لست مسنة بعد! لكني أراها في ذاكرتي غَبِشة، معتمة حتى، وإن كنت متيقنة أن الطقس لم يكن معتمًا في بوسطن، من المحال أنها كانت معتمة طوال ذاك العام، أليس كذلك؟"

"لا،" أجبتها، "لم تكن معتمة، هذا من صنيع خيالك. ففي الحقيقة، بوسطن مدينة مشرقة."

أدري أن الكثير من تفاصيل تجربتي معها هي من صنع خيالي، أنا واعية لذلك صدقني؛ لكن يقينًا كانت هناك لحظات وتفاصيل واقعية، وكل تلك اللحظات والتفاصيل لا تزال نابضة بالحياة في عينيْ ذاكرتي - أما في ذاكرة سيرينا، فتلك اللحظات والتفاصيل قد باتت من سفاسف الأمور، طرحتها في المحيط الشاسع لماضيها. لدى إقلاع طائرتها على الخطوط الفرنسية قبل عامين، لدى تحليقها في سماء الليل إلى باريس، كانت قد رمت ببوسطن خلف ظهرها.

"حتى أني بالكاد أتذكر عملي على بلاد العجائب، لكن لا أزال أتذكر رؤيتك تخيطين كل تلك الأثواب الزرقاء."

"كان هناك الكثير منها."

"ستضحكين على ما سأقول لك، أتذكرين البطاقة البريدية التي أرسلتها إلينا، تلك الرسمة من الطبعة الأولى لأليس في بلاد العجائب، الرسمة التي تظهر فيها أليس ضخمة وبعنق طويل جدا؟"

"بالطبع." كنت قد أرسلتها بعد رحيلهم على عنوانهم السحري في باريس، كان طردي الأول لهم، ولم أنل أي رد، أرسلتها بحيث يتزامن

وصولها مع موعد افتتاح معرضها.

"حسنٌ، لا تزال معلقة على باب ثلاجتنا،" قالت لي مستمتعة. "هناك، طوال تلك الفترة الطويلة. لا أدري من احتفظ بها - لا أظنني أنا من علقها. ربما كان رضا؟"

ابتسمت. كان رضا.

" وبذا ها أنت معنا، طوال الوقت. أحيانًا أتناول عصير البرتقال، أو اللبن، وأرى أليس هناك، مشدوهة، ذاهلة العينين، بعنقها الطويل، وأفكر بك." وأخيرًا، في تلك اللحظة، سيرينا نظرت إليّ، رأتني، في تلك الحانة المقرفة، عيناها عليّ بينما تنقب بأصابعها العمياء في محفظتها المنتفخة بحثًا عن بطاقة ائتمانها، ابتسامتها كانت صادقة - الابتسامة التي عهدتها، الوجه القديم الذي أحببت.

***

وهكذا، روحي مفعمة بالحب، توجهت وحدي إلى زيارة متحف بروكلين صباح اليوم التالي، لحظة فتح الباب. كنت الزائر الوحيد الذي يتجول في بلاد العجائب في جو من السكينة، وكم فوجئت بالدفء الذي أضفته قبة أثواب أليس، ثلاثة صفوف عريضة من اللون الأزرق منسدلة من الأعلى، تتموج برقة على نسيم التكييف. الإضاءة كانت مسلطة بإتقان على عناقيد زهور الأسبرين، ذبذبة ألوانها الرقيقة تتوهج على مد العشب الأخضر الساطع؛ شظايا المرايا تومض متألقة، عصية على التجاهل، مقلقة، لكن ليست غامرة ولا مربكة. لم أكن قد نسيت أمر العاريات، لكن على ما يبدو فقد تغيرت

ملامحهن في ذاكرتي، أو أني أنا من بت أراهن بشكل مختلف - إصبع قدم الفتاة المائل، ثقل الحلمة الداكنة البارزة للنهد في أول ترهله، الوهج الرقيق للنمش على المنخر، الضلع الأعوج البارز، الشاهد على ما يقارب قرنًا من الزمن - وكم كانت صورهن ضخمة، أضخم مني، بعد أن كنت قد رأيتها في الماضي صغيرة على شاشة الحاسوب. ومثلها مثل كل ما عداها، رأيتهن يتموجن برقة، كأنهن يتنفسن، كأن الغرفة بأكملها كانت تتنفس من حوالي.

ثم رأيت القلب البلاستيكي الشهير، متوهجًا على منصته، مشقوقًا إلى نصفين، تجاويف أوردته الظاهرة تبدو مثل أنابيب النفخ على سترة النجاة في الطائرة، أحشاؤه قاتمة اللون، بدت رطبة رغم أنها جافة؛ من ثم شعرت بالرذاذ الأوتوماتيكي المتقطع من المضخة، تنامى إليّ الهسيس الخافت من أعماقه، وها هو ندى ماء الورد العزيز على قلب سيرينا - تجلي الروح، هذا كان المقصود بحركة ماء الورد، على ما أظن - يملأ الهواء، وما أن تشم عبق الورد تلتقط معه رائحة الموت، فهذه طبيعة ماء الورد. وأخيرًا، ها هي سناء، تدور حول نفسها، ضخمةً، تسمو فوق كل هذا العالم. كان هناك مقعديْ حديقة في المساحة الشاغرة الوسطى، فذهبت وجلست على المقعد الأيسر أتأمل العالم من حولي، في غفلة عن واقع تصويري في تلك اللحظة، رغم أن مثلي مثل الجميع، كنت مستباحة لعدسة الكاميرا.

لا بد أني بقيت جالسة هناك زهاء النصف ساعة، في نسيم ماء الورد بين الزهور المتوهجة. يا بلاد العجائب التهميني، اشربيني؛ آه ثم آه ثم آه. كنت لا أزال واقعة في غرام هذا العالم، في غرامها، أي غرامهم، وكيف لي أن أمنع نفسي، قل لي، إن بدا لي الجلوس في عالمها هذا

مألوفاً لدي، وكأني جالسة في عقلي أنا، كأني أنا من شيد بلاد العجائب هذه بيديّ، كأن هذه الحياة، حياتها بأسرها، هي لي، هي ملكي أنا أيضًا. وعلى مدى النصف ساعة، شعرت أني متخمة بالشبع، مفعمة، مثلي مثل وعاء يفيض بما فيه، الرعشة تسري على سطحه المقعر صوب السماء. كان هذا هو شعوري لأشهر برفقتهم، كل ثانية من كل يوم، من ثم لعامين سلب مني، الشعور بأن كل لحظة تحمل لي في طيها أملًا بالتغيير، أملًا يفتح الباب على كل الاحتمالات والعجائب، الوعد بعالم يناقض لحظة لوسي جوردان. كنت مفعمة ومشرقة بالحياة. وخيل إليّ، وظل يخيَّل إلي، أنها هي - هم - من منحوني تلك الهبة. ما كان بيدي أن أغضب، أغضب بشدة، من شخص أو شيء أشبع توقي إلى بهجة الحياة. فلا مناص من عشق هدية كهذه، ولا مناص من عشق هاديها.

***

أقر بأن إحساسي يومها ما كان ليفضي بي إلى أي مكان، لذا لن تصدقني إن قلت لك أني عشت عليه لعامين آخرين، عامين بقيت أتشبث فيهما بفكرتي عنها، عنهم، وعن الأمل الذي وهبوني إياه.

تأمل ذلك: عامان آخران. أي ما يزيد عن أربع سنوات، زهاء ألف وخمسمئة يوم، ما فارقتني فيها ذكراهم ولا ليوم واحد. من باب شعور مبهم بضرورة المضي قدمًا، من باب الواجب، خرجت في مواعيد مع عدة رجال - مطلق قلق وأب لثلاثة أطفال، ينوء تحت ثقل المرارة وواجبه الأبوي؛ رجل خمسيني من تبدت مثليته الجنسية

لكل العيان إلا عينيه؛ بوذي بأصابع طويلة نحيفة يتكلم بنبرة رقيقة مستفزة كدت معها أصرخ في وجهه وألكمه على صدره حيث يكبت كل مشاعره الحقيقية - ومع ذلك، كل مرة كنت أجلس في مطعم في موعد ما، تترامى إليّ ضحكة إسكندر، تتجلى أمامي ابتسامته المعتذرة، وأتذكر - كتابي عن عجائب الدنيا - كم أن الحياة تزخر بالكثير خارج حدود كامبريدج، خارج حدود ماساتشوستس، فتعتريني الرغبة بالنهوض موليةً ظهري للمطعم ومن فيه، أفر بجلدي من جحيم حياتي العادية.

كنت قد أخليت المحترف في سمرفيل قبل انتهاء صلاحية عقد الإيجار بفترة طويلة، إذ لم أطق أخيلة أشباحه، وحاولت بين الحين والآخر العودة إلى متابعة عملي على غرف الديوراما، لكن بلا طائل، وفي النهاية، بلا أي أمل. تركت غرفي مهجورة قابعة يغطيها الغبار الكثيف في حجرة النوم الثانية، ما اعتدت تسميتها سابقًا بمحترفي، منبوذة كما الجثث، كلما دخلت الحجرة أشحت بعينيّ عنها. ألف وخمسمئة يوم، عددٌ مرعب بالنسبة إلى الوقت المتبقي لي على هذا الكوكب، أهديت كل يوم منها في قلبي إلى عائلة شاهيد. يحق لك أن تقول إن الخطأ ليس بخطئهم؛ يحق لك أن تقول إن ما جرى هو محض جنون مني؛ لكن لن تكون محقًا، ليس تمامًا.

بعثت لهم بالرسائل الالكترونية، بين كل حين وآخر، على فترات متقاربة، معظمها إلى سيرينا، أو رضا - سألته إن درس دورة الحياة أم بعد، فطلبة الصف السادس في مدرستنا، تحت إشراف معلمة العلوم الجديدة، قد شرَّحوا البيض في مختلف أطواره وهتفوا في الأروقة ذاهلين أمام معجزة الحياة. حتى أني مرة وجدت عذرًا كي

أراسل إسكندر، مضمنةً رسالتي رابطًا لمؤتمر في كلية كينيدي كنت قد قرأت عنه، وأجابني بكل أدب وكياسة في سطرين مطمئنًا اياي أن كل الأمور على ما يرام، سائلًا إن كنت سأزورهم يومًا في باريس ... لكن في الغالب الأعم، لم تصلني أي ردود وأخبار منهم.

وفي بواكر خريف 2008، أدركت أن إسكندر قد قدم إلى كامبريدج دون الاتصال بي: ففي وقت متأخر من ليلة السبت حين أدرت على القناة المحلية، رأيته في سترة بدلته المتجعدة، يحل ضيفًا على حلقة حوارية عن العلاقات العرقية في أميركا - أي بمعطيات ذاك الوقت العلاقة مع الجالية العربية - يتحدث بفصاحة عن التأثير المحتمل لانتخاب أوباما على تغيير النزعة العامة لدى المجتمع الأميركي اتجاه الأقليات. البرنامج تم تصويره قبل خمسة أيام من عرضه؛ وكنت متيقنة أنه قد حمل متاعه ورحل. هل تألمت؟ أجل، لكن لم أشعر بالإهانة. لا تنس طبيعة التجربة التي جمعتنا، وظروف الحياة التي تفرقنا. خيرٌ لنا أن نبقي على التقاء قلبينا. عدا ذلك، ففي خضم دوامة الرحلات المهنية التي يقوم بها الأشخاص المهمون - فلا وقت بين يديهم يملكونه للاتصال بأصدقائهم القدامى حتى إن رغبوا في ذلك. صدقني، أنا أعرف.

هذه هي طبيعة المرأة في الطابق العلوي. نعض على النواجذ. نلم شتات أنفسنا. لا نخلق فوضى ولا نرتكب الأخطاء ولا نتصل بالناس نعوي وننوح الساعة الرابعة فجرًا. لا نكشف الأسرار حتى لو لم يلِق بنا الاحتفاظ بها. نبلغ سن الأربعين مستهزئات، نطلق النكات عن احتياجنا إلى كؤوس المارتيني وأن الأربعين هي النسخة العصرية من الثلاثين، ولا نصرح جهرًا، لا نحن ولا البقية، بما يجول فعلًا

في خواطرنا: "هكذا إذن، لا أظنها ستحظى يومًا بأطفال!" من ثم الخاطرة الأقل تسليمًا بها، "هل لأنها ظنت أنها لا ترغب بهم، أو ربما لم تحظ بالوقت أصلًا للتفكير في شأن إنجابهم (الحمقاء، كم هي فاشلة في إدارة وقتها) أو ربما، لأن المسكينة، تعاني من علة جسدية (الاحتمال المثير للشفقة)؟ وعلى أي حال، ما بالها بعد عزباء؟ فهي ليست بصاحبة السيرة المهنية المذهلة - هي معلمة وحسب، وحتى بين المعلّمات هي ليست شونا ماكفي!"

المرأة في الطابق العلوي مدركة تمام الإدراك لتلك الأقاويل عنها، تكره معرفتها بها، ويغيظها إدراكها لها، وبذا بكل البسالة المشهودة لها، ستدفن بيديها إدراكها وحقدها عميقًا في دواخلها، وكل صديقاتها سيتذكرن حفل عيد ميلادها الأربعين، الحفل الباذخ الذي أقامته بلا أي تقنين في النفقات في حانة فندق تشارلز، على أنه أروع حفل حضرنه منذ أمد طويل، من نوع الحفلات التي اعتدن حضورها قبل وجود الأزواج والأطفال، لا بد أن تقري بالفضل لنورا إلدريدج، فهي صدقًا جعلتك تشعرين وكأن الأربعين هي الثلاثين - حسنٌ، على أي حال. المرأة في الطابق العلوي مدركة لكل هذا، وستدفنه عميقًا، مثل امرأة تدفن رجالًا أمواتًا، لكن الرجال الأموات لن يغادروها إلى أي مكان، الهياكل العظمية ستظل مدفونة هناك، وهي ستظل مدفونة معهم.

وبالتأكيد لن تفصح المرأة في الطابق العلوي عن صداقتها بعائلة شاهيد لأسباب عديدة - فهي أولًا ورغم كل شيء لا تزال امرأة ذات كرامة - لكن أيضًا، من ضمن الأسباب، عدم رغبتها في الظهور بصورة الشخص الكريه الذي قد يُقرّ عرضًا في حديثه أن أناسًا مثل عائلة

شاهيد يثيرون اهتمامها وشغفها، يحتلون مرتبةً أعلى في تسلسل معبوديها، من الشخص الذي تحادثه عنهم. المرأة في الطابق العلوي، مَنْ ملامح وجهها دائمًا وأبدًا عطوفة مع الجميع، يستحيل وجود معبود لها، فما بالك بطوطم معبودين. المرأة في الطابق العلوي لا تملك هذا الضرب من الطموح الجامح إلى إرضاء ذاتها. عليها ألا تكشف أبدًا عن قلب قبيح. فمن عساه سيحب قلبًا قبيحًا، قلبًا وحيد؟

***

إسكندر، سيرينا، رضا - كل واحد منهم، في ذاته وبطريقته، كان راهبي الأسود. برفقتهم شيدت في دواخلي ديرًا حقيقيًا! كل واحد منهم، في محادثاتي الداخلية الحميمة معه، منحني منيةً من منى قلبي، المُنى المدفونة عميقًا في دواخلي، العزيزة على روحي: الحياة، الفن، الأمومة، العشق، والأعز من بينها جميعًا، الأعظم إغواءً، الوعد بأني لست عديمة القيمة، أن لنفسي أن تتجلى عاريةً عن كل زيف، أن تلك النفس المخبأة، تلك الطفلة الغالية، المخفية عن الأعين لعقود، لها أن تتجرد أخيرًا من قناعها، وأن بيدها، بل حتمًا باستطاعتها - أن تترك بصمتها في هذا العالم. فإن تحقق الوعد وعرفت أني لست بعديمة القيمة، فحينها لي أن أغدو فنانة، سيسمح لي أن أغدو فنانة. ومن سيسمح لي؟ هم. وكيف سيسمحون لي؟ بقيت أنتظر الإشارة.

اقتفاء الأثر، قراءة الإشارات، كم تقت إلى دليل ما على قيمتي - إن كان لي من قيمة على الإطلاق. وأخيرًا، قبل عدة أشهر قصيرة، أتتني الإشارة. أخيرًا، تجلى لي التفسير واضحًا لا لبس فيه؛ في لحظة،

حظيت بالتوكيد على قيمتي الحقيقية في أعينهم. أجل، تحوم وتحوم وتحوم حول نفسك لأمد طويل في دوامة الشك، تعانق الشك، تمزق نفسك بالشك: وفجأة يرفع الحجاب، ويتجلى لك كل المستور عنك.

4

ما أعجب الدنيا! أعظم ما قد يحدث لك - وأحيانًا أخطر ما قد يصيبك - يقع في طرفة عين، في رعشة يد أمي. وأحيانًا تظل غافلًا عن أهمية ذاك الحدث لزمن طويل لأنك ببساطة غير مصدق أن تغييرًا جذريًا كهذا قد يتجلى لك في صورة عادية مبتذلة.

خالتي بيبي توفيت، ميتةً رحومة مفاجئة، بين عيد الشكر وعشية الميلاد العام الماضي. لم يبتلها الرب بالمرض، مصدر قلقها العنوسيّ العظيم أواخر حياتها. عاشت بما فيه الكفاية كي تشهد حفل تنصيب الرئيس الجديد، كي تأمل، وتصلي للرب، أن يتولى الاقتصاد برحمته. عاشت حياتها مقتصدة في نفقاتها، وبذا لم تمت مفلسة، ورغم أن التركة قسمت على ستة أشخاص - أنا وماثيو وأولئك الأقرباء البعيدون المؤطّرون في الصور - وحتى بعد البيع المحبط لشاليه روكبورت ودفع الضرائب، تبقى لكل منا مبلغ مجز يناهز المائة ألف دولار. ماثيو وتويتي قالا إنهما سيحتفظان بالمال لأجل نفقات التعليم الجامعي لطفلتهما الوقحة - الزوجان العاقلان، يأخذان قرارًا عاقلًا. أي لم يحصل على أي مال، لكنها عينته الوصي على لوحتين فكتوريتين ضخمتين للأبقار في الحقول، محفوظتين في إطاريهما المنمقين، بالإضافة إلى طقم الشاي الفضي.

الشاليه بيع في أبريل، وما إن استلمت إرثي من خالتي، اتخذت قرارًا راديكاليًا: قررت أخذ إجازة لعام كامل من آبلتون. النقود في البنك، ومنتصف العمر على الطريق - كنت التو قد غدوت في الثانية والأربعين، وأتطلع إلى الثالثة والأربعين. التهاب المفاصل بدأ ينسل إلى ركبتي اليسرى، ما صعّب جولات الجري عليّ، وكنت قد بدأت أصبغ شعري كي أحافظ على مظهر طبيعي. بت في حاجة إلى نظارة قراءة لأجل النصوص الصغيرة على قارورة الأسبرين. كل هذه التحولات في عرض عامين وحسب. الموت يطرق على الباب. القناص متأهبٌ على الأسطح. كنت قد تخليت تقريبًا عن فكرة إنجاب طفل، لكن هذا لا يعني أني تخليت عن رغبتي بوجود طفل. كنت قد تخليت، كما ظننت حينها، وإلى الأبد، عن حلمي الخيالي في أن أغدو فنانة ذات صيت، لكني أملت المواظبة على عملي الفني؛ مفترضةً أن الوقت، أو بالأحرى ندرة الوقت، كان العائق الأكبر في طريقي.

كذلك كان قد مرَّ عليّ عشرة أعوام في آبلتون، عقدٌ كامل، حتى شونا ماكفي مضت قدمًا وغادرت المدرسة (مع أن في حالتها، مغادرتها لم تأت طوعية: فثورة أولياء الأمور عليها، والتي لم تخمد قط، أخيرًا وجدت صدى لدى المسؤولين في مجلس المدينة، والذين بدورهم، نقلوها.) وهكذا أعلنت أن السبب الرسمي وراء طلبي الإجازة أني قد بت بعد هذه الخدمة الطويلة في حاجة إلى استراحة قصيرة ألتقط فيها أنفاسي وأستعيد طاقتي، أعيد فيها اكتشاف العالم الجديد من حولي؛ أما السبب الذي فهمه الآخرون هو أني كنت في حاجة إلى التنفيس عما يختلج في صدري والتعامل مع أزمة منتصف العمر - أوه نورا، تلك المرأة اللطيفة، كم عملت جاهدة، كم كانت صبورة

مع الأطفال، وكما تدري فعليها الآن أن تتعامل مع أمور كثيرة. أما السبب الرسمي الحقيقي فكان حاجتي إلى الوقت والمساحة المطلوبة كي أعاود محاولة العمل على مشروعي الفني، إذ عجزت عن تدبير الوقت الملائم في الأعوام الماضية بين واجباتي اتجاه المدرسة وواجباتي اتجاه أبي المسن؛ أما السبب السري الحقيقي فهي أني كنت بائسة، فرغم مضي كل تلك الأعوام، ما برحت، كلما استلقيت على فراشي ليلًا، أتشبث بمزق عائلة شاهيد - أقتات على أقل القليل منها، بضعة رسائل إلكترونية روتينية وذاك اللقاء في الحانة، كل ذكرى لي عنهم قد بليت من كثرة الاستخدام - وبتشبثي بها كنت لا أزال أعلل الروح بوعد التجلي في وجود أكثر غنىً وإشباعًا وإذهالًا، التجلي الذي بدا محتملًا، بل حتى في متناول اليد، في تلك الفترة القصيرة التي عشتها برفقتهم. كنت قد تجاوزت الأربعين، ومن كل قلبي أردت منح نفسي فرصة اغتنام تلك الحياة وعيشها، رغم أني لم أكن أعرف حقا، ما الذي سيتأتى عن ملاحقة رغبة كهذه.

كنت قد سجلت في صف النحت في كلية ماساتشوستس للفنون، والتي ستبدأ في شهر سبتمبر، وكذلك في صف صناعة الخزف والفخار في محترف فني على طريق مونسينور أوبريان السريع، فقد ارتأيت أني سأحتاج إلى استكشاف فنون أخرى. كما اشتريت كاميرا الكترونية باهظة من الانترنت، كي أستكشف عالم التصوير بنفسي. بتُّ معلمة تنظم المنهج الدراسي لطالبها الوحيد: أنا. توجهت إلى المكتبة العامة وحصلت على الكتب المطلوبة - إيميت غوين، سالي مان، صور صادمة، مذهلة، حميمية - مدركة ألا عائلة لدي كي أصورها، عدا أبي، أو ماثيو وتويتي والطفلة التي لا أحسبها أصلًا من عائلتي.

أما أكثر تلك القرارات جموحًا فكان قرار السفر في رحلة صيفية إلى أوروبا. ولم لا؟ لم أسأل أبي إن أراد السفر معي. واقترحت مازحة على ديدي أن ترافقني هي - بلا إستير وليلي بالطبع - والتي ضحكت على مقترحي قائلة، "وكيف عساك ستقابلين أي رجل مع وجودي ملتصقة بك؟ فعلى خلاف اللحية[53]: سيروني عشيقتك الزائفة وسأنفر الرجال عنك!"

"ومن قال لك أني ذاهبة إلى أوروبا كي ألتقي برجل. يا لها من فكرة سخيفة."

"لماذا سخيفة؟ أرى أن الوقت قد حان."

"حان؟"

"أنت تعيشين الآن ريعان عمرك! مثل الآنسة جين برودي[54]. أتذكرينها؟ لكن لا تنسي، فريعان العمر لا يدوم طويلًا، فإياك أن تضيعيها."

"أضيعها؟"

"نورا القمورة، هل عليّ أن أقولها بصراحة في وجهك؟ متى كانت آخر علاقة جنسية حظيت بها؟"

هززت كتفي استخفافًا.

"أنا لا أحاول حشر مفهوم الحياة العائلية في حلقك. ولا أدعي أن الحياة التي أعيشها هي مناسبة للجميع. عن نفسي لا أرى خطبًا في

---

(53) (اللحية – the beard): لفظة دارجة تطلق على الرجل الذي يرافق متحوّلًا جنسيًا (من ذكر إلى أنثى) كي يؤكد على أنوثة المتحول ويزيد من فرص جذب انتباه الرجال إليه.

(54) في إشارة إلى الشخصية الرئيسة في الفيلم السينمائي (The Prime of Miss Jean Brodie)

رفضك الحياة العائلية. لكن لا بد أنك ترغبين بشيء."

"وماذا إن لم أكن راغبة؟"

"إن كان هذا كلامك، فأنت إما تكذبين على نفسك أو عليّ. لأني أعرفك جيدًا، أعرفك امرأة تواقة للحياة."

"ماذا إن قررت الآن سلك الحياة البوذية؟ كما كنت تتمنين عليّ طوال تلك الأعوام؟"

"بوذية! يا له من هراء. كلب اللابرادور يجسد البوذية أكثر منك...نورا، عديني، أن رحلة الصيف هذه لا علاقة لها بالغرام القديم؟"

"عمَّ تتحدثين؟"

"بوذية، مستحيل، لكنك مهووسة. أعرفك جيدًا وأعرف أنك تخزنين الفتات أسفل صخرتك كي تقضميها لاحقًا كلما اختليت إلى نفسك. لذا أسألك، ولن أقبل أي هراء منك، هل عدنا إلى الغرام القديم؟"

كم أحببتها لسؤالها. تصرفها معي جاء نابعًا من صداقة حقيقية، والحياة لا تغدق عليك بالكثير من الأصدقاء الحقيقيين. لكني ضحكت على سؤالها في نبرة لامبالاة لم أع أني أملك القدرة على تزييفها، وأجبتها "يا لك من امرأة مجنونة. لا فكرة لدي البتة عمَّ تتحدثين."

***

رحلة الصيف في أوروبا بأسرها - على مد ثلاثة أسابيع – نظمتها

حول باريس، اعتمادًا على تواجدي في باريس وقت تواجدهم فيها. بالتأكيد لم أخطط لقضاء الثلاثة أسابيع في باريس - هي خمسة أيام وحسب. لكنهم كانوا ينوون السفر إلى إيطاليا ما إن تبدأ عطلة الصيف، إلى عائلة سيرينا، ومن هناك، بعد توقف قصير في باريس، سيسافرون إلى بيروت في إجازة قصيرة. كانوا سيسافرون على الفور ما إن ينتهي الدوام المدرسي لرضا نهاية يونيو؛ لذا تأكدت من تنظيم رحلتي بحيث تواكب زيارتي عاصمة النور وجودهم فيها.

لم أزر باريس منذ أيام عملي لدى شركة الاستشارات الإدارية، كم كانت أيامًا مترفة، أراها حلمًا من الماضي البعيد، أقمت أثناءها في فندق رويال مونسو وطلبت خدمة الغرف، وجبة فطور لا أزال أتذكرها جليًا بقدورها الثقيلة اللماعة لمعان القصدير ومفرش الطاولة الأبيض الجسئ، النادل يدفع بالطاولة بكل هدوء على السجاد ويضعها مقابل النافذة، وكأني جالسة في مطعمي الخاص. أما رحلتي هذه فكانت ستكتسي حلة أكثر تواضعًا: فقد حجزت غرفة مفردة في فندق ثلاثة نجوم قرب سان ميشيل، واسم الفندق (رجوت أن يكون اسمًا على مسمى) بليزان[55] أوتيل، ومن خلال تصفحي موقع الفندق الالكتروني رأيته يشابه فندق جين رايز[56] لكن مجدّدًا وفق

(55) Plaisant Hotel: المرادف باللغة العربية هو الفندق اللطيف.

(56) في إشارة إلى الروائية جين رايز وتوصيفها المعماري للفندق الباريسي التقليدي في عملها الأدبي (Good Morning, Midnight) حيث الشخصية الرئيسة في الرواية - امرأة في منتصف العمر تعاني من الوحدة والاكتئاب - ترحل عن لندن وتعود إلى باريس بعد عدة أعوام من مغادرتها لها حين كانت بعد امرأة يافعة، على أمل أن تستذكر السعادة التي عاشتها هناك في حبها القديم لزوجها الذي هجرها، وربما خلق بداية جديدة في حياتها. ومن خصائص الرواية وصف غرف فنادق باريس الصغيرة، إذ تبدأ الرواية وتنتهي بوجود الشخصية الرئيسة في غرفة فندق باريسي.

متطلبات القرن الحادي والعشرين، بأروقته الضيقة وصرير أرضياته وأنابيبه المعيبة، الطلاء بلون القصعين يومض على الجدران العارية التي اكتساها في الماضي البعيد القرمز القاني لورق الجدران الموشى بالورد الدمشقي.

***

هل كانت رحلتي مذهلة وجديرة بالذكر؟ وهل هذا سؤال تسألني إياه؟ مفتونة، سأسهب لك في وصف الطبيعة الشاسعة على طريق الرحلة إلى أوبان، السديم المفعم بضياء الشمس بواكر الصباح يحوم أعلى الأرض في جراسمير. سأطنب في وصف فندقي اللطيف في بلومزبيري، غرفتي الصغيرة، حمامي الصغير- حيث توجد يقينًا أصغر مغسلة على وجه الأرض. سأبعث فيك الملل من عرضي عليك الصور التي التقطتها لبيغ بن أو خليج نابولي، وسأذيقك معلومات مثيرة عن قصة عشق نيلسون وإيما، أو تاريخ آن بولين في البرج. كيف أني اندفعت في شراء الهدايا التذكارية لأجل عرضها على أطفالي في الصف الثالث، ناسيةً أني، هذا العام، لن أحظى بأطفال الصف الثالث. سأحدثك عن الوقت الذي تجاذبت فيه أطراف الحديث مع عائلة أميركية من ميلووكي على الطاولة المجاورة لي أثناء تناولي طبق الأرنب الويلزي في فورتنم آند ماسون، وشرائي طقم أربع كؤوس شمبانيا حوافها مطلية بالذهب وغير عملية على الإطلاق من سوق بورتبيللو، والتي اضطررت من يومها إلى جرها ورائي، موضبة في صندوق خاص ذي مقبض، في مختلف أنحاء رحلتي في أوروبا، وكأني أجر معي علبة

من قشور البيض، أو قنبلة.

في صباح من صباحات رحلتي، لدى إقامتي في فندق المنامة والفطور في جراسمير، مستلقية على الفراش أتأمل بعين واحدة ورق الجدران المعسلج والمغسلة الزرقاء الباهتة في الزاوية، قلت في نفسي بيدي أن أقضي النهار بأكمله مستلقية هنا، ولا أحد سيمانع. وسأختلق قصص زيارتي بيت ووردزورث، دون أن أكلف نفسي عناء رؤية غرض واحد فيه، يكفيني وحسب شراء بطاقة بريدية من متجر الهدايا - ومن يدري، ربما حتى لن أضطر إلى اختلاق الأكاذيب، فمن ذا الذي سيسألني أصلًا؟ في النهاية، أجبرت نفسي على النهوض، لا بدافع الرغبة - فلا رغبة كانت لدي سوى الذهاب إلى باريس - بل خوفًا من تفويتي وجبة الفطور الإنجليزي، الذي تعده السيدة كروكر في مئزرها الدانتيل وفق مقاديرها التي تخمنها؛ خوفًا أني إن تلكأت في مغادرة الفندق، فسأجد السيدة كروكر نفسها واقفة عند الباب في مئزر مختلف، مئزر مدبرة المنزل، مع المكنسة والفرشاة ودلو المنظفات الكيميائية، وستدفع بي، حانقة، إلى مغادرة الغرفة. دوافعي، حتى في تجنبي الخزي، دائمًا ما تنصب في إرضاء الآخرين. أظن هكذا هي الحال مع المرأة في الطابق العلوي، حتى إن غادرته، فالطابق العلوي لن يغادرها.

تجربة رحلتي في نابولي كانت أفضل نسبيًا، لأني رغبت حقًا في زيارة معالمها، ولأن المدينة المنهارة، المليئة بالقذارة، في حد ذاتها روعتني، والخوف دافعٌ قوي، عاطفةٌ تعاملت معها طوال حياتي. لدى مغادرتي المتحف على التل، المهجور من الزوار، أسير وحدي عبر موقف السيارات الشاغر حوله، تساءلت بيني وبين نفسي إن كان

خفقان قلبي السريع وانقطاع أنفاسي مردهما إلى إحساسي بوجود خطر حقيقي على حياتي، أم هي عادتي في الانغماس في الخوف آملة أن يبقيني الخوف متيقظة وآمنة. آمنة! متى ما تجاوزت عتبة الأربعين فلا مكان آمن. الطائرة تغدو فجأة هي المكان الأكثر أمانًا في العالم. الموت وتابعوه الصغار - الذعر، اليأس، المرض - سيلتقطونك في أي مكان، وحينها درع الشباب لن يعود في إمكانه حمايتك منهم. سيرينا لديها إسكندر، وإسكندر لديه سيرينا؛ مثل أمي، التي بت أفهم الآن، كان لديها أبي، حتى وإن كان في ذاته بالدرع الواهن المتواضع؛ وهو كان لديه أمي. ماثيو لديه تويتي؛ ديدي لديها إستير؛ خالتي بيبي، بالطبع، كان لديها ربها - فحتى وإن لم تكن بالمعنى الحرفي عروس المسيح، فقد عاشت معظم حياتها معه. أما أنا، المندفعة عبر موقف السيارات الشاغر في ساعة متأخرة من بعد الظهيرة أشد على أصابعي في قبضتيّ، فلم يكن لدي من درع سوى نفسي.

ومن ذاك الذي أراه يسير جانبك طوال الطريق؟ لا أحد، شكرًا جزيلًا على سؤالك وسحقًا لك. فقد قطعت وسأظل أقطع الطريق وحدي.

***

بليزان أوتيل أثبت أنه بالفعل فندقٌ لطيف، وهادئٌ فوق الوصف، مندسٌ نهاية شارع مسدود قصير على الجانب الأقل رواجًا من سان ميشيل مقابل حديقة مسورة. واجهته الجصية كانت مفعمة بالزخرفة الأرجوانية والزرقاء ومربعات النوافذ الحمراء، من

الخارج بدا أقرب إلى فندق انجليزي. غرفتي كانت مطلة على الشارع، بابها من طراز الأبواب العتيقة المدهشة (ذات المقبض البيضَويّ الذي ينزلق على قضيب معدني طويل اتجاه الوقب: آلية عتيقة وفي ذات الآن مستقبلية في بساطتها) والباب ينفتح على الفراغ، أو بالأحرى على الفراغ الذي أنت محميٌّ منه بشرفتك المسورة بأرق أنواع الحديد المطاوع. لدى دخولي الغرفة ووضع حقائبي أرضًا، فتحت النوافذ على مصراعيها وانتعش جسدي بهجةً لوجودي في باريس. لا خدمة غرف في الفندق، الإطلالة كانت لموقف سيارات وساحة أشبه بساحة الخردة عوضًا عن إطلالة برج إيفيل أو قوس النصر، لكن ما همني: فحتى صفارات إنذار الشرطة أثارتني؛ مثلها مثل رائحة المطاط المحترق في مترو الأنفاق واللطخ البرتقالية على النصب الحجرية تحت ضوء الشمس. كل تلك الأقوال المبتذلة عن أي مدينة ستتجلى جديدة على حواس كل زائر جديد لها وبذا لن يراها مبتذلة؛ مثلها مثل الحب، رغم كل الصور الوضيعة التي نعبّر فيها عنه، فكل مرة يصيبنا بسهامه، نشعر وكأننا نختبره لأول مرة: قد يتجلى مثيرًا مذهلًا مثل عرض ألعاب نارية أو متمهلًا حنونًا لكن غامرًا مثل نهر جليدي يقطع اليابسة؛ أو لحظيًا سريع الزوال لكن أخاذًا مثل حقول اليراعات على مدّ جزيرة مارثاز فينيارد التي اعتدت رؤيتها في صباي - أيًّا تكن صورته، سنراه كل مرة مألوفًا وجديدًا، وسيقلبنا كل مرة رأسًا على عقب.

وباريس، حسنٌ: موظف الاستقبال الشاب من شمال أفريقيا ابتسم لي ابتسامة متواطئة؛ النادل في المقهى السياحي في سان ميشيل حيث جلست لاحتساء الشراب في أول بعد ظهيرة لي في باريس - قدح بيرة باهظة، لكن مع إطلالة مذهلة على نوتردام - سألني لماذا شابة

يافعة وجميلة مثلي تسافر وحدها. هراء مثير للشفقة، أدري، لكني سعدت بانخداعي به - قوانين مختلفة، بيت مرح مختلف، وكوني مجهولة له جعل من تصديقه أكثر إغراءً. لكني عدت وتساءلت إلى أي حد غرامي بعائلة شاهيد جاء نابعًا أصلًا من طبيعتهم الأجنبية، من إدراكي حتمية زوالهم من واقع حياتي - إن كنت قد قضيت كل تلك الأعوام أتوق إليهم لأنهم ببساطة خارج متناول يدي. أنَّ الآن، بعد مرور كل تلك السنوات، سأرى أن شاهيد الذين أحببت ليسوا سوى صور من نسج خيالي.

لكنهم ليسوا من نسج الخيال، هم أحياء يرزقون. أمي ما عادت حية، وكذلك خالتي بيبي؛ ولا مكان على هذه الأرض لي أن أذهب إليه كي أعثر عليهما. أما مساء اليوم الثاني لي في باريس، كما اتفق عليه في الرسالة الالكترونية وعلى الهاتف (يا ترى هل شعرت بارتعاش، رجفة في نبرة صوتها؟ أم تراني سمعت صوتًا مختلفًا تمامًا عن الصوت الذي عاش في مخيلتي، الصوت الذي أفضله أنا؟) ركبت سيارة أجرة في طريقي إلى حيهم ذي الطراز البالي الرائج خلف الباستيل.

كنت قد قضيت كل تلك الأعوام أتخيل بيتهم، وحتمًا ما رأيته لم يتوافق مع ما تخيلته. المبنى كان على الجانب الخاطئ من الشارع. رواق المدخل أصغر مما توقعت. أما المصعد الضيق جدًا، ذو الطراز العتيق، بمصبَّعته التي تنفتح وتنغلق مثل منفاخ الأكورديون، فقد كان بالضبط كما تصورته، وبالتالي جبنت من ركوبه. صعدت السلالم حتى الطابق الرابع، وها هم - لا، ها هي سيرينا، واقفة لدى الباب، تجاعيد عينيها أكثر بروزًا، كتفاها أكثر صلابة، وقد أخذ مني الأمر عدة دقائق كي أعي مصدر التغيير في شكلها، ولمحته، كانت قد

صبغت شعرها، بات أسودَ بالكامل - أظنها اكتفت من تجربة التقدم في العمر؛ الغريب أنها بصبغها شعرها قد بدت أكبر سنًا. أو ربما هي بدت هكذا لأنها ببساطة باتت أكبر سنًا. قطار العمر يمضي بنا، كما يقولون، بها وبي أنا أيضًا. فهي تكبرني بالعمر بعدة سنوات، هي الآن تقف على شفا الخمسين المحفوفة بالمخاطر. رحبت بي على أكمل وجه، وتلقيت ترحيبها بأكمل وجه، وتعانقنا، وترقبت تلك اللحظة التي سينفتح بها قلبي. لكن ما إن أدخلتني شقتها، الخاطر الذي راودني من تلقاء نفسه كان: ها هو شخصٌ وقعت يومًا في غرامه. أو بالأحرى: ها هو شخصٌ يشبه، إلى حدٍّ كبير وغير مثالي، شخصًا وقعت يومًا في غرامه. ومن بين كل المشاعر التي أردت الانغماس فيها، ما كنت لأسمح للسوداوية والكآبة أن تنتابني: فأنا لي حجةٌ على هؤلاء الناس، من سلبوني روحي وجمعوها مع متاعهم وألحفتهم وكتبهم، واحتفظوا بها كل تلك الأعوام دون أي اكتراث لها. لي حجةٌ على رهباني السود الثلاثة من تنبّأوا لي - نبوءة أقرب إلى الوعد - بمستقبل لم أعش حتى بدايته وها هو ينسل من بين أصابعي إلى منتهاه؛ من رحلوا عني حاملين معهم نبوءتهم، من هجروني وحيدة وكأن حكايتنا كانت مجرد لهو ومزاح - كانت لي حجةٌ عليهم -

لكن من عساه سيظل متشبثًا بحجته أمام تلك الضحكة؟ أو أمام ابتسامة إسكندر التي افتقدتها وتقت إليها لأعوام، تلك الابتسامة الخرقاء ترتسم على وجهه وكأنما هبط التو بباراشوت على غرفة جلوسه غافلًا للحظة عن حقيقة مكانه ... هو أيضًا بدا سعيدًا حقا برؤيتي - كم عامًا مضى؟ - وبعد أن تعانقنا، أمسك بي من معصمي، في تصرف عفوي - كأنما، قلت في نفسي، سيرينا ليست موجودة معنا في

الغرفة أو كأني، للعجب، لم أكن سوى مجرد طفلة. من ثم خرج رضا من حجرته، من مكان ما آخر الشقة: قدماه عريضتان، شبه رجل أخرق، ملامح وجهه متناسقة بذاك الشكل الغريب الملائم للفتيان المراهقين - بثرة، لمحت بثرتين على ذقنه - وحاولت جهدي رؤية الصبي المثالي الذي أحببت. حاجباه باتا فعلًا كثيفين، وصوته أجش؛ لكن رموشه، عينيه: فيهما رأيت طفلي. أما سلوكه، فكلّا: تصرف وكأنما لم يعرفني يومًا، أو كأنما هو من لثم نهديّ العاريين بين زهور الأسبرين - إلى هذه الدرجة كان خجولًا، مرتبكًا، يلمحني من طرف عينيه مثل عذراء حيية، يمشي متثاقلًا يجر قدميه ويديه الضخمتين، أطراف دمية رجل متحركة ملتصقة بجسد صبي. عقص شعره باتت أطول، مثيرة. وقد عرفت، لطالما عرفت، أنه سيغدو فتى أحلام كل الفتيات. عرفت منذ الوهلة الأولى لالتقائي به، ما إن وقعت عيناي عليه. لم يتردد في إظهار ارتياحه ما إن سمحت له أمه بالعودة إلى غرفته كي يحل واجباته المدرسية، أنها ستنادي عليه لدى اجتماعنا على مائدة العشاء، أني تخليت بسعادة عن تشبثي به. ما إن صفق الباب، قلبت سيرينا عينيها - ولم يسبق لي أن رأيتها من قبل تتصرف على نحو أمومي أكثر من هذه اللحظة. "واجب مدرسي؟ أيتوقع منا أن نصدق هراءه. في عمره هذا، كل ما يشغل باله هو الفيسبوك. باتت هذه حاله، طوال اليوم، يتأرجح بين ألعاب الفيديو والفيسبوك – فهذا الآن هو العالم الاجتماعي للفتيان." ضحكت ضحكة مكبوتة ثم أردفت، "أفكر في العمل على مشروع فني يعبر عن ذاك العالم. لكن من الصعب ... نورا، صديقتي، أترغبين باحتساء كأس من الكوكتيل، أو النبيذ؟ ما الذي تفضلينه؟"

ومضت في طريقها نحو المطبخ - ومضينا معها - وكم كان المشهد مألوفًا، لكن مغايرًا. فكما درَّب رضا أمه على دور الأمومة، يومًا بعد يوم، على مر الأعوام، هي أيضًا دربت نفسها، منذ آخر مرة التقينا بها، على رؤية نفسها فنانة مهمة ذات شأن في هذا العالم؛ وكم كان جليًّا الإرهاق البادي عليها من محاولتها إقناع نفسها، مع أن من المفترض بها أن تكون جذلة بعملها، لا همًّ تحمله في قلبها.

***

أحدهم، كان عالمًا من معارفي، فسَّر لي مرةً كيف أن الوصول إلى تحقيق الانصهار النووي - ما بشأنه افتراضًا أن يحل أزمة الطاقة العالمية - يتطلب استنساخ ذات الظروف التي تولد فيها النجمة. مطلبٌ شبه مستحيل، نادرٌ وقوعه، وإن وقع، فـفرصة انتهازه تلوح أسرع من طرفة عين. في غرفة جلوس عائلة شاهيد، أدركت أني لم أقع وحسب في غرام تركيبة معينة من الناس، بل في غرام تركيبة معينة من الناس في لحظة معينة من حياتهم وحياتي. وما الجدوى من بقائي بيتر بان، الفتى الذي لا يكبر أبدًا، إن في اللحظة التي تمضي فيها ويندي قدمًا وتتغير، القصة بأكملها ستنتهي. كل واحد منهم كان مختلفًا، وإن ظلوا تقريبًا كما هم. فالتركيبة غدت مختلفة، وليس بيدك صنع المستحيل.

ومع ذلك، فالرحلة لم تذهب سدىً. كنا ما نزال أصدقاء. وما أزال أحسدهم على نعمة العائلة؛ دمي يفور مفعمًا بالحنان مع كل إيماءة مألوفة، مع كل عزَّة عفوية أعادتني إلى ماضينا المُشترَك. في

النهاية غادرت - مع الوعد بلقاء سيرينا على موعد غداء، أو على الأقل على الفطور، يوم الخميس (كنت سأعود إلى بوسطن يوم الجمعة) - متصوّرةً أني كنت على خطأ في ظني بأن خرقًا للثقة قد وقع من طرفهم، مفعمة بدفء استقبالهم الفاتن الحميمي، وزجاجة النبيذ التي احتسيتها، متأثرة أيما تأثر بالعشاء الذي أعدته سيرينا -

("أوه، لقد تذكرتِ! كم رائعٌ منك!" قلت لها.

"تذكرت؟"

"المرة الأولى التي دعوتني فيها إلى بيتك في كامبريدج؟ هي نفس اليخنة التي أعددتها."

"تصوري! كنت قد نسيت تمامًا. أخشى أنها ليست ببادرة بقدر ما هي إشارة على محدودية ..."

"الريبرتوار[57]" قاطعها إسكندر، غامزًا لي؛ ولم أستطع التبين إن كانت الغمزة تعني أنه هو الآخر تذكر وجبتنا تلك الليلة؛ أم أنها إشارة لي كي نغيظ زوجته معًا.)

- ومتأثرة أيما تأثر بالتفاصيل التي سردها رضا عن أيامه طالبًا في آبلتون - الرسم - التوأم - جداول الضرب. تأملته، عبر مائدة العشاء، محاولةً تقفي أثر الندبة على عينه: حين مال اتجاه الضوء، ظننتني لمحت خطًا أبيض شديد البهتان، لكني لست متيقنة. كنت ما أزال أحبهم، وإن بصورة مختلفة. شعرت بالغفران يغمرني، بعقلانيتي تعود إليّ. لكن لم أشعر بالأمل. ما إن استلقيت على سريري اللطيف المنخفض في غرفتي اللطيفة في فندقي اللطيف، وعيت بين الوعي

(57) Repertoire: مجموع الأدوار التي يعرفها الممثل المسرحي مسبقًا ولا ينفك يكرر أداءها.

واللاوعي، إلى شعور يتربص بي في أعمق دواخلي، كان نقيض الأمل - أي اليأس. ووعيت، لحظة غالبني النوم، إلى السبب الحقيقي الذي استدعاني إلى اختيار فندق مشرق، زاه، فندق من حقبة ما-بعد-جين-رايز، نقيض إميلي ديكنسون، وأبدًا بتاتًا ليس بفرجينيا وولف: فكل ما هو لطيف في بليزان أوتيل يحمل لزواره إشارةً واضحة جلية: **يمنع الانتحار هنا.**

عشت أحمل في قلبي كل هذا الغضب. أعوامٌ من الغضب، عقودٌ من الغضب، جسدي ينوء بثقله، يسري سمًّا في عروقي، في كل قطرة من قطرات دمي. وقد جررت نفسي عبر المحيط الأطلسي كي أطرح غضبي على عتبة باب. مثل رسالة ابتزاز: إما أن تهبوني كل حبكم واهتمامكم، أو هاكم هذا الغضب اللعين. كنت أكتنز في صدري جبلًا من الخراء، أجل، سمعتني، والوصف تمامًا في محله. أشبعوا توقي وإلا سأطرح خرائي عليكم. لكني لم أفعل. غادرت بيتهم مرحبًا بي، بل محبوبة، وإن كان حبًا مختلفًا، أصغر مما تقت إليه - حبًا ليس بالغامر كما النهر الجليدي ولا مذهلًا مثل عرض ألعاب نارية ساطعة ولا أخاذاً مثل شال من ضياء اليراعات يتدثر به نسيم الليل العليل. أدري، أدري، يظل حبهم ضربًا من ضروب الحب، لا أنكر، لكن كان ضربًا من الحب لا جدوى منه متى ما عصفت بك الريح.

5

هناك الكثير والكثير من المعالم في باريس. وإنها لأعجوبة أني تمكنت من رؤيتها. وأعجوبة أنني ظننت أن بإمكاني رؤيتها. فقد عودت نفسي لأمد طويل على رؤية باريس من وجهة نظر سيرينا وإسكندر، لا أقرأ عنها سوى كل ما يشير إليهما، ولكان صدمة من نوع آخر إن فوت على نفسي رؤية معالمها. وعلى كلٍّ، فقد كان لدي الكثير من الوقت في باريس: خمسة أيام كاملة. كنا قد تناولنا العشاء يوم الثلاثاء. وكنت سأتصل بسيرينا مساء الأربعاء أو صباح الخميس. في صباح الأربعاء نهضت ونزلت السلالم إلى قاعة الفطور - ردهة جميلة، مع أصائص زهور في الزوايا ونافورة كهربائية مقابل الجدار، ملاكٌ عارٍ v يحمل إبريقًا مقلوبًا، يتقطر منه الماء على وعاء بشكل محار - سقط متاع مذهلة ومبهجة - أحمل في يدي مجلة باريسكوب. ففيها تجد كل القوائم - الأفلام، نوادي المثليّين، جلسات قراءة الشعر، وصالات المعارض الفنية.

متجاهلةً فُتات الباغيت المتناثر طولاً وعرضًا على المفرش وثيابي والمجلة، تصفحت سريعًا قوائم المتاحف إلى أن وصلت إلى قائمة المعارض الفنية الخاصة. ففي باريس، مثلها مثل نيويورك وعلى خلاف بوسطن، يتسنى لأي تاجر تحف وأعمال فنية عرض بضاعته

في صالة خاصة، حتى وإن كانت ليثوغرافيا بيكاسو. أو حيث يتسنى لك رؤية صور روبرت بوليدوري الضخمة عن تشرنوبل، متاحة للبيع بسعر يفوق العشرين ألف يورو للصورة الواحدة. لم أكن جدية في محاولتي البحث عن اسم سيرينا - لأنها أخبرتني على العشاء أن لا عروض لها في الوقت الحاضر: في الربيع القادم ستعرض عملها في معارض سربنتين في لندن ضمن تكليف جماعي، الثيمة كانت الولادة الثانية والتجدد الروحي. لكن ها هي، اسمها مدرجٌ جانب صالة عرض في السابع من الشهر، وسيظل العرض مفتوحًا لعدة أيام وحسب. العرض يحمل عنوان: بعد الوقوع: أشرطة بلاد العجائب. الصالة لن تضم بلاد العجائب، فقط الأفلام التي صورتها فيها، وتلك التي صورتها للناس فيها، كي تمنح الزائر فرصة إبداء رد الفعل على أفلامها عن ردة فعل زوار عالمها.

بدا لي أني سأصنع معروفًا لها إن ذهبت وشاهدت أفلامها - فالأفلام، وفق ما أرى، هي العنصر الأقل إثارة للاهتمام في فنها؛ رغم إدراكي مخالفة رأي أهم النقاد لرأيي - وعلى العموم إن شاهدت أفلامها وكرهتها، فسأكذب عليها وأدعي جهلي بوجودها. كان لا بد أن أعترف لنفسي، كم كان تواضعًا جمًّا منها ألا تخبرني عن عرضها؛ أو لربما كان في الحقيقة غطرسةً منها، الفنانة العظيمة: ربما رأت في عرض أفلامها أمرًا تافهًا في مسيرتها الفنية لا يستحق حتى الإشارة إليه. على أي حال، كنت سأشبع فضولي، بنية صافية أو لا، وسأرى أفلامها بأم عيني وأقرر في نفسي رأيي عنها. لا أراه تجسسًا على حياتها - لا شيء مقارنة بتنبيهات جوجل التي انكببت لأعوام على التمحيص فيها، كل التفاصيل التي اختزنتها واكتنزتها في ذاكرتي كأنما هي نفسها من قالتها

لي، كأنما كل تلك الأعـوام كنـا على اتصـال وثيق، صديقتين حميمتين تتبـادلان أطراف الحديث يوميًّا.

قـررت أني سـأذهب صباحًـا إلى اللوفـر، ومن ثـم إلى متحـف أورسيه، من ثم سأشـد الرحـال سيرًا إلى الحي اللاتيني في طريق عـودتي إلى الفنـدق. وهكـذا لـن يبدو مروري من أمام غاليري ويرثر متعمدًا أو غـريبًا - حتمًا كان سـيظهر مصادفة في طريـقي إن حافظت على سير الرحلة كما خططت لها في عقلي. وبذا لـن يتسنى لها أن تتهمني بأني كلفت نفسي عمدًا عنـاء زيارة معرضها.

اليوم كان حـارًا، اللوفـر كان مزدحمًا بالحشـود، والتجـول فيه مضـن. المكان الوحيد الذي وجدت فيه الراحـة والتقطت أنفاسي كان الجنـاح الذي يضـم مسـكن نابليون، كان زاخـرًا بأنسجـة البروكاد والأثاث المذهـب، غـرفٌ من الآنية الصيني والأواني الفضية التي لا تثير اهتمام أي أحد (من ضمنهم أنا) ولهذا كانت شاغرة. كنت قد ارتكبت خطأ تناول الغداء في وقت متأخـر، في شـارع مهجـور قـرب متحف أورسيه، في مطعم يعمه الصمت وباهظ بشكل لا يعقل، مصدومةً من الأسـعار، طلبت وحسـب طبق مقبلات، عجينة صغيرة تحـوي وحسب ملعقة صغيرة من الدجاج بالكريمة وبقلة مائية على الجانب كزينة؛ ليست بالوجبة المناسبة التي تمدك بالطاقة المطلوبة للطواف في المتحف الثاني على كامل طوابقه الدائرية الضخمة بحجم محطات سكك الحديد. فقد انتابني الهاجس بضرورة مشاهدة أكثر ما يمكن من الأعمال الفنية - فمن يدري متى سيتسـنى لي العودة مرة أخرى إلى باريس؟ - لذا أجبرت نفسي على الدخول بين الحشـود في الأروقة الضيقة، أتلع عنقي في محاولة يائسة بغية تأمل لوحة، فأجهزة الدليل

الصوتي ما فتأت تصد بصري، كتلٌ سوداء على رؤوس تيار الجموع المتمهلة الهادئة تقطع الأروقة مثل قطيع من الثيران المخصيّة.

الوضع غدا لا يطاق. لدى خروجي، كان يجدر بي الوقوف لدى متجر مخبوزات وتناول قطعة اكلير أو على الأقل احتساء فنجان قهوة يعيد إليّ شيئًا من طاقتي. لكن لحظتها انتابني الرعب من كل ما هو فرنسي، لم أطق مواجهة إذلال التحادث مع النادل في لغة فرنسية ركيكة، أو الأسوأ، اضطراري إلى ارتكاب زلة الحديث باللغة الإنجليزية الأميركية مبررة بذلك أحقيّة ازدرائهم لي. قطعت الشوارع مرهقة، قدماي تؤلماني، مدركة بعد فوات الأوان أن المسافة أطول مما رسمتها في عقلي. ولماذا عساني أسرد عليك كل هذا؟ كي تعذرني، أو كي تقدر الحالة المزاجية التي كنت فيها، التي ستسبق ما سأشعر به لاحقًا في تلك اللحظة، كانت ستظل لحظة درامية بصرف النظر، لكن بالتأكيد وهني الجسدي والعقلي قبلها قد أجج من حدتها.

صالة غاليري ويرثر كانت تقع على شارع رائج مقابل نهر السين، تبعد عدة شوارع عن النهر نهاية جادة سان جيرمان. الأرصفة كانت مزدحمة بعد الظهيرة، لكن بالتأكيد لا تشبه ازدحام المتاحف؛ ومع ذلك فالصالة نفسها كانت هادئة، خالية من الزوار، لا أحد فيها سوى شاب شاحب في قميص أسود وبنطال جينز أسود، لدى دخولي المعرض، أومأ لي وحسب. سقف الصالة كان أخفض مما تصورت، وأصغر. لكنها كانت شاغرة، وبيضاء، وأرضيتها الاسمنتية مطلية باللون الأزرق، كانت بالتأكيد الصورة المثالية لصالة عرض أي نجم في عالم الفن.

كانت هناك ست شاشات فيديو - مؤطّرة ومُضاءة من الخلف،

شاشات مسطحة، أنيقة جدًا - معلقة على الجدران. كنت أبحث شبه آملة عن فيديو أطفالي في آبلتون، من تلك السنة التي قضيتها في الفردوس المفقود. لم يكن هناك من سرد واضح يفسر الترتيب الذي جاءت عليه الأفلام، أو فترات عرض متساوية أو شكل ثابت لها. إحداها بدت تجميعًا لصور ثابتة؛ أخرى، يظهر فيها أربعة من رعاة المعرض المزدحم يلتفون حول أنفسهم أمام سناء في محاكاة لرقصتها المعروضة على الفيديو، كان من الواضح أن الأمر معد له مسبقًا، ذكرني بإعلان شاهدته على اليوتيوب عن هواتف محمولة صوروه في مطار هيثرو. كل شاشة من تلك الشاشات جاءت مزودة بثلاث سماعات رأس محمولة على قضيب، ولك أن تختار الموسيقى التصويرية التي تشاء من بين الثلاث - كل واحدة منها متنافرة مع الأخريَيْن، حتى أنك قد تجدها كلها سخيفة. وإذ أقول في نفسي، يعتريني شيء من الحسد، "بالفعل هي جيدة، بارعة في هذا الفن - أيًا يكن كنهه."

***

فيلمي كان الأخير. كان معلقًا على عمود وسط الصالة، لذا للوهلة الأولى ما كنت ستنتبه إلى وجوده. من بعيد، بدا الفيلم مغبشًا، أقل مهنية من البقية، أشبه بأجواء فيديو من الثمانينات، بعفويته المدغدغة للمشاعر، مثل اللقية غير المتوقعة. ولدى اقترابي من الشاشة، لاحظت النقطة الحمراء والتي لم أرها إلا عليها وعلى شاشة أخرى، دلالة بيع كافة نسخ الفيلم - معلومة عرفتها من تصفح الدليل الذي التقطته من عند الباب. كانت هناك خمس نسخ متاحة

للبيع من كل فيلم - وهذا الفيلم قد بيعت كافة نسخه؛ لا نسخ أخرى متبقية منه عدا تلك المعلقة.

لدى اقترابي، أدركت أن بلاد العجائب التي أراها هي ليست ذاتها في الأفلام الأخرى. فعدا النوعية المغبشة للفيلم، الديكور نفسه كان نصف مكتمل، غير منته، والإضاءة مختلفة تمامًا. تلك كانت بالفعل بلاد العجائب التي أعرف: في محترف سمرفيل. قلبي كاد يطير. ظننتني سأرى رضا، يجري صاخبًا بين زهور الأسبرين. هل يا ترى تدخلي الصارخ ذاك النهار لم يدمر كليًا مغامرة آبلتون التي عشناها يومها؟ ظننتني سأرى تشاستيتي وإيبولينس تدثران نفسيهما بسماء أثواب-أليس الزرقاء، تتعثران وتسقطان على بعضهما البعض، أو حتى أني سأرى نواه يقطف الأزهار، عراكه مع رضا - من ثم بت قريبة كفاية لأرى حقيقة ما يعرضه الفيلم. لذا، كما ترى، فقدت رباطة جأشي: انقطعت أنفاسي. ما عدت قادرة على التنفس. بصري بات نفقًا مظلمًا ضيقًا لا أرى في نهايته سوى الشاشة، من ثم ما عدت أرى أي شيء.

***

الموظف الشاب حاول حملي، وهو ما كان أمرًا مذلًا لكلينا. لم يتعن حتى الحديث معي بالفرنسية - فملابسي، شكلي، هيئتي وعقلانيتي النيوانجلندية كلها تصرخ بأني أميركية - ظل يقول لي "هل أنت بخير سيدتي. هل أنت بخير، هل أنت بخير؟" سحب كرسيه من خلف مكتبه وأجلسني عليه. ناولني كأس ماء. اقترح عليّ أن أضع

رأسي بين ركبتي. على النقيض من مظهره، أثبت سرعة بداهته في التصرف في الأوقات الحرجة، ومع ذلك استشفيت انزعاجه مني، إذ بدوت له وكأني سائحة ضالة من الشارع، دخلت تدنس المعبد المقدس النقي لفن سيرينا. فليلعننا الرب إن دنس أحدنا معبدها!

ومع ذلك هذا كان موضوع الفيلم، مشرعًا أمام أعين العالم بأسره: تدنيس بلاد العجائب، وعلى يد من؟ على يدي أنا. واقع ظهوري مستلقية على ظهري شبه عارية، أدَّعي (ولا أظن الرائي قد وعي حقيقة ادعائي) أني إدي سيدجويك، وواقع استحالة إدراك الموظف الشاحب أن المُستمنية المتحمّسة في بلاد العجائب على الشاشة أمامه هي ذاتها المرأة في الطابق العلوي بملابسها المحافظة التي استولت على كرسيه وأفسدت عليه مزاجه، لم يخففا البتة من وقع الكارثة.

لا أدري كيف، كيف للكاميرا أن صورتني في أكثر لحظاتي خصوصية؟ بطريقة ما، أحدهم قد رآني متجلية على حقيقتي؛ من ثم عرضني، كأني غرضٌ ما، مثل فناناتي في غرف الديوراما. اتضح أني كبش فداء، لا أسهل من التضحية بي. في الصفوف العليا في المدرسة، نعلم الأطفال المبادئ الأخلاقية، نسألهم: هل ستضغط على زر سيقتل حتمًا شخصًا تجهله في الصين، إن كنت ستنال في المقابل مليون دولار. هل ستضغط على الزر إن كان المقابل الشهرة. إن لم يعرف أحدهم أنك أصلاً ضغطته. إن كان يعني أن العالم بأسره سيعترف بك فنانًا ذا شأن. إن كنت ستعرض على العالم بأسره الحقيقة الجلية للكائن البائس الوحيد الذي لا أحد لديه يضاجعه سوى نفسه. قل لي، قل لي هل كنت ستفعلها؟

أجل، الآن وقد فكرت بالأمر، كان من الممكن. فالكاميرات كانت

أصلًا منصوبة لتصوير الأطفال - كنا قد أعددناها ونصبناها قبلها بأسابيع كي نكون جاهزتين. أنا من ساعدها في نصبها. لكن كيف صورتني؟ فهي لم تكن متواجدة في المحترف طوال ذاك اليوم - أليس كذلك؟ لم أعد أتذكر بوضوح. لا بد وأنها زودت المكان بمجسات حساسة للحركة. وأعدت الكاميرات بحيث تشرع بالتصوير كلما التقطت تلك المجسات أي حركة، في حال وطئ أحدهم بلاد عجائبها. ربما كانت تصور نفسها؟ ربما لم تخطط أصلًا لتصويري، لم تكن تنوي اصطيادي بشبكتها؛ أو ربما تلك كانت نيتها. ربما أملت في التقاطي أفعل شيئًا في عالمها، لكنها بالتأكيد لم تتوقع تلك العطية العظيمة التي أهديتها اياها، الإذلال الفظيع المثالي. ومتى شاهدته؟ وهل شاهده هو الآخر؟ وإن شاهده، فزيارته غير المتوقعة للمحترف، إغواءه المفترض، تجلى في صورة مختلفة تمامًا. بات أمرًا بينهما، أمرًا لا يخصني أنا في شيء. حكاية لم ألعب فيها سوى دور كبش الفداء الغافل. إما بالكاد اكترثت لصداقتنا حدَّ استخدامها الفيلم - بيع الفيلم - وإما كانت غاضبة. لكن لم تكن غاضبة حدَّ مواجهتي؛ لم تكن غاضبة (إن كانت على علم حقًا بما جرى بيني وبين إسكندر) حد رؤيتها في الأمر ما يستحق الذكر. إلى هذه الدرجة كنت عديمة القيمة، حد صنعها بي كل هذا وإبقائها على صداقتها معي. يا له من عام مذهل لها: إلى أي حدٍّ قدمت يد العون لها.

هناك المتخيَّل وهناك الواقع. المتخيَّل - كيف صورتني ولماذا صورتني، هل صورتني مع إسكندر، ومتى قررت استخدام الفيلم - وتلك الأسئلة لن أحصل يومًا على إجابة عليها. حتى إن سألتها، فلن أعرف أبدًا الحقيقة. المتخيَّل - صداقتنا، غرامي بهم، أولئك الناس،

عوالمي التي اختلقتها عنهم - تظل محرمة لا تمس. وفي الجهة الأخرى هناك الواقع: ما جرى، ما تعرفه، أو تظن نفسك تعرفه يقينًا. لكن، ربما في النهاية، العالمين - المتخيَّل والواقعي - ما هما إلا الشيء ذاته؛ ولا يسعك أن تحمي أحدهما من الآخر. هناك ذاك الحيز في عقلك حيث لك أن تتحرر من كل القيود وتتجلى على حقيقتك دون أي قلق، من ثم هناك طبقات الأقنعة، قناعٌ يعلو قناعًا، تحمي به ذاتك الهشة؛ لكن ها هي، ذاتي الهشة الغافلة، متجلية في أكثر صورها تحررًا (الذات النزوية!) قد باتت في النهاية مشهورة، جلية لكن خفية، معلقة على جدار في باريس، كامل نسخها بيعت.

وعلى يد من؟ يد المرأة - ودعنا لا ننسى زوجها - من اصطفيتهما من بين كل الناس على وجه الأرض كي أقترب منهما وأغدق عليهما حبي، أجل، أغدق عليهما كل الحب الكامن في قلبي، غافرةً لهما جبلًا من الخطايا. لكن لن أغفر لهما هذه الخطيئة. أبدًا لن أسامحهما عليها. وكنت مدركة حتى في لحظة جلوسي جاثمة على ذاك الكرسي، أحتسي الماء الفاتر بطعم الكلور القوي من الكأس المغبشة في يدي، أصر على الشاب عدم احتياجي إلى سيارة أجرة، أو طبيب، أني سأستعيد طاقتي في ظرف دقائق وسأنهض مغادرةً المكان على قدميّ - في خضم كل هذا الارتباك كنت مدركة أني أبدًا أبدًا أبدًا لن أغفر لها هذا. أنها عادت وأخطأت في حقي مرة أخرى - لا، كلاهما ارتكب الخطيئة في حقي، لأنه كان ولا بد على عِلْمٍ بذلك، في مرحلة ما كان على علم، كان يعرف، ولم يفعل شيئًا؛ أو الأسوأ، قدم إليّ تلك الليلة فقط لأنه عرف - لكن يظل هذا الاحتمال أكثر مما أطيق - من غير المعقول، من غير المعقول - أقدما على خيانتي ببشاعة، على تدمير كل

ما شيدته بمنتهى القسوة، كل شيء.

أسألك ما الداعي إلى الانتحار إن كنتَ أصلًا مقتولًا.

***

لم أتصل بهم. لم أطق حتى تصور اتصالي بهم. ولم أتصل بديدي، وإن كنت على وشك الاتصال بها، لكني أبيت الخوض في تفاصيل ما جرى معها. فكيف لي أن أفسر، من أين أبدأ وصف حقيقة شعوري لحظة رؤيتي نفسي العارية معلقة على جدار معرض سيرينا، الموج الهادر للغضب الذي ثار هائجًا فِيّ - غضبي اتجاه التأويل الحقيقي لما أرى، اتجاه كل واحد فينا، أو لربما اتجاهي أنا بالذات، اتجاه كل الكذب الذي أصررت على العيش فيه طوال كل تلك الأعوام. الانهيار المفاجئ لكل ما آمنت يومًا أنه اليقين. وماذا عن الفن، وعن كوني فنانة: أهذا إذن الثمن المطلوب دفعه كي تغدو فنانًا يشار إليك بالبنان؟ أهذا ما يعنيه "التضحية بكل شيء" في سبيل الفن؟ أو الأصح، بكل الناس؟

***

وها هو الجانب المشرق: حملت معي كل هذا الغضب، صدري يطفح به، وقد بات الآن مسموحًا لي التعبير علنًا عنه. الآن بات مبررًا لي الشعور به. قد تعلمت من أخطائي. تحررت أخيرًا من وهني وفشلي: كنت حمقاء غبية، لكني الآن بت حمقاء حكيمة.

الكون دمرني، بددت حبي الثمين كما الذهب على زمرة تافهة حقيرة؛ عاملتني وكأني لطخة قذرة. أنت لا تريد أن تعرف إلى أي حدٍّ أنا غاضبة. لا أحد يريد أن يعرف ذلك. أنا حانقة عليهما - على كذبة صداقتهما، على وعدهما الكاذب لي بعالم من الفن والحب - وبذات القدر أنا حانقة على نفسي، على أحلامي الغبية، على ثقتي الضائعة، على توقي الرخيص.

لكن حتى تكون حانقًا بحق، غاضبًا بروح منتقمة إجرامية، فعليك أن تعيش. ما عدت يافعة، جميلة، محبوبة، ولا حتى لطيفة، بل بت في هذه اللحظة عارية عن كل أقنعتي، أتلوى ألمًا على الأرض أمام عينيك وأعين الجميع في أكثر لحظاتي إذلالًا، وكم ستغدو الحياة من بعد هذه اللحظة مفتوحة على المدى أمامي، فمن يدري ما بيدي فعله الآن؟ قد أصور غضبي وأبيعه، وقد أنزع بيديَّ العاريتين عدة أقنعة، أهزم الأوغاد الحقيرين في لعبتهم، وفي الطريق سأغدو من أكثر الفنانات اللعينات شهرةً في أميركا، فقط من باب النكاية. لا تدري، لا تدري. الغضب مضطرم فِيّ حد إشعال النار في أي بيت أصادفه في طريقي، فقط بالنظر إليه. غضبي بات عصيًّا على الكبت، لن يقبل بعد اليوم بتكديسه وإعادة تصنيعه لأغراض لطيفة. طفح بي الكيل من وجودي في الطابق العلوي. غضبي ليس بغضب شخص ضعيف، غضب فتاة لطيفة، ابنة بارة. غضبي عملاقٌ مخيف. غضبي تمثالٌ عظيم. أنا غاضبة حدَّ إدراكي السبب وراء صفق إميلي ديكنسون الباب في وجه العالم بأسره، السبب وراء خيانة أليس نيل أطفالها رغم محبتها العظيمة لهم. غاضبة حدَّ رؤيتي الدافع وراء سير فيرجينيا وولف نحو النهر حاملةً الصخور في جيوبها، حتى وإن كان غضبها لا

يشبه غضبي في شيء. فرجينيا وولف، في غمرة غضبها، ما عادت تخشى الموت؛ لكني غاضبة بما فيه الكفاية، وأخيرًا، إلى الكف عن الخوف من الحياة، وغاضبة بما فيه الكفاية - أخيرًا، بمشيئة الرب، حاملةً غضب أمي هي الأخرى على كتفيّ، غضبٌ يستعر مشتعلًا في صدري كما نيران الشمس المضطرمة - حدَّ أني لن أموت إلا وقد عشت حياتي اللعينة كما أريد وأشتهي.

سترى.

كلير مسعود روائيّة أمريكية من أصول جزائرية. حازت على زمالتي Guggenheim و Radcliffe وعلى جائزة Strauss Living Award من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، ووصلت مرّتين إلى نهائيات جائزة PEN/Faulkner Award. كتبت ستّة أعمال روائية من بينها "المرأة في الطابق العلوي" و"أطفال الإمبراطور" و"الفتاة التي تحترق". تهتمّ في رواياتها بالحيوات التي لا تجري وفق ما خُطّط لها، والقصص التي يشكّلها الناس لأنفسهم كي يُكملوا حياتهم وعلاقاتهم بعد ذلك.

إيمان أسعد، روائية أردنية مقيمة في الكويت، صدر لها رواية "زينب والخيط الذهبي" عام 2014. حاصلة على شهادة الماجستير في الدراسات الأمريكية من الجامعة الأردنية عام 2005، وعلى شهادة البكالوريوس في تخصّصي علم الحاسب الآلي والأدب الإنجليزي من جامعة الكويت عام 2003. ترجمت إلى العربية رواية غراهام سويفت "الطلب الأخير" ومارغريت آتوود "السفاح الأعمى".

المــرأة في الطابق العلـوي

«هذه هي طبيعة المرأة في الطابق العلوي. نعض على النواجذ. نلم شتات أنفسنا، لا نخلق فوضى ولا نرتكب الأخطاء ولا نتصل بالناس نعوي وننوح في الساعة الرابعة فجرًا. لا نكشف الأسرار حتى لو لم يكن لائقًا بنا الاحتفاظ بها. نبلغ سن الأربعين مستهزئات، نطلق النكات عن احتياجنا إلى كؤوس المارتيني وأن الأربعين هي النسخة العصرية من الثلاثين، ولا نصرح جهرًا، لا نحن ولا البقية، بما يجول فعلًا في خواطرنا: هكذا إذن، لا أظنها ستحظى يومًا بأطفال!»

نورا إلدريدج، امرأة أربعينية يثق فيها الجميع، لكن لا يلاحظها أحد، كأنها غير مرئية، فلا تتواجد سوى في هامش نجاحات الآخرين. تعيش دور الصديقة الحَنون والجارة المُنجِدَة، والمعلّمة المتفانية، والفنانة التي تؤجل مشاريعها دومًا. لكن وصول عائلة شاهيد – إسكندر، الأكاديمي اللبناني، وزوجته سيرينا، الفنانة الإيطالية، وابنهما رضا – يأخذها إلى عالم آخر مُثير ومُعقّد. سعادة نورا تدفعها لتخطّي حدودها، حتى تصطدم بطموح سيرينا الفنّي الذي لا يتورّع عن فعل أي شيء مهما كان دنيئًا، فيحدث ما لم تتوقعه نورا في حياتها كلها، وتشعر بما لم تشعر به من قبل: الغضب.

«تُصرّ الروائيّة على اكتناه حالة نفسيّة معقّدة قلّما كُتب عنها بهذه البراعة»
The New Yorker

«استقصاء حادّ لطبائع الجشع والارتزاق التي تستأثر بالفنان في لُجّة خلقه عمله الفنيّ»
The Wall Street Journal

Cover artwork: Eleven AM, 1926, by Edward Hopper (1967-1882), oil on canvas. United States of America, 20th century., Hopper, Edward (1967-1882) / Hirshhorn Museum & Sculpture Garden, Washington D.C., USA / De Agostini Picture Library / Bridgeman Images
Cover design: Diana Chamma

9 789948 386070

روايات
REWAYAT